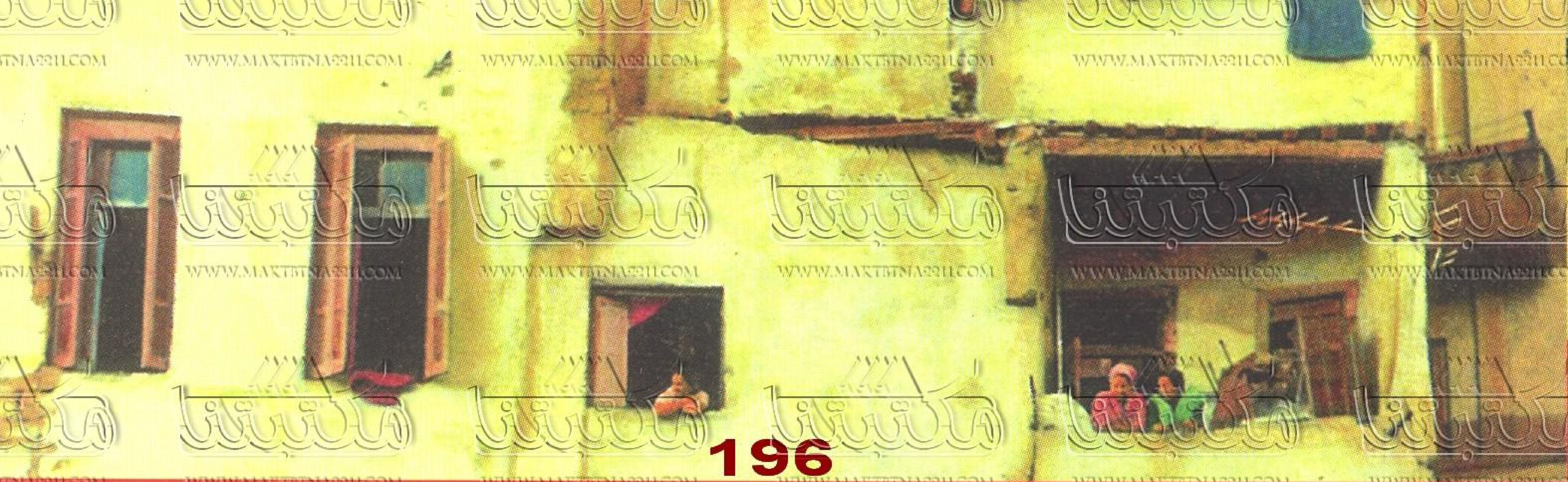

196

خيري شلبي

صحراء المماليك

رواية

دار الشروق

Ahmed Mady

http://www.maktbtna2211.com/

صحراء المماليك

«... تحت مظلة انتظار الأتوبيس تعرَّف ناس على ناس، قامت علاقات وصداقات أدت إلى مصاهرات وافتتاح مسارات جديدة لأكل العيش فى مشاريع تنشأ فى الحال. ربما فى وقفة من الوقفات. بين واحد يبحث عن كفاءة وواحد يملكها، بين باحث عن محل ومن يدله على أكثر من محل؛ ولربما يكون المحل الجديد فاتحة خير على المرشد والمالك والمستأجر، ولربما وجدت أنت بين الواقفين معك من يصلح لك الكهرباء أو السباكة أو تركيب ورق الحائط أو تقفيل البلكونات أو تجهيز مطابخ بالألوميتال.. كل ذلك حتى دون أن تسأل؛ يكفى أن تستمع إلى حوار يدور بين اثنين أو أكثر بجوارك مباشرة؛ ما أسهل أن تتدخل فى الحوار بصنعة لطافة؛ المجال عند المصريين مفتوح على طول الخط يسمح لعابرى السبيل أن يصيروا أصدقاء فى لمح البصر على أثر كلمة أو قفشة أو غمزة أو نكتة أو لمسة خير أو دقة جدعنة».

خيرى شلبى أحد أهم كُتَّاب الرواية فى العالم العربى، وحائز على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٥. له أكثر من ٧٠ كتابا ما بين الرواية والقصة والمسرحية والدراسة، من أشهرها: «وكالة عطية» و«صالح هيصة» وثلاثية «الأمالى» و«زهرة الخشخاش» و«نسف الأدمغة». وترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية والكورية والأردية.

6 221102 021678

دار الشروق
www.shorouk.com

WWW.MAKTBTNA2211.COM

المكتبة القومية الحديثة
توكيل مؤسسة الأهرام وصحف ودور النشر بالجمهورية
طنطا / شارع القاضي / تليفون ٣٤٩٠٦٩

صحراء المماليك

WWW.MAKTBTNA2211.COM

خيرى شلبى

صحراء المماليك

رواية

دار الشروق

كـــربــــاج ورا

* من سوء حظى أنه ألقى بهذه الشخصية البشعة فى طريقى فكانت كأنها طلعت لى فى لعبة البخت فإذا هى تفرض نفسها فرضا على حياتى فلا أستطيع الفكاك منها بأى حال من الأحوال .

لم أكن أود معرفة هذه الشخصية بل تجنبتها من أول وهلة حتى قبل أن أعرف عنها أى شىء . شكلها كان منفراً لى ، يثير اشمئزازى فأتجنب النظر إليها كلما التقيتها فى نفس المكان الذى طلعت لى فيه أول مرة . . ولم أكن أدرى أننى بإمعانى فى تجاهلها قد استفززتها وأثرت رغبتها فى اقتحامى بإصرار ، لتضمنى إلى الجوقة البلهاء التى تحتفى به وتغالى فى مداهنته وتملقه بشكل يفقع مرارتى حتى قبل أن أعرف علام كل هذا الاهتمام بمثل هذا التصاغر والتدنى رغم أن مظهره ليس يشى بأية أهمية ، بل إن الشخصية تبدو «دلعةً» مائعة ، حتى وجهها مثل قرش برونزى ممسوح الكتابة قد غطته طَبَقة من الجنزرة والصدأ أضفت على سمتها سماجة غير محتملة .

الأكثر مدعاة للغرابة والسخرية أنى لم أكن أتصور أننى يمكن أن أستسيغه فى يوم من الأيام بله أن يصير صديقى وتصبح صداقتنا ـ وهى

مستحيلة تمامًا - حديث كل الناس فى المحيط الذى نعيش ونتحرك فيه . وحقيقة الأمر أن ذلك المأفون كلبشنى واقتادنى - مخدراً بولع الفضول الصحفى - إلى التورط فى مواقف شديدة الخرق كادت تدمر إنسانيتى ، بل كادت تودى بى إلى الجنون .

الفصل الأول

١

التقسيم

الضاحية الجديدة التى اضطررت إلى السكنى فيها كانت تبعد عن مدينة القاهرة حوالى ثلاثين كيلومتراً فى موقع ذى خصوصية مستقبلية تمنحه الهدوء والعمران معًا، فمن فوقها مدينة حلوان، ومن تحتها ضاحية المعادى، وعلى يمينها نهر النيل وعن يسارها جبل المقطم، على وجه التحديد إحدى هضابه العالية منتجع علية القوم، وتسمى: تقسيم صحراء المماليك . .

لم تكن قد اكتملت بعد، إلا أنها كانت عدداً لا بأس به من عمائر متناثرة ضمن تقسيمات تحددت معالم شوارعها وميادينها وتقاطعاتها ومدارسها؛ لكنها عمائر عشوائية الذوق لا هندسة فيها ولا جمال اللهم إلا بعض ألوان خارجية زاعقة، بعضها من طابق واحد ذى شرفات يحيطها سور مزروع، بعضها الآخر من خمسة أو ستة طوابق ببلكونات داخلية مختصرة من مساحات الشقق التى تبدو كالعلب المحكمة؛ بعضها الثالث بلوكات لمساكن شعبية صرفة؛ ثمة مساحات مسورة يجرى فيها البناء على مراحل بطيئة إذ كلما جاءت فلوس من

العيال الشغالين فى العراق وليبيا والخليج العربى ينشط أهلوهم بإقامة طابق أو رمى أساس أو تمحير أو تخشيب . . كانت ضاحية أشبه بالمنفى القاحل ؛ إن أردت سوقا سافرت إلى أقرب حى فى العمران ؛ دكان البقالة الوحيد تمشى إليه مشواراً مرهقًا وسط طرق مكلكعة ورمال سمجة وبقايا زلط وأسمنت وحديد تسليح وقصاع وكتل مرمية على الأرض على شكل أجولة وشكائر وكثبان رمل وقمامة ؛ لكنك حين تنطبش فيها وتدوس فى قلبها تفاجأ بأنها كائنات حية تصرخ تتألم تسبُّ تشتم الأم والأب لكنها تتسامح برغم الإصابة وتدعك تمر إلى حال سبيلك ؛ إنهم خفراء وحراس وأنفار . . فإن وصلت إلى دكان البقالة الموصوف لك وجدته محلاً كئيبًا خابى الضوء فقير الحال ؛ فى الغالب لن تجد عنده ما تطلبه . . خير لك إذًا أن تعمل حسابك قبل أن تدخل الضاحية بحيث تضمن سجائرك وخبزك ومعلباتك وكافة احتياجاتك اليومية الملحة ؛ ثم عليك أن تعود مبكراً بقدر ما تستطيع قبل أن يجن الليل فتُجنّ زوجك وسط هذا الفراغ المظلم المحاط بصحراء المماليك من جميع الجهات ، خاصة أن الطاقة الكهربية الهزيلة التى بالكاد تضىء المساكن كثيراً ما ينقطع تيارها لأوقات تطول أحيانًا إلى عدة ساعات يتعطل خلالها التليفزيون والراديو والثلاجة فيتعرض للتلف ما دخنا فى شرائه من لحوم وخضروات وبيض وجبن وأدوية . .

النزول إلى القاهرة مشكلة حقيقية . أما العودة منها ـ فى الليل بوجه خاص ـ فتكاد تصل أحيانًا إلى حافة المأساة . خطان اثنان فقط من خطوط هيئة النقل العام يربطان هذه الضاحية بمدينة القاهرة ، أحدهما يأتى من ميدان رمسيس فيسلك الطريق الزراعى فيلف سبعة أركان

الدنيا حتى يصل إلى ضاحيتنا ثم يلفها عودا على بدء، يقطع المسافة فى ساعتين كاملتين فى كل من الذهاب والعودة. ركوبه نوع من الانتحار البطىء؛ فحتى لو ذهبت لتركبه من محطته الرئيسية فى رمسيس فلن تجد كرسيا تجلس عليه، إما لأن هناك من تربص به فى طريق العودة وضحى بثمن تذكرة ركوب ليرابط أمام كرسى حتى يتركه شاغله فيحتله، وإما لأن الهجوم الغوغائى الكاسح بل الوحشى سوف يدفنك تحت السيقان والأقدام ويدهكك بين الأجساد الزنخة العرقانة؛ حينئذ إن وجدت لجسدك أية حَشْرَة على أى نحو فلتلذ بها ولتبق هكذا مصلوبا رافع الذراعين بقبضتين متشبثتين بالقضيب الحديدى كل حواسك منصهرة فى التركيز فيما قد يلحق بك من خلف ظهرك من هوان أو استلاب، وفيما قد تقاد إليه من إلحاق الأذى والهوان بجسد لا تملك إلا أن تندفن بين شقيه رغما عنك تميل فوقه بكل ثقل المائلين فوقك ويرتدّ مائلاً فوقك بكل المستريحين فى قعدتهم مع أنها أقذر راحة ينالها بشر، إذ إن جحافل المتربصين بالأتوبيس، الذين أنفقوا من أعمارهم ساعات مملة فى انتظاره تحت قيظ الشمس أو هاطل المطر، يتدافعون من الباب والشبابيك كيفما اتفق يحدفون أجسادهم فوق الجالسين؛ يتكرر ذلك على امتداد ثلاثين محطة جمعت بين الشرق والغرب لدرجة أن ساكنى ضاحيتنا - التى أنشئ هذا الخط لخدمتها فى الأساس - هم آخر من يستفيد منه لأن الأتوبيس لا ينى يمتلىء - بكل من يريد الخلاص من طول الانتظار على المحطات الفرعية. أما الخط الثانى فمحطته الرئيسية فى ميدان التحرير، يسلك طريق الكورنيش مباشرة حيث يندر وجود محطات فرعية؛ لذلك يقطع المسافة فى حوالى تسعين دقيقة أو نحوها؛ عرباته دائمًا أنظف وأمتن من عربات الخط

الزراعى، كراسيه سليمة غير مبقورة البطون ولا المساند، حتى سائقوه وكمساريوه أروق شكلا على شىء من اللباقة والأدب والحياء، ليس ثمة من مشاحنات على الفكة أو بسبب استرابة الكمسارى فى شخص لم يقطع تذكرة. لهذا فأنا وجميع من تعرفت عليهم من سكان الضاحية المهمين من وجهة نظرى نفضل ركوب هذا الخط حتى وإن اضطررنا إلى انتظار عربته ساعات طوال..

عدد عربات الخط أربع فقط. من طول العشرة بيننا وبينها أصبحنا نعرف مواعيد قيامها من ميدان التحرير بالدقيقة ومواعيد وصولها إلى الضاحية، فنوفق مواعيدنا تبعًا لها، نقدِّر بالتقريب متى يمكن أن نلحق بها فى محطة الملك الصالح أو محطة روز اليوسف بشارع القصر العينى؛ لكنها كثيرًا ما تخذلنا، تجعلنا نندم على قعدة أحباب قطعناها لكى نلحق بها؛ تبوخ مشاعرنا، يتبخر منها ومن أدمغتنا كل ما شحنت به قبل قليل من دفء هو فى حقيقته جوهر ثمين لا يعوض؛ تنسحق الإنسانية تحت وطأة الانتظار؛ الليل يزداد سخفا وغثاثة فى العراء، نسائمه موحشة كأنها زفير شيطان خبيث؛ عربات التاكسى مطفأة العلامات مجنحة إلى أقصى الشمال فى ازورار عدوانى متوجس فى آن، الملاكى تمرق كالقذائف المزغردة فى نزق كأنها تكيد لكل راجل وواقف على نار الانتظار، يتجدد الأمل فى الحياة بين حين وحين يقصر أو يطول مع كل عربة أتوبيس قادمة من بعيد بفوانيس كابية الضوء كالعيون الرمداء، يستدعى المنتظر إلى بصره الكليل كبصرى بصيرته المعتمدة على الخبرة بأشكال الأرقام ضارعا إلى الله أن يكون رقم خط الكورنيش الذاهب إلى ضاحيتنا هو هذا القادم العصى على الوضوح،

ما أن تتأهب العين لالتقاط الرقم حتى يكون الأتوبيس قد مرق بسرعة يصفعك هواؤها بغلظة ترميك بعيداً معفرا بالأتربة. أنت وحظك؛ فحتى لو كنت قادراً على دفع بنديرة التاكسى وهى باهظة بحكم طول المشوار فإن التاكسى الذى يقبل سائقه أن يدخل بك فى هذه الضاحية فى هذا الوقت المتأخر من الليل لم يُخلق بعد. مع ذلك لا مفر من التضحية، تاكسى بالنفر إلى أقرب منطقة عمرانية، ولكنك فى النهاية وبرغم التضحية لا بد أن تمشى على قدميك مسافة مهلكة للبدن وللنفس وللكرامة؛ لسوف تمشى فوق ألغام ومخاطر، يتحرش بك لص أو خفير أو شرطى سمج أو على الأقل يهاجمك كلب عقور. . وإذاً، فعلى الساكن فى ضاحيتنا أن يتفرغ لاقتناص العربات ذهاباً وعودة وليذهب العمل إلى الجحيم. .

مع ذلك لا أحد يدرى كيف تستأنف الحياة أصبحتها لتمضى إلى أمسياتها كأن شيئًا لم يكن بالأمس. كان الواحد منا كلما أوشك على الاختناق فى المعاناة مع المواصلات والخدمات وبدأ يفكر جديًا فى ضرورة الرحيل التقى واحداً من أحبابه أصدقائه زملائه لم يكن يتصور أن يراه فى هذه الحتة المقطوعة فى يوم من الأيام فإذا به يكتشف أنه استأجر أو اشترى شقة أو بنى بيتا فى هذه الضاحية بل ربما يكتشف أنه أقدم منه فيها. ثم إن الضاحية كانت فى كل يوم تكتسب إضافة جديدة قد لا نلحظها إلا بعد تراكم الإضافات. . شيئًا فشيئًا بدأت الشوارع تتشكل بالأبنية الكثيرة، كثرت المبانى الجميلة الفخمة؛ بدأت لافتات النيون تتكاثر معلنة عن صيدليات وعيادات أطباء ومكاتب محامين ومحلات وشركات ومقاه ومطاعم وترددت فى الشوارع أصوات

دقات المفتاح القلاووظ فوق أنابيب البوتاجاز فوق سيارة جوالة توصل الأنابيب إلى من يطلبها؛ ازدانت الشوارع العمومية والفرعية بالفتارين المضيئة تحوى معروضات جذابة من ملبوسات ومأكولات ومشروبات وأدوات منزلية؛ جرت الشاحنات والعربات الملاكى وبعض التاكسيات من حين لآخر . . ولكن مشكلة المواصلات بقيت مشكلة بل ومحنة أحيانًا لكل من يرتبط بعمل فى مدينة القاهرة يتطلب النزول كل يوم؛ فكان على الجميع أن يتحلى بالصبر وطول البال فى انتظار عربات خط الكورنيش ذهابًا وعودة، وأن يذهب إلى المحطة مبكرًا بقدر ما يستطيع . .

وهكذا باتت محطة الضاحية التى يلتقى عليها الخطان : الكورنيش ٤١٢، والزراعى ٤١١، أشبه بحائط للمبكى، عنده يلتقى أرهاط من المتذمرين حتى من قبل خروجهم من بيوتهم، كأنهم لا يأتون هنا لركوب الأتوبيس بل لتطارح الشكوى والضجر والسخط، لكأن المحطة خشبة مسرح يحلو لكل من يقف عليها أن يلقى بيانه الخاص منفسا عن غضبه وانفعاله كأنه يفترض أن مسئولاً يعينه على كل ما فى الحياة من أوجاع موجود هاهنا وينبغى عليه أن يفضى إليه بكل ما ظل طول الليل يئن منه! . . وحتى الأفراد القلائل الذين ينأون بأنفسهم عن الثرثرة سرعان ما ينضم بعضهم إلى بعض ويندمجون فى ودودة هى فى الغالب نفس اللواعج وإن بصورة أعقل وأكثر إيجازاً . . كل ذلك فى النهاية مجرد مقاومة للملل وقتل للوقت فى انتظار الأتوبيس.

٢
مظلة الحصير

المحطة كانت فى منتصف الضاحية تقريبًا، إلا أنها ـ لحسن حظى ـ كانت قريبة جدًا من العمارة التى أسكن فى شقة هى الطابق الأرضى منها باعتباره الطابق الوحيد المؤهل للسكنى أما الطابقان العلويان فمجرد أعمدة خرسانية تنتظر فلوس صدام حسين يبعثها عيال صاحب العمارة الثلاثة الذين يفترض أنهم سوف يرحلوننى من هذه الشقة بعد اكمال البناء واستقرار العيال فى مصر ليسكن كل منهم فى شقته المبنية باسمه وبفلوسه. بينى والمحطة مسافة تستغرق عشر دقائق سيرًا على قدمى..

تتوسط المحطة فضاءً كبيرًا تنفتح عليه عدة شوارع وحارات معظمها من الأبنية الفخمة. هى عبارة عن كوخ من الخشب لا تزيد مساحته عن مترين فى مترين، له باب جانبى، وشباك مفتوح على مساحة مربعة تمتد أمام الكوخ تحت مظلة من حصير ينطرح فوق أربعة عروق خشبية مدكوكة فى الأرض فى أربعة أركان هذه المساحة التى يمكن أن تتسع لوقوف ما يقرب من خمسين شخصًا؛ وهى مرتفعة عن الأرض برصيف يمنع الأتوبيس عن الاصطدام بالجمهور المنتظر إذ إنه عند

دخـوله يلف دائرة كـاملة ليـقف بحـذاء الرصـيف مـعتـدلا فى اتجـاه العودة . .

هذا الكوخ الخشبى كـان قائمًا ها هنا منذ حوالى خمسين عـامًا، حيث يمتد بحذائه خط سكة حديد القطار الحربى الذى أقامه الاحتلال الإنجليزى لينقل الأسلحة والذخائر يربط بين حلوان وقشلاقات الجيش الإنجليزى فى العباسية مخترقًا صحراء المماليك سالكًا أحشاء جبل المقطم من سفوحه الوعرة؛ وكـان هذا الكشك مخصصًا لخفير الدريسة حيث يوجد ها هنا مزلقان؛ فلما بطل استخدام هذا القطار فى أواسط ستينيات القرن العشرين إلا فى حالات نادرة لم يعد للخفير لزوما سيما وأنه بات لا يجـد من يدفع له راتبـه، ثم إن قـضـيب القطار قـد وورى التراب عند هذا المزلقان وسُرق حديده فى مواقع أخرى، استولت هيئة النقل العام على هذا الكشك ليكون مقرًا لناظر المحطة باعتبارها نهاية لخطين مهمين . .

ينزل كل من السائق والكمسارى، يتجه السائق إلى نصبة الشـاى التى يقيمها الواد صلاح وراء الكوخ، فيما يتجه الكمسارى إلى شباك الكوخ، يعطى المانيفستو - بيان خط السير - إلى ناظر المحطة محـمد شعبان، الذى يسجل له فيه ميعاد وصوله وموعد تحركه من المحطة فى طريق العودة، ثم يراجع معه أرقام التذاكر ويدون آخر رقم وصل إليه التوزيع فى هذه «الفَردة» أو تلك؛ عندئذ يكون السائق قد ظهر حاملا كـوبيتين من الشـاى، يصـعـدان إلى الأتوبيس كل واحـد من باب، مـا يلبث الأتوبيس حتى ينطلق عائدًا إلى رمسيس أو التحرير . .

تحت حصير هذه المظلة البدائية التى أضفت على باحة المحطة مسحة

فولكلورية ريفية طريفة، تساوت رءوس كثيرة بين مدراء ووكلاء وزارات وصغار موظفين وعمال وسعاة وباعة بملابس زفرة، جميعهم يقفون جنبا إلى جنب فى انتظار نفس الأتوبيس يعانون نفس العناء، وعند وصول الأتوبيس يقتحمه الجميع بنفس الغوغائية نفس الهمجية المتكالبة على احتلال أى مقعد بأى شكل، لا فرق بين جاهل ومتعلم، ابن ناس وابن شوارع، الكل سواسية حتى وهم يتلقون سيلا من التهزىء والمسخرة من السائق، والمقلتة وربما الشتم من كمسارى فاض به الزغد والدفع والصراخ فى الناس بأن ينزاحوا داخل العربة مع أن العربة من فرط ما تعج به من لحم بشرى لم يعد لها داخل من خارج. كل واحد يدفن نفسه ذاته الفردية فى كائن خرافى يسمى الجمهور حتى يكون السب والشتم والهوان لاحقًا بهذا الكائن الجمهور! حتى وهم يخضعون بكل خنوع وذلة لسادية السائق والكمسارى حينما يغضب أحدهما من أحدهم لأى سبب من الأسباب فيركن العربة جنب الرصيف فى منتصف الطريق قائلاً بكل بساطة: العربية خربانة يا أفندية!.. قد يظلون قابعين فى أماكنهم فى صمت الكلاب المزجورة فى انتظار أن يرجع معذبهم فى كلامه ويستأنف السير بهم؛ فى سبيل ذلك قد ينبرى نفر منهم فى شتم من تسبب فى هذا العطل، يمعنون فى استرضاء السائق بكل ألوان المداهنة والتذلل والخنوع قائلين له: يا أسطى باشا، ويقللون من قيمة أنفسهم فى نظره بقولهم: لو سمحت ترمينا أو تحدفنا فى سكتك. وقد لا تنفع كل هذه التنازلات مع سائق مريض ابن سفلة لم يعرف التربية فى حياته إذ يغادر السيارة ويختفى، عندئذ يبدأون فى النزول مثل كتل مخوخة من منزل آيل للسقوط منذ أزمنة بعيدة وها هو ذا يتهدم وتتناثر أنقاضه على قارعة الطريق..

تحت هذه المظلة أيضًا تعرَّف ناس على ناس، قامت علاقات وصداقات أدت إلى مصاهرات وافتتاح مسارات جديدة لأكل العيش فى مشاريع تنشأ فى الحال - ربما فى وقفة من الوقفات - بين واحد يبحث عن كفاءة وواحد يملكها، بين باحث عن محل ومن يدله على أكثر من محل؛ ولربما يكون المحل الجديد فاتحة خير على المرشد والمالك والمستأجر، ولربما وجدت أنت بين الواقفين معك من يصلح لك الكهرباء أو السباكة أو تركيب ورق الحائط أو تقفيل البلكونات أو تجهيز مطابخ بالألوميتال . . كل ذلك حتى دون أن تسأل؛ يكفى أن تستمع إلى حوار يدور بين اثنين أو أكثر بجوارك مباشرة؛ ما أسهل أن تتدخل فى الحوار بصنعة لطافة؛ المجال عند المصريين مفتوح على طول الخط يسمح لعابرى السبيل أن يصيروا أصدقاء فى لمح البصر على أثر كلمة أو قفشة أو غمزة أو نكتة أو لمسة خير أو دقة جدعنة . . فجأة تجد نفسك تحت مظلة الانتظار قد سحت فى الجميع صرت مجرد ظل مجرد صوت فى لغط حول موضوع عام يتكلم فيه الجميع فى آن واحد مفترضين أن الجميع قادر على أن يسمع ويتكلم فى آن معًا! . . فى طرفة عين - مثل لقطة السينما بالضبط - تجد نفسك قد استقطبت إلى دائرة ضيقة، فى الغالب ممن هم أقرب إليك من غيرهم، سرعان ما تزداد الدائرة ضيقا على من تجمعهم حميمية واحدة . . مثلى أنا أو مثل صديقى وزميلى الصحفى معتز الأقصرى، لا يحدث مطلقًا أن يرى أحدنا الآخر تحت مظلة المحطة ولا يذهب إليه مباشرة حتى وإن ملتحقا بدائرة من الأشخاص، فأن يأتى أحدنا والأمر كذلك لا بأس من انضمامه إلى الصحبة إلا أن ما بيننا من مشترك كثير لن يلبث حتى يعزلنا بالضرورة فى حوار جانبى شديد الخصوصية لا يعنينا أن يكون

الآخر المحاذى لنا قد فكّ شفرة عباراتنا المجازية أو غمضت عليه فانصرف عنها . .

صديقى وزميلى معتز الأقصرى خارج من السجن السياسى بعد حبس طال ما يقرب من تسع سنوات باعتباره من الكوادر الماركسية المهمة التى تصادمت مع ثورة يوليو ، قد أفرج عنه ضمن مجموعة كبيرة من الرفاق عادوا جميعًا إلى مواقعهم الصحفية فى جريدتى الأخبار والجمهورية وكان معتز من أبناء مؤسسة الأخبار فعاد إليها محللاً سياسيًا متخصصًا فى السياسة الخارجية . كان قد تجاوز الخمسين من عمره لكن شقاء السجن حسَّن من صحته فاحتفظ بقوام رشيق فارع الطول مهيب الطلعة وقور السمت منضبط المظهر بهارمونية لونية رصينة ومبهجة فى أن ، يحب الأناقة والعطر وتدخين البايب ، أراد تعويض ما فاته من بهجة الحياة واستقرارها فى غيبته وراء الأسوار ، فتزوج من فتاة عذراء جميلة فى حوالى العشرين من عمرها وهى ابنة أحد أصدقائه من أهم كوادر الحركة العمالية ؛ أحبته واقتنعت بشخصه ومبادئه ؛ استأجر لها شقة شديدة الفخامة فى العمارة المواجهة لمحطة الأتوبيس مباشرة ، زودها بفرش يليق بكاتب صحفى كبير من أسرة صعيدية ميسورة الحال كانت ولا تزال تتاجر فى الآثار .

يحلو لمعتز الأقصرى أن يشرب شاى الصباح فى شرفة شقته الكبيرة فى الطابق الثالث ، المطلة على ميدان المحطة مباشرة ، مرتديا كامل ثيابه الرسمية التى لا يحيد عنها مطلقا حتى فى صهد أغسطس لا يتنازل عن رباط العنق والسترة الكاسية ، ما أن يرى الأتوبيس قد دخل ميدان

المحطة بالفعل حتى يجرع الرشفة الأخيرة ويتأبط حافظة أوراقه وينزل . .

بعد عمارة معتز بعمارتين فى الاتجاه الأفقى يسكن صديق آخر هو الدكتور فايز دياب طبيب العيون الضابط فى القوات المسلحة برتبة كبيرة، فى الطابق الثانى فوق الأرضى فى عمارة مبنية على نظام ڤيلات فوق بعضها كل واحدة مكونة من طابقين بسلم داخلى . هذه العمارة تطل على الشارع المتعامد مع المظلة وشباك كشك الناظر، وهو شارع واسع جدًا يتفرع منه عدة تقسيمات لشوارع على الجانبين . فى مواجهة عمارة الدكتور فايز شارع جانبى عريض، على ناصيته من جهة المحطة مبنى يتضمن دار عرض سينمائى صيفية من داخل كافتيريا عائلية تعرض بروجرامًا متصلا، الدخول ليس بتذكرة بل بالمشاريب التى لا تقل عن خمسة جنيهات للفرد . على الناصية المقابلة لهذا المبنى بيت من طابق واحد مكون من ثلاث شقق لكل منها مدخل خاص يفتح على اتجاه مختلف ولكل شقة نصيبها من حديقة ملتفة حول البيت كله بسور شائك مزروع بالأعشاب؛ فى واحدة من هذه الشقق الثلاث يسكن العميد شرطة فهمى القزاز فى نفس الشارع، على مبعدة تساوى محطتين بيت جميل محندق تحيطه حديقة لطيفة وفى مدخله مظلة للسيارة؛ ذلك هو بيت صديقى الثالث وربما أستاذى الكاتب المسرحى الكبير بهادر أبو النور، الذى كثيرًا ما يكون المنقذ لى ولمعتز، حيث يطيب له أن يزحف بسيارته يتلكأ بها فى ميدان المحطة مدققًا فى وجوه الواقفين على المحطة لعله يرى واحدًا من أصدقائه يأخذه معه فى السيارة إلى ميدان التحرير أو إلى جريدة أخبار اليوم التى يكتب لها

عموده الأسبوعى الشهير (من الأعماق)؛ ما أجمل أن تلتقيه وأنت عائد مساءً، لكأنك عثرت على كنز، منها مرواح بالمجان فى قعدة بكوية معتبرة، ومنها دردشة ثقافية ممتعة مع رجل يعتبر من أظرف ظرفاء مصر فى زمنه؛ يستفيد من ظرفه بقدر ما ينجح فى توظيفه اجتماعيًا؛ إنه مثلاً - على اتساع شهرة اسمه الكبير - لا يتحرج من الوقوف فى طابور الجمعية الاستهلاكية وسط الدلالات والكادحات من نسوان العمال والموظفين والأجراء ليأخذ نصيبه من الزيت والزبد والسكر والفراخ والبيض والسمك المجمد واللحمة؛ بمداعبة لطيفة أو بنكتة طازجة يندس بين المواطنين فى موقع متقدم من الطابور فلا يتذمر أحد حتى صاحب الدور المغتصب ما يكاد يهبّ لإزاحة هذا الذى وقف أمامه حتى يفطن إلى أنه كثيراً ما قرأ لهذا الرجل ورغب فى مقابلته والتعرف عليه ففى الحال يستدرك قامعًا غضبه بابتسامة حرجة مغاليا فى الترحيب: إحنا زادنا شرف والله يا بهادر بك! ربنا يخليك وتمتعنا بمسرحياتك، ولربما يكون الأستاذ بهادر آخر من يدرك البضاعة قبل نفادها، عندئذ يقع فى حرج، ويفضل الخروج من الباب الخلفى رغم أنه سيبعده عن المكان المركونة فيه سيارته، درءاً لنظرات الحقد التى لابد سيتعرض لها وهو خارج من الباب العمومى حاملا على صدره كراتين البيض وأكياس الأرز والعدس وكل هذه الخيرات التى قصرت دون هذا الطابور الواقف من صبيحة ربنا، سيّما والأستاذ بهادر ينتقد نفسه بمرارة قائلاً لموظفى الجمعية وربما لنفسه أيضًا إنه إذا كان هو يأخذ من الجمعية غداء غد وبعد غد ففى هذا الطابور من ينتظر غداء اليوم، ولكن، لا يملك إلا رَفع كتفيه ومط بوزه أسفا على عجزه عن إصلاح الكون . .

على مقربة من بيت الأستاذ بهادر يسكن صديقى الرابع قمر الجداوى، الفنان التشكيلى الشهير، إنه رائدنا فى السكنى فى هذه الضاحية، لعله أقدم من الدكتور فايز دياب ببضعة أشهر؛ وكنا منذ سنوات بعيدة من منتصف ستينيات القرن العشرين نجىء إلى هذه الضاحية فى عدة سيارات لنسهر عند قمر الجداوى فى مرسمه ذاك الذى اختار له هذه المنطقة النائية ذات الهواء الجاف، ونظراً لحجمه الفنى الكبير منحته الحكومة حق الانتفاع بقطعة أرض فى هذا التقسيم أقام فوقها هذا المبنى البسيط المتين الجميل كتحفة فنية إذ يحتوى مرسماً وورشة نحت وقاعة كبيرة تصلح لإقامة معرض وإقامة حفلات؛ وفى سهرة من هاتيك السهرات أقنعنى قمر الجداوى بأن أبحث عن شقة فى هذه الضاحية وأن أتحمل مشقة بعدها ومواصلاتها فى سبيل الإبقاء على إنسانيتى المهدرة فى ضجيج المدينة وصخبها وجوها الملوث بجميع صنوف الجراثيم فإن كنت أنا صاحب مشروع فنى أو أدبى فلن يكتب لهذا المشروع حياة إلا فى منفى كهذا، إن استردادك لإنسانيتك وقدرتك من ثم على الاختلاء بنفسك والتعرف عليها جيداً هو مكسب ينسيك أية مشقة فى المواصلات أو فى تدبير المعايش فضلاً عن أن استقرارك النفسى سيرفع كفاءتك على تدبير المعايش وتدبير كل شىء بسهولة فائقة بل إن ما كنت تظنه أساسًا ورئيسًا فى أمور المعايش سيتضح أن ليس له ثمة من ضرورة حتمية؛ إن معظم الضرورات هى فى حقيقة أمرها محض ضرورات سلوكية اعتدناها فتمكنت أجهزتنا العصبية عليها وبات غياب شىء منها يحدث خللا فى هذه الميكنة. وكنت أظن أن قمر الجداوى يتفلسف ولكننى حينما سمعت كلاما يشبهه من الأستاذ بهادر الذى فاجأنى بأنه صاحب البيت المجاور لمرسم قمر،

ومن الدكتور فايز دياب ـ وكنت آنذاك محض زبون فى عيادته بشارع الفلكى ـ سمعت إطراءاً عظيمًا للضاحية التى سكنها، ومنه أيضًا أخذت عنوان صاحب البيت الذى سكنت فيه، وبواسطته أمن صاحب البيت جانبى فتعاقد معى على ألا يتقاضى منى أية نقود فيما عدا إيجار شهرين على سبيل التأمين فى مقابل أن أترك له الشقة ـ يوم أتركها ـ دون أن يكون لى حق فى طلب أى مقابل مادى . .

تلك المجموعة من أصدقاء مظلة الحصير كانت تلتقى من حين لآخر على المحطة فى فترة الضحى. معظمنا يصحو من النوم فى حوالى العاشرة صباحًا؛ بعد ساعة على الأكثر يكون واقفًا فى المحطة ينتظر العربة القادمة من أحد الخطين. فترة الضحى يقل فيها عدد المنتظرين. وكنت أنعى هم الوقوف على قدمى إذا طال الانتظار، أكاد أنتهى من قراءة الجرنان كله خلال وقفتى فى الأوقات التى يتصادف فيها وصولى إلى المحطة إثر قيام العربة مباشرة فيصيبنى الإحباط والكدر. . إلى أن تلامست ـ صدفة ـ مع ناظر المحطة محمد شعبان.

٣
مصيدة الكيف

عند الانتظار اعتدت أن أرتكن على جدار الكوخ تريحا لظهرى وقدمى وبخاصة حينما لا يلتقينى على المحطة أحد من الأصدقاء أو المعارف. وفى ذلك اليوم جاءت ركنتى بحذاء شباك الكوخ؛ حيث كان محمد شعبان لحظتذاك يقلب فى جريدة الجمهورية فيما يمسك بين أصبعيه سيجارة مشتعلة لاحظتُ أن زهرة رمادها متصلبة كبرية القلم وأن محمد شعبان يشد الأنفاس بعمق وشراهة. كان أسمر البشرة باسم الوجه، تقاطيعه صافية شفافة ممسوسة بشعور أصيل من حياء وأدب. علاقتنا إلى ذلك اليوم كانت على درجة كبيرة من الود والاحترام، أحييه بهزة رأس مبتسمة، يرد برفع يده إلى جوار رأسه رافعًا نفسه فى نصف وقفة نصف انحناء، كان بحكم العشرة اليومية قد عرف شغلة كل واحد ممن يترددون على محطته بانتظَام وديمومة؛ ليس جميعهم بالطبع بل النخبة ذات المظهر اللافت والسلوك الحسن واللسان السالك اللبق؛ كثيراً ما كان - دون قصد منه - يتابع اندماجنا فى المناقشات حيث نكون قد نسينا أنفسنا تمامًا وقلنا ما لا نستطيع قوله كتابة فى مقالاتنا أو فى الإذاعة والتليفزيون؛ قد نتكلم عن أوضاعنا الخاصة داخل

المؤسسات الصحفية التى نعمل بها فيعرج بنا الحديث إلى انتقاد رؤسائنا ورؤساء رؤسائنا، تتفرط الأسرار المهنية دون أن ندرى، ومحمد شعبان - ربما دون أن يقصد هو الآخر - يتابعنا بشغف وانبهار؛ يطيب له أن يشعرنا بأنه معنا على الخط مستوعب لمشاكلنا وأوجاعنا بوعى ملحوظ ولكن على طريقة: الكلام لك يا جارة؛ من خلال تعليقات عابرة يتفوه بها أثناء مخاطبته لسائقيه وكمسارييه، يقول ملحوظات فى صميم شغله بمفردات شغله ولكن بإيقاع صوت مسرحى يشخِّص غمزة يمرر بها رسالة إلينا تعنى أنه أكثر ضيقا منا بسياسة هذا البلد الذى لا يعرف العدل مطلقًا. المدهش أننا - معتز وأنا على وجه التحديد - كثيراً ما اكتشفنا فى تعليقاته العابرة تلك أنه يكاد يكون ملما بطبيعة نظام العمل فى مؤسساتنا وبنوعيات الصراعات الدائرة بين العاملين فيها من إداريين وفنيين ومهنيين أصحاب أقلام؛ بل إن تعليقاته العابرة كانت أحيانًا فى وزن مقال يكتبه واحد منا؛ كان تقريبًا يحمل نفس القناعات وإن بروح ثائرة سخنة وعاقلة مع ذلك، ويرى أن الصحافة المصرية نشرات حكومية ورؤساء تحريرها خدم فى معية السلطان، ثم ينفعل معقبًا بصوت عال وهو متكئ بمرفقيه على الطاولة فى فتحة الشباك فكأنه يخطب فى التليفزيون من وجهة نظرنا نحن الواقفين تحت المظلة، قائلا: إن الحكومة تعرف أن الشعب يعرف هذا وليس فى غيبوبة كما تتصور الصحف القومية والبطيخية لكن حكومتنا الرشيدة ضربت المثل فى الطرمخة والعمى والطرش..

- «أستاذ مروان!..»

ويدٌ طويلة الذراع تمتد من الشباك تلكزنى بلطف ومودة فى

ساعدى، ممسكة بالسيجارة المشتعلة التى لفتت نظرى منذ برهة وجيزة. فى عينيه نظرة ودودة مبتسمة دافئة أوقفتنى عن إبداء أى استهجان أو استنكار؛ إزاء ما فى عينيه من ضراعة ووجل حميمين لم أجد أليق من أن أمد يدى بكل أريحية وأتناول منه السيجارة رغم أننى كنت قد أشعلت سيجارة منذ هنيهة. ما أن أمسكت أصابعى بسيجارته حتى وقف هاتفا:

ـ «تفضل هنا يا مروان بك! تفضل والله!»

غادر كرسيه ليفتح الباب. دخلت؛ تنازل عن كرسيه النظيف ذى الحشية وجلس على الكرسى المستعار من صلاح صاحب نصبة الشاى. سحب الدرج، جعل يبرم الحشيش ويعبئ به السيجارة؛ سرعان ما لحقنى بسيجارة جديدة؛ مسح على شاربه الشبيه بالجعران وقد لمعت من تحته أسنانه البيضاء النظيفة وفى وسطها طيف مشبك ذهبى دقيق يربط بين ضرسين:

ـ «ما رأى سعادتك فى التعميرة؟»

ـ «ليست رديئة على كل حال!»

ـ «نفحة أعطانيها صديق عزيز!»

استدرك بعد نفسين:

ـ «يا أخى إنها خصلتى الغريبة: إن جاءتنى نفحة لا أحب حرقها وحدى! لو كانت من البريمو ودخنتها بمفردى تغمنى وتشوشر على دماغى! وإن كانت من النوع السكّة وشربتها مع صاحب تفرفشنى!.. الكيف مناقلة فعلا!»

أذكر أن الحوار لم يزد عن ذلك؛ لكنني أصبحت أنزل من بيتي إلى الكوخ الخشبي كأنني من موظفي هيئة النقل، حتى صلاح فسيخة صاحب نصبة الشاي أصبح ما يكاد يراني مقبلا من بعيد حتى يسحب الكرسي ويدخل به الكوخ، فيعرف محمد شعبان أنني وصلت؛ يجيء الشاي في كعبي؛ في جيبي دائمًا مفاجأة لمحمد شعبان وفي درجه مفاجأة لي: سنَّة أفيون، سيجارتان ملفوفتان. على امتداد جلستي توضع علبة سجَائري على طاولته مباحة له؛ وإذ يجيء الأتوبيس يكون أي ولد من طرف محمد شعبان قد اقتحم العربة قبل وقوفها ثم نَشَّن على الكرسي المرتفع وراء السائق مباشرة ليجلس في انتظار صعودي إلى العربة لحظة شروعها في التحرك حيث يسلمني الكرسي وينزل؛ وقد اعتاد مفتشو هيئة النقل العام أن يهزوا لي رءوسهم في دماثة أثناء مرورهم دون أن يسألني أحدهم عن تذكرة..

كثيرًا ما كنت أصل إلى الكوخ فأجد رجلاً يحتل المقعد الأساسي، ومحمد شعبان على المقعد الجانبي يؤدي عمله فوق ركبتيه بدلاً من الطاولة. الكوخ يتسع لثلاثة ولكن جلسة هذا الرجل تبتلع المساحة كلها إذ يرجع بالكرسي إلى الوراء حتى لا تضايق الطاولة كرشه المنفر. وكنت أستطيع رؤية ذلك من بعيد فآخذها من قصيره وأنزوي في وقفة بعيدة عن الشباك، في معظم الأحيان كنت أُحييي وأصافح عبر الشباك؛ وفي كل مرة يقف محمد شعبان ليقدم لي هذا الرجل في تبجيل وتفخيم:

ـ «فهمي بك القزاز!»

يكتفي من التعريف بالاسم المفرد العلَم مفترضًا أنني لابد أعرف

البقية وهذا ما كان يغيظنى ويوعز لى بالإمعان فى التجاهل كل مرة وعن قصد متلذذًا بعدم اهتمامى بأن يكون واصلا أو غير واصل. بصوت محايد: أهلا! ثم أنزوى إلى أن ينصرف هو أو يسعفنى قدوم عربة الأتوبيس..

شكل الرجل كان يصدنى: وجهه مستطيل كالشمامة الإسماعيلاوية أصفر مثلها برأس صلعاء على نحو غريب، يشق الصلع فى رأسه طريقا عريضًا مرصوفًا يلمع كالمرآة ويرفع الهواء خصلات هزيلة من الجانبين يتركها واقفة هائشة تلقى بظلالها فكأنها نباتات شيطانية كالحسك والحلفاء على جانبى الطريق فيداخلك الظن بأن عقارب وثعابين وربما قطاع طرق فى مخابئ بين فوديه الكثيفين الشبيهين بكثبان ملحية متشققة حنكه مفشوخ على الدوام عن ابتسامة بلهاء ما تلبث حتى تصير ضحكة عميقة إلا أن صوتها يتدفق داخل حلقه كصوت العواء؛ يتدلى فكه السفلى بأسنانه الناقصة ثلاث سنات من المنتصف، فيفقد القدرة على التحكم فى ضم شفتيه جيدًا، فتنثال الريالة على شدقيه فلا ينى يجففها بمنديل فى يده. لا هو بالطويل ولا بالقصير، قمىء، مكرش، عريض، يرتدى القميص الأبيض - دائمًا أبيض! - نصف كم على بنطلون أسود فى معظم الأيام. يبدو معجبًا بزنديه المبرومين، وذراعيه الأملسين؛ لكنه فى كثير من الأحيان يظهر مرتديا بدلة كاملة برباط عنق، ويجلس أيضًا على كرسى محمد شعبان ناظر محطة الأتوبيس..

ما يكاد يجلس حتى ينهال عليه الترحيب من كل حدب وصوب؛ سرعان ما يتجمع ناس حول الشباك؛ بعضهم يقتحم عليه الكوخ فى

عشم للمصافحة والاحتضان والتقبيل؛ البعض يضيف الدعاء؛ كل واحد يصافحه يطلب له فنجان قهوة، يصر، يقسم بأغلظ الإيمان، يناشده بالله وبالأولياء إلا ما قبل عزومته، فى حين أنه غير محتاج لهذه المناشدة بل يهز رأسه شاكرًا، ويشرب كل ما طلب له مهما كان كثيرًا. كنت ألاحظ أن همسًا كثيرًا يدور فيما بينه وبين صلاح فسيخة صاحب نصبة الشاى؛ وكان ذلك يستثيرنى، إذ ما الذى يمكن أن يكون بين رجل كهذا وشاب كحيان كهذا من أسرار مشتركة؟! ثم ما كنه هذا الرجل أصلا؟ من يكون؟ أهو نائب الدائرة فى مجلس الشعب؟ أيكون رئيس مجلس المدينة ونائب المحافظ؟ عمدة الضاحية؟..

الغريب أننى من فرط النفور لم أحاول أن أسأل عنه بل حاولت الابتعاد عن الكوخ كلما رأيته من بعيد يجلس فيه أو هو فى الطريق إليه..

حدث ذات ضحى أن لمحنى معتز الأقصرى - إذ هو يشرب الشاى فى بلكونته - واقفًا بحذاء الكوخ منزويًا عن الشباك لوجود هذا الرجل بكثافة تملأ إطاره، فنزل من البلكونة ليقف معى. أشعلنا سيجارتين وبدأنا نتكلم عن حرب الاستنزاف التى تشنها القوات المسلحة المصرية على وحدات ومنشآت حربية فى الجيش الإسرائيلى، فجأة تلفت معتز الأقصرى حواليه فى استرابة مرددًا خلال مزاحه الساخر الحاد:

- «أنا شامم ريحة شيا.. ط.. ين!»

حانت منه التفاتة للخلف، سقط بصره على ذلك الرجل السمج؛ إربدّ وجهه، ارتبك بشكل واضح؛ غمزنى فى ذراعى؛ جعل يدفعنى برفق إلى بعيد. غادرنا مربع المظلة؛ وقفنا بجوار «أبو الليل» الفكهانى

الفارش أقفاصه على الرصيف المقابل الذى يفوت الأتوبيس من أمامه وهو يدور ليدخل فى المركن . .

تلك كانت حالة الكثيرين من أصدقائى الماركسيين المتشككين على الدوام فى كل وجه جديد يرونه لأول مرة إذ لابد أن يكون فى تسعين فى المائة من الحالات مخبرا لدى جهاز أمن الدولة، وفى ثمانين فى المائة يكون مطلوقًا على هذا الشخص أو ذاك بعينه وحده؛ لكننى سألت معتز عن معنى هذا الذى حدث . . عندئذ تقبضت ملامحه فى قرف واشمئزاز، أشار بطرف سبابته نحو الكوخ قائلا فى غيظ وحدَّة :

ـ «شكله مخيف! مرعب! عيناه وقحتان!»

بعد برهة سألنى :

ـ «لا تعرفه؟»

ـ «أراه أحيانًا يمشى أو يركب الأتوبيس!»

دمدم بغيظ مكتوم :

ـ «الجميع يتملقونه هنا بشكل مستفز!»

قلت متلذذًا بالتسفيه والسخرية :

ـ «تلاقيه مقاولا للأنفار! ممن يسفرون المصريين إلى ليبيا والخليج للعمل هناك! هذا عصرهم يا عم! هو الوحيد الذى يمكن أن يّقَبِّل الناس قدميه من أجل عقد عمل فى الخليج!»

رجَّحت أن يكون هذا الرجل هكذا بالفعل، ولكننى فوجئت بمعتز الأقصرى يكزّ على أسنانه مدمدما :

ـ «يكفيك شرّه!»

ـ «تعرفه إذن؟!»

ـ «معرفة سوداء بعيداً عنك!»

ـ «لهذه الدرجة؟!»

ـ «إنه أسفل مخلوق على ظهر هذا الكوكب فى تصورى على الأقل! لا أظن أن فى الحياة من هو أحط منه!»

ـ «ما شغلته بالضبط يا معتز؟!»

ـ «كلب حراسة! مسعور! كان مأموراً لأوردى أبو زعبل! يسمونه مأمور التعذيب! يستعينون به فى الطوارئ! فى مواسم القبض على الوطنيين الذين يريد النظام السياسى إخضاعهم لمشيئته! كل فصائل المعارضة من شيوعيين إلى إخوان إلى سياسيين مستقلين لهم أراؤهم المضادة للنظام! . . هذا الكلب المسعور ميت القلب! يتلذذ بالتعذيب! يتفنن فيه بمزاج رائق ويمارسه بصبر ثلجى! فإن لم يثمر التعذيب الهادئ البطىء فى انتزاع اعترافات تم تجهيزها سلفا ويريدون إملاءها على السجين قسراً أو بالإيحاء يلجأ إلى العنف! يضرب بيديه حين لا يعجبه ضرب المكلفين بالضرب! . . ضرباته عمياء! بالمسوقة التخينة ذات البزوز المدببة يرمى بالضربة فتنزل على صرصور الأذن على العينين على القلب تنزل مطرح ما تنزل! . . بضربة من هذه الضربات العشوائية العمياء مات شهدى عطية! وبمثلها فقد الشاعر فؤاد حداد سمعه! . . بهذه المسوقة التى صنعها بيديه من فرع شجرة سنط

عتيقة فى مزرعة الأوردى تورمت أقدام رجال من أعظم من أنجبتهم مصر فى الاقتصاد والعلوم والسياسة والأدب والنقد والهندسة والصحافة والمحاماة!! أقل واحد فيهم ذو قيمة تتخاطفها الدول المتقدمة ولو كانوا فى بلد ذات حكومة تحترم نفسها وشعبها لأعطيت لهم مقاليد الأمور لكى يرفعوا من شأن البلاد يوصلونها إلى شاطىء آمن! لا أن يُزج بهم فى سجن ويُطلق عليهم كلب مسعور متوحش يذل كبرياءهم يهتك أعراضهم يقتلهم وإن بقيت منهم أجساد حية!! . . أف ف ف ف . . لو كنت أعلم أنه ساكن فى هذه الضاحية ما اقتربت منها أصلا! . . ماذا ترانى أفعل الآن وقد فوجئت بأن الكابوس المرعب الذى سوَّد حياتى وحياة الرفاق وكتم أنفاسنا من خمس إلى تسع سنوات كاملة لا يزال موجودا فى حياتى! هو لم يكن ليغادر ذاكرتى وعذاباته محفورة فى قلبى فى جميع خواطرى وهذا وحده عذاب أبدى كاف لتجفيف الكرامة فى نفسية الإنسان أما أن أصطبح به بين يوم وآخر فأنا إذن لم أخرج من السجن بعد! . . ولن أشعر بحريتى طالما بات من المتوقع أن أراه رؤية العين فى أية لحظة!! لا! لا! هذا مستحيل! من اليوم سأكلف صهرى بالبحث عن شقة فى حى بعيد!»

من فرط إحساسى بمحنته شعرت بكراهية شديدة لهذا البنى آدم؛ درجة حرارتى ارتفعت فجأة حتى جف ريقى. راعنى ما سمعته؛ أفزعنى منظر الألم المتفصد على جبين معتز تقطر به ملامحه؛ صوته المتفجع المتوجع الباكى جعلنى كالملتاث يهذى خيالى بصور غريبة

مفزعة ما كان من الممكن أن أتصور نفسى فيها مهما كانت الأسباب أو الانفعالات : طاف بخيالى أننى ممسك بنبوت قد رحت أتسلل على أطراف أصابعى ثم أغافل فهمى القزاز وأهوى بالنبوت فوق يافوخه بضربة واحدة؛ طاف بخيالى أن دماغه قد انفقشت وتطايرت نثارات من نخاعه وعلقت بالخشب الحبيبى لجدران الكوخ . . صرت أرتعش أكزّ على أضراسى أتشبث بقدمى فى الأرض . .

منزعجا قال معتز :

ـ «مالك؟ بردان؟!»

شعرت بصوت يخرج من حلقى ينوء بحمولة ثقيلة من الحنق والحقد :

ـ «أنا الآن أشدّ كراهية منك له! لدرجة أننى تمنيت الآن قتله بيدى! يخرب بيت أمه! لن أطيق رؤيته بعد الآن! لن أطيق هذه الضاحية برمتها!»

ـ «خل باااالكْ . . خل بالك! . . إحذر كل الحذر أن تشعره بأنك تحتقره أو تكرهه! هذه نصيحة أخوية مخلصة! لسوف يربطك بى لا محالة! سيورطك فى أى قضية دون أن تدرى! يكفى أن يزج باسمك فى أية قائمة من القوائم! وإلى أن تثبت العدالة أنك لا شأن لك بأى شىء ستكون روحك قد طلعت من التعذيب فى المعتقل! وتعرض زوجتك وعيالك للبهدلة على حصل فاضى!!»

قاطعته محنقا :

- «فماذا أفعل؟ أعزِّل من هنا! ليت التعزيل سهل!»

- «لا مفر من أن يعرفك وتعرفه بحكم الجيرة والضرورة! . . اجتهد أن لا يظهر عليك أى شعور يكشف رأيك الحقيقى فيه! . . تستطيع أن تتقى شره بلطف وذكاء ما دام قد طلع لنا فى البخت!!»

- «مهمة فى غاية الصعوبة يا معتز!»

- «حين يصبح مكتوبا عليك أن تحتك بالجلاد القاتل السفاح أو تعاشره أو حتى تقترب منه لا يكون أمامك سوى التقية! . . تلك هى ملاذ الشعب المصرى طوال تاريخه: يعرف كيف يتقى جلاديه ولكن لا يعرف كيف يواجههم ويقاومهم!»

- «لعله ترسَّخ فى يقينه أنه لا مقاومة تجدى مع الجلاد القابض على مفاتيح خزائن المؤن والأسلحة والأرزاق وأعناق الفتوات من رجاله!! . .»

- «لا مقاومة تجدى إلا بوعى جماهيرى قوى متماسك!»

- «ولكن العدوَّان اللدودان للتماسك والوعى الجماهيرى هما الجبن والعوز! . . هذان هما السوس الذى يفتت بنيان الجماعة بالخيانة أو بالتخاذل أو . .»

- «حدوتة طويلة مكرورة يا عم مروان! دعنا من سيرة ديك أم اللى خلفوه! إتفوه!»

منذ ذاك اليوم أصبحت أفعل كما يفعل معتز: أقف بعيداً جداً جنب أبو الليل الفكهانى . .

الغريب أن ذاك الرجل كان يلمحنى من بعيد عبر الشباك الذى يملأه بجسده المنفوش، فيرفع ذراعه ويحيِّينى. أتجاهل تحيته متشككًا فى أن يكون يقصدنى بالتحية وهو ليس يعرفنى جيدًا؛ إلا أنه لا يكف عن تكرار المحاولة باعثًا عينيه اللوزيتين الوقحتين لتغمرانى فى أم عينى قائلة إنه يقصدنى أنا بالفعل؛ فأفتعل ابتسامة وأرفع ذراعى بالتحية. .

ذات ضحى فوجئت به، بعد التحية بالذراع يلوح بيده أن: تعال! . . تجاهلت الحركة عن عمد بل حولت رأسى وفتحت حوارًا مع أبو الليل الفكهانى حول طريقته السحرية فى رصّ البلح الأمْهات بلحة بلحة على العربة ذات الأضلاع الزجاجية فى بناء أين منه بناء سور الصين العظيم؟ فما دريت إلا ويد غليظة تقبض على زندى؛ فتجمدت مفاصلى؛ من فرط الرعب دافعت عن كبريائى قبل انهياره بأن نظرت إلى القابض من فوق كتفى نظرة استهجان وتبكيت مشمئزة؛ قابلها بضحكة لزجة ممطوطة كالهواء، كأنه يطلق صوتًا يستعين به على رفع مائتى كيلوجرام من الحديد؛ ثم سحبنى برفق وبود مفرطين. . تأبطنى مقربا رأسه من رأسى فيما يضغط بأصابعه فوق زندى بقرصة ذات معنى يوحى بمفاجآت سارة؛ تدهورت أنفاسه الكريهة حول أذنى بكلمات كالفحيح:

ـ «أريد أن أهاديك!»

دفع بى داخل الكوخ؛ لحقنى صلاح فسيخة بصندوق فارغ من صناديق الكوكاكولا حشره بالقوة فى ركن بين الكرسيين فتنازل محمد شعبان عن الكرسى لى وجلس فوق حافة الصندق؛ صار الشارب الجعران يتقرفص على حنكه ذى البسمة الحيية الدافئة:

ـ «لماذا تقاطعنا يا رجل؟ المكان ضيق أى نعم ولكن قلوبنا أوسع! . . على كل حال فهمى بك القزاز دخل علينا الآن بهدية معتبرة! . . عَزّ عليه أن نشر بها وحدنا! صمم سيادته أن تذوقها! . . إنها من بزّ أمها من بريمو البريمو! . . شف! عاين على كيف كيفك! استمخّ!»

التعميرة بالفعل جيدة جداً حتى من شكلها وريحها العطرى الفواح على البعد؛ ثم إنها قطعة كبيرة يؤكد حجمها الكبير أنها سحت محض. استدرك محمد شعبان:

ـ «إنه خير كثير يأتى لفهمى بك من باب الله فلا يبخل علينا به ربنا يكرمه ويعلى مراتبه!»

قال الرجل فى أريحية بدت غريبة عليه:

ـ «لا أعط مروان بك حتة كبيرة يا شعبان!»

لباقة محمد شعبان بنت بلد صرف، أعطى القطعة لفهمى بك:

ـ «أعطه أنت سعادتك!»

بظفر إبهامه كسر الرجل قطعة فى حجم عقلة الأصبع قدمها لى:

ـ «خلها معك تتسلطن بها وحدك!»

ردّ البقية إلى محمد شعبان:

ـ «لف يا شعبان! دارى نفسك تحت لوحة المانيفستو!»

ـ «خلها على الله يا فهمى بك! نحن نجلس مع كبار البلد! أهى فوضى؟»

ـ «الاحتياط واجب!»

ـ «لا يهم سعادتك!»

رمقني بنظرة ذات معنى واضعًا يده على جيب صدره؛ فهمت مقصده فرميت له بعلبة سجائرى مطمئنًا لوجود أخرى فى حقيبتى. محمد شعبان أسرع من يلف السجائر؛ علبة عشرين كاملة رُشقت بفتائل الحشيش الطيب الغارق فى إدامه ودسامته احترقت كلها قبل وصول عربة الأتوبيس. يومها ركبت الأتوبيس بدماغ طائر فى الهواء يسابق الأرض الجارية من تحت النافذة؛ خلال اللوح الزجاجى الفاصل بين وجهى وظهر السائق رأيت ابتسامة تتمدد على شفتى بطعم السخرية؛ غلب عليّ الظن أنها سخرية من نفسى.. ذلك أن ذاك المدعو فهمى بك القزاز، الذى نفرت منه وعمدت إلى رفضه وتجاهله، بدا لى آنذاك شخصًا محتملا، بل قد يكون على شىء من الظرف والميل الشديد إلى المرح، بل والمرح العابث أحيانًا، إلا أن جسدى كان لا يزال يقشعر من ملامسته، وتقف ذائقتى دون استطعامه لشدة مزازته.

٤
سـيرة الأبعـد

رشقنى محمد شعبان بنظرة ملؤها الدهشة :

ـ «معقولة؟ لا تعرف ما شغلة فهمى بك القزاز؟!»

ـ «اعتبر أنى لا أعرف وأريد أن أعرف منك!»

ـ «حضرتك لم تعطنى الفرصة لكى أقدمه لك جيداً . . مع ذلك أنا بحسن نيه تصورت أنك . . بما أنك صحفى . . تعرفه جيداً ولا تحب الاحتكاك به! . . وإلا فما معنى أن تبتعد عنا كلما شفته عندى؟!»

ـ «تصورت أن شكله عدوانى!»

ـ «يا بك هذه هى شغلته!»

ـ «ألا وهى؟»

ـ «مأمور سجن طره!»

ـ «يعنى هو حاليًا مأمور سجن طره!»

ـ «لكنه رجل متواضع كما ترى! ابن بلد وخدوم! . . لعلك رأيت الناس وكيف يحبونه! ويقصدونه!»

ـ «هو إذن يؤدى خدمات للناس؟»

ـ «عمره ما يتأخر أبدًا! . . لو قصدته فى أى مشوار أى واسطة يذهب معك بنفسه إلى أبعد مكان إلى أكبر شخصية!»

ـ «بالمجان طبعًا؟!»

ـ «والا هى ى ى! أحب أن أقول لحضرتك شيئًا: إن الرجل الذى يهادينا بالحشيش بقطع كبيرة تساوى ثقلها ذهبا لا أظنه يطلب فلوسا من طالب خدمة! . . وبعد فإننى أريد أن أقول لك شيئًا آخر: ما يأخذ . . والله يا أخى أنا فى مفهوميتى من يأخذ ويقدم خدمة تستحق الأخذ حلال عليه ما أخذه! الدور والباقى على المناشير الذين يأكلون لحومنا فى الطالعة والنازلة! . . على فكرة يا مروان بك! . . الحق لله! والله والله تلاتة بالله ما شفته يأخذ من أحد شيئًا ولا سمعت من أحد أنه فعل!»

ـ «وإذًا فيكون من الواضح أنه يحضِّر نفسه للترشيح فى انتخابات البرلمان!»

ـ «ربما! وإنى أضمن له النجاح ما رأيك؟»

ـ «إذا كان كما تقول فضمانك مضمون!»

فى تلك اللحظة طبّ علينا. ما أن نظر فى عينينا حتى صاح:

ـ «على فكرة أنا من النوع الذى يجىء على السيرة! . . العصفورة قالت لى إنكما الآن تجيئون بسيرتى فجئتكم بنفسى!»

صافحت يده الممدودة نحوى:

ـ «أنت إذن من أولياء الله الصالحين!»

يده رخوة كأرنب ميت، رغم أنها عند القبض كلابات من حديد. سحبها من يدى ضاحكًا:

ـ «تقول فيها وجدى الشيخ القزاز كان قطبًا كبيرًا كما لعلك تعرف! له ضريح فى المطرية ويقام له مولد فى كل عام!»

من حسن الحظ أن الأتوبيس قد وصل. يبدو أن فهمى بك صدم من مجيئه وهو عنده مزاج للبقاء فترة؛ فلما رآنى وقفت تأهبًا للركوب لوح بيده فى وجهى آمرا كأننى فراش فى مكتبه:

ـ «أقعـــد!»

تجاهلته تمامًا وخرجت من الكشك دونما استئذان، لكننى عبر الشباك لوحت لهما بذراعى بتحية مبتورة، وهرولت إلى عربة الأتوبيس. من بداية فم الخليج يتخفف الأتوبيس من ركاب المحطات الفرعية المتقاربة ـ وهم أصل الزحام ـ ويبقى ركاب الطوّالى القاصدين ميدان التحرير، فى مدخل شارع القصر العينى فوجئت بفهمى بك جالسًا على الكرسى المرتفع الملاصق للباب على يمين السائق، فتجاهلته مندمجًا فى تصفح الجرنان فى محطة القصر العينى هب واقفًا:

ـ «أستاذ مروان!»

اصطنعت المفاجأة:

ـ «أنت هنا؟!»

- «ستكون فى مكتبك إلى متى؟»

- «إلى الخامسة مساءً!»

- «ربما أفوت عليك فى الثالثة!»

- «تشرف يا فهمى بك!»

- «إلى اللقاء!»

هدأ له السائق حتى نزل براحته قبل المحطة بأمتار كثيرة.

الكاتب المسرحى الكبير بأن يكتب لمجلة صباح الخير التى أعمل محرراً بها سلسلة مقالات أسبوعية عن مشاكل الشباب التى تفاقمت فى مصر بشكل ملحوظ؛ وكان هذا الموضوع مطروحًا على اجتماعات مجلس التحرير منذ وقوع النكسة العسكرية فى العام السابع والستين أو فى العامين الأخيرين على وجه التحديد؛ كنا جميعًا على ما يشبه اليقين بأن الهزيمة العسكرية التى منيت بها القوات المسلحة المصرية قد أفقدت الجميع توازنه النفسى فنشأت حالة من الفوضى شاعت فى البلاد جراء القمع والاعتقال والعزل والاستبعاد وتشريد الكثيرين وتضييق الخناق على جميع الوطنيين الشرفاء حتى لا يكونوا وطنيين بأية درجة، مما قاد الشباب إلى فقدان الثقة فى الآباء والأمهات والمعلمين والمسئولين وكل شىء؛ انتابتهم روح عتية تجنح إلى الانعتاق من كل القيود؛ ولأنهم فى الأصل أبناء قمع قديم متأصل فى إطار تربية روحية ملتزمة صارمة غير قابلة للتحلل بسهولة، لذا فقد كانت تصرفات الغالبية العظمى من الشباب بين شقى رحى: الرغبة فى الانعتاق وسحب الثقة من الجميع

والتحرر من قيود القمع والاحترام لتقاليد ومعتقدات ثبتت فسولتها؛ فى مقابل العجز النفسى عن فعل ذلك صراحة؛ فوقع الكثيرون منهم فى أمراض وعقد نفسية مستعصية، فمنهم من لجأ إلى رحاب الدين فالتقطهم المتطرفون قبل الدخول من الباب الرئيسى، ومنهم من جذبتهم أضواء الفنون الرخيصة ودروب المخدرات ينفسون فى هذه وتلك عن أوجاعهم من موت حلم وطنى كان ورديًا حتى أيام قليلة مضت، وضياع مستقبل أمة كانت هى رأس المارد العربى الذى بشرتهم الأغانى والأناشيد بقومته فإذا به خيال مآتة طيرته عاصفة إسرائيلية.. إلخ إلخ..

تلك هى الخواطر والأفكار والانفعالات التى كانت مطروحة على مائدة اجتماع مجلس التحرير بحثا عن مدخل صحفى يفتح سكة للتفاهم مع الشباب، مع شرائح من مختلف المستويات الاجتماعية والثقافية ومن بيئات مختلفة بحيث تساعدهم المجلة على بلورة أفكارهم للخروج من أزماتهم بتحويل الغضب إلى طاقة إيجابية خلاقة. وبالفعل قام كتاب المجلة ورساموها الموهوبون بتنظيم رحلات صحفية أدبية مصورة تهدف إلى إثارة الروح الوطنية فى الشباب بأن تعيد تعريفهم ببلادهم التى لا يعرفون عنها سوى القليل السطحى؛ فأن يقرأ الشباب عن نهر النيل وأسوان والواحات والوادى الجديد ومدائن الوجه البحرى بأقلام جذابة ورسوم فنانة فإن حبهم لبلادهم يزداد عمقا وتأصلا. ولأن الأستاذ بهادر أبو النور كان فى باريس منذ شهور قليلة وعايش حركة الطلاب فى العام الثامن والستين وتحاور مع عناصر من ثوارها ثم كتب مسرحية من فصلين بطلها مصرى من طلاب حركة

الثامن والستين التى امتد تأثيرها إلى بقاع كثيرة من العالم كان فيها منحازًا لثورة الشباب متبنيًا لأفكارهم المنادية بالتغيير ؛ فلذا اقترح اسمه فى اجتماع التحرير ليكتب سلسلة من المقالات عن نماذج مشرقة من شباب تألقوا فى المقاومة الشعبية فى تاريخ مصر القديم والحديث والمعاصر، سيما وبهادر أبو النور يتألق دائمًا فى مثل هذه الكتابات التى يشبع فيها ميله الفطرى إلى القص عن البطولة والأبطال بوجه خاص ؛ وهو أحد أهم الماركسيين المصريين الذين جددوا الثقافة المصرية تمامًا وأشاعوا فيها مفردات تشكلت منها دعائم ثقافة يسارية عصرية مستنيرة ؛ كان حدًا ويا - عضو حزب الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - مؤسسًا ؛ وكان على علاقة طيبة بالمثقفين من أبناء جيله غير الماركسيين من أمثال أحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس وأحمد أبو الفتح وغيرهم من الليبراليين اللامعين آنذاك، ومنهم عدد من الضباط الأحرار. وقد اعتقل عدة مرات لكنه كان من أوائل الماركسيين الذين رحبوا بحل الحزب الشيوعى والاندماج فى الثورة التى يرى أنها تتبنى الكثير من أهداف الحزب. إلا أن بهادر أبو النور ما لبث حتى دخل فى خصومة فكرية وسياسية مع الثورة ميدانها خشبة المسرح ؛ راح يرصد الجدل الاجتماعى من شروخ فادحة وانهيارات أحيانًا نتيجة لقصور الثورة عن النظر فى البنية التحتية للمجتمع المصرى. مسرحياته حققت له مكانة مرموقة فى الحياة العامة فضلا عن كونه ملمحا بارزًا من ملامح الثقافة المصرية المعاصرة يحظى بحب وتقدير من جميع التيارات اليسارية واليمينية والوسطية، خاصة أن الله منحه طاقة عزم جبارة يحاول إفناءها فى القراءة والكتابة ؛ فلا يمر يوم إلا وتجد صورته وخبرا عنه أو حديثًا معه فى الصحف أو فى التليفزيون . .

كتب لنا بالفعل عدة مقالات شيقة جذابة، حظيت المجلة بصفحتين لطيفتين بقلم كبير مزدانتين بصور كاريكاتورية جميلة على امتداد ما يقرب من ثلاثة أشهر. وباعتباره من كبار الكتاب، ولأن المقالات أحدثت بين قرائنا ردود فعل طيبة، تقرر تجميع هذه المقالات فى كتاب يصدر ضمن سلسلة الكتب الشهرية التى تصدرها الدار. أوصانى رئيس تحرير السلسلة بأن أقعد على دماغه حتى يقبل إعادة صياغة هذه المقالات وربطها ببعضها فى بنيان فنى منسق ويكتب مقدمة ضافية يربط فيها وجدانيا بين شباب اليوم وهذه البطولات التاريخية برؤية مستقبلية مشرقة أو ما أشبه من هذا القبيل. وها هو ذا قد أنجز هذه المهمة بالفعل وجاءنى بأصول الكتاب طالبا منى أن أنوب عنه فى تصحيح الأخطاء المطبعية على سُلخ الجمع الآلى، ثم جلس معى يشرب فنجان قهوة لعل صديقه الفنان التشكيلى عبد الغنى أبو العينين يكون على وصول فيتفرج بالمرة على التصميم الذى وضعه لغلاف الكتاب برجاء خاص منه..

باعتبارى رئيسًا للمطبخ الصحفى، أو الديسك المركزى كما نسميه فى لغة المهنة فإننى أحتل حجرة وحدى وإن كانت صغيرة جدًا تتسع بالكاد لمكتب وكرسيين من كراسى الفوتى الجلدية؛ بابها مفتوح لا يغلق أبدًا، والساعى لا يهدأ رائحا جائيا بينى وبين مدير التحرير يسلمنى موضوعات لمراجعتها ويأخذ موضوعات جرت مراجعتها وعنونتها. وكان الأستاذ بهادر جالسًا على أحد هذين الكرسيين يقلب فى أوراقه المفرودة فوق حقيبته السمسونيت الموضوعة فوق ركبتيه حينما لمحت حجازى فى نهاية الممر الممتد أمامى وهو فى طريقه إلى صالة التحرير؛

هو ليس زميلنا فنان الكاريكاتير الكبير حجازى؛ إنما هو شخص عادى تصادف أن اسمه ينتهى بهذا اللقب؛ ولما كان من عشاق الحجازيْين الرسام والشاعر فقد أصر على أن يتشرف بحمل هذا اللقب: حجازى، فكان له ما تمنى وأصبح يعرف بيننا بهذا اللقب نناديه به فى أريحية ونحسن معاملته إكراما للقب الحميم. إنه تاجر ساعات، يبيع لنا ساعات من جميع الماركات العالمية الشهيرة، أنت تطلب منه الساعة التى تعجبك أيًا كانت ماركتها ومهما بلغ ثمنها، رادو، أوميجا، جوفيال، سيكو، رولكس؛ هو صاحب علاقات مع التوكيلات الرئيسية لهذه الماركات فى مصر وتلك خبرته؛ يدفع لك ثمن الساعة من جيبه الخاص بسعر الجملة مع إكرامية الخصم نظير عمولات وأوضاع من هذا القبيل، ويحاسبك عليها بسعر الفترينة المعروضة فى المحلات، مضافًا إليه نسبة عشرين فى المائة قيمة ربحه مقابل أن تدفع أنت على أقساط شهرية سهلة ميسورة لا تقل عن خمسين قرشا ولا تزيد عن ثلاثة جنيهات إذا كانت الساعة ماركة رولكس باهظة الثمن. وكنت قد اشتريت منه ساعة ماركة چوفيال سويسرية بأوستيك معدنى مطاط أصفر اللون ثمنها خمسة عشر جنيها دفعت منه جنيها كمقدمة استلام ثم أكملت حوالى عشرة أقساط.. فلما لمحته متجها إلى صالة التحرير لتحصيل أقساط من المحررين والعمال والموظفين ـ الذين عرفناه من خلالهم فى الأساس ـ تذكرت أن القبض شغال منذ ساعات؛ استأذنت من الأستاذ بهادر وذهبت إلى الخزنة فى الجناح الخلفى فى ممر المصعد الكهربائى..

احتجزت جنيها وبعض الفكة لحساب حجازى والبوفيه. عند

رجوعى إلى مكتبى فى الجناح المطل على شارع القصر العينى اصطدمت بفهمى بك القزاز واقفًا يتطلع حواليه بحثًا عن أحد يسأله عن مكتبى. صافحته باهتمام وحفاوة؛ كان أكثر حرارة منى وتلقانى فى حضنه واستمر عدة ثوان يربت على ظهرى كأنه لم يرنى منذ سنوات، وكان الكذب شوكا فى حضنه جعلنى أحاول التخلص منه ومن كثافة ظله إلا أننى كأننى تلقيت بخَّة سامة من أفعوان جمدتنى وشلت أعصابى قبل أن يهجم علىّ. لحظتئذ ظهر حجازى خارجًا من صالة التحرير فرآنا على هذا المنظر فتسمر واقفًا فى ذهول كأنه هو الآخر قد تلقى نفس البخَّة من فوق كتفى. تقدم منا متصلبا، هتف بصوت متهدج:

ـ «فهمى بك؟! مش معقول!»

ـ «أهلا روفه!»

تصافحا، تعانقا، قبَّل كل منهما الآخر على الخدين..

ـ «تعرفان بعضكما؟!»

هتف حجازى:

ـ «أيوجد من لا يعرف فهمى بك القزاز على سن ورمح؟!»

كان حجازى طويل القامة نحيلا، كبير الرأس، مبطط الوجه عريضه كالرغيف البلدى المفقَّع إذ تمتلئ بشرته البُنية اللون ببقع غامقة تتكسر فى تلافيف تجاعيد طولية وعرضية تتداخل فى بعضها بفعل حنكه الواسع المفتوح الشدقين عن أسنان كبيرة مقوسة مصبوغة بصدأ الشاى والقهوة والتدخين الذى أحرق شفتيه عند المنتصف. قال فهمى

القزاز وهو يربت على ظهر حجازى المقوس قليلا ، بلهجة ذات معنى غامض :

- «روفة أخ عزيز ! ماذا تفعل فى الدنيا الآن يا روفة؟»

- «طول ما سعادتك عايش أنا بخير يا فهمى بك !»

- «لا سفر الآن؟»

- «لا ! هجعنا والحمد لله ! كله الآن فى مصر فلماذا نسافر؟ كل الماركات فتحت توكيلات هنا ! ومحسوبك بعون الله وكيل كل هذه التوكيلات !»

- «تقصد : واكل كل هذه التوكيلات !»

- «لا فرق يا فهمى بك !»

وقهقه ضاحكًا ثم صافحه ثانية ومشى ، مشيت وراءه . أزاح يدى برفق لكن بلهجة حاسمة :

- «هل أنا طالبتك؟ !»

دسست الجنيه فى جيب قميصه ؛ فنزعه بقليل من عصبية وكثير من الابتسام الدمث ، دسه فى جيب قميصى :

- «خله معك الآن ! سوف نتفاهم !»

ثم هرول منصرفا ؛ لكنه انصرف إلى الأبد ، لم يعد لى مطلقا بعد ذلك ؛ وكلما سألت عنه الزملاء قالوا إنه كان هنا منذ ساعة ، كان هنا بالأمس ثم انقطع تمامًا عن المجىء لأى أحد . .

تأبط فهمى ذراعى ومشى إلى مكتبى ؛ قال :

ـ «السلام عليكم!»

بقى بهادر أبو النور متخشبًا فى قعدته، رافعًا رأسه لأعلى محملقا فى فهمى بنظرات شبه فزعة، نظرات أسد هصور فوجئ بأنه قد أحيط بسياج من قفص حديدى، راحت عيناه تدوران فى محجريهما بسرعة متوترة. مدَّ فهمى يده :

ـ «أهلا بهادر بك!»

مد الأستاذ بهادر أطراف أصابعه الطويلة الباردة من منظرها، لمس بها يد فهمى بك، ثم افتعل حركة يوهم بها أنه يريد أن يعتدل ليقف احتراما له. وبلهجة تتجلى فيها روح بهادر أبو النور البارعة فى المجاملة اللطيفة اللبقة :

ـ «أهلا يا افندم! لمؤاخذة الواد على حجرى!»

وشاركنا الضحك مداريا أوراقه بساعديه فى توجس قطة تخشى على وليدها فتتكور فوقه تخفيه عن الأنظار؛ ثم أراح نفسه وفتح الحقيبة، رمى بالأوراق فيها ثم أغلقها ثم وضعها على الأرض بحذاء الكرسى :

ـ «يظهر أن الأستاذ أبو العينين لن يأتى! دعنى أنصرف! اسمع! خله يكلمنى فى التليفون فى الجرنان! أهلا بك يا كابتن!»

التقط حقيبته وهبَّ واقفا. داعبه فهمى فى شىء من الحرج وابتسامة صفراوية :

ـ «إذا حضرت الشياطين انصرفت الملائكة؟!»

بصوته المبحوح كالمحبوس، المطعَّم بإيقات من تطجين أولاد البلد تبدو على لسانه غاية فى اللطف راح يعتذر بأن عموده الأسبوعى لم يكتب بعد وسوف يرفتونه من كثرة مشاكله فى التأخير، أى كلام، ثم رفع يده بالتحية ومدّ ساقه الطويلة خطوة وفى الثانية اختفى تماما. .

جاءت القهوة السادة المغلية التى طلبها فهمى بك؛ وكنت تعمدت الجلوس إلى مكتبى والتقليب فى أوراقى لإعطائه الإيحاء بأننى مشغول حتى لا يطيل الزيارة التى لم أفهم بعد مغزاها. رشف القهوة فى هدوء وجبلة صلدة:

ـ «شف شغلك أنت ولا شأن لك بى حتى تنتهى!

أنا لست ضيفا فلا تحمل همى!»

اندمجت فى مراجعة ما تبقى من موضوعات عاجلة، وشرعت أنظر فى الآجلة لكن خواطرى تبلبلت؛ رحت أفتش فى ذهنى بحثًا عما يمكن أن يلحق بى من أضرار جراء ارتباطى بهذا الرجل الشائك المشبوه؟!. .

رن جرس الهاتف بجوارى؛ رفعت السماعة؛ دهمنى صوت الأستاذ بهادر منبها إياى أن أسمع ولا أعلق؛ ثمة لغط حول صوته تبينت منه أنه يكلمنى من مكتب عبد الغنى أبو العينين، أكاد أسمع ضحكته المميزة. قال الأستاذ بهادر:

ـ «أنا الليلة سهران فى حجرة مكتبى! فتْ علىّ وأنت عائد إلى

البيت فى أى وقت من الليل وحتى الصبح! . . اصعد إلى الشرفة ونقر بأصبعك على الشباك سأفتح لك الباب المطل على الشرفة!»

ـ «وهو كذلك! سأفوت عليك إن شاء الله!»

وضعت السماعة قال فهمى بك إن لديه مشواراً فى وسط المدينة بقى على موعده ربع ساعة من المستحسن أن يقضيه معى. أوشكت أن أنفجر فيه غاضباً لأقول له إنه قد فوَّت علىَّ فرصة ذهبية فى العودة إلى بيتى محترما فى سيارة ملاكى لكى يجلس معى هذا الربع ساعة فياله إذاً من إنسان غليظ تافه؛ لكننى تمالكت أعصابى تقديراً لكونه يزورنى فى مكتبى لأول مرة. . لشدة ذكائه أدرك ما كنت فيه لحظتها من تذمر حاولت إخفاءه بغير جدوى؛ قال:

ـ «إن كنت ناعيا همَّ المرواح فإننى سوف أعيدك إلى البيت فى سيارة أفخم من سيارة بهادر أبو النور الكحيانة!»

ـ «لسنا من أهل الفخامة على كل حال!»

نظر فى ساعته:

ـ «زمانه وصل! هيا بنا!»

نزلنا درجات سلم بوابة الدار لنجد فى انتظارنا شابا لطيفا يرتدى بدلة محترمة، صاح أول ما رآنا:

ـ «تفضل معى يا فهمى بك! أهلا يا مروان بك!»

ـ «تعرفنى؟»

ـ «طبعا! كان الموعد عند حضرتك!»

قادنا إلى شارع أمين سامى إلى سيارة راكنة أمام عمارات العرائس، سيارة مرسيدس سوداء مهيبة جداً، زجاجها حاجب. ما أن اقتربنا منها حتى انفتح الباب الخلفى ونزل منه رجل أشبه بالمانيكان، من فرط أناقته الرصينة الثمينة يبدو كنجم سينمائى سيصور الآن دور أحد الباشوات أو الأمراء؛ فى رشاقة تقدم ومد يده ليصافحنى، تمعنت فى وجهه؛ سرعان ما عرفته، إنه كامل سراج الدين أحد أكبر عشرة رجال أعمال فى مصر، كان رئيسا لأحد أهم أندية الدورى الممتاز فى كرة القدم، ينفق عن سعة فى شراء اللعيبة ليحصد من وراء ذلك محصولاً دعائيًا إعلانيًا يعود على شركاته ومشاريعه التجارية بالخير الوفير، هو خليط من البكوية والهليهلية الموروثة من قاع الحياة الذى عاش فيه طفولته وصباه وشبابه ولا يزال أهله يعيشون فيه، إنه معلم بأطقم بلدية وتطجين بلدى عند اللزوم فى مواسم الانتخابات، وبك يرطن بالفرنسية والإنجليزية ويتحدث برقة مفرطة كأنه مصنوع من البسكويت، إذا لبس قناع ابن الناس الطيبين أصحاب الرقى والذوق الرفيع يصعب على أحد اكتشاف أنه محض قناع؛ ورغم أن ثروته تقدر بالمليارات، وضرب الرقم القياسى فى الزواج من فنانات شهيرات شهيات، ويشتغل فى معيته كثيرون على كل لون فإنه يحب مع ذلك أن يفعل الكثير من الأفعال بنفسه ويقضى الكثير من المشاوير بنفسه، وله فى ذلك فلسفة يرددها فى منشوراته الانتخابية حيث يقول إنه لا يحب الركون إلى الراحة والبهجة، إنه نشأ عاملا من ظهر عامل سيبقى أبد الدهر مجرد عامل يجد فى العمل لذته الكبرى وليس فى كثرة المال؛ يجد دائمًا من يقتنع به فهو فى النهاية موهوب ذكى جذاب لبق لمّاح.

قال فهمى :

ـ «أظنك عرفته طبعا!»

ـ «طبعا! الحاج كامل سراج الدين!»

قال الحاج كامل على سبيل المجاملة :

ـ «يشرفنى أن أكون من قرائك وقراء مجلتكم!»

وأشار بيده يدعونى للدخول فى السيارة بجواره. ركب فهمى بك بجوار السائق الشاب الذى راح يكسكس ليعدل اتجاهه نحو شارع المبتديان. قال فهمى بك عاوجًا رأسه نحوى :

ـ «عدم المؤاخذة يا مروان بك! وراءنا مشوار قصير وسريع فى سكتنا! عندك مانع؟»

ـ «لا بأس!»

زحفت بنا السيارة متوغلة فى حى عابدين إلى حى الدرب الأحمر إلى حى الخليفة. أمام قسم شرطة الخليفة توقفت السيارة. .

ـ «تفضلوا!»

نزلنا، تقدمنا فهمى بك داخل القسم؛ ألقى التحية على بعض العسكر والمخبرين؛ ردوا تحيته باحترام وتوقير. دخلنا حجرة رئيس المباحث. .

ـ «سلام عليكم!»

ـ «مرحبًا فهمى بك!»

وقف وصافحنا ودعانا للجلوس. قدمني إليه فهمي بك في كثير من التضخيم:

ـ مروان بك الألفي الكاتب الصحفي المعروف!»

ـ «أهلا يا افندم!»

وهز رأسه في ترحيب..

ـ «طبعًا تعرف الحاج كامل بك سراج!»

ـ «طبعًا!»

ـ «الرجل وقع في عرضي وعرض مروان بك!

جئنا نتوسط له عند سعادتك! باختصار!

نريد أن نطمئن على أخبار صبيه!»

ـ «صبيه من؟!»

ـ «خربوش أبو أصبع!»

ـ «أهو صبيه؟!»

بدت عليه الدهشة بوضوح. هتف الحاج كامل:

ـ «أيوه يا سعادة الباشا! وكان يحصِّل كمبيالات خاصة بمعرض السيارات تبعي! ساعة من هجمتم على تاجر المخدرات! هو كان يحصِّل من تاجر المخدرات نفسه ربنا يسامحه! دوخني! كل سيارات عياله من عندي ويبلط في الدفع وفي الآخر جاب لنا بلوى!».

عاجله فهمى بك :

ـ «المصيبة أن الفلوس التى ضبطت معه فلوس التحصيل تبع الحاج كامل وأظن أن الولد قال هذا فى المحضر!

ـ «نعم قال هذا فى المحضر لكنه لم يقدم الدليل على أنها ليست حصيلة بيع مخدرات!»

ـ «هو لا علاقة له بتاجر المخدرات!»

ـ «حين هجمنا كان جالسًا يسقى المعلم!»

ـ «طفاسة! وغباء! طمعان فى قطعة حشيش سفلقة! وعلى كل حال الحاج كامل سراج الدين نار على علم! له وزنه فى البلد! وليس من المعقول أنه سيجىء بنفسه إلى هنا من أجل ولد ملطوط! وهو مستعد لفتح محضر يثبت فيه أنه مسئول عن الولد وأن المال ماله! و.. تاهت ولقيناها: إسأل سعادتك تاجر المخدرات نفسه أهو لسه عندكم فى الحجز! حيقول لسعادتك إن الواد كان آتيا للتحصيل وأنه ليس يشتغل معه!»

ـ «عن إذنكم لحظة! تعالى يا فهمى بك!»

خرج وفهمى بك وراءه. قال الحاج كامل فى نبرة تشبه الرِّثاء:

ـ «هذا ما ينوبنى من توكيلات السيارات يا مروان بك! عذاب فى التحصيل لا تتخيله! لكن الواحد كلما نظر فى الشوارع ورأى الماركات التى يوزعها تجرى كالعرايس يشعر بالفخر! أنا الحمد لله آخر ما أفكر فيه مصلحتى الشخصية! أيام أمسكت النادى شف

عـدد الفـوارس الذى كـان بيـجـرى فى الملعب بفلوسى! أخـذنا الدورى والكاس وطحنا طيحانا فى أفريقيـا! . . بالمناسبـة لماذا لا تركب سيارة يا مروان بك؟ هذا عيب لا يليق بمركزك! حرام أن تتبهـدل فى الأتوبيس لحد ضـاحيـة صحراء المـاليك! . . شراء السيـارات اليـوم سـهل جـداً طالما فى السـوق رجل مـثل حـالاتى يسهل على الناس ليركبوا سيارات فخمة؟ . . تدفع مقدم بسيط حسبة كم ألف والباقى بالتقسيط يطلع مصاريف نثرية لا تشعر بها! وبعد فأنت تأمر وأنا أرسلها لك مرخصة جاهزة!»

ـ «إن شاء الله يا حاج كامل لن أركب سيارة إلا على يديك!»

ـ «تعال وتفرج!»

ـ «سأجىء بإذن الله!»

دخلْ فهمى بك منشرح الوجه ومن ورائه رئيس المباحث الذى اتجه إلى مكتبه وسحب ورقا وراح يكتب فى تركيـز وسرعة. قـال رئيس المباحث:

ـ «يا حـاج كـامل! التـاجـر ومن مـعه قـالوا إن خـربوش هو سـائقك الخصوصى وأنه فعلا كان يحمل أربع كمبيالات!»

قاطعه الحاج كامل:

ـ «منه هو وحده سعادتك! إنما هو كـان قد حصَّل كـمبيـالات كثيرة من غـيـره! وعلى فكرة أسـتطيع أن أحسب لك مـا كـان مـعـه بالضبط! على فرض أنه حصل كمبيالات صاحبنا الأربع يكون معه ثلاثة آلاف جنيه بالتمام والكمال!»

قال رئيس المباحث :

ـ «فعلا هذا هو المبلغ المحرز! على كل حال! المبلغ محفوظ! هذا طلب من حضرتك تطلب فيه الإفراج عن صبيك واسترداد المبلغ! حضرتك توقع عليه! وأنا . . إكرامًا لحضرتك ولمروان بك وفهمى بك سأوقعه الآن من النيابة وهذا يقتضى أن حضرتك تجىء معى لتتعهد أمام وكيل النيابة بأن الصبى صبيك وأنه كان فى مهمة تحصيل! ثم توقع على محضر استلام وفى هذه الحالة أضمن لك الإفراج والاستسلام!»

قال فهمى بك بغمزة أولاد المهنة :

ـ «هل المحضر عرض على النيابة؟!»

ـ «لا! كان من المقرر أن يعرض الآن!»

ـ «ما الداعى إذن إلى إدخال النيابة فى الموضوع؟ نريد تخليصه قبل تعقيده!»

ـ «لا تعقيد ولا يحزنون يا فهمى بك! دعنى أخلص الموْضوع بطريقة قانونية ولن نخسر شيئًا!»

ظهر التشكك على وجه فهمى :

ـ «ولكن! . . أخشى! . . »

ـ «لا تخشى شيئًا! أنا صادق فى خدمتك! وما سأفعله هو الصح! كل ذلك لن يستغرق ربع ساعة! . . وقع يا حاج كامل على هذا الطلب!»

الحاج كامل ألقى نظرة على الورقة ثم وقع عليها وأخذها رئيس المباحث:

ـ «تفضل معى حضرتك!»

خرجا معًا.. قال فهمى بك:

ـ «هات سيجارة!»

وهو يأخذ أسقط في يدى كلكيعة حشيش فى حجم البيضة، ارتعشت أوصالى وتلفتُّ حولى متوجسا من أن يكون فى الأمر مؤامرة أو مكيدة، خاصة أنه همس بنبرة حاسمة:

ـ «ضعها فى حقيبتك لا فى جيبك!»

وأنا أشهد سحَّاب الحقيبة لأسقطها فيها سألته:

ـ «لماذا الحقيبة وليس الجيب؟!»

قال بجدية:

ـ «عند اللزوم.. لا قدر الله.. تستطيع الادعاء بأن هناك من أسقطها لك فى الحقيبة مثلما فعلت أنت الآن بسهولة!»

ارتعبت فعلا، لكنه ضحك بعمق حتى دمعت عيناه وتدفقت ريالته كأنه يستمتع برعبى..

ـ «من أين لك بها يا فهمى بك؟!»

ـ «من المحرزات قبل تحريرها! طباخ السم يذوقه!.. هل آتيك بكيس من السم؟»

وصار جسده يهتز من الضحك؛ خيل إلى لوهلة خاطفة أنه مجنون، كلما حملقت فى عينيه لا أجد فيها إلا ذلك اللمعان المحايد، لمعان لا يعكس أى معنى أى شعور، لمعان الجنون. وضع يده فى جيبه وأخرجها:

- «لك فى السموم؟! إنى صادق لست أمزح! لك فى السموم؟!»

وفرد كفه كالحواة، فإذا بدائرة سوداء منفوخة تلمع تحت لفة السوليفان. غصبًا عنى هدّج الانبهار صوتى:

- «أفيون؟!»

- «من أرقى نوع! إيرانى! الأسود هكذا وحين تفتحه تجد قلبه لون البن المحروق هو الإيرانى! أفضل من الأزميرلى التركى ومن الأفغانى! كيفه أعمق! وعند تحليله كيماويا لتحويله إلى هيروين وكوكاكيين لا يتخلف عنه تفل! هيه! لك فيه!»

- «لى فيه وفى الذين خلفوه!»

- «يعنى تأخذ عدساية مثلا؟!»

- «إن لم يكن عندك حلة عدس ملآنه عن آخرها فيكفينى هذا الطبق وأمرى إلى الله!»

- «ليس خسارة فيك! هو لك!»

وفى هذه المرة سحب هو حقيبتى وشد السحاب قليلا ثم أسقطها فيها وشد السحاب للإغلاق وقال لى:

- «ضعها على ركبتيك!»

دبيب القلق عاصَ وجهى؛ ضحك هو بعمق . .

ـ «ولماذا فوق ركبتى؟!»

ـ «حتى لا يبدو أنك تتبرأ منها فتثير الشك فيها وفيك! . . إن عملنا كشرطة مبنى فى معظمه على قراءة القلق فى سلوك القلقين غير الثابتين!»

تحديًا له واستهانة بآرائه رفعت الحقيبة وألقيت بها على مكتب رئيس المباحث، وضعت ساقا على ساق وأشعلت سيجارة:

ـ «هل تتوقع أن الباشا سيفلح فى الإفراج عن الولد والمبلغ؟»

ـ «لا بد أن يفرج عنه! هذا شغل نحن نفهمه بيننا وبين بعضنا! . . هو يعلم جيداً أن هذا الولد يشتغل سائقًا للحاج كامل سراج الدين! وأن هذه الفلوس فلوسه! لكنه فى نفس الوقت ضبطه فى موقف غير قانونى فلا بد أن يشوف شغله القانونى وكله فى الدنيا مكسب!»

ـ «بمعنى!»

ـ «من يشوف شغله يحصل على ترقية وهذا بالطبع مكسب! ومن يقم بحركة جدعنة مجاملة لثلاثة رجال ذوى شأن يكون قد كسب ودهم أليسوا يقولون معرفة الناس كنوز؟ وهو فى النهاية لم يخن وظيفته ولم يهزأ بالقانون مش كده ولا إيه؟!»

بعد ما يقرب من ساعتين مملتين جاءوا: رئيس المباحث والحاج كامل وصبيه خربوش. وقف فهمى بك هاتفًا:

ـ «كله تمام؟»

قال رئيس المباحث فى أريحية :

ـ «تمام يا فهمى بك! حضرتك تؤمر!»

أخذه فهمى بك فى حضنه وصار يطلق عواء سوقيا سرعان ما تبينت أنه لون من الضحك اخترعه، وكان رئيس المباحث قد تخلص منه بلطف وراح يضحك بوقار، ونظرته المسلطة على فهمى بك تشى بأنه يسخر من هذه الطريقة فى الضحك وتشى أيضًا بأنه يستنكر هذا المسخ الهزلى؛ أشار بيده إلى الكراسى :

ـ «جاءتكم القهوة أم لا؟ تفضلوا اقعدوا! ستجىء حالا!»

ومد يده ليضغط على زر الجرس، فانقضت يد فهمى فوقها لتوقفها :

ـ «كأننا شربناها! جميلك فيه الكفاية!»

ثم وجه لى نظرة رسمية جادة ذات معنى وهو يشير إلى حقيبتى بشكل مسرحى، وبنغمة تهديدية :

ـ «حقيبتك هذه يا أستاذ؟»

وكنت نسيت الأمر فاعترانى ارتباك عابر :

ـ «ولا علاقة لى بها!»

ـ «إذن سأحملها أنا إلى أن يبين لها صحاب! . . هيا بنا!»

سحبتها من يده. صافحت رئيس المباحث بحرارة أودعتها إعجابى بذكائه ولباقته. ربت على يدى فى ترحاب :

ـ «فرصة سعيدة!»

ونحن عائدون بالسيارة المرسيدس المسماة بالشبح انتقل الشاب اللطيف إلى جوارنا على الكنبة الخلفية وتولى خربوش أبو أصبع مهمته فى القيادة. قال له الحاج كامل والسيارة تلتحق بشارع صلاح سالم:

ـ «إطلع يا خربوش على تقسيم صحراء المماليك نوصل مروان بك لحد بيته قبل أى مشوار آخر!»

شكرته وقبلت:

ـ «أعرف طبعًا لكنه اليوم ضيف عندنا! طب على فكرة! . . يسعدنا جدًا أن تكون معنا! سنحتفل بعيد ميلاد إبنى هانى!»

وأشار إلى الشاب اللطيف. .

ـ «أهو ابنك؟ ونعم الأدب! مبروك يا هانى!»

قال الحاج كامل:

ـ «فى كلية الهندسة قسم العمارة!»

ـ «ربنا يوفقه! كان بودى أن أحضر الحفل ولكنى مزنوق الليلة فى شغل لابد أن يسافر غدًا مع أحد الزملاء!»

عند بيتى نزلوا جميعا وصافحونى بحرارة. وكانت فايقة زوجتى واقفة تنتظرنى فى الشرفة فهتفت تدعوهم للغداء معى، حيّوها شاكرين ومضوا. . وفيما كانت تجهز لى الطعام تذكرت وصية الأستاذ بهادر أبو النور فشعرت بضرورة أن أقضى السهرة عنده.

٦
قيـــام الشــجن

حـجـرة مكتب الأسـتـاذ بهـادر أبـو النور تطل على الشـرفـة المطلة بدورها على الشارع يفصلها عنه سور مزروع بأسلاك شائكة ارتفعت فوقه أفرع اللبلاب وتكاثفت حتى حجبت الشرفة فـصار من الممكن الجلوس فـيـهـا دون أن ينكشف الجـالس للمـارين فى الشـارع ؛ لكن الأستاذ بهادر ليس يأمن الجلوس فيها ليلا طالما بقيت صحراء المماليك غير آهلة بالسكان ؛ إن بيته لا يزال يحيطه الفضاء من ثلاث جهات ؛ حتى الجار الملاصق له من الجهة الجنوبية أقام محلا كبيراً متعدد الأبواب والقتارين ثم أغلقه إلى أن يكتمل العمران فى هذه الضاحية البديعة التقسيم بهوائها الجاف وهدوئها المنقطع النظير . .

بيت الأستاذ بهـادر جـميل محندق، مكون من طابقين : الأرضى للمعـيشة واستقبال الضيوف، والعلوى للنوم، ثلاث غرف وردهة واسعة، غرفة له وزوجه، غرفة لابنته هبة، الغرفة الثالثة لابنه خالد؛ فوق السطح غرفة كبيرة تضم مكتبته الواسعة الحافلة مع طاولة للقراءة والكتابة، وبعض المقاعد المريحة ؛ نوافذ هذه الغرفة تطل من الجهة الشرقية على مساحة مزروعة بالأشجار تابعة للبيت، ومن الجهة

الشمالية على فضاء فسيح ينكسر على مبعدة بظهور قباب ومآذن حى القلعـة وخاصة جامـع محـمد على فوق ربوته العالية داخل قلعة صلاح الدين . .

الأستاذ بهادر أبو النور ليس موسرا، بل لعله من أشدّ كتاب جيله فقرا، يعيش بمرتبه من الجريدة؛ فى كل عام يكتب مسرحية جديدة لفرقة مسرح الدولة يتقاضى عنها بضع مئات من الجنيهات؛ كل بضعة أعوام يكتب للإذاعة مسلسلا أو تمثيلية سهرة . . أما هذا البيت فى هذه الضاحية فلم يكن ليقوى على بنائه لولا جدعنة زوجه الدكتورة مكارم أستاذة الاقتصاد بكلية البنات بجامعة القاهرة. كانت تحبه وتؤمن بموهبته وتقف منه موقف الأم الرءوم رغم أنه أكبر منها بأكثر من عشر سنوات؛ هو دائمًا قلق متوتر بالاضطهاد والظلم من رفاقه الذين أصبح بيدهم مقاليد الأمور فى جميع المؤسسات وخاصة الصحفية؛ فإن بحثت أنت - مثلى - عن معالم هذا الاضطهاد وصور هذا الظلم فلن تجد شيئًا من ذلك على الإطلاق اللهم إلا إحنُ قديمة بين رفاق تعكر بينهم صفو التعامل فى بعض الأحيان وهذا طبيعى وموجود فى كل الدنيا، إلا أن الأستاذ بهادر فى حقيقة الأمر - ربما - لديه حساسية مرهفة تجاه أى نقد يوجه إلى مسرحه؛ ثم إنه - باعتباره ابن تاجر محاصيل زراعية من محافظة الغربية - يؤمن بما يؤمن به أبناء الطبقة المتوسطة الزراعية من غيبيات أهمها الاعتقاد بالحسد، ورغم أنه تخرج فى قسم الأدب الإنجليزى بآداب القاهرة وعاش فى لندن وباريس وروما سنوات أيام كان موظفًا فى بنك مصر فإن شخصية الفلاح المذعور من الحسد لم تغادره؛ وفى اعتقاده أن جميع رفاقه القدامى يحسدونه على نجاحه

ويحقدون عليه لعدم تفريطه فى مبادئه وعلى أنه رغم ذلك عنده بيت كهذا يسمونه قصرا منيفا . .

انتبهت الدكتورة مكارم فى وقت مبكر إلى أن جارهم فى المسكن فى شارع الربيع الجيزى قد اشترى أرضا للبناء بالتقسيط المريح جداً فى ضاحية جديدة اسمها تقسيم صحراء المماليك، راحت وتفرجت، أعجبها الموقع، أعجبها أكثر نقاء الهواء ولطفه؛ باعت مصاغها؛ اشترت ثلاثمائة متر أقامت حولها سوراً شائكًا لعله هو نفس هذا السور؛ ونسيتها؛ إلى أن انفتح باب الإعارات إلى الدول العربية فى أوائل ستينيات القرن العشرين؛ بادرت الدكتورة مكارم بالسفر إلى دولة الكويت أستاذة بإحدى كلياتها؛ آنذاك بهادر أبو النور كاتب مرموق فى جريدة الجمهورية التى صدر ترخيصها باسم الرئيس عبد الناصر شخصيًا؛ وافق المسئولون على سفره كمرافق لزوجه على أن يوافيهم بمقاله الأسبوعى كالعادة ويكون شبه مراسل للجريدة هناك؛ هناك راح يكتب فى الصحف الكويتية، ويحاضر فى معهد الفنون المسرحية، ويترجم المسرحيات عن الإنجليزية . . خمس سنوات قضياها فى الغربة؛ فى أشهر الإجازة الصيفية يأتيان إلى مصر يزودان مقاول البناء بأقساط جديدة يضيف بها جديداً إلى البناء؛ فما أن اكتملت سنوات الإعارة حتى كان البيت قد اكتمل مما جميعه . فى بداية النصف الثانى من الستينيات انتقل بهادر أبو النور بأسرته إلى هذا البيت ليبدأ فترة النضج الحقيقى فى حياته الفنية النشطة .

حجرة المكتب ضيقة، يحتلها مكتب كبير مخروطى الشكل، ودولاب بدرفتين، وكرسيان جلديان وكنبه . فوق المكتب حقيبته

السمسونيت، وتلال من قصاصات الصحف والمجلات الأجنبية والعربية، والورق الأبيض وبعض دوريات ثقافية حديثة الصدور له فى كل منها مقال أو قصة تاريخية أو حديث نقدى. هكذا هذه الحجرة لا تتغير مطلقًا منذ دخلتها أول مرة قبل حوالى عامين. .

فى حوالى العاشرة مساء نقرت على شباكها ولم يكن ثمة ضوء ينبعث من خصاصها؛ لكننى فوجئت بالضوء يطبُّ فوق رأسى من لمبة مثبتة فوق إطار الباب من أعلاه؛ ثم انفتح الباب. . الأستاذ بهادر بالروب دى شامبر فوق المنامة وكان مترهلا غير مهندم. كعادته راح يتكلم بتدفق فى موضوعات كثيرة متداخلة، منها الشخصى والسياسى؛ كل الرجال عنده ولد، الواد أنور السادات، الواد يوسف إدريس، الواد محمود السعدنى، الواد لطفى الخولى، الواد محمد عودة؛ الصفة الملاصقة لكل منهم هى أنه ابن كا ااا لبْ مجنون؛ كثيرًا ما يختلط الهزل بالجد فى حديثه؛ الخبر عنده قد يكون محض نكتة، والنكتة قد تكون خبرًا مدويًا؛ طيبة القلب غالبة على أمره، إن جاءت سيرة واحد من محيطه المجايل له ورأيت الهول وكيف ارتسم على وجهه والانزعاج وكيف انشق فى عينيه وربما القرف وكيف انزاح مع ابتسامة الأسف إلى ركن فمه تتصور أن حجم كراهيته مروع، وأنه سيسلق هذا الشخص حتى يمرمط به الأرض؛ لكن ظنك سرعان ما يخيب، فلن تتمخض هذه الفزعة إلا عن بضع نوادر ضاحكة حول هذا الشخص أو ذاك لا تشم فيها رائحة الكراهية على الإطلاق إنما هى قد تفوح بنكهة صبيانية حميمة فى محاولاتها التسفيه من قيمة البعض أو تصغير حجم البعض الآخر من خلال تعليقات تحمل صورًا كاريكاتورية تفجر الضحك فى القلوب. .

مضى وقت ليس بالقصير دون أن يقدم لى أى تحية، حتى خصلته فى التدخين لم يتخل عنها: يمد أصابعه فى جيب الروب دى شامبر خفية فيمسك بطرطوفة السيجارة يسحبها، فجأة تراها مشتعلة بين شفتيه، إلا أنه تذكر؛ قال إنه يعتذر عن عدم تقديم الشاى والقهوة لأن البيت كله ـ كما لعلنى أرى ـ قد راح فى سابع نومة، ولكن . . ثم وقف، شدّ سلسلة المفاتيح من جيبه، اتجه إلى الدولاب، فتح الدرفة المحاذية للمكتب، جعل يعكرش فى قعرها يرفع مجلات وملفات، أخيراً سحب زجاجة ويسكى بلاك أند هويت فيها حوالى نصفها، أمسك بكوب ماء موضوع على كرسى المروحة الكهربائية، دلق ما فيه من بقايا فى سلة المهملات، صب كأسًا، ملأ غطاء الزجاجة مرتين كمعيار للكأس، لدهشتى دلق الكأس فى جوفه جرعة واحدة فتقلصت ملامحه من الجزع، ثم أعاد تفريغ غطائين فى الكوب ووضعه أمامى بحركة توحى بأنه وضع مؤقت، أحكم إغلاق الغطاء، أعاد دفن الزجاجة تحت الأوراق، أغلق الدرفة بالمفتاح، جلس إلى المكتب:

ـ «قل لى: من أين عرفت الواد فهمى القزاز؟!»

ـ «تقصد العميد فهمى بك القزاز مأمور سجن طره حاليًا؟!»

ـ «لا لا . . خلاص انتهى أمره! لم يعد شيئًا! سووا معاشه وطردوه! قالوا له تفضل سعادتك اقعد تحت الشمس فى بيتك وسوف نستعين بك فى المهام الصعبة! . . هو الآن يقلب عيشه فى مشاوير خدمات يؤديها للناس بأجر!»

ـ «تقول بأجر؟!»

ـ «إلا إن كان يعشقهم فى الضلمة! أنت ساذج يا ولد؟! منذ متى كان السفاح مؤهلا لخدمة الجماهير؟!»

ـ «أنت تعتبره سفاحًا؟!»

ـ «لست أنا الذى يعتبره! إنما هو هكذا بالفعل!»

ـ «إنه مريب وغريب على كل حال!»

ـ «قل لى كيف تعرفت عليه؟! أو تعرف هو عليك لأننى سأهديك الليلة هدية فى نفس الموضوع! . . إن لم تكن صريحًا معى سأفوت عليك هذه الفرصة فأنت حر! سأتركك تتدبَّس فيه ليوقعك فى شر أعمالك!»

دهمنى خوف لا مزاح فيه؛ درءًا للشبهات عن نفسى حكيت له حكايتى معه، أو حكايته معى بالتفصيل الممل من أول ما شفته إلى مشوار اليوم بكل ملابساته. كان بهادر أبو النور يتابعنى بابتسامته العريضة ذات الوداعة الإنسانية المذاق حيث تضفى على وجهه مسحة من البلاهة الطفولية التى تكرس له طالما أنت جالس معه إذ ما تكاد طفولته البلهاء بوجهه المستطيل وحاجبيه الثقيلين كخطى سكة حديد تقابلا عند محطة ضيقة جدًا خالية من الشعر تعطى امتدادًا لأنفه الطويل السرح كجسر يعبر فوق عينين كأنهما بحيرة قسمها الجسر إلى نصفين ليصل إلى جبهة ضيقة كقطعة الكيك؛ حتى يفاجئك بالكلام فيبدو مبهرا إلى حد الإعجاز؛ ربما لأنك لم تكن تتوقع منه أن يجيد سياق الكلام أصلا فإذا هو يتجلى بطرطشات فلسفية فى السياسة والفن والمجتمع تؤكد عمق ثقافته وتنوعها . .

وقف مرة أخرى، فتح درفة الدولاب وأتى بالزجاجة:

ـ «ما دمت صارحتنى تكافأ بكأس أخرى!»

صبَّ فى الكوب ملء غطائين؛ ملأ الغطاء ودلقه فى جوفه، لحقه بغطاء آخر، أعاد الزجاجة إلى مدفنها، أشعل سيجارة:

ـ «يا للتوافق العجيب يا أخى! من حسن الحظ أننى فى انتظار مؤمنة صديق!»

ـ «حبيبتى مؤمنة! رأيى أنها ممثلة عملاقة!»

ـ «فى المسرح فحسب مع الأسف!»

ـ «سوف يختطفها التليفزيون فى القريب وتصبح نجمة جماهيرية كبيرة! ومن يدرى! إنها لم تأخذ فرصتها فى السينما لكى نحكم عليها هذا الحكم الجازم!»

ـ «أتعشم أن تأخذ فرصتها!»

ـ «لكن مؤمنة صديق عندها عرض مسرحى الليلة!»

ـ «دورها ينتهى فى منتصف الفصل الثانى! . . زمانها الآن فى الطريق بسيارتها الفيات الجديدة ألف ومائة!»

ـ «هل سنشهد لكما عملا فى الموسم القادم؟»

ـ «فى هذا الموسم إن شاء الله! بعد هذا العرض مباشرة! ألا تقرأ المصحف أم أنك أصبحت فى غيبوبة من يوم ما عرفت سفاح المثقفين!!»

ـ «لك حق والله! أنا فعلا فى غيبوبة من يوم ما سكنت هنا فى صحراء المماليك! أصبح كل همى وتفكيرى متمركزا على المرواح والمجىء! دماغى لم يعد فيه سوى أتوبيس ومحطة!»

ـ «شفت لك سيارة نصف عمر! أو . . على فكرة الواد المذيع شفيع شلبى يركب الآن دراجة ويتنقل بها فى القاهرة ويروح بها الشغل والبيت! . . طب ما رأيك أننى احترمت هذا الولد؟ ولد عملى! افعل مثله!»

اتضح أنه كان يدخر الزجاجة من أجل مؤمنة. هى حقًا ليست شرِّيبة، بله أن تكون سكيرة والعياذ بالله، إنما هى ـ كما أعرفها وأعرف أصدقاءها ـ تنتعش بالقعدة نفسها؛ ربما يكفيها كأس واحد لكى تحرك به خيالها أو ـ كما قالت لى ذات مرة ـ تزيل به العوائق النفسية المترتبة على التقاليد التربوية الموروثة وهى عوائق تكبلها بالخجل وتعطل انطلاق ملكتها الإبداعية؛ وحتى هذا الكأس الواحد ربما رشفت منه رشفتين اثنتين لا أزيد؛ إنها واعية بنفسها جيدًا، تدرك أن الكحول يدمر الطاقة الإبداعية عند الفنان قبل تدمير قلبه وكبده أو على الأقل ينهيها وينهيه فى وقت مبكر كما حدث لفلان وفلانة من زملائها القدامى والمحدثين؛ ثم إن مؤمنة صديق ممثلة يسارية ذات موقف سياسى معارض لمنهج النظام السياسى الحاكم فى مصر والقائم على القمع والتشريد والاضطهاد والعزل والمنع حيث لافتة: ممنوع كذا المنتشرة فى كل مكان تلقى منها السخرية المريرة باعتبارها لافتة تعلن هوية النظام بكل وضوح وصفاقة واستهانة واستخفاف بالمحكومين. ومؤمنة كما هو معروف لكل من يقترب من شخصها اسم على مسمى يعنى مؤمنة بحق، يشهد

الجميع بأنها حريصة على أداء فروضها الدينية فى أوقاتها وأنها تتقى الله فى كل شىء تفعله ؛ مع ذلك تعرضت للاعتقال والسجن عدة مرات منذ أن بدأت نشاطها السياسى والفنى معًا فى الجامعة أيام كانت رئيسة اتحاد طلاب كلية الزراعة بجامعة القاهرة حيث كانت فى نفس الوقت ـ كما أشيع بقوة ـ عضوًا بارزًا فى أحد التنظيمات الشيوعية السرية التى تكونت من عناصر قيادية قديمة ممن رفضوا حل الحزب الشيوعى المصرى ومن ثم رفضوا التصالح مع ثورة يوليو .

قام بهادر أبو النور بفتح درفة الدولاب الثانية وسحب من قاعها ثلاثة كئوس من البللور الفخم ، وضعها أمامنا ، دلف إلى دهاليز البيت ، حزام الروب دى شامبر مفكوك يجرجر على الأرض وراءه كذيل طويل رخو . عاد بعد قليل حاملا صينية صغيرة عليها جردل الثلج وطبقان ، أحدهما فيه قطعة من الجبنة البيضاء والآخر فيه خيار مبشور وبعض حزم الجرجير ، وثلاث شوكات صغيرات ، وضعها بجوار الكئوس على المنضدة :

ـ «يلا يا مؤمنة !»

جلست أمامنا على الكنبة تحت الشباك المغلق الشيش استغفرت مؤمنة واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ورفضت أن تصب ؛ فمال هو بجذعه الطويل وصب لثلاثتنا فيما راحت مؤمنة تبلل منديلا ورقيا بالماء وتزيل به بقايا مساحيق ماكياج الدور الذى كانت تمثله على خشبة المسرح منذ قليل . رفعت كأسها بحركة تمثيلية متقنة ؛ فتلاقت الكئوس الثلاثة فى قرعة خاطفة نزقة بهيجة ؛ إندار كأسى وكأس بهادر إلى الشفاه الراشفة إلا كأس مؤمنة ارتد إلى المنضدة . .

اقشعر أنف بهادر بعد الرشفة؛ بذراعه الطويلة مَثَّل فى الهواء حركة كأنه يلكز مؤمنة فى جنبها، ماداً ذقنه الشبيهة بفك الحوت تجاهى بغمزة ذات معنى:

ـ «صديقك مروان الألفى أصبح صديقًا لفهمى بك القزاز!»

شهقت مؤمنة شهقة أم ثكلى؛ حملقت فى عينى بعينيها الواسعتين النفاذتين؛ لكأن جميع الجدران والأبواب قد أزيلت من حولى فصرت فجأة فى العراء كما ولدتنى أمى ـ مالت برأسها نحوى؛ همست بنبرة دافئة تنضح بالفجيعة:

ـ «صحيح يا مروان؟!»

عشيقة فجعت فى عشيقها الذى خانها مع سنكوحة من حثالة الطريق. استراح صدرى لهذا الشعور قليلا؛ حاولت أن أكون ذلك العشيق الجديد بها وحده؛ استعرت من دفء صوتها قبسًا منحنى ثقة واعتزازاً بالنفس؛ أشرت بيدى إلى صدرى هاتفًا:

ـ «وهل تعرفين أنى يمكن أن أكون هكذا؟!»

قدمت لى سيجارة بالنعناع اسمها بورسعيد؛ قالت وهى تشعلها لى بقداحتها البلاستيك الرخيصة والجميلة معًا:

ـ «فلماذا قال بهادر هذا؟ لا دخان بغير نار!»

اضطررت إلى إعادة حكى القصة من أول وجديد ولكن بتفاصيل أكثر تحديداً ووضوحًا بينت إلى أى حد قام هو برمى نفسه علىَّ من قبيل تلقيح الجتت، فمثلى الآن كمثل طفل غرير يلاعبه كلب شرس. .

قالت مؤمنة وقد خفق الدم فى خديها الأسيلين :

ـ «فعلا! هذا هو فهمى القزاز! مثل جرثومة تستوطن الجسد فلا تغادره حتى وإن مات الجسد! . . يتلون حسب الظروف يكتسب مناعة ضد الموت! حتى النظام الحاكم مصاب بنفس الداء ولا يستغنى عن أمثال فهمى حتى وإن أعفاه من منصبه! سوف يعود ويحتاجه فالنظم الاستبدادية تحتاج لكلاب الحراسة من أمثاله أكثر من احتياجها للعلماء والمفكرين! وكل المتعاملين مع هذه النظم بنجاح مصابون جميعهم بمرض الكلب! . . دعونا من سيرته عليه وعليهم اللعنة!»

بدت كأنها تحاول السيطرة على توتر شرع يغزو أعصابها. لامست الكأس بشفتيها وكان قد صار ثلجًا مذابًا فقطفت منه رشفة مقطومة ثم تركته بحركة من يتبرأ منه :

ـ «منك لله يا بهادر يا بو النور! عكرت دمى!»

هتف بصوته المبحوح ولهجته الممطوطة بتطجين أولاد البلد :

ـ «سيبك منه دا ابن كا ا ا ا لبْ! مسمار فى حذائك! اخلعيه وارمى به فى القمامة مثلما خلعه النظام ورمى به على محطة الأتوبيس يتشمس! لم يعد له إلا أن يستمتع بنفاق الناس له ليظل شاعرًا بأنه قوى ذو سلطة فى الحكومة! . . رأيى أنه سيزداد وساخة وسوف أذكركم! لكن خلاص! أصبح فرعًا يابسًا منزوعًا من شجرة يمكن لأى عفىّ أن يقطمه نصفين وليس ذلك على الله ببعيد!»

ثم غافل مؤمنة ودلق فى كأسها ما يساوى ملء غطائين فتلون

الكأس بطائف من البرتقال؛ إلا أن مؤمنة كانت شاردة، مريحة ظهرها ورأسها على مسند الكرسى محملقة فى السقف لبرهة طويلة جداً كأنها تنتظر هاتفا من السماء؛ وحين اعتدلت وشافت الكأس ابتسمت وحيته بحركة لطيفة من يدها فيما هى تلثم حافته بشفتيها ثم تعيده إلى مكانه؛ كانت كأنها شربت كأسا آخر أقوى تأثيراً وفاعلية أهاج عواطفها الجياشة، كأس الذكريات الموجعة، الراقدة فى قلبها سنين عددا. انبرت تحكى عن ذكرياتها فى سجن النساء الذى قضت فى زنازينه حوالى خمس سنوات جراء انتمائها لأحد الأحزاب الشيوعية، مما اضطرها إلى دخول امتحان البكالريوس مخفورة بالشرطة، فكانت أشهر سجينة سياسية بين عامة المثقفين طوال فترة لا تزال قريبة وماثلة للعيان فى واقعنا الراهن. . . .

٧
لحم الحرائر

. . «لو وهبنى الله موهبة ديستوفوسكى أو نجيب محفوظ أو يوسف إدريس أو كل مواهب الكتاب مجتمعين فلن أستطيع وصف مرارة سنوات السجن، ولا قذارة السجان . .

«المصيبة أننى ما كنت فعلت شيئًا أفخر بأننى مسجونة بسببه! ما كان هناك تهمة محددة أحاكم بشأنها! تهمتى أننى منتمية لحزب ماركسى أعيش وأفكر تحت ظل مبادئ سياسية واقتصادية أقتنع بجدواها! على نهجها أقبل أو أرفض المشاركة فى أى مؤتمر طلابى، أى ندوة، أى مسرحية يقدمها لى المسرح الجامعى وحتى فرق الهواة من غير الطلاب . .

«ذات فجر كاذب من عام ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين تم القبض علىّ ضمن حركة اعتقالات عشوائية واسعة شملت حتى المشتبه فى وجود علاقة له بالمشتبه فيهم!!» . .

«لن أنسى فى حياتى حفل استقبالنا، كنا حوالى خمسين سيدة معظمهن من أحزاب وتنظيمات مختلفة، البعض الآخر منهن زوجات

رجال مقبوض عليهم، منهن من تحمل رضيعًا على صدرها يصرخ وتفزَّع بشكل يذيب الصخر ألما وإشفاقا، لكن قلب بوز الإخص فهمى زفت الطين كان أشد صلابة من الصوان.. واحدة أخرى كانت حاملا فى شهرها الخامس.. لم يعف عن هذه ولا تلك.. الحامل والمرضع، من التذنيب: جلسة الإقعاء كجلسة ماسح الأحذية، فى صفوف طويلة لمدة طويلة تخنق الجنين وقد تقضى عليه وعلى أمه، وتربك المرضع فلا تعرف كيف تعطى الثدى للرضيع فى وضع مريح وقد التصقت بطنها - بالأمر - بفخذيها الملتصقين بساقيها عند انكسار الركبتين فى وضع شديد القسوة يجعل الحامل تتقيأ مخاطا أصفر وتجعل الرضيع يتلوى يتنطط كسمكة حية ألقى بها فى زيت مغلى، عيناه الفزعتان تبحثان عن تفسير لما يجرى له ولأمه من تعذيب، الرضيع الذى لم يكمل العام الأول من عمره بعد شاخت ملامحه وتكرمشت صار فى الحال من فرط الإعياء عجوزًا يبكى بكاءً واعيًا بدموع سخينة غزيرة وهو يرفس الهواء بساقيه ويديه يزلزل بصراخه الموجع صفوف المقعيات.. يصرخ السفاح فى أمه آمرا إياها بأن تسكته تكتم أنفاسه، من عجزها ترفع عقيرتها بالصوات، تتقطع أنفاس الرضيع، يختنق يكاد يلفظ أنفاسه.. ما كان من السفاح إلا أن تقدم نحوها بخطو عسكرى يخرق الأرض والقلوب بدبيبه، بكل غيظ وغلظة انتزع الرضيع من صدرها، صاح بإحدى السجانات الواقفات بعيدًا أن تتلقفه وتغور به فى ستين داهيه، طوح به إليها كالكرة، أخطأ فى تقدير المسافة، أخفقت السجانة فى التلقف، سقط الرضيع على الأرض جثة هامدة تتقيأ دما قانيا ثم لفظ أنفاسه فى الحال.. المذهل أن السفاح لم يعبأ بما حدث، لم يشعر بأنه فعل شيئًا، بل ترك السجانة حائرة بجثة الرضيع وراح ينهال بالشلوت على جثة

الأم يريد إرغامها على الامتثال للأوامر والإقعاء، لكنها ـ إثر ضربة من بوز الحذاء فى جنبها ـ تهاوت، هى الأخرى تقيأت دما ثم لفظت أنفاسها، فى نفس اللحظة أصابت إحدى ضرباته الطائشة بطن الحامل التى حاولت أن تتلقى زميلتها على ذراعيها قبل التهاوى فسقطت معها مغشيًا عليها، ماتت وأظافرها محفورة فى الأرض من شدة ما كانت تعانيه من ألم . . جاءت السجانات، رفعن الجثث بسرعة جرين بها إلى دورة المياه . .

«ذلك كان أسود يوم فى حياتى، ذهب فيه عقلى بمعنى الكلمة . . فوجئت بواحدة غيرى داخل جسدى نطت كالفراشة فوق السفاح أنشبت أظافرها فى رقبته، بقوة الدفع سقط وهى فوقه، بأسنانها قبضت على تفاحة آدم وهى تصرخ فى جنون غير مبالية بالعصى والكرابيج والشلاليت التى تنهال فوق جسدها بغزارة وجهالة، فلما رفعوها عنه بالقوة صارت تتملص وترفس بساقيها العاريتين وقد تمزق ثوبها . . صارت تصرخ هاتفة فى زميلاتها :

ـ «من القاتل؟»

يصحن وراءها :

ـ «فهمى القزاز!»

ـ «من السفاح!»

ـ «فهمى القزاز!»

«عمت الفوضى، قامت النساء كإعصار أخذن يصفقن بأكفهن فى إيقاع ندب متفجع، يدرن حول خريطة الدم المفروشة على الأرض

طازجة ساخنة فى بحيرات صغيرة تحلق فوقها أفواج من الذباب الأزرق . .

«تلك كانت غلطتى الكبيرة . . دون أن أدرى أعطيت للسفاح هدية عظيمة ، منحته مخرجا آمنا صيغ به المحضر : المسجونة مؤمنة صديق قادت ثورة من السجينات فاعتدين على مأمور السجن بالضرب والإصابات الفادحة مما جعل الحامل والرضيع وأمه ينسحقون تحت الأقدام! . . وهكذا بدلاً من أن يحاكم السفاح حوكمت أنا فى قضية إضافية أكثر ثبوتًا من القضية السياسية الهلامية ، وضاع دم القتلى فى حماقتى! . .

«أمضيت فى الحبس الانفرادى ثلاثة أعوام غير مسموح لى بممارسة أى نشاط جماعى داخل السجن ، غير مسموح لى بزيارات ، أكلف بأقذر المهام مثل تنظيف المراحيض ومسح بلاط مكتب السفاح الذى كان يلذ له أن ينجعص على كرسيه ويتفرج على مؤخرتى وساقىّ وأنا منحنية على البلاط ، قد يبصق - بدون أى سبب ظاهر . . على وركىّ المشمرين . . من شدة شعورى بالهوان قررت الانتحار . . فكرت فى وسيلة أجهز بها على حياتى لعلى استريح من ذل مقيم . . طول عمرى لم تمتد يدى على شىء ليس لى ، لكننى اضطررت إلى ذلك دون تدبير ، فوجئت بالفرصة أمامى ، إحدى الممرضات جاءت لتعالج بعض السجينات من جروح ودمامل ، وجدت نفسى أمام حقيبة طبية مفتوحة ، بخفة يد أدهشتنى أنا شخصيًا التقطت زجاجة صبغة اليود ، دلقتها كلها فى جوفى ، أعلنت فى التو بصوت عال كأننى على خشبة المسرح ، أننى أنتحر احتجاجًا على المعاملة غير الإنسانية التى ألاقيها من

إدارة السجن ومن فلان الفلانى على وجه التحديد . . مع آخر بوارق الوعى التى كانت تنطفئ شيئًا فشيئًا فى دماغى سمعت السفاح الحقير يجعر :

ـ «اتركوها تروح فى داهية! إنها شيوعية منحلة لا تستحق الإنقاذ!»

«أخر ما سمعته صرخات زميلاتى وهى ترج المكان مع الدبدبة فى الأرض والدق على الأبواب والجدران فى طلب إنقاذ زميلتهن قبل أن يتوقف قلبها عن الحركة . .

«أفقت فى المستشفى بعد غسيل معدتى ونقلى إلى غرفة الإنعاش . . كان هناك ثقب فى رئتى، قفصى الصدرى كأن شاحنة داست فوقه بططت عظامه، صرت أخرج من غيبوبة لأدخل فى أخرى، تدهورت حالتى الصحية تمامًا، بعض شرايين القلب انسدت، القولون التهب، الحجاب الحاجز انفتق يوم زغدنى الحيوان ببوز حذائه فى بطنى، اللكمات التى شُيعت إلى جنبى وفكى وظهرى ملأتنى بجروح خارجية وداخلية، صرت شُركا، مكثت فى المستشفى عاما وبضعة أشهر فى حالة إعياء تام، ولولا التفاف أهلى حولى وبذلهم الأموال الباهظة للارتفاع بمستوى العلاج والخدمة التمريضية والتغذية لما قُدِّر لى أن أعيش . . كانت قد مضت أربع سنوات ونصف السنة، بعض كبار الصحفيين كتبوا عن وضعى، توسط لى زوج شقيقتى الكبرى وهو لواء فى القوات المسلحة بعد أن كان ممتنعا عن مساعدتى بدعوى أننى شيوعية ملحدة وهو شيخ فى لباس عسكرى . . حصلت على إفراج صحى! ذلك أن حكما بالسجن عامين مع الشغل كان قد صدر ضدى فى القضية السياسية الوهمية بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم!! . .

«حين حصلت على حريتى استرددت عافيتى بعدها أجريت عدداً من العمليات الجراحية فى القلب والمعدة والرئة . . عندئذ كان الفنان نور الدمرداش فى أوج تألقه ممثلا ومخرجًا مسرحيًا وتليفزيونيا، كان بمثابة أستاذى، هو الذى اكتشف موهبتى أيام كان يخرج للمسرح الجامعى، من فضائله أنه إذا اقتنع بموهبة ناشئة احتضنها ورعاها . . أعطانى دوراً مناسبًا فى مسرحية من إخراجه لإحدى فرق التليفزيون المسرحية، ثم دوراً فى تمثيلية سهرة تليفزيونية . . انتبه لى مخرج سينمائى كبير لا داعى لذكر اسمه لأنى زعلانه منه، أصله خدعنى بدور طويل على الورق صورته فى شهر كامل لأفاجأ به عند عرض الفيلم قد انسخط إلى ثلاثة مشاهد، فيلم سقط من ذاكرتى ولا أحب أن أتذكره، لكن رب ضارة نافعة، من هذا الفيلم الذى لا يُسمى انتبه إلى المخرج المسرحى الكبير حمدى غيث فأعطانى دور بطولة مطلقة فى مسرحية شعرية تاريخية وأنا أيضًا شرفته فيها وطولت رقبته فى سلامة نطق اللغة العربية والموازين الشعرية . . ما أن انتهى عرض هذه المسرحية الناجحة حتى تم تعيينى فى فرقة مسرح الدولة ليرفع الله من شأنى فيها، هذه الفرقة هى بيتى وعائلتى ومعبدى . .

«الفن وحده ـ صدقنى ـ هو الذى أنسانى مرارة الحقد وأزال الآثار النفسية لتلك التجربة السوداء، لكننى ـ مع الأسف ـ اكتشف دائمًا أن الجرح باق كامن تحت القشرة الملتئمة، تتهيج آلامه كلما لومست هذه البقعة من نفسى . . يبدو أنه غيرى هو الذى يوجعنى، فإن كنت تنازلت عن حقى الشخصى وهذا ما أشك فى حدوثه لأنى لست أملكه فإننى لن أتنازل عن حقوق القتلى الأبرياء الذين شفتهم بعينى تحت طائلة

التعذيب الوحشى، لا بد من الثأر للطفل الرضيع الذى لن أنسى فزعته المروعة، للجنين الذى ديس بالحذاء الميرى، لعرض مصر الذى ينتهك فى كل مكان على أيدى كلاب الحراسة، نَعم لا بد من الثأر ولكن كيف؟ لا أدرى بالضبط ولكن بركان الغضب سوف ينفجر ذات لحظة، عندئذ، أجارنا الله من إعصار غاشم، إن الجراد البشرى قادم لا محالة ولو دققنا النظر فى الأفق لرأينا طليعة غبار جحافلة، ولسوف تأكل الأخضر واليابس».

الفصل الثانى

١

تقاطيع القضبان

طوى محمد شعبان جريدة الأخبار ونحاها جانبًا بحرص لكى يفوت بائع الجرائد ليأخذها ويضمها إلى المرتجع، وسحب من فوق أذنه سيجارة محشوة بالحشيش قدمها لى: ولّع! وأشعل قداحة البوتجاز ماركة رونسون التى يفخر بأنها أهديت إليه من صهره المدرس المعار إلى الكويت. انسابت أعمدة الدخان من منخرى فى سلاسة ونعومة كان محمد شعبان يرقبها مغتبطًا باعتبارها الدليل القاطع على جودة التعميرة. حيث تغرى بجذب المزيد من الأنفاس المتلاحقة.. قرأ السؤال فى عينى فأجاب:

- «نعم! من صاحبك!»

- «فهمى بك أيضًا؟»

- «ومن غيره؟ أنا على باب الله كما تعرف!»

- «حقًا إنها تعميرة نادرة!»

- «يقول إنها تجىء سرًا فى الحقيبة الدبلوماسية من لبنان! وهى ليست للبيع!»

ـ «ليست للبيع لأمثالنا!»

ـ «لكن لنا فيها نصيب! هذه حكمة ربنا!»

بدا كأنه تذكر شيئًا مهمًا:

ـ «على فكرة! الأستاذ معتز الأقصرى سألنى اليوم عنك منذ حوالى ساعة!»

ـ «قال شيئًا؟»

ـ «سألنى إن كنت حضرتك نزلت أم لا؟ قلت له إنك لم تنزل بعد! ولكن يخيل إلىّ أنه كان يسأل باهتمام! يظهر أنه كان يريدك فى شىء مهم!»

ـ «من أدراك؟!»

ـ «سمعته يسأل صلاح فسيخة إن كان يعرف بيت حضرتك؟»

ـ «الأمر إذن مهم فعلا! سأكلمه فى التليفون مجرد وصولى إلى مكتبى!»

ـ «أحب أن أقول حاجة تقف فى زورى!»

ـ «ابصقها أو ابلعها!»

ـ «يتراءى لى والله أعلم أن الأستاذ معتز غير اجتماعى؟ لا يحب الاختلاط؟!»

ـ «عزمت عليه بسيجارة ورفض؟!»

ـ «هو حتى لا يعطينى فرصة! . . كلما تكلمت معه أشعر كأنه يكلمنى من وراء القضبان!»

ضحكت حتى القهقهة العالية:

ـ «أظنك لا تعرف أنه خارج لتوه من السجن؟ من السجن إلى حفل الزفاف!»

ـ «قسما بالله العظيم لا أعرف! إنما شكله مرسوم عليه قضبان السجن! . . أنا أصلى نقابى قديم! كنت رئيس لجنة الإعاشة بالنسبة لعائلات العمال المقبوض عليهم فى قضايا تظاهرات أو إضرابات أو أى بلاء أزرق! . . كنت كل يوم والثانى فى زيارات للسجون من طنطا إلى طره إلى القلعة وحتى الواحات! . . على فكرة يا مروان بك! المسجون من كثرة ما خاطب الناس من وراء القضبان تنطبع القضبان على وجهه وتجوِّن فى نفسيته!»

ـ «كيف يا شعبان أفندى؟!»

ـ «صلى على النبى!»

ـ «عليه الصلاة والسلام!»

ـ «كمان زيد النبى صلاة!»

ـ «عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام!»

ـ «نظرة عين البنى آدم تأخذ على وضع التركيز على النظر من فرجة ضيقة! وتكون العين منكسرة دائمًا فى مواجهة ضوء الشارع أو أى ضوء! ومن يأخذ باله مثلى يرى عين السجين المزمن فيرى

القضبان من حولها حتى بعد خروجه إلى الحرية! . . الأستاذ معتز الأقصرى مثلا! حين يكلمنى من هذا الشباك يمد ذراعيه تلقائيًا ليسندهما على الجدار كما اعتاد أن يفعل حينما يكلم زواره من وراء القضبان! . . عينه مكسورة من الضوء ولهذا يلبس النظارة السوداء! كما أنه كاشش من الناس! من الكلام! وحتى مقالاته فى جريدة الأخبار فيها كششان! يريد أن يقول وفى نفس الوقت يخاف أن يقول! يلف ويدور حول الموضوع وكلما تصورت أنه سيدخل فى قلب المسألة أفاجأ به بحوّد ليتكلم فى شيء فرعى قبل أن يكمل الكلام فيما بدأه! . . أنا قارئ جرنان يعجبك يا مروان بك! تربيت على قراءة توفيق دياب وأبو الخير نجيب وأحمد قاسم جودة ومحمد التابعى وفكرى أباظة ومصطفى أمين وأحمد أبو الفتوح وإحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين! . . هؤلاء علمونا السياسة ومعنى الصحافة!»

ـ «فعلا! أنت قارئ ممتاز! أشهد لك! . . ثم إنك شخصت لى محنة صديقى معتز ببراعة وذكاء تُحسد عليهما والله يا شعبان أفندى!»

ـ «لعلمك يا مروان بك الأستاذ معتز رجل طيب وأنا أحبه جداً لله فى لله! . . منذ حوالى يومين ناديت الواد أبو الليل الفكهانى! هزأته! لأنى لاحظت أنه يلم حوله عيال صايعة! يجلسون أمام بلكونة شقة الأستاذ معتز يعاكسون زوجته كلما رأوها جالسة أو واقفة فى البلكونة! . . إنهم يتصورون أنها ابنته وليست زوجته!»

ـ «هى فعلا أصغر منه بحوالى عشرين عامًا!»

رفع سبابته هاتفًا:

ـ «خمسة وعشرين عامًا على الأقل!»

ـ «هل تحب أن ألفت نظره لموضوع أبو الليل هذا؟»

ـ «لا! . . أرجوك! . . اعتبر أنك لم تسمع شيئًا! . . سيضر الولد وستقوم مشاكل فى المحطة لا داعى لها! هؤلاء عيال صياع يبهدلون الرجل يقرفونه فى عيشته! إنه رجل محترم ومؤدب لن نرضى له بشىء من هذا! . . دع لى مهمة أبو الليل سأقرص أذنه خاصة أن الأستاذ معتز يحترم أبو الليل وأبو الليل يحترمه وينتقى له الفاكهة المخصوصة!»

حينما وصلت إلى مكتبى تلفنت لمعتز الأقصرى فى جريدة الأخبار. صوته فى الهاتف كان سعيداً مبتهجًا؛ قال إنه يريد أن يهدينى نسخة من كتابه الذى صدر منذ يومين اثنين؛ قال كذلك إنه سيقيم حفلة صغيرة فى بيته بمناسبة صدور أول كتاب يصدر له فى حياته، وأن الحفلة إن شاء الله ستكون مساء الخميس المقبل وأننى يجب أن أجوِّع نفسى من الآن استعداداً لعشاء فاخر ينتظرنى . .

كان قد حدثنى من قبل عن هذا الكتاب فى أكثر من لقاء تجاورنا فيه على مقعدين متلاصقين فى الأتوبيس. إن الكتاب مذكراته التى دونها فى سنوات السجن على ورق بافره ومناديل ورقية وعلب سجائر، عن تاريخه النضالى منذ أن التحق بالحزب الشيوعى المسمى ـ على سبيل الكود، لزوم التنكر ـ بمركز الأبحاث العلمية، وعما حدث له فى المعتقل من تعذيب ومساومات وضغوط، وعمن ضعف تحت التعذيب ومن ضوعفت قوته وصلابته. ومن خلال ذلك كله يعرض نقاط الخلاف الجوهرية بين حزبه وحكومة الثورة التى أسفرت عن وجهها

الدكتاتورى المناهض للطبقة العمالية بإقدامها على حماقة إعدام خميس والبكرى العاملين بمصانع كفر الدوار للغزل والنسيج وكل جريمتهما أنهما قادا إضرابًا لتمكين العمال من حقوقهم . . إلخ إلخ . أذكر أنه ذات لقاء أطلعنى على بعض صفحات مخطوطة لبعض فصوله طالبًا رأيى فى الصياغة باعتبارى أديبا . أذكر أن أسلوبه التليغرافى البليغ الصادق المجرد من الزخارف البلاغية قد أعجبنى حقًا ، لمست فيه قدرا من المشاعر الصادقة ، ومن صفاء الذهن ، بما يشى بأنه مشروع مفكر سياسى كبير جداً وإن كان نضجه قد تعطل داخل السجن قليلاً إلا أنه من الواضح أن لياقته الفنية والفكرية سوف تعلو فى ظل الحياة خارج القضبان . ولقد أمضينا شهوراً طويلة لا حديث لنا كلما التقينا إلا هذا الكتاب الذى سُدّت فى وجهه جميع أبواب النشر فى مصر ، حتى جريدة الأخبار لم تتحمس لنشر فصول منه ؛ لكن مجلة روز اليوسف ذات التاريخ اليسارى المشرف قامت بالواجب فى الحدود التى تسمح بها ظروف العمل وموازين السياسة ؛ اختار محررها بعض وقائع من بعض فصول وربط بينها فى سياق صحفى مثير على ثلاث حلقات قشوطت قشدة الموضوع وفرشتها للقارئ العجول فى لقيمات سريعة لكنها كانت مفيدة ؛ على الأقل أعلمت القراء بأن هناك كتابا عنوانه كذا وكيت للمؤلف فلان الفلانى . الواقع أن هذه الحلقات الثلاث فى مجلة كروز اليوسف هى التى شجعت ناشراً من القطاع الخاص على نشر الكتاب ؛ الناشر صديق ورفيق للمؤلف أى نعم ولكنه كان محتاجًا إلى هذه الرخصة الإعلامية لكى يغامر بفلوسه فى كتاب لاسم جديد فى عالم الكتب .

الحفلة كانت لطيفة؛ أقيمت فى ردهة شقة معتز، التى اتسعت لصالون وأنتريه وترابيزة سفرة بكراسيها الثمانية ودولاب فضياتها. هذه الترابيزة امتلأت بعديد من الصوانى الحافلة بمكرونة البشمل والللحوم المحمرة والحمام المشوى والأرز بالكلاوى وأصناف عديدة من السلطات؛ كل ذلك كان يجرى تجهيزه بواسطة طباخ محترف تساعده إحدى الشغالات العجوزات، أما السيدة عواطف زوج معتز فكانت متفرغة لضيوفها الذين ملأوا الصالون والأنتريه والبلكونة؛ لم أكن أعرف منهم سوى بهادر أبو النور وفايز دياب الذى تعرف على معتز بحكم الجيرة فى العمارة التالية له من ناحية كما أن فتحى ابن عم فايز دياب يعمل مستشاراً قانونياً لدار الأخبار التى يعمل فيها معتز فكانت هذه علاقة نسب عجلت بقيام الصداقة بين فايز ومعتز. أما بقية الضيوف فقد عرفنى بهم معتز على النحو التالى: عادل الطوخى صاحب مكتبة ودار نشر العروبة فى حى المنيرة، متولى درويش المترجم بوكالة أنباء روسية يترجم أخبارها إلى العربية ويترجم كذلك أعمالا أدبية لتشيكوف وديستوفوسكى وغيرهما من أساطين الأدب الروسى تنشرها دار الشرق الروسية المتخصصة فى ترجمة الأدب والفكر الروسيين إلى لغات الشرق الأوسط وأهمها العربية ولها مكتبة خاصة بمطبوعاتها فى شارع سليمان قرب ميدان التحرير خلف إيزاڤيتش مباشرة كما أنها تصدر مجلة ثقافية سياسية علمية واسمها: الشرق ويرأس تحريرها الدكتور محمد مندور فى طبعتها العربية، ولهذه المجلة يترجم متولى درويش قصصاً ومقالات أدبية وموضوعات علمية. تعرفت كذلك على ناس شرفت بمعرفتهم حقًا مثل السياسى سعيد الغلبان والناقد والصحفى سميح شكرى ورجل من أقطاب الحركة

العمالية اسمه وديع مختار والصحفى سيد ربيع تركى والصحفى سماح ثابت؛ فى تلك الأثناء طبَّ علينا الفنان التشكيلى قمر الجداوى. أربع زجاجات ويسكى بلاك ليبول طلعت تقدم أصحابها: واحدة من معتز، واحدة من عادل الطوخى، الثالثة أهديت لسعيد الغلبان من أحد أصدقائه فادخرها ليوم كهذا، الرابعة اشتراها سيد تركى من السوق الحرة بجواز سفر مستعار من أحد أقاربه. وزعت علينا نسخ موقعة بإمضاء المؤلف من كتاب: (مذكرات سجين سياسى) تأليف: معتز الأقصرى. توجه الجميع بالشكر والتقدير لعادل الطوخى الذى غامر بأمواله القليلة متحملا مسئولية نشر كتاب يكشف فظائع سجون عبد الناصر السياسية ومدى ما فى إدارتها من وحشية وإجرام يفوقان الوصف؛ وصحيح أن معتز الأقصرى أسهم فى نفقات الطبع بما يكاد يغطى معظم التكاليف إلا أن وضع اسم الناشر على الغلاف ونسبته إلى داره فيه قدر من الشجاعة غير منكور..

كانت ليلة دافئة حقًا، فاضت بالحميمية الأسرية، فرقعت فيها النكات الذكية الحراقة، برقت الأفكار الألمعية الخاطفة؛ لكنها تركت فى قلبى شعوراً بالأسى والحزن على مثل هذه العقول النيرة التى تُختصر أنضج سنوات عمرها وراء القضبان فى قهر وتعذيب وهوان لمجرد أنهم يؤمنون بفكرة ما، بمبدأ ما؛ وقد يموت الكثيرون منهم داخل السجن دون أن يرتكبوا أى جرم على الإطلاق، فيما يبرطع المجرمون الحقيقيون فى طول البلاد وعرضها.

٢
كابوس

كنت مقعيا فوق سلطانية المرحاض أتصفح الجرائد ـ التى لم تعد تصلح إلا لاستدرار الغائط فى الصباح ـ حينما وورب باب المرحاض وأطلت من الفرجة رأس فايقة زوجتى، وجهها يعلوه ارتباك وشحوب، مما جعلنى أتوجس مما سمعته منذ برهة حينما رن جرس الباب وتبعه صوت حركة وترحيب متوتر. قالت فايقة هامسة فى كثير من الاضطراب:

ـ «هناك ضابط يسأل عنك!»

ـ «ضابط؟! بملابس عسكرية؟»

ـ «نعم ضابط شرطة برتبة كبيرة!»

عندئذ دار بخلدى أن زوار الفجر غيروا مواعيدهم إلى الضحى! . . كركبت بطنى وراح الغائط يندلق فى صوت قبيح حتى خيل إلىّ أننى أطلق المدفعية فى استقبال هذا الزائر المهم. أومأت إلى زوجى بأن تقدم له التحية. كعادتى فى لحظات الخوف يحلو لى أن أرجئ مواجهة الخطر المحتمل وهى أسوأ عادة زرعتها فى طفولتى أساليب التربية القائمة على

الترغيب والترهيب والوعد والوعيد. دلفت مسرعًا إلى حجرة نومى، ارتديت ملابس الخروج؛ وإذ تبينت أن فايقة فتحت له حجرة مكتبى لينتظر فيها بدلا من الأنتريه فى الردهة شعرت بغيظ وقررت أن ألفت نظرها فيما بعد إلى أن حجرة مكتبى هذه تكاد تكون سرية لا يدخلها الغريب أيًا كانت شخصيته؛ لكننى سرعان ما عذرتها لأنها تريد أن تتحرك فى الصالة بحريتها وليس يوجد عندنا صالون مقفل. يا ألطاف الله! هذا ما لم أكن أتوقعه! أن يقتحمنى فهمى القزاز فى بيتى دون موعد سابق وبمثل هذه المفاجأة:

ـ «أهلا أهلا فهمى بك! مش معقول! يا أخى أفزعت امرأتى فأفزعتنى بدورها! أنت تعرف أن اللبس العسكرى مرعب بالنسبة للفلاحين من أمثالنا!»

ضحك ضحكته الجوانية وراح يمسح الريالة السائلة من فراغ السنتين الغائبتين من فكه السفلى. كان من فرط سروره يبدو مستمتعًا لأنه ألقى الرعب فى قلوبنا..

طاب لى أن أُشعره بعدم الاهتمام؛ لم أرحب به بالحرارة اللائقة بنا نحن الفلاحين على الأقل. جلست إلى مكتبى أرتب أوراقى واحتياجاتى فى الحافظة الجلدية التى ترافقنى أينما ذهبت؛ عندئذ نقرت فايقة على الباب مع أنه مفتوح. دخلت، وضعت صينية الفطور على المنضدة أمامه. هتف بها:

ـ «ما شاء الله! فطور فلاحى محترم!»

ـ «بالهنا والشفا!»

اعتدلت واقفة فى ارتباك؛ استدركت:

ـ «على ما قُسم! جبنة قريش! قشطة! شاى بالحليب!»

ـ «عندنا أخوه! نحن فلاحون مثلكم!»

قلت لها على سبيل التخويف الممازح:

ـ «فهمى بك القزاز مأمور سجن طره!»

تلقائيًا، ورغما عنها، هتفت مرتعبة:

ـ «استر يارب! الشر بره وبعيد!»

ضحكنا بصوت عال؛ قال هو:

ـ «يشرفنى أن أكون صديق زوجك!»

ـ «أنا آسفة! لم أقصد ولكن..»

ـ «ولكن اسمعينى!.. جئت اليوم أعزمكم على الغداء بعد غد فى بيتى إذ لا يصح أن نكون أصدقاء وفلاحين ولا تتعارف زوجاتنا.. العزومة موجهة إليك أنت يا مدام يعنى هاتيه وتعالى! سنكون فى انتظاركم إن شاء الله! ستجدين أختا لك فى بيتى! مثلك بالضبط الخالق الناطق وفى نفس السن لكأنكما من أب واحد وأم واحدة! ستندهش هى الأخرى!.. اتفقنا؟»

فايقة نظرت لى تستطلع رأيى؛ أومأت برأسى أن لا بأس ما دام الرجل بنفسه قد أخذ المبادرة. كنت مستريبا فى الأمر ومع ذلك وافقت!! لعلنى كنت شغوفًا بدراسة شخصية السفاح ممثلة فى

شخصه؟ ولكن أن يكون السفاح صديقى فإن هذا ما قد راح يزلزلنى رعبا من حدوثه إن كان من الممكن أن يحدث أصلا ؛ ولكن ما حدث الآن من دعوته لى ولزوجى على الغداء فى بيته ليس يحدث إلا بين الأصدقاء فهل تراه سينجح فى صداقة لست أريدها؟! إذن فلماذا لم أرفض دعوته بشكل حاسم؟ يغلب علىّ الظن بأننى أريد أن أفهمه جيدًا، إن السفاح بقدر ما هو مخيف ومنفر هو أيضًا مثير للفضول جاذب للفرجة؛ ثم إنى أريد أن أعرف ماذا يريده منى على وجه التحديد؟!..

عند خروجنا من بيتى فوجئت بسيارة ملاكى راكنة لصق السور المزروع فاتحة بابيها فى انتظارنا؛ لقد رأيت هذه السيارة من قبل؛ تبين لى بمجرد اقترابى منها أنها سيارة المليونير الحاج كامل سراج الدين، على أن الجالس وراء عجلة القيادة هو صبيه وسائقه خربوش أبو أصبع بزنديه المفتولين وصدره البارز ووجهه الدائرى المكلبظ وحنكه الواسع الغليظ الشفتين تغلفه مسحة من بلاهة سميكة. على الكرسى المجاور له شاب فى حوالى العشرين من عمره مثل صهرى سمير الشيخ شقيق فايقة المقيم معنا يدرس فى الجامعة. الشاب يرتدى قميصا وبنطلونا، ريفى كصهرى بالضبط، قدمه لى فهمى من جلستنا على الكنبة الخلفية:

ـ «عبود الشامى! نسيبى شقيق المدام يعنى! طالب فى كلية التجارة جامعة القاهرة ويعيش معنا فى الشقة!.. أظن عندك مثله؟»

وضحك ضحكة غامضة، سألته:

ـ «صورة طبق الأصل منه ولكن إيش عرفك؟!»

ضحـك :

ـ «شفته معك أكثر من مرة! وتعرفت عليه مرة فى الأتوبيس!»

استدرك مشيرا إلى خربوش :

ـ «أما هذا فأنت رأيته من قبل!»

ـ «طبعًا! خربوش أبو أصبع!»

ـ «ولد جدع! يعجبك!»

لفتْ السيارة ودخلت فى شارع خلف بيتى، راحت تسير ببطء إلى أن توقفت أمام الجمعية الاستهلاكية ولكن عند بابها الخلفى الذى تدخل منه البضائع؛ كانت مؤخرة السيارة فى داخل فتحة الباب؛ وأثناء مرورنا بالباب الرئيسى لمحت بهادر أبو النور يقف فى طابور ممتد إلى ما يقرب من الكيلو متر وسط نسوان من دلالات وأمهات عيال تعيسات وقفن ها هنا من طلعة النهار ينتظرن دورهن؛ وكنت على علم بأن فايقة متفقة مع واحدة من هاتيك الدلاّلات على أن تقف بدلاً منها فى الطابور وتحصل على الطلبات فى مقابل أجر متفق عليه بينهما، فشعرت بوجع مؤلم فى صدرى وبغمامة من الكآبة تزحف على عينى. نزل خربوش أبو أصبع وفتح شنطة السيارة الخلفية؛ ونزل فهمى بك ودعانى للنزول فنزلت. هرول مدير الفرع فى استقبالنا؛ قدمنى فهمى له :

ـ «مروان بك الألفى الصحفى المعروف!»

صافحنى المدير بحرارة، أومأ لمن يقف حوله من عمال؛ ففى الحال

راحت شكائر الأرز وعلب السمن وكراتين البيض والدجاج واللحم والسكر ترتص فى شنطة السيارة حتى ملأتها عن آخرها؛ أغلقها خربوش وعاد إلى عجلة القيادة فيما كان فهمى بك يدفع الحساب؛ وفيما كنا نمر من أمام الباب الرئيسى كما يفرض علينا الشارع الدائرى حيث الطابور لا يزال ممتداً شاهدنا مدير الفرع يخرج إليه هاتفًا فى نبرة أسيفة :

ـ «خلاص يا جماعة! نفدت الكمية التى وصلتنا! أصلها كانت محدودة وأنتم كتار! . . غداً إن شاء الله تجىء كمية أكبر!»

ارتفع الهياج إلى حد الزئير الغاضب؛ سمعنا اللعنات الصارخة تنهال على أكبر الرءوس فى الدولة، وسمعنا صوت بهادر أبو النور يتهم المدير وجميع المسئولين فى وزارة التموين بالتعريص والكوسة، ويهددهم بأنه سيفضحهم جميعًا فى الصحف. وفيما كنت منكسا رأسى فى شعور بالقهر والضجر كان فهمى القزاز يهتز جسده بعنف من عمق الضحكات التى يدلقها فى صدره، والمنديل القذر المكرمش لا ينى يمسح الريالة عن ذقنه وشفتيه. أمام بيته توقفت السيارة؛ نزل كل من خربوش وعبود وراحا ينقلان ما فى شنطة السيارة إلى البيت؛ لحظتئذ حانت منى نظرة إلى الشرفة المستطيلة المطلة على الشارع فرأيت شابة جميلة حقًا، سمهرية القوام رشيقة فى الروب دى شامبر المحبوك حزامه حول خصرها الرفيع المشدود محددا عجيزة مقببة فى إنسيابية ناعمة فاتنة، شقراء كستنائية الشعر الغزير المملوم تحت منديل حريرى فسدقى اللون؛ على وجهها وَحْمة كبيرة دائرية بنفسجية اللون تشمل مساحة من الشفتين المكتنزتين الشهوانيتين وقد انعكس اللونان الفسدقى

والبنفسجى فى بحيرتى عينيها العريضتين الناعستين قليلا وإن كان بريقهما يشى بشخصية قوية حادة صارمة مؤيدة بتقاطيع وجهها الحادة؛ كان الشبه بينها وبين أخيها عبود واضحًا وقويًا مما أكد لى أنها لا بد أن تكون هى زوج فهمى بك الذى ما لبث حتى قطع الشك باليقين، نزل وأشار لها نحوى صائحًا:

ـ «بلغته خبر العزومة! وسوف يلتزم بها أمامك الآن!»

دفعت الباب ونزلت:

ـ «صباح الخير يا مدام! أنا يشرفنى المجىء طبعًا وزوجتى كذلك!»

يا لجمال صوتها ورقته الموسيقية المجلجلة فى غير صخب جلجلة الحرارة الفلاحية فى صوت زوجى فايقة، المترفقة فى غير تصنع:

ـ «فرصة سعيدة يا مروان بك! بلغ سلامى إلى المدام مؤقتًا! سنتشرف بحضوركم!»

ثم وجهت كلامها لزوجها:

ـ «فنجان قهوة على الماشى! أظن واجب!»

نظرلى كأنه يستطلع رأيى؛ أشرت إلى ساعة يدى:

ـ «الوقت أزف! عفوًا يا مدام! كأنى شربتها!»

لوحت لها بذراعى، ركبت السيارة؛ ركب فهمى بك، تخلف عبود؛ لفَّت السيارة وعادت من جديد إلى نفس الطريق؛ توغلت بنا فى المبانى العشوائية الأولى التى كانت هى النواة البدائية لضاحية صحراء المماليك قبل تقسيمها ودخولها فى التنظيم؛ قال فهمى بك:

ـ «لدى مشوار بسيط فى رئاسة الحى! دقائق معدودة إذا سمحت!»

كنا قد صرنا أمام رئاسة الحى بالفعل فأمسكت عن الاحتجاج بضيق الوقت. لكنه قال لى: تفضل معى! اضطررت إلى النزول على مضض ومرافقته إلى مكتب رئيس الحى الذى اتضح أنه كان لواء سابقًا فى الجيش؛ حينما قدمنى له فهمى بك صافحنى بحرارة قائلاً إنه طول عمره من قراء روز اليوسف وصباح الخير ويعرف كل محرر فيهما؛ سرعان ما جاءت القهوة؛ بدا عليه أنه يريد التملص من شىء ما، بدا كذلك أن فهمى بك يحاصره:

ـ «لن نمشى اليوم إلا ومعنا عُقَّادُ نافع!»

قال رئيس الحى:

ـ «على فكرة يا فهمى بك! المكان الذى اخترته حضرتك لإقامة كشك سجاير وحلويات لأحد أقاربك اتضح أنه مستحيل! لأنه داخل فى تقسيم ولا أحد يقدر على اختصاره منه!.. ولكن.. لا تنزعج! لقد اخترت لك مكانا بديلاً!»

سحب من درج مكتبه خريطة، فردها أمام فهمى بك؛ بسن القلم الرصاص أشار إلى ناصية شارع مرسوم، أحاط بالقلم بقعة على الناصية:

ـ «ما رأيك فى هذا المكان؟»

بدا على وجه فهمى شىء من التردد القابل للموافقة بأقل جهد؛ استدرك رئيس الحى:

ـ «لو هذا المكان أعطيك الموافقة الآن فوراً على الطلب!»

ابتهج فهمى بك :

ـ «وهو كذلك! أمرنا لله! ويازين ما اخترت!»

بحماسة فتح رئيس الحى درجه وقلب فيه حتى أمسك بعريضة معينة، وقع عليها بإمضاء ثم دمغها بخاتم الحى وسلمها لفهمى بك :

ـ «مبروك عليه!»

ـ «نخدمك فى الأفراح إن شاء الله!»

طواها ودسها فى جيب السترة ونهض واقفًا :

ـ «اسمح لى بالانصراف لأن مروان بك تأخر عن شغله! سنتقابل فى أقرب فرصة ممكنة!»

قال رئيس الحى بلهجة ذات معنى :

ـ «نحن يهمنا أن ترضى عنا روز اليوسف وصباح الخير!»

وجعتنى هذه التوريطة العابرة، قلت وأنا أصافحه :

ـ «روز اليوسف ليست مستفيدة من هذه الصفقة ولا شأن لها بها! ثم إننى لا علاقة لى بصاحب هذا الطلب! إنما أنا رافقت فهمى بك إلى هنا عن طريق الصدفة المحضة! . . لزم التنويه!»

وضحكنا. قال فهمى بك :

ـ «لا تكن حنبليًا! الرجل يداعبك!»

كانت يد الرجل لا تزال فى يدى فضغطت عليها بغمزة ذات معنى :

ـ «وأنا أيضًا أداعبه! هكذا!»

فى الطريق إلى مكتبى فى المجلة لم يكن يشغل ذهنى سوى سؤال جعل يتردد بإلحاح طوال الطريق : كيف يمكن لمثل هذه الغادة الرقيقة الفاتنة الشبيهة بالقصيد الشعرى أن تعيش مع سفاح بلا قلب بلا مشاعر؟! بل كيف يمكن لها أن تنام معه فى فراش واحد؟! . .

حينما أنزلنى أمام المجلة وانصرف تذكرت أننى بعد غد سأتناول الغداء من يديها أنا وزوجى، فأصابنى اضطراب عظيم غامض ظللت طوال النهار أحاول الكذب على نفسى فى محاولة لإنكار أسبابه الحقيقية : خفقان قلبى بقوة أمام فاتنة من فاتنات حواديت ألف ليلة وليلة بدت لى حبيسة سفاح زنيم!! .

٣
صَعْقة الرحيل المفاجئ

شيء عجيب جدًا، فباستثناء حجرة مكتبى ومكتبتى يكاد بيت فهمى القزاز يكون هو نفس بيتى بحذافيره: الصالون المُذَهب، الأنتريه، ترابيزة السفرة فى صالة مستطيلة منقسمة بقاطوع من ضلعين قميئين متقابلين تربط بينهما ستارة ثقيلة مفتوحة مبرومة الشقين المربوطين فى وتدين على الجانبين بما يجعلها شكل فتحة باب الخيمة. نفس الذوق فى الألوان، فى ترتيب قطع الأثاث، فى وضع الأشياء والبراويز، بل أكاد أشم نفس رائحة بيتى نفسه؛ ثمة قاسم مشترك، ترى هل يكون فى تشابه الزوجتين، بمعنى وحدة الثقافة الفلاحية؟ إن فهمى القزاز كما ألمح لى ذات مرة ينحدر من عائلة كبيرة جدًا موزعة الأصول والفروع على معظم عواصم شمال الدلتا وكان أحد أقطابها الشيخ القزاز عالما أزهريا مرموقا بين رجال الفتوى وكان شيخ أزهر فى فترة ثم نائبًا برلمانيًا عن دائرة بلدته نبروه فى فترة تالية ثم وزيرًا للأوقاف ثم نائبًا برلمانيًا لفترة ثانية بقى فيها حتى وفاته. وكان فهمى قد قال لى إن الشيخ القزاز عمه لزم أما زوجه خيرات الشامى فإنها تكاد تكون شقيقة لزوجى فايقة الشيخ التى هى إلى ذلك ابنة عمتى. المشترك بين

فايقة الشيخ وخيرات الشامى كثير ولافت للنظر، نفس الطابع، نفس النَفَس، كلتاهما تفوح منها رائحة السمن البلدى، على بشرتها التهابات فرن الخبيز على الخدود الفطير المشلتت؛ إلا أن خيرات مفنطة، متوركة؛ إنها كما علمت اليوم رئيس حكيمات مستشفى الشرطة أما فايقة فقد توقف تعليمها عند الشهادة الإعدادية إذ إنها تعثرت فى الثانوية العامة فلم تكمل ولم تتوظف؛ كما أن خيرات تملك جسداً عبقريًا لا بد أن يهتز منه وقاراً أعتى حكماء الرجال فلا يجد مفراً من مغازلتها أو ملاطفتها أو على الأقل يطلب الصلاة على النبى؛ تعتنى بزينتها وإن ببساطة آسرة، بملبسها الثمين المستورد؛ تتميز كذلك بلباقة مدهشة، تتحدث بالعامية الراقية المطعمة بالفصحى وببعض مفردات إنجليزية إذا ما تطرق الحديث إلى العمل المهنى، حديثها ودود، تلقائى ولكن على أرضية من الذكاء والفطنة وعفة اللسان وقدر كبير من المعارف العامة مما يشى بأنها قارئة ممتازة على الأقل للصحف والمجلات السيارة..

مثلما يحدث فى بيتى بالضبط راح أخوها عبود يوالينا بالخدمة الفياضة بروح المحبة؛ جىء بزجاجات بيرة مثلجة، أطباق سلاطة خضراء طازجة مع الجبنة القريش والمش الكهرمانى العتيق كأنه جىء به من بيتنا. مثلما أنا معجب بصهرى سمير الشيخ الطالب بكلية الزراعة والمقيم معنا أيضًا ويقوم بنفس الدور فى بيتنا كان فهمى بك هو الآخر معجبًا بصهره عبود الشامى. غير أننى ما لبثت حتى استشعرت فرقًا شاسعًا بين الإعجابين فأنا معجب بسمير إعجابى بابن شاركت فى تنشئته وقامت بينى وبينه علاقة أبوية صادقة أما فهمى بك فإعجابه

بعبود اتضح لى أنه من قبيل «أكل العقل»، يعنى الضحك على عواطف الولد بمدح زائف وتشجيع أجوف لكى يستحثه على التفانى فى خدمته بكل ما لديه من طاقة وليس يعنيه بعد ذلك إن نجح الولد فى دراسته أو أصيب بالفشل الذريع. لم يكن يتورع - وهو منخرط فى امتداح نشاط أبو سمره وجدعنته - عن النظر نحوى بعين خبيثة صفراء وغمزة خاطفة يرقص لها خده متكرمشا منضغطًا فى منخر الأنف، غمزة تكاد تقول بوضوح إننى أهجِّص ولا أعنى ما أقول بل إنى فى الواقع أسخر من هذا الولد الأبله وأخادعه ليخدمنى بإخلاص!..

شخص غير مريح على الإطلاق فهمى بك هذا، ولولا أن جاذبية زوجه خيرات الشامى كانت تضمخ البيت بعطر نفاذ منعش لطهقتُ من قعدته بعد ثلاث دقائق على الأكثر. وفعلا كنت أتعجل الانصراف من لحظة قدومنا؛ لكننى سرعان ما صرت ميالاً للبقاء أطول فترة ممكنة.. صار فهمى القزاز أشبه بشيكارة محشوة بالدبش المدبب ملقاة على تخومى كلما نسيت أمرى لبرهة وشرعت فى عدل قعدتى أفاجأ بها قد زغدتنى فى مواضع مؤلمة تجعلنى أكاد أجأر بالصراخ؛ جميع ملاحظاته لا تخلو من خبث، تعليقاته جارحة، حتى ترحيباته ممجوجة، وصوته عاطل من الشعور بله أن يكون صادقًا أو حتى كاذبًا..

سخريته المتواصلة بالغمز من عبود وجعتنى، قلت كأننى لا أريد لفت نظره:

- «إنما صهرك عبود هذا شاب لطيف جدًا ومؤدب!»

شوح بذراعه فى قرف:

ـ «عالم زبالة! أنا الذى علمته الأدب!»

ـ «يمتّ إليك بصلة قربى؟»

رشقنى بنظرة استنكار طافحة بالغطرسة:

ـ «لا لا لا! . . إنهم ناس على قد حالهم! كانوا يشتغلون فى أرضنا الزراعية الواسعة فى نبروه نواحى المنصورة! أنفار يعنى! وحينما تخرجت أنا فى كلية الشرطة كانت امرأتى خيرات هذه تلميذة فى الابتدائية! أبوها برغم فقره علم أولاده! بفلوسنا طبعًا وبمساعدتنا وتشجيعنا للعيال بالملابس والهدايا والمصروفات فالخير كثير! ابنه الكبير تخرج فى كلية دار العلوم وعين مدرسًا إعداديًا ثم ثانويًا وطول عمره يصاحبنى ويلبس ملابسى ويصرف من جيبى! وحينما دخلت خيرات مدرسة الحكيمات وصارت عروسًا تقاتل عليها شبان البلد! لكنها كانت قد أحبتنى بجنون! رفضت كل العرسان! كان من بينهم أحد وكلاء وزارة الخارجية أبوه عمدة قرية فى قليوب وهو من الأثرياء يملك طينًا ومحلات! . . دخل العريس بإغراءات فاحشة: الشبكة سيارة ملاكى باسمها غير الذهب! شف أنت ماذا يكون الباقى! بينى وبينك أنا كنت أرتب للزواج من طبقة أعلى! بنت واحد مسئول كبير ينفع فى هذا الزمن الأغبر! . . هىء هىء. . كان ذلك سهلا خل بالك! عائلات كبيرة كثيرة كانت تتمنى أن أشير بأصبعى على واحدة من بناتهم! بدون أى مهر! شخصى وحده فيه الكفاية! . . لكن المسألة دخلت فى عند وتحد والعند كما تعرف يورث الكفر! . . أولاد الحلال اشتغلوا بالزن على أذنى طلعوها فى دماغى!

سخنونى: كيف يأخذها منى هذا الوكيل وزارة وهى التى تحبنى أنا؟ . . استخرت الله ونمت! رأيت فى المنام أننى مكلف بالقبض عليها فى قضية مجهولة وأننى قبضت عليها بالفعل وسحبتها من يدها إلى عربة الشرطة البوكس فورد! ثم فوجئت فى نفس المنام بأنها جالسة بجوارى على كنبة عالية ويدى لا تزال قابضة على رسغها ثم فوجئت بأننى ألبسها حلقة الكلبش فى رسغها الأيمن! . . فى الصباح قلت: ما بدهاش! خطبتها وتم الزواج فى بحر شهرين! . . فرحتى كانت لا تقدر بمال! ليس لأننى فزت بالعروسة لا بل لأننى انتصرت على غريمى وحرمته منها! . . هل تتصور؟ لقد مات بحسرتها! مقهوراً من الغيظ! . . قالوا إنه انتحر! وقالوا إنه مرض وراثى! المهم أنه غار فى ستين داهية! أنا أصلى . . موتى وسمى من يتحدانى أو يزايد علىّ فى شىء أو يستهزئ بى! . . سنة أم اللى خلفوه سودة ومطينة بطين من تكون أمه داعية عليه فى ليلة مفترجة فيتحدانى أو يدوس لى على طرف! . . أفقد عقلى فى مصارعته! ليس يهدأ لى بال إلا بعد أن أدمره تدميراً وأستمتع بالفرجة عليه وهو منسحق تحت نعل حذائى البيادة!»

صار صوته الشبيه بصوت تفريغ الزلط من قصعة المونة يتباعد؛ وكان عقلى الباطن يقاومه ليزيحه من كاهلى بعد إذ تهرأ جسدى من طعنات الدبش المدبب، زحف الوسن على عينى فأسلمنى إلى عتبات النعاس وإن بقيت جفونى متشبثة بالفنجلة الكاذبة؛ ما أن تباعد قرع الزلط الغوغائى الفاضح المزعج حتى تناهى إلى سمعى طرطشات

نغمية مبهمة، أطاحت بالنعاس؛ اتضح أن هدير النغم هو صوت خيرات الشامى بشخلاته الذهبية المنعشة يدعونا إلى الغداء باسم الله. . خيرات الشامى وفايقة الشيخ فراشتان جميلتان فاتحتان للشهية. بعد الأكل تربعنا على الأرض فوق الشلت متكئين على المساند؛ فتحنا التليفزيون وجعلنا نأكل الفاكهة ونتكلم فى موضوعات متناثرة لا أصل لها ولا فصل كأنها محض غازات تطردها الأذهان بعد التخمة. جاءنا من المطبخ صوت بكاء طفلة إيقاعه مزعج جداً؛ حمدت الله أنه ليس صوت ابنتى رشا؛ لكن فهمى القزاز تقبض وجهه صار كالكرة الشراب المليئة برقع وخرق من اللباد المخيطة بالدوبارة، صرخ فى اتجاه المطبخ؛ صرخته كانت عدوانية حادة، كفيلة بأن تزعج الموتى:

ـ «إخرسى يا بنت ديك الكلب!»

نظرت فيه مبهوتا، لكننى سرعان ما عذرته من فرط ما كان بكاء الطفلة مقبضًا كعواء الكلب حين يرى شبح عزرائيل فى الأفق كما يعتقد أهالينا فى هذا الصوت بالذات؛ ضحكت رغما عنى ضحكة أسيانة قصيرة. . قال كأنه يعتذر:

ـ «يا أخى هذه البنت صوتها شؤم وبكاؤها شؤم!. . إتفوه!»

شاغبنى خاطر خبيث: ترى هل يلاحظ أن صوت بكاء ابنته كان طبق الأصل من صوته هو؟ وأنه أطلق هذا العواء نفسه طوال قعدتنا أكثر من مرة بذريعة الضحك؟ إن بكاء ابنته صورة طبق الأصل من ضحكه، وكلاهما صورة طبق الأصل من صوت عواء الكلب المفزع حين يشهد طيف عزرائيل مخيما على المكان!. .

فجأة انتبهنا على أن شاشة التليفزيون منذ ساعة مضت لا يشغلها إلا شيخ يقرأ القرآن، ينتهى عبد الباسط ويأتى الشيخ مصطفى إسماعيل وبعده الشيخ كامل يوسف البهتيمى!! . . استربنا فى الأمر، ضغطنا على زر القنوات، نفس المشهد؛ عظمت الاسترابة؛ فتحنا الراديو، القرآن على جميع المحطات . .

ضحك فهمى بك ضحكته الجوانية ومسح الريالة عن شدقيه، مال برأسه نحو كتفى بحميمية زائفة:

ـ «ما خوف إلا أن يكون اللى بالى بالك مات!»

شهقت من فزع:

ـ «تقصد جمال عبد الناصر؟!»

ـ «ومن غيره؟!»

انتفض قلبى، خرجت عن طورى، شخطت فيه بغضب واستهجان:

ـ «تف من بقك! فال الله ولا فالك!»

هل كنت اعتقد أن عبد الناصر مخلد فيها ولا يمكن أن يموت؟! أم أن الموت كان مفاجأة غير متوقعة؟ . .

فعلا! كانت المفاجأة صاعقة؛ انسحب القرآن عن الشاشة وظهر وجه أنور السادات ينعى إلى الأمة رحيل الزعيم الخالد. عندئذ انفجر فهمى القزاز فى ضحكة سوقية تنضح بالتشفى، كأطفال الشوارع السفلة مدّ بوزه نحوى مدلدلا لسانه سخرية وكيداً لى كناية عن التعبير

عن صدق حدسه فى مقابل شخطتى الغبية فيه؛ لكن ضحكته السافلة انقطمت فوق لسانه المقرف تحت وابل من صوات ملتاع راح يندلع من كل حدب وصوب؛ زوجى وزوجه وزوجات وأمهات لا حصر لهن تفتقت عنهن جنبات الكون حتى صار الفضاء كله صراخًا حراقا كأن الكرة الأرضية قد ثكلت أعز وأمجد عيالها منذ فجر التاريخ إلى اليوم . .

أربعة أطفال أصابهم الفزع فارتجت الأرض من صراخهم، لكأنهم يدركون أبعاد الكارثة : إيمان وزياد فهمى القزاز، وحسين ورشا مروان الألفى . أربعتهم كانوا فى أعمار متقاربة جداً بل ومتماثلة بشكل عكسى، فابنته إيمان فى سن ابنى حسين، وابنتى رشا فى سن ابنه زياد، الفرق عام واحد بين كبيرهم وصغيرهم وجميعهم فى سن الالتحاق بالمدرسة وبالحضانة . ما لبثت فايقة حتى احتوت إيمان وزياد فى حضنها، فى المقابل احتوت خيرات رشا وحسين . هدأ العيال لكن بكاءهم لم ينقطع . قالت خيرات وهى تحاول السيطرة على صوتها المرعوش الواهن :

ـ «العيال فاهمون! يبكون على مستقبلهم!»

قالت فايقة :

ـ «قولى على مستقبل مصر والعرب!»

شوح فهمى فى احتجاج، مستهولا :

ـ «مش قوى كده! على إيه الحرقة دى كلها؟ كلب وراح! دكتاتور خرب البلد وعيشنا فى رعب وجلب علينا عار الهزيمة وجوعنا

فلمـاذا نبكى عليـه؟ إنى والله فى دهشـة من أمـركـم! . . لماذا لا تتفـاءلون برحيله؟ طب مـا رأيكم أن الله يحب مصـر وأراد لهـذا الطاغية أن يغور فى كسحة؟ أعصابكم! أعصـابكم! . . قم بنا يا رجل!»

نتر نفسه واقفًا يستحثنى على الوقوف مثله فوقفت:

ـ «إلى أين؟ الدينا اسودت فى عينى!»

ـ «نشرب لنا حجرين معتبرين نبخر بهما رأسينا بعد هذه الفزعة الكدابة!»

كراهيتى له وصلت إلى جيوبى الأنفية فسدتها تمـامًا، أريد سكينًا أرشقـهـا فى قلبـه الآن فورًا؛ لكننى كنت فاقدا للعزم، غـارقًا فى بئر الذهول المعتم أتوق إلى الخروج منه قبل أن أفطس؛ لم أجد مهربًا من فهمى بك إلا إليه، انصعت إليه، أومأت لفايقة بأن تستعد للرحيل؛ فوقفت ولَمّت نفسها ووليدها. صاحت خيرات:

ـ «إيه؟ ستشربين حجرين معهما؟!»

تبسمت فايقة:

ـ «أفوتك بعافية!»

هتف فهمى بجدية هائلة:

ـ «ماذا؟ طلاق تلاتة ماتمشين الآن!»

قلت فى ضراعة:

ـ «إعفنى من الحجرين! لا مزاج لى فعلا!»

ـ «طلاق بالثلاثة ما أعفيك! أهى فوضى؟ دخول الحمام سهل إنما الخروج بترتيب! أنت الآن أحوج ما تكون إلى حجرين. . واد يا عبود!»

ـ «نعم يا أبيه؟»

ـ «بعد أن تأخذ المدام سهرتها أو فى أى وقت تشاء قم بتوصيلها لحد البيت أنت وأختك. . مفهوم؟»

ـ «حاضر يا أبيه!»

قالت خيرات وهى تحيط كتف فايقة بذراعها:

ـ «إتكل على الله وأتركها أمانة عندى!»

تأبطنى؛ خرجنا من البيت؛ مشينا مسافة طويلة فى شوارع تحت الإنشاء لكنها شبه متكاملة فى المرافق وعلى شىء من الجمال والهدوء. عند عمارة تحت التشطيب توقفنا؛ صفق بيديه صائحًا: يا عطعوط!. . خرج إلينا بواب عجوز أهتم خفيف الظل، هتف بحرارة:

ـ «سعادة البيه! يا مرحب يا مرحب!»

وصاح نحو الداخل:

ـ «وسعى يا مرة! تفضلوا!»

دخلنا فى سرداب ضيق، قادنا إلى عشة فى فناء خلفى تابع للعمارة. دخلناها، خلعنا الأحذية؛ تربعنا فوق حصير. كانت قصعة

النار مشتعلة وجمرات القوالح تبصُّ من خلال الرماد. إن هى إلا دقائق معدودة حتى جاءت الجوزة والحجارة وارتصت التعميرات بغير حساب. انبرى صبى صغير نشيط ينقِّل الجوزة بيننا يسقينا بمزاج رائق: ظللنا صامتين مطرقين لوقت طويل كأننا لم نتعلم الكلام بعد.. ثلاثة أطقم بثلاثين حجراً لم تفلح فى تعتعة الصمت، بل لم تفلح فى رفع رءوسنا عن الإطراق غرقًا فى بحر الذهول..

منذ برهة ظننت أن عين الصبى الذى يسقينا مطروفة مما جعلها تسح دمعًا؛ فإذا بى أتأكد من أنه يبكى، وأنه كان يحاول مداراة البكاء لكن الدموع غلبته فأخذ ينهنه بصوت عال وجسده ينتفض. نظر إليه عطعوط فى أسى وقد تعاطفت عيناه مع عينى الصبى فسبحتا فى بحيرتين من دموع عكرة، ونظر إليه فهمى القزاز فى احتقار وأنفة ثم شخط فيه:

ـ «مالك ياد انت بتعيط ليه؟!»

مسح الصبى دموعه بكم جلبابه وقد فاض وجهه بالألم المكظوم، ثم قال بصوت متهدج خلال البكاء:

ـ «أبو عبد الناصر مات يا بوى! ما دريتش ولا إيه!»

برغمنا ضحكنا، لكننى شعرت بموقف الصبى على نحو مؤلم؛ إنه يبلغنا الخبر كأننا لم نعلم به؛ لقد شك فى أننا نعرف الخبر؛ منذ بدأت القعدة وهو متحفز ينتظر تعليقاتنا على هذا الحدث الجلل فى تاريخ أمة العرب؛ كان فى الواقع ينتظر منا شيئًا يعزيه فى مصابه الأليم، يطفئ أو يخفف ما قد راح يعتمل فى نفسه من قلق واضطراب برحيل

عبد الناصر . . الواقع أننى لم أفطن إلى ذلك إلا على ضوء ملاحظة ذكية أبداها عطعوط البواب وهو يربت على كتف الصبى :

ـ «معلهش يا ابنى؟ إبك وحدك فالمصاب مصابك!»

وبكى هو الآخر . انتفض فهمى واقفًا :

ـ «بنا يا رجل! الناس من شدة خوفها المتأصل فيهم منه يتصورون أنه ـ وهو ميت ـ سيعاقب من لم يبك عليه! هىء هىء هىء!»

قال عطعوط :

ـ «وهذه الحجارة من يشربها؟»

شوح فى وجهه :

ـ «إشربها أنت وصبيك فى المعزى!»

فيما كنا نقترب من بيته لمحنا خيرات وفايقة والعيال يبتعدون فى اتجاه بيتى . واصلنا السير وراءهم؛ أكملنا السهرة فى بيتى؛ انبهرت خيرات بالمكتبة ونسيت نفسها وراحت تتجول بين الأرفف تقلب فى كتب بعينها فى شغف الجائع يفاجأ بنفسه أمام مائدة حافلة . عند انصرافهم قالت وهى تقاوم الخجل والتلعثم :

ـ «إ . . على فكرة يا أستاذ مروان! . . أنا لى محاولات فى الكتابة! خواطر وشجون وشعر منثور! . . هل عندك وقت لقراءتها؟»

ـ «يسعدنى جدًا أن أقرأها!»

فى نفس الليلة عاد أخوها عبود الشامى وأعطانى دفتر يومية من

دفاتر الشكك الخاصة بالبقالين، ملىء بخربشات خطها دقيق وجميل، فيه من الشطب أكثر مما فيه من جمل قابلة للقراءة، خواطر تحاكى كتابات جبران خليل جبران ومصطفى صادق الرافعى، وأخرى من تأثيرات إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى ونزار قبانى؛ لكنها تؤكد بحسم قاطع أن خيرات الشامى جوهرة إنسانية غاية فى النقاء والأريحية والقدرة على البوح المتحفظ اللماح، فداخلنى يقين بأننا قد نصير أصدقاء بصرف النظر عن كونها زوجة السفاح.

الفصل الثالث

١

كشــف نظــَّارة

قليلا ما كان الدكتور فايز دياب يركب الأتوبيس معنا إذ إن سيارة من القوات المسلحة كانت تأخذه من البيت وتعيده إليه. فى نفس الوقت - على شدة ثرائه العائلى - هو يحب ركوب الأتوبيس من حين لآخر مع أنه يملك سيارة ماركة ججوار تكاد تكون جديدة أراها دائمًا مركونة لصق الرصيف المحاذى لبيته مغطاة بكسوة من الكتان. للدكتور فايز عيادة خاصة باسمه فى شارع الفلكى وسط مدينة القاهرة، وشريك فى مستشفى استثمارى كبير يجمع كل التخصصات ويقع بالقرب من نيل المعادى فى الشارع الخلفى للكورنيش. أوقاته موزعة بانتظام، هو صباح كل يوم فى المستشفى العسكرى، مساءً يذهب إلى عيادته ثلاث ليال فى الأسبوع؛ بقية الليالى للمرور على المستشفى الاستثمارى لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات؛ إلى كل ذلك هو أستاذ فى كلية الطب بجامعة القاهرة. فى المشاوير المسائية البعيدة فحسب يستخدم السيارة، أما فى المشاوير القريبة فيحلو له ركوب الأتوبيس أو التاكسى إن كان مستعجلاً؛ ذلك لأن قيادة السيارة ترهقه عصبيا ومن ثم بصريا . .

في واحد من هذه المشاوير الأتوبيسية شكوت له من زغللة فى عينى تشككنى فى سلامة النظارة الطبية التى ألبسها مذ كنت صبيا وأغير عدساتها كل بضعة أعوام، فدعانى على فنجان قهوة فى بيته. إنى أحب بيته، شُرفته تمتد بالعرض فوق ڤيلا أرضية مساوية لها فى الحجم لكن مدخلها من الشارع الخلفى أما شقة الدكتور فايز فمدخلها من الشارع المواجه للمحطة حيث يتفرع من جانبى هذه الشرفة سلمان رخاميان بدرابزين فخم متين؛ هو الذى طلب هذا التصميم عند البناء لأنه كان ينوى استغلالها كعيادة أو مستشفى لكنه تراجع بعد بنائها على هذا النحو وقرر اتخاذها مسكنا إذ إنها على هذا النحو تليق به تمامًا كفلاح يحب البيت من بابه واسعًا ليستوعب زواره الكثيرين: ردهة كبيرة شرحة تتسع لأربعة صالونات فخمة مختلفة الأشكال والألوان جىء بها من محل بنتريمولى أشهر محلات الأثاث فى مصر. فى كل ركن كرسيان إضافيان بأحجام محندقة وثمينة، طقاطيق ومناضد ونيشات ترقص فيها وفوقها تحف وفازات وشمعدانات مذهبة، الراديو والتليفزيون يأخذان شكل قطع الموبيليا، نجف فى السقف وفوانيس وأباليك فى الأركان وفى المنحنيات والممرات الكثيرة التى تظهر فجأة بمجرد الإضاءة أو خروج أحد منها أو دخول أحد إليها، ستائر مخملية ثقيلة، أخرى خفيفة، على الحوائط لوحات زيتية مقلدة بإتقان من أصول عالمية مشهورة. .

الدكتور فايز دياب من أسرة على درجة كبيرة من الثراء، لعلها أثرى أثرياء المنصورة إذ إنها صاحبة توكيلات عديدة فى المجالين التصنيعى والتسويقى، من أبنائها عدد هائل من أشهر المحامين والأطباء والضباط والأدباء والصحفيين والسياسيين ولكن كل ذلك لا يساوى أى شىء إذا

وضع فى كفة مقابل شخصية الدكتور فايز فى الكفة الأخرى؛ سترجح شخصيته : ذوق ودماثة وإنسانية ودفء وعفة ولطف ونعومة لسان وطيب معشر؛ كل ما يمكن أن يكون قد صادفك فى الكتب والمواويل من أوصاف للجمال بجميع مستوياته وألوانه ستراه فى شخصية الدكتور فايز دياب. عيادته مثل من الأمثال الكثيرة الدالة على ذلك؛ إنه ينفق عليها مبالغ باهظة بدلا من أن يتربح منها؛ معظم مرضاه من العمال والفلاحين الغلابة الذين أكلت الأعمال اليدوية أبصارهم، والمصابون برمد مزمن، يعالج، يجري العمليات الجراحية، يدفع تكاليف كل نظارة طبية يقررها لمريض حتي وإن لم يشتك المريض من العوز، يعطيه بطاقة الكشف بمقاس العدسات يرسله الي محل النظارات في شارع التحرير يعمل لحسابه. وقد علمت من ابن عمه فتحى دياب زميلنا في مؤسسة الأخبار أن عمه ـ أبو الدكتور فايز ـ قد نذر محل النظارات هذا لوجه الله إذا نجح ابنه فايز في كلية الطب تخصص عيون؛ ولقد تخصص فايز في طب العيون كرسالة أخذ على عاتقه أداءها : محاربة أمراض العيون؛ ذلك أن أباه قد أصيب برمد مزمن أفقده البصر في أواسط عمره، ويبدو أن هذا المرض كان مسجلا في جينات العائلة ربما بسبب من زواج الأقارب باعتبارها عائلة ضربت المثل على المغالاة فى زواج الأقارب لدرجة أن زوج الدكتور فايز وهي ابنة عمه لزم تعاني من أمراض باطنة مجهولة تنكد عليهما عيشهما إلى اليوم. وقد أدهشني زميلنا فتحى دياب حينما قال لى إن فى بلدتهم عيادة كبيرة للعيون يديرها لفيف من تلاميذ الدكتور فايز؛ وإن عمه الشيخ غانم دياب قد أوقف على هذا السبيل بأفرعه الثلاثة فى القاهرة ونبروه والمنصورة خمسة عشر فدانا من أجود الأرض الزراعية يصرف

ريعها كله فى هذا الغرض النبيل بواسطة هيئة إدارية خاصة مقرها فى المنصورة ويديرها غانم الثانى شقيق فتحى الأكبر، إضافة إلى مبلغ كبير مرصود فى البنك الأهلى تحت إشراف نفس الهيئة الإدارية للاستفادة من ريعه فى تمويل وتطوير أى تقدم تكنولوجي جديد يطرأ على طب العيون. وكنت أظن أن زميلنا فتحى دياب يبالغ بل لعله «يفشر» فشراً ممجوجا سخيفا إلى أن أطلعنى بالصدفة على أوراق قضية بين هذه الهيئة التى يديرها أخوه وإحدى شركات الأجهزة الطبية حول خلافات مادية أو بضاعة فاسدة أو شىء من هذا القبيل لست أذكره. بقى أن نعرف أن الشيخ غانم دياب ـ يرحمه الله ـ على شدة ثرائه ليس له من ذرية سوى الدكتور فايز وأخت واحدة متزوجة من أحد أثرياء الأطباء المصريين المقيمين فى لندن؛ ولو عاش كلاهما، فايز وأخته مئات الأعوام ينفقون من ثروة أبيهم فإنها لن تنفد بل هى تتزايد فى البنوك ويطرح الله البركة فى حياتهما.

شخص هذه حاله لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تشوب صفاء نفسه شائبة؛ كيف لمثله أن يعرف اللوع أو الحقد أو الكره أو حتى الزعل من أى مخلوق؟ إن شكله يشخص فى مخيلتك ما يمكن أن تتصور عليه شكل أنسال أنبياء الله والصالحين من ذوى الوجوه المشرقة: وجه دائرى كالثريا، كالنجفة، أحمر وردى شفاف البشرة كورق السوليفان، البسمة الصافية البهيجة على شفتيه طازجة على الدوام تشع أملا وتفاؤلا، فما بالك بعينيه الوديعتين الناعستين، حين يحدثك يطل منهما الحياء الرجولى كجناحى حمامة أسطورية تحتويانك فى نظرة واحدة فإذا أنت قد استكنت كأنك تؤوب بعد طول تخبط وشقاء وتوهان إلى شاطىء الأمان؛ بالفعل لن تكون ثمة مشكلة على الإطلاق

من أى نوع بمجرد جلوسك إلى الدكتور فايز دياب فى عيادته أو فى أى مكان فما بالك فى بيته؟ . هو إلى ذلك متحدث لبق، صوته يفيض بالصدق كأنك ترى ما يقوله رؤية العين وتتأكد من سلامته، نبرة أجدادنا الحكماء الموهوبين فى الحكى فى سبك الكلام ووزنه حيث الرجال كلمات والألسنة مواثيق أين من قوة شريعتها والالتزام بها ما يتم توثيقه اليوم فى الشهر العقارى بتوقيعات وأختام وشهود؟ . هذه النبرة التوثيقية فى كلماته الموجزة قد طعمت بثقافة عصرية علمية مستنيرة حيث المتحدث لديه إلمام كاف بالآداب والفنون الرفيعة وبزبدة المعارف فى شتى المناحى . .

كنا فى مطلع المساء واليوم خميس وغداً يوم إجازته . كان رائق المزاج كعادته شغوفا بالتحدث فى موضوعات كثيرة إلا موت الزعيم الخالد الذى يرقد جثمانه الآن فى انتظار أن يتم توصيله إلى مثواه الأخير فى مهرجان يليق بعظمته؛ فعلى قدر ما كنا نشعر به من حزن عميق ومن قلق بشأن المصير المجهول الذى ينتظر مصر والأمة العربية . . على مشارف الأفق الزمنى البعيد المظلم الغامض المخيف كان مع ذلك ثمة زهو يداعب غرورنا بما أحدثه الزعيم بموته من رجة عنيفة فى الكرة الأرضية حيث امتلأ الأثير العالمى بالخبر كأن العالم ليس يشغله الآن سوى هذا الخبر المروع؛ جميع زعماء ورؤساء وملوك العالم بأكمله يتأهبون للمجىء إلى القاهرة للمشاركة فى الجنازة؛ البعض منهم قد بدأ يتوافد؛ ما أروعها من لحظة تاريخية مفحمة : أن يتفق الخصوم والأعداء من مشارق الأرض ومغاربها على نسيان الخصومات والعداوات والتصالح المؤقت للسير معًا جنبًا إلى جنب فى تشييع جثمان أحد أهم وألمع زعماء القرن العشرين فى العالم على الإطلاق

وأشدهم هيبة ورهبة جانب؛ أىَّ دوى مهيب ذلك الذى كان يحدثه اسم . . جمال . . عبد . . الناصر؟! . .

شدة أحزاننا وعمقها - فيما يلوح لى - هى التى أبرمت بيننا اتفاقا خفيا غير منطوق على أن نتجنب الكلام فى الحادث المؤلم بعد إذ تعبنا وسئمنا قراءة أخبار من انتحروا ومن سقطوا من طولهم بالسكتة القلبية أو الدماغية . المواجع منتصبة فى داخلنا تحتاج لقوة تخمدها على أى نحو يكون . .

الكشف على عينى لم يستغرق دقائق معدودة من النظر فى قاع العين إلى استبيان العلامات المحددة لمدى طول أو قصر النظر، كتب قياسات العدستين على بطاقة باسمه وأعطاها لى ثم استأذن وغاب فى الداخل حوالى دقيقتين ثم عاد وبيده علبة فخمة فيها «شنبر» ماركة بيرسول العالمية الشهيرة من أحدث طراز لا يقل ثمنه أنئذ عن بضع مئات من الجنيهات، قدمه لى :

- «هذه هدية منى لك! على فكرة! لكى أريح ضميرك أنا لم أدفع فيه مليما! إنما هو من العينات الهدايا التى ترسلها لى شركات متخصصة فى الشنابر! احتفظ منها بالثمين القيم لصديق مثلك! . . قسه وأرنى وجهك فيه!»

فتحه عن آخره بل فشخه ليرينى مدى مرونته، وضعه على وجهى، أطلق بفمه صفيراً مبتهجًا فوق ابتهاج؛ سحبنى من ذراعى إلى مرآة قريبة :

- «شف أناقة الشنبر!»

- «فعلا! شىء جميل جدًا سيضفى على وجهى أهمية كوجه آرثر

ميللر!»

ـ «كنت أود لو يعطيك زوجته مارلين مونرو أو حتى ماركة مقلدة منها!»

استخفنا المرح؛ وفيما نستدير ضاحكين عائدين إلى الركن الذى كنا نجلس فيه مررنا على صورة كبيرة فى برواز فضى. توقف أمامها فى غبطة طفولية:

ـ «أرأيت هذه الصورة؟»

جعلت أتمعنها:

ـ «ياه! فكرتنى بطفولتى!»

ـ «شفت شكلى فيها؟ هل تصدق أننى هذا الأبله الشارد التائه؟!»

ضحك بعمق كأنه يراها لأول مرة. أبهجنى ضحكه بصفائه، فرأيت على ضوئه مفارقة تبعث بالفعل على المرح ما بين هذا الطفل الأبله الذى لا يشى منظره بأى تفوق وبين هذا الطبيب المتفوق المثقف؛ أصابتنى عدوى الضحك بعمق مثله. قال:

ـ «شىء غريب فعلا! هل تتصور أيضًا أن هذا الولد السنكوح هو الأستاذ الدكتور حافظ الغنام الخبير بالأمم المتحدة؟ أو هذا الولد المسلوع كالمريض بالسل! هو الدكتور حامد العسلى أشهر أطباء القلب المصريين حاليًا فى لندن! هو على فكرة زوج أختى الوحيدة!..»

ـ «حدثنى عنه فتحى دياب ذات مرة!»

ـ «طب قل لى. . تعرف من يكون هذا الولد الجربوع؟ تبقى جدعًا لو عرفته!. . هه! فكر قليلاً!. . إنك تعرفه!. . يسكن معنا فى صحراء المماليك! وقريب من بيتنا هذا!. . وعلى فكرة أنا كثيرًا ما أراكما معًا فى هذه الأيام!. . »

جعلت أتمعن فى الصورة جيدًا خاصة وأنها وسط مجموعة كبيرة ومثل بطيخة فى كوم من البطيخ؛ إنه ولد صايع بمعنى الكلمة، شكله شكل يتيم لطيم ثقيل الظل سمج الملامح. . إ. . إ. .

ـ «يخيل إلى أنه. . أنه. . يخرب بيته. . »

ـ «فهمى القزاز يا رجل!»

صيحتى طلعت صرخة دون إرادتى:

ـ «مش معقول! هذا الولد الجربوع المعفن هو فهمى بك القزاز؟!»

ـ «تصور؟!»

انفجرت فى ضحك هستيرى:

ـ «يا ربى! إنها نكتة الموسم!»

ـ «وكل موسم! طول عمره نكتة لكنها قديمة وبايخة!. . هو الوحيد الذى لا يعرف أنه نكتة مملة؟!»

ـ «هو إذن كان دفعتك فى الشهادة الابتدائية؟!»

ـ «وفى التوجيهية أيضًا!»

جلست كأننى أحوط على كنز عثرت عليه بين قدمى، وجلس الدكتور فايز قبالتى. سألته مغتبطًا:

ـ «أنت إذن تعرفه جيدًا؟»

شوح بذراعيه معًا نحو امتداد بعيد:

ـ «أوهوووووه! قُطع ولا كان! حدوتة!»

ـ «كلمنى عنه أرجوك وأتوسل إليك! إن لم تكن مشغولاً!»

ـ «هل أنت متورط معه فى شىء؟»

ـ «نعم!»

ـ «ما نوع التورط؟ ما حدوده؟!»

ـ «يفرض علىّ صداقته وأنا أحاول رفضها وتفشل محاولاتى! ورطنى فى مشاوير ونجح فى استدراجى للغداء عنده أنا وفايقة! ولم أرد له العزومة بل أعامله بقسوة وخشونة لعله يشيلنى من دماغه وهو مع ذلك يلقح جتته علىّ بصورة مريبة ولا أدرى ماذا يريد منى بالضبط؟!»

ـ «خلك مرنا! لا تزجره بإهانة وفى نفس الوقت لا تكن مطواعا!.. كن حذرًا بأقصى ما تستطيع وإلا ورطك فى كوارث!.. هو أصله الآن مسكين بلا أصدقاء! يعيش فى فراغ قاتل! مثله يجب أن تسايسه لأنه الآن نصف مجنون وأكثر ما يثير جنونه شهوة الانتقام! إنه شخصية انتقامية شأن كل خسيس لا أصل له ولا فصل كصاحبنا هذا!!»

لفتت نظرى هذه العبارة الأخيرة فأردت الاستيثاق مما إذا كان يعنيها حقًا أم أنها مجرد كلام مرسل؟ هذا على الرغم من أننى واثق من أن الدكتور فايز عمره ما قال كلامًا مرسلاً أبدًا، لا كلمة ينطقها إلا ولها رصيد من الحقيقة. أما وقد نطق بمثل هذه العبارة بمثل هذه البساطة: خسيس لا أصل له ولا فصل فإننى يجب أن أتوقف عندها:

ـ «ولكن يا دكتور فايز إن فهمى بك القزاز من أصول عائلية رفيعة المقام كان منها إمام أكبر و. . . .»

ضحكاته المرحة الرنانة شوشرت على عبارتى من أول ما نطقت بها، أسند ظهره ورفع رأسه فاشخًا حنكه على وسعه وجسده كله يهتز بقوة كأن فى جوفه بركانا من الضحك المخزون تتطاير حممه وفتافيته، فلما هدأ جفف عينيه بمنديل ورقى ثم لوح بذراعه بمعنى: انتبه: شف يا سيدى. .

٢
صعود يتيم منبوذ

. . «فـهـمى بك القزاز ليس اسمـه فـهـمى القـزاز! هذا هو أسـاس النكتة ومبدأ سخفها! . .

«مرة أخرى: فـهمى بك القزاز لا عـلاقة له بعـائلة القزاز الشـهيرة الكبيرة والتى منها الشيخ الجليل القزاز! . .

«نعم! هو ليس يمت إليها بأية صلة على الإطلاق! . . ».

«بل هو فى أصله من غير عائلة! . . ».

«أبوه اسـمـه إبراهيم خليل جـاد الله! . . كـان مـاسح أحـذية يلفع صندوقـه على كـتفـه ويتكل على الله . . يلف على بيـوت الأعيـان فى مـدينة المنصـورة صـبـاح كل يوم، كل يوم فى حى من أحيـاء المدينة . . يصعـد العـمـائر دوراً دوراً . . يقعى أمام الشقة أو أمـام الڤيـلا، تجىء له كل أحذية البيت يمسحها بذمة وعلى مهل ويأخذ ما فيه القسمة دون أن يفتح فمه إلا بالشكر والدعاء . .

«أمة كانت داعيـة له! . . الخط الحسن مشى قدامه ذات صباح فجرأه على دخـول حى توريل وهو الحى الراقى فى المدينة لا يسكنه إلا الطبقة الأرستقراطية القديمة من أصحاب الضياع والوسايا وكبريات المناصب

العليا . . بشكل عشوائى تقرفص أمام ڤيلا الشيخ القزاز فجاء الحارس ليطرده فتبجح فيه فما كان من الحارس إلا أن رنّه علقة جعلته يلحس التراب . . الشيخ القزاز كان فى شباك غرفة نومه يستطلع درجة حرارة الجو قبل نزوله! شاهد العلقة من أولها لآخرها! وجعه قلبه! بعث فى طلب الاثنين الحارس وإبراهيم . . شتم الحارس ووبخه على قسوته! وصالح إبراهيم بأن كلفه بمسح أحذية البيت كله ثم أعطاه الحسنة ونبه عليه أن يجىء صباح كل جمعة ليفعل نفس الفعل . . رجله أخذت على الڤيلا من الداخل! عيال الشيخ يكلفونه بأعمال شاقة فينجزها! يشيل حمولات ثقيلة كالحمار الحصاوى فلا يشكو ولا ينهق! . . حسن الحظ لا يزال يمشى قدامه : الشيخ القزاز أيامذاك جالس فى صالونه وإبراهيم مقع تحت قدميه يلمع له الحذاء قبل نزوله فجاءه رنين التليفون فلم يعبأ به فقام إبراهيم ورفع السماعة وأتى بالعدة كلها للشيخ لكى يتلقى خبر تعيينه وزيراً للأوقاف!

«فضيلته رجل عطوف! وصحيح أنه عالم كبير ومعه شهادة دكتوراه من جامعة السوربون فى فرنسا فى الفلسفة الإسلامية إلا أنه رجل بسيط مثلنا يتفاءل ويتشاءم! قلبه عمران بالإنسانية من يدخل فيه لا يخرج منه أبدًا حتى وإن أغضبه! . . قُل إنه تفاءل بإبراهيم خليل جاد الله ماسح الأحذية الذى تدحلب إلى البيت وقرض نفسه تمليا بمعنى أن يكون خادمًا حتى للخدم أيضًا! . .

«كان إبراهيم خليل جاد الله قوى البدن كالثور! مخيف الوجه قاسى الملامح! فوتوكوبى من الغوريلا! لو شافه طلاب طب فرنسا مثلا لاعتبروه حلقة الوصل بين القرد الذى صلب حيله ومشى على اثنتين

فحسب وبين الإنسان العاقل! لكنه لما دخل فى خدمة بيت الشيخ ووجدوا أن لا مفر من قبوله على الأقل كدابة تحمل الأمتعة حلقوا له شعره ونظفوه وخلعوا عليه هدومهم الملبوسة فى البيت وألبسوه حذاءً فصار شكله محترمًا ومنظره يُخضّ! . .

«الشيخ الوزير وهو عائد إلى بيته من القاهرة أو عند مغادرته إليها أصبح يضيق بإلحاح وكثافة طالبى الحاجات والوظائف مع أنه هو الذى شجعهم على نفسه من المبتدأ! . . الحرس الحكومى ليس يفلح فى شق طريق له وإبعاد الناس عن السيارة إلا بالهراوات القاسية تكسر عظام الناس وتبطحهم بعاهات مستديمة وهذا ما لم يعجب الشيخ بل يورطه فى دفع تعويضات ونفقات علاج ليس يفرضها عليه أحد بل هو الذى يقررها بنفسه على نفسه طبقًا لما شاف بعينيه! الرجل لفت نظر حراسه مرات ومرات! وهم فى الحقيقة حاولوا الترفق فى معاملة الناس فكادوا يضيعون تحت أقدام الناس وفيهم من هم أشد عافية وعنفوانًا فكان لا بد من القسوة إلى أقصى الحدود دفاعًا عن أنفسهم أولاً قبل حماية الشيخ! . .

«هذه الحياة غريبة جدًا يا أخى مروان! . .

«كثيرًا . . تصور يا مروان . . ما يجيئنى شك فى أن يكون جدنا واجتهادنا هما السبب فى نجاحنا فى الحياة! . .

«لست كاتبا ولا أحب أن أتفلسف لكننى أومن بالحظ باعتباره صاحب القرار النهائى فى نجاح الشخص أو فشله مهما كان مستوفيًا لشروط النجاح! . . ربما أكون . . أو لعلنى أريد أن أقول إن الحظ ليس صدفة! لا يا ربى! بل إن الصدفة نفسها ليست صدفة! مش فاهمنى

طبعًا يا مروان! . . أنا أعرف أنى عاجز عن التعبير لكنك لو ساعدتنى فى البحث وفى الصياغة فربما نفلح معًا فى إثبات أن كل شىء فى الحياة ليس صدفة إلا من وجهة نظرنا نحن! لأن القوانين والنواميس التى تحكم الكون لها توائم من قوانين ونواميس تحكم حركة الحياة فوق الكواكب ولا شأن لها بما تدبره المخلوقات من أجل حياتها ومستقبلها فليدبر المخلوق كيفما شاء لكن قراراتها فى النهاية هى النافذة! . . هل فهمتنى يا مروان؟ . . ما علينا . .

«أهالينا دائمًا يصفون الحظ بأنه أعمى! والمثقفون صوروا العدالة بأنها عمياء تمسك بميزان العدل! . . فهل العدالة أخت الحظ؟ كلاهما أعمى! وكلاهما يترتب على عمائه خير أو شر بالنسبة لهذا النفر أو ذاك من الناس! . .

«على كل حال فإن الحظ الذى كان يمشى قدام إبراهيم خليل جاد الله كان أعمى يقود أعمى! فإبراهيم خليل جاد الله أشد عماءً من العماء نفسه وكان هذا هو المطلوب آنذاك لحماية الشيخ الوزير وحراسه معًا!! . .

«سأقول لك كيف! . .

«فضيلته قاعد على الكنبة الورانية لسيارته التاونس المقفلة الأبواب! طاقم الحراسة يحيط بالسيارة! ومدخل الڤيلا على الرصيف المقابل! لكن المساحة من السيارة إلى باب الڤيلا ملآنة عن آخرها بناس ذوى مشاكل عديدة مع وزارة الأوقاف من أرامل ومستأجرى محلات موقوفة مطلوب طردهم منها وأصحاب معاشات تائهة فى أروقة الحكومة وأئمة وخدم مساجد يعملون بمرتبات القرن التاسع عشر و . .

و . . و . . الحرس اشتغلوا فى الناس ضربًا حتى انهدت قواهم فكفوا عن فعل أى شىء ولم يتحرك واحد من الناس أو يغير موضعه يطلبون ظهور الشيخ لتسليمه شكاواهم يدًا بيد بعد أن زهقوا من إرسالها بالبريد ويئسوا من النجاح فى مقابلة أى مسئول! . .

«ما دروا جميعًا إلا وباب الڤيلا ينفتح ويخرج منه جدنا القرد عملاقا مخيفا! شعر ذقنه وصدره ودماغه وذراعيه وما ظهر من ساقيه أشبه بمخالب مفزعة! . . كانت مدينة المنصورة قد نسيت شوارعها ومحلاتها وناسها شخصية البوهيجى إبراهيم خليل جاد الله! فإذا بهم يرون الآن وجهًا يذكرهم به ليس هو إنما يشبهه فحسب! كان الغذاء الوفير قد ضخم جسده إلى حد يُخشى منه على الجدار إن استند عليه! . . لم يكن له مخالب لكن الناس شافوا مخالب حادة جرحتهم جروحًا قطعية فى وجوههم وأذرعهم وجنوبهم! . . كان كأنه يمشى فى قلب النهر مادا ذراعيه يزيح بهما الأمواج من أمامه! الناس كانوا يتهاوون تحت ذراعيه كحزم من القش الهش تنداح بعيدًا! ومن خلفه ينشق ممر واسع جدًا كأنه مكنوس بمكنسة! وصل المارد العملاق إلى باب السيارة ففتحه! تلقى الشيخ بين ذراعيه! حمله على صدره فكأن الشيخ عاد طفلا يمكن أن يهشكه جاد الله! مشى به فى الممر وقدمه تلوش من جرؤ على الاقتراب! . .

«تلك كانت شهادة ميلاد إبراهيم خليل جاد الله كشخصية جديدة مختلفة تمامًا ذات نفوذ قوى جدًا وتنتمى إلى لقب القزاز انتماء كاملاً! . .

«من يومها بات حارسًا خصوصيًا للشيخ الوزير يرافقه أينما ذهب

لدرجة أن المقعد المجاور لمقعد السائق فى سيارة الشيخ أصبح يسمى: كرسى جاد الله! . .

«أصبح الشيخ يشعر بالأمان والطمأنينة طالما هذا الثور يمشى وراءه ويحوط على هيبته التى كادت تسقط فى ذاك اليوم! . . من يومها استغنى الشيخ عن طاقم الحرس الذى كان هو يحمل همه كعبء ثقيل على قلبه! . .

«قام مجد الحارس الذى ليس يعرف التفاهم بالعقل إن كان لديه عقل من الأساس! . . يده طرشاء! إن تعازم ولطش أحدهم فى صدره أرداه قتيلا فى الحال! . . التلطيش هو لغة الحوار الوحيدة عنده! . . على قدر خوفه وجبنه ووضاعة أصله قسوته وشراسته وانعدام حسه الإنسانى! . . هو قاس شديد الشراسة على من هم دونه ومن لا يستلطفهم الشيخ! فى نفس الوقت وعلى نفس القدر خوفه ورعبه من الشيخ بخاصة ومن يفهم بالسليقة أنهم من مرتبة الشيخ! . .

«حارس الشيخ القزاز لقب اشتهر به على نطاق واسع يتعدى مساحة محافظة المنصورة إلى محافظات الجوار كلها وكل من يتعامل معهم الشيخ فى القاهرة أو فى أى مكان! . . بطول العشرة اختصر إلى: حارس القزاز! . . ثم طالت العشرة أكثر فانسحَب لقب القزاز على إبراهيم خليل جاد الله! . . اختصاراً للكلام الذى يتميز به أهالينا المصريون أصبح الناس ينادونه بقولهم: يا قزاز! . . رح يا قزاز تعال يا قزاز اختفى اسمه الأصلى حتى من اسم ابنه فهمى! . . جميع المدرسين والتلاميذ لا يعرفونه إلا بابن القزاز! . . هو أيضًا يا سعادته باللقب! تصور يا مروان أنه سجله فى شهادة ميلاده وشهاداته الدراسية!! . .

«سهلة جداً على فكرة لكن أبوه كان ذكيا لأن الحظ كان لا يزال يمشى قدامه بل كان قد أقام له دولته فى بيت الشيخ وفى مدينة المنصورة! كلمة واحدة أضيفت إلى الاسم الرسمى: الشهير بالقزاز! . .

«أنا الآن . . تصور يا مروان . . الآن فحسب! لتوى فهمت أن الحظ لم يكن يمشى قدام جاد الله ولم يكن يقصده هو إنما كان يقصد الشيخ وشمل من يلوذ به! . . ولكن . . يا لى من غبى! ما هذه الفعلة؟ إنه فى النهاية حظه أيضًا! فمن الحظ طبعًا أن تكون موجودًا فى لحظة يهبط فيها الحظ على أحد فينوبك من الحب جانب! . .

«عفواً يا مروان إن كنت خطرفت فهذا الرجل ساكن فى كل جخانيق ذكريات طفولتى وصباى لأن الشيخ القزاز وعائلته جيراننا فى البيت وفى الغيط وتربطنا بهم مصالح مشتركة إلى وقتنا هذا! . . إنما أنا أصلى ساعات أحب أن أعطيها خمسة فلسفة! . . هذا الولد العكروت فتحى ابن عمى! اسأله! كنا نعمل فيها كُتَّابا وصحفيين ونحن أطفال! . . طب! اسمع! . . تصور أننى وأنا طالب فى الثانوية العامة اشتركت فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة بقصة كتبتها عن إبراهيم خليل جاد الله هذا البوهيجى الذى جاء عليه حين من الدهر أصبح فيه أهم وأقوى من الشيخ الذى يحرسه! وفازت القصة بالمركز السابع أو لعله السابع مكرر لا أذكر!! لقد نسيت أمر هذه المسابقة تمامًا كأن لم تكن! إلا إبراهيم هذا لا أنساه أبدًا . .

«مات الشيخ القزاز وفهمى يؤدى امتحان الشهادة الإبتدائية كما هو ثابت فى هذه الصورة! . . إبراهيم جاد الله صار فى العراء! لأن الحظ

لم يكن حظه! . . بطل مفعول الحظ فى حياته وآن أوان الحساب! . . اتضح أنه كان قد كسب من العداوات والحزازات خلال تلك الفترة أضعاف أضعاف ما كسبه من رزق! . . حتى اسم القزاز لم يكن ليحميه من انتقام الذين ضربهم وهزأهم وبهدل كرامتهم بجهالة قبل أن يعرف أنهم أصدقاء الشيخ وزملاؤه! . .

«قبل تمام الأربعين يومًا على رحيل الشيخ كان إبراهيم خليل جاد الله عائدًا من وابور الطحين بالركايب وحده إلى بيت الشيخ فإذا بثلاث رصاصات من بندقية خرطوش تندفع من حقل البوص والهيش فى مسطاح المصرف اخترقت دماغه وقلبه من الخلف نيشان محكم! . . سقط على الأرض ينزف وحده فى جنح الظلام حتى لفظ أنفاسه وعادت الحمير وحدها إلى الدار مذعورة بأحمالها! . . لم يتوصل البوليس إلى القاتل إلى اليوم! . . الناس كلهم وليست الشرطة وحدها لم يتحمسوا لمعرفة القاتل! بل إن بعضهم كان يتمنى معرفته ليشكره على ما فعل! . .

«لاصَ الولد فهمى! . . سبحان الله يا مروان! . . هو الآخر لم يكن محبوبا من أحد! لا فى المدرسة ولا فى أى مكان يظهر فيه! . . الولد صورة طبق الأصل من أبيه بل أفظع! . . ليس يشترى شيئًا! إن طُلب منه كتاب أو كراس أو قلم دبَّر لسرقته من أحد زملائه! . . لو ضبطه المسروق ينال منه علقة شرسة لدرجة أن بعض العيال الضعفاء كانوا يرونه وهو يسرقهم عيانًا بيانًا فلا يتكلمون خوفًا من عنفه وقسوته! . . إن أعجبه ساندوتش فى يد ولد اختطفه وفى لمح البصر يلقى به فى حنكه يزلطه فيختفى جسم الجريمة! . . وإن استطرى ولدًا ناعمًا

واستحلاه تسلط عليه إما أن يلوطه أو يبتزه بالقوة بالسفالة أو يكيد له بتقطيع الهدوم أو إلقاء كتبه وأدواته فى النهر أو إلقاء الحبر عليه أو إفساد أى شىء موجع لصاحبه! . . لا بأس عنده أن يجىء ولى أمر هذا أو شقيق ذاك ليطرحه أرضا ويضرب فيه بالشلاليت وبالصفع على الوجه وباللكمات حتى يكاد يموت!! فكلما أهين أضيفت وحشية ونذالة وخسة بلا حدود! . . المدرسون تعبوا من ضربه لجميع أنواع الضرب والقهر والتذنيب إلى حد البصق فى وجهه وهو من فرط السماجة والتبلد قد نحَّس! ويأبى إلا أن يقودك إلى البصق فى وجهه بدلا من أن تتعب نفسك بضربه! . . يئس النظار من معاقبته! تركوه! اعتبروه ظاهرة غير طبيعية لا مفر من قبولها والتعايش معها على أى نحو! . .

«العجيب حقًا يا أخى مروان أنه كان دائمًا وأبدًا ينجح آخر العام وبتفوق يذهل الجميع ويضاعف من كراهيتهم له ومن تحديه لهم! . . لعب التفوق دوراً كبيراً فى حصوله على المجانية فى جميع مراحل التعليم! . . بنيانه القوى خدمه فى الالتحاق بكلية الشرطة بواسطة توسطت لواسطة توسطت بدورها لرأس كبيرة فى الوزارة سهلت له كل الأمور! . .

«الوحيد الذى عطف عليه واحتضنه ولمَّه من الشارع هو الحاج عبد الفتاح الشامى ذلك الذى أصبح حماه فيما بعد! . .

«الحاج عبد الفتاح الشامى رجل ميسور! من عائلة كبيرة جداً يقال إنها من بقايا سلالة سيدى على زين العابدين بن الحسين ابن على صاحب الضريح المسمى الحى باسمه ناحية حى السيدة زينب! . . الحق يقال هى عائلة تشتهر بالشجاعة وطيب الأصل والكرم الزائد عن الحد!

كل أبنائها متعلمون! منهم فنانون وأدباء وأطباء ومحامون وصحفيون ومهندسون من القرن التاسع عشر إلى اليوم لم يختل توازنهم الاقتصادى ولم ينحرف أحد منهم! هذه شهادة يستحقونها . .

«للحاج عبد الفتاح محلات مانيفاتورة تحتل نصف شارع بأكمله فى السكة الجديدة فى مدينة المنصورة! يلعب فى رسمال يقدر بمئات الملايين! . . صعب عليه الولد الشرير وعدم حب الناس له! آواه فى بيته هو وأمه! وكأن أمه كانت تنتظر حتى تجد سريرا تموت عليه! فلحقت بأبيه إلى الدار الآخرة! . .

«عينه الحاج بائعًا فى محلاته! دربه العيال على الوقوف وراء أحد البنوك المحتاجة لقوة بدنية! بنك القماش! كل دقيقة يسحب أثوابًا ثقيلة ليفكها ويعرضها على الزبون ويفرد ويقيس بالمتر ويقص! . . الولد استهدى بالله ونفع! . . يخرج من المدرسة إلى المحل فيتغدى معهم ويبقى وراء البنك إلى موعد التشطيب فيعود مع الحاج وعياله إلى البيت ليتعشى وينام فى حجرة خصصت له فوق السطح! وفى الإجازة الصيفية لا يترك البنك نهارًا أو ليلاً! . .

«اسم فهمى فى شهادة الميلاد: خليل إبراهيم خليل جاد الله وأضاف إليها الشهير بالقزاز! . . يا سبحان الله يا أخى مروان . . الحاج عبد الفتاح يوم قرر أن يفعل خيرًا فى هذا الولد اليتيم المنبوذ كان فى قلبه جرح لا يزال طريا! لم يكن قد اكتمل عام على رحيل ابنه البكرى فهمى! كان طالبًا فى السنة الأولى بكلية الشرطة وكان مدربا من صغره على الفروسية بحكم ولع أبيه الحاج بالفروسية وركوب واقتناء الخيل! إلا أن أجل الولد قد حان فى لحظة تدريب على حصان شرس جمح به

كأن مسًّا من جنون أصابه فتخلص من راكبه ببشاعة! قفز سورًا عاليًا فألقى بالولد فى عرض الطريق قبل أن يهوى فوقه فتتهشم عظامهما معًا! . . الحاج وزوجه وعياله وعماله اعتادوا على النداء: رح يا فهمى تعالى يا فهمى خاصة وأن فهمى كان هو المعاون الأكبر لأبيه فى الإدارة! . . خليل كان يقوم بمعظم الأعمال التى كان يعملها الراحل! . . والحاج بدلا من أن ينادى قائلاً يا خليل ينسى ويقول: يا فهمى! . . فهمى فهمى! خلاص ألصق به الاسم خاصة وأن الحاج كان مبسوطا من أن اسم ابنه فهمى بقى حيًا! . . خليل كان أسعد الناس بهذا الاسم! فى أعماقه كان يتمنى أن يتبرأ من اسمه بالكامل ليس هربًا من عداوات أبيه فحسب وإنما لأن الكثيرين الذين يستمعون لاسمه أو يقرأونه يعتقدون فى الحال أنه مسيحى قح ويعاملونه على هذا الأساس! . . حتى دخوله كلية الشرطة كان الحاج عبد الفتاح وهو يستعين بوسائطه متحمسًا كأنه يعيد إحياء ابنه من جديد! . .

«أبوه سرق اسم الشيخ وهو سرق تاريخ العائلة ليستفيد منه وسرق اسم فهمى ابن الحاج عبد الفتاح كما سرق ابنته. . أظن أن اسمها خيرات على ما أذكر؟ خيرات! نعم هى خيرات! . .

«أذكر فى شبابى أن خيرات هذه كانت طفلة وفجأة نطقت صارت عروسًا خطيرة! وكان هو قد تخرج وأصبح ضابطًا يجىء البلد بالبدلة الرسمية! . .

«أذكروا الله أعلم يا مروان أن خيرات لم تكن متفوقة فى الدراسة بل كانت تنجح على الحركرك لأنها فيما سمعت أيامها كانت تشغل نفسها بقراءة الكتب الأدبية والروايات والشعر وتصرف نقودها على

شراء المجلات والكتب! . . ولهذا - فيما أذكر - ألحقوها بمدرسة الحكيمات بناء على رغبتها فى اختصار التعليم! وأنا على فكرة قابلتها كثيرًا فى مستشفى الشرطة وهى بالمناسبة سيدة لطيفة جدًا! . . والواقع أننا لم نتحدث كثيرًا فالوقت محدود كما تعرف! ولكنها تعرف أننا بلديات فحسب! ومن الواضح أنها لا تذكرنى لأنى سافرت إلى القاهرة فأقمت فيها طوال فترة الدراسة ولا أعود إلى المنصورة إلا فى الإجازة الصيفية التى أقضى نصفها تقريبًا فى الإسكندرية ورأس البر! . .

«قصة تعيينها فى مستشفى الشرطة دراما! قصة حب قامت وتطورت وانتهت نهاية مأساوية فى زمن قياسى! . . البنت أحبها واحد يعتبر عريسًا خياليًا بالنسبة لأى فتاة! ذلك هو ماهر عنابة! وكيل أول وزارة الداخلية! ويعمل مساعدًا لمدير أمن المنصورة! وأبوه عمدة إحدى قرى الدقهلية ومن كبار الأثرياء ثراء فاحشًا! . . تقدم لخطبتها بمغريات أسطورية: خاتم سلوتير للشبكة وسيارة فيات ١٢٨ أما المهر فحدث ولا حرج! . . يبدو والله أعلم يا مروان يا أخى أنه كان يتصل بالبنت بشكل أو بآخر ويراسلها وتراسله المهم أن المنصورة كلها فجأة راحت تتكلم عن قصة الحب التى نشأت بين ماهر عنابة وخيرات الشامى كأنهما حسن ونعيمة! . . تتويجا لقصة الحب هذه وافقت الأسرتان على التعجيل بالزواج! . . طلب العريس مندوبًا عن عائلة العروسة يسافر معه إلى القاهرة لشراء السيارة التى وعد بها من التوكيل الرئيسى لتكون عربون محبة قبل أن يتقدم بالشبكة! . . كانت عائلة الحاج عبد الفتاح متحرجة قليلا ولكن فهمى القزاز رشح نفسه للسفر معه زاعمًا أنه

يعرف ذوق خيرات فى الألوان وسيختار لها لونا على ذوقها ويختبر السيارة ويوثق أوراقها رسميًا باسم خيرات لتكون الأمور محددة من الأول! . . العريس كان طيب القلب محبا! صور له حبه أن فهمى هو الممثل الشخصى للحبيب ومن ثم فطلبه مجاب وكلمته مسموعة! . . لقد فوجئ بأنه هو المحتفَى به من جانب ممثل الحبيب فلا بد إذًا أن تكون هذه توصية من الحبيب! فأسلس قيادة لفهمى شاعرًا بسعادة! . . هذا ما قاله لى ابن أخيه الذى رافقهما فى السفرية وكان شابا صغيرًا يرافق عمه أينما ذهب! . . ابن أخيه قال لى بعد ذلك ـ وهو بالمناسبة معيد فى طب القاهرة ويحضر رسالة دكتوراه تحت إشراف العبد لله ـ إن فهمى القزاز بمجرد وصولهم إلى القاهرة عزم العريس على عصير مانجو فى نادى الشرطة! ثم على الغداء فى نفس النادى! ومن بعده على الشاى! . . فى الطريق إلى توكيل شركة فيات ـ يقول ابن أخيه ـ شعر ماهر بك بمغص حاد فى بطنه! احتمل الوجع! لكنه لم يحتمل أكثر من ساعتين شعر بعدهما بإرهاق شديد ثم وقع مغشيًا عليه! . . ابن الأخ كان على علم بأن السكر مرض وراثى متأصل فى العائلة وأهل البلد جميعا يعرفون هذه الحقيقة إلا أنه لم يكن يعلم بعد أن السكر انتقل إلى عمه ماهر! . . ولهذا فأول شىء تبادر إلى ذهنه لحظة وقوع عمه فى حالة الإغماء أن يكون السكر الوراثى قد ظهر فى عمه وأن هذه هى غيبوبة السكر المألوفة لدى العائلة! . . فى اللحظة التى قرر فيها نقله فورًا إلى المستشفى أفاق ماهر بك وتماسك لكنه لم يكن على ما يرام! مع ذلك راحوا توكيل فيات وانتقوا السيارة وخلصوا إجراءات البيع فى سهولة وسرعة ولكن تقرر أن يجىء أحدهم غدًا أو بعد غد لاستلامها! . . قفلوا عائدين على أن يجىء فهمى هو والعروس بعد غد

لاستلامها! . . ماهر بك من شدة طيبته انتظر حتى يصل إلى بيته! يا دوبك خلع ثيابه وارتمى على سريره ليلفظ أنفاسه فى الحال!! . .

«أقوال كثيرة وصلتنى مما يدور فى البلد! . . ثمة تلميحات بأن فهمى دس السم لماهر بك فى عصير المانجو أو الغداء أو الشاى! . . ثمة أقوال أخرى تشى بأن أبناء أخيه ـ وهم ورثته ـ تعجلوا دفنه فى موكب شرطوى رسمى مهيب لكى يتفرغوا لحساب الميراث! . . و . . صدقنى يا مروان . . لا أحب أن أكون متجنيًا على فهمى! ولكننى سمعت من ابن عمى شقيق فتحى أن فهمى روج لشائعتين: الأولى بأن ماهر بك مات مسمومًا! والثانية مربوطة بالأولى تقول إن السم قد جاءه ممن سيستفيدون من موته بالميراث الكبير يعنى أولاد أخيه! دليله على ذلك أنهم عجلوا بدفنه ولم يطلبوا تشريح جثمانه!! . . أكثر من صديق غير ابن عمى حكى لى أنه سمع هذه الشائعة من فهمى وحده! . . معنى ذلك يا أخى مروان ـ وهذا هو اجتهادى ـ أن فهمى ليس مبرأ من موت ماهر بك المفاجئ والغريب! وكان يخترع هذه الشائعة ليوجه الأنظار فى اتجاه آخر يبعد الشبهة عن نفسه لأنه الوحيد الذى يعرف أنه المجرم الخفى! . . هذا هو تفسيرى والله أعلم بالطبع لكن فهمى الجيد لشخصية فهمى يؤكد لى أنه يمكن أن يفعل ذلك بكل بساطة! . .

«أهم ما كان يسعى إليه الملعون هو أن خيرات قد اقتنعت بالفعل أن ورثة عريسها هم الذين دسوا له السم ليتخلصوا منه قبل أن يتزوج وينجب لهم وريثا يطردهم من المولد بلا حمص! . . فلما تقدم الملعون ليخطبها قال الحاج عبد الفتاح لابنته التعيسة يداعبها: فقدت ضابطا وبعث الله لك بدلاً منه ضابطًا أكثر شبابا والمستقبل أمامكما معًا وهو

على الأقل أكل عيشنا وملحنا وسيكون أحرص عليك من أى شخص آخر فهل نقول: مبروك؟ قالت له بارك الله فيك! . . تفسيرى أنا يا أخى مروان أن البنت تلقت صدمة عنيفة جداً كمن صعدت إلى سطح ناطحة سحاب ثم هوت من عل فتكسرت جميع أحلامها وبات العرسان كلهم فى نظرها سواء! . . كان فهمى بالنسبة لها مثل حقنة مسكنة لعلها تصلح من أحوالها! وإنى لمتأكد من أنها الآن من أتعس خلق الله قاطبة! كان الله فى عونها!».

الفصل الرابع

١

عزومة على جنازة!

زميلنا المخضرم فى العمل الصحفى سامى الإمام مدير تحرير مجلتنا التى تكتنفها روح أسرية مترابطة متحابة، يسكن فى قلب ميدان التحرير فى شقة فى الطابق الرابع من العمارة الملاصقة لمطعم ومقهى إيزافيتش. هو صحفى على شىء كثير من الثراء الموروث؛ متزوج من سيدة فاضلة يرجع نسبها إلى أبى بكر الصديق وذات قربى وثيقة ـ وموثقة ـ من محمد توفيق البكرى نقيب الأشراف ورأس العائلة البكرية فى مصر، اسمها أسماء هانم. كلاهما، هى وزميلنا سامى، لم يهبهما الله قدرة على الإنجاب؛ وكلاهما كان يبحث عن رفيق حياة لا يأمل فى الخلفة ولا يطمع فى ثروة الآخر؛ وكان ذلك مطلبا شبه مستحيل فى نظر كل منهما ولكن الطيور ـ حقًا ـ على أشكالها تقع؛ تلاقيا فى ندوات كثيرة: ندوة العقاد، ندوة نجيب محفوظ، ندوة الشيخ شاكر، ندوة رابطة الأدب الحديث، تقاربا، تفاهما، تحابا، تزوجا، قدم لها شقته المحندقة فى بيت خلف قصر هدى شعراوى خلفيته نهر النيل، لكنها فضلت أن يغلقها ويأتى ليقيم معها فى هذه الشقة الكبيرة الواسعة التى

ورثتها عن أمها صاحبة هذه العمارة كلها. ولقد عاشا حياتهما فى رفاهية ذات بطانة إنسانية، ينفقان عن سعة فى أعمال خيرية خفية وفى تحقيق السعادة ما أمكن للمحيطين بهما من البشر..

عزمانا على الغداء لكى نتفرج من شرفة شقتهما المطلة على ميدان التحرير، على مهرجان جنازة الزعيم الخالد. كنا لفيفا من الأصدقاء: بهادر أبو النور، معتز الأقصرى، قمر الجداوى، عادل الطوخى، متولى درويش، مؤمنة صديق. على مائدة الغداء سمحت لنا أسماء هانم باحتساء بعض كئوس النبيذ الأحمر الذى يعشقه متولى درويش ويوصى به أصدقاءه فى المركز الثقافى الفرنسى حيث يشارك فى الكثير من أنشطته الثقافية؛ إلا أن متولى درويش نفسه، الذى أتى بالزجاجتين وبذل جهداً عاطفياً لبقًا مع أسماء هانم لإقناعها بأنه مجرد فاتح للشهية سرعان ما أراح الكأس بعصبية بمجرد أن ظهرت الهليوكبتر حاملة الجثمان فى السماء كأنها محمولة فوق زئير الجماهير الملتاعة من فرط شعورها باليتم فى أسود لحظات التاريخ؛ ما لبث حتى أصابه ما يشبه الجنون المقموع؛ دلق الكأس فى أصيص النبات قائلا للنبات:

ـ «انتعش أنت إن استطعت أما نحن فلا يليق بنا ذلك الآن!»

أمسك بالزجاجتين؛ اخترق بهما الممشى إلى المطبخ؛ دلقهما فى الحوض ورمى بالزجاجتين فى برميل القمامة وأتى إلينا فى الشرفة مهيضا كالثكلى يولول ويضرب فخذيه بيديه منخرطًا فى بكاء حار:

ـ «كيف نسمح لأنفسنا بالشرب لحظة توديع الزعيم إلى مثواه الأخير؛ إنما يليق بنا الحداد مائة عام على الأقل لعل الحزن يزلزل بطن الأرض فتلد زعيما مثله يرفع كرامة العرب أجمعين!..

الآن صرنا يتامى! . . كل من يحمل رأسه فكرا وطنيًا مستنيرًا أصبح من الآن يتيمًا لن يكون له مكان على موائد اللئام القادمين! . . لك الله يا مصر! ولنا الصبر والسلوان!»

تربع فوق الأرض باكيًا؛ أذهلنا ونكَّد علينا، شغلنا عن متابعة الجنازة؛ عيوننا صارت مشتتة مبلبلة حائرة، صارت نفوسنا بلا شهية لأى شيء فيما عدا التدخين بغزارة. يبدو أننا جميعًا قد أفقنا على حقيقة ماثلة وكل من يحمل فى رأسه فكرًا مستنيرًا أصبح من الآن يتيما. أصابتنا عدوى البكاء. بعد برهة قال عادل الطوخى:

ـ «على فكرة يا جماعة! يجب أن نكون فعلا على حذر! . . يجب أن نتصدى لأى محاولة لضرب ثورة يوليو! . . بصرف النظر عن كل مساوئها فإن البديل عنها فيه هلاك مصر! ستحكمها الرجعية الدينية المتطرفة فى ظل هيمنة الرأسمال الطفيلى الجبان!»

سطع البرق الخاطف فى عينى مؤمنة صديق؛ طرقعت بأصبعيها فى اتجاهى صائحة:

ـ «مروان! هل تذكر زينب الحلوجى؟»

أخذتنى المفاجأة:

ـ «آسف! فكرينى يا مؤمنة!»

ـ «ألم أحدثك ذات ليلة فى بيت عمنا بهادر عن سيدة كانت معى فى المعتقل وكانت حاملا؟ . .»

قاطعتها هاتفًا:

ـ «نعم! تلك التى قتلها ذاك الحيوان!»

أشارت بأصبعها إلى الناشر عادل الطوخى:

ـ «إنها زوجة الأستاذ.. عادل الطوخى!»

من فزعى صرخت:

ـ «مش ممكن!»

ضمت أطراف أصابعها جعلت تهدئ من روعى بتحريكها صعودًا وهبوطًا:

ـ «انتظر المفاجأة!.. وطبعًا تتذكر زميلتها سلوى المتينى!»

ـ «طبعًا! لا أذكر الاسم لكنى أتوقع أن تكون هى أم الرضيع الذى رمى به الجبان فى الهواء فتحطمت عظامه وتحطمت عظام أمه!»

هتفت مؤمنة وهى تحملق فى عينى بقوة، مشيرة بذراعها إلى متولى درويش المتربع على الأرض ينتحب:

ـ «إنها زوجة سيادته! والطفل ابنه!»

بحركة لا إرادية لطمت على وجهى بكفى فى شعور مؤلم بالقهر والحيرة:

ـ «لكأنه خيال فى خيال! الذين أذل سجن عبد الناصر أعناقهم وثكلهم فى فلذات أكبادهم هم الذين يبكون الآن على الزعيم الخالد!.. أما السفاح القاتل ذو اليد الملوثة بدم الأبرياء فإنه أول من هزأ بالزعيم فور رحيله وشيَّعه باللعنات!!»

ذقن بهادر أبو النور ضمرت وهو يسحب نفس الدخان من السيجارة ثم هبط عن حنك أهتم يبتسم فى سخرية :

ـ «السفاح لا عهد له ولا شرف! جبان لا تردعه سوى قوة شاكمة!»

بلهجة حكيمة باردة قال معتز الأقصرى :

ـ «السفاح دائمًا قصير العمر!»

قمر الجداوى أشعل غليونه المقبب المكبب ذا المبسم المقوس، سحب عدة أنفاس متلاحقة عميقة، نفث الدخان من منخريه، راح يلوح بالغليون فى هدوء كأنه يلون بالفرشاة لوحة على الهواء فيما يقول :

ـ «أنا شخصيًا.. اسمحوا لى.. متفائل! وفى ظنى أن الأيام القادمة ستكون هى الأجمل! من يدرى؟ إن الطغاة حينما يرحلون تنزاح الكوابيس ويشعر الناس بالتحرر فيفكرون أحسن ويبدعون أجمل وكل شىء بالضرورة يصبح جميلا!.. لماذا تتشاءمون؟ دعونا نتعشم فى الله وفى مصر خيرًا!»

أشعل الغليون ورمى متولى درويش بنظرة لوم تنضح صدقا وحرارة :

ـ «منك لله يا متولى! قريفت مزاجنا يا رجل!.. هل رميت الزجاجة فى القمامة فعلا؟.. قم راجعها لربما تجد فى قعرها كأسًا ألوِّن به اللوحة فى عينى!»

قهقه معتز قهقهة مكتومة مضغوطة رجت كتفيه؛ قال من خلال الضحك فكأنه يبكى :

ـ «الحياة بالفعل لونها كئيب!»

قالت مؤمنة بلهجة ذات معنى:

ـ «لو دخلتم فى قلب الحدث فعلا تتغير الألوان!»

قال عادل الطوخى:

ـ «هل كان يجب أن نكون وسط هذه الكتل البشرية يدهس بعضنا بعضًا؟!»

رشقته بنظرة احتجاج:

ـ «أن تكونوا فى تفاصيل ما يجرى الآن تحت هذه الشرفة! شوفوا ألوان القهر واليتم والذل والإحباط والجنون والتوحش!.. الناس كأنهم جاءوا يشيِّعون جثمان الوطن!»

هكذا قالت مؤمنة صديق، فاستدرك بهادر أبو النور فى لهجته الممطوطة حين يستلهم التطجين البلدى:

ـ «الناس خرجوا من السجن فى حقيقة الأمر! اليوم تم الإفراج عنهم فأصابهم الجنون! صاروا غير مصدقين أن البوابة انفتحت فجاءوا ليتأكد كل منهم بنفسه أنه يستطيع أن يفعل شيئًا بملء إرادته وحريته!»

بوادر امتعاض بدت على وجه عادل الطوخى؛ سرعان ما انتقلت عدواها إلى متولى درويش الذى رفع رأسه بعد طول تنكيس ثم أرسل نظرة عتاب رقيقة إلى بهادر أبو النور شفّت عن أن هذا الكلام الذى قيل لم يرق له؛ بل بدا كأنه يتأهب لقول هذا بالفعل؛ إلا أنه كبرَّ مخه

فنكس رأسه من جديد ولكن فى صورة تعكس الاحتجاج والامتعاض. غير أن بهادر أبو النور ذكى ولّماح، يعرف أن الكثير من آرائه - وهو الحد تاوى العريق - ليس يعجب الكثيرين من الأحزاب الشيوعية المختلفة إلا أنه واثق من أنه محسوب فى قائمة شرفاء الوطن والوطنية، وأن ما بينه وبين جميع اليساريين من جميع الفصائل من جسور ومعابر مشتركة أكثر وأقوى مما بينهم من خلافات فكرية لم يعد لها الآن ثمة من معنى، مال على الأرض بجذعه الطويل كنخلة عملاقة كسرتها الرياح؛ مد ذراعه الطويل بأصابعه الطويلة السرحة، وضعها فوق كتفى متولى درويش:

- «قم اغسل وجهك!»

اعتدل، لمس بأنامله ذقن قمر الجداوى:

- «سأضعك فى برميل من نبيذ!»

ثم وقف:

- «بنا يا معتز! أنت ومؤمنه ومتولى تركبون معى فى سيارتى! وعادل يركب مع قمر الجداوى!»

قال معتز فى استرابة محببة:

- «ماذا تنوى لنا فى ليلتك هذه الطويلة؟!»

- «سأقرأ عليكم مسرحيتى فى صيغتها النهائية! أتعشم أن تخرجنا من هذه الحالة إلى حالة أفضل!.. كل ما يلزمكم موجود وبكثرة!.. هيا.. نهارك فل يا سامى بك! متشكرين يا أسماء

هانم على هذه الدعوة الكريمة!»

قالت أسماء هانم فى أسف:

ـ «دعوة مثل قلتها! ماذا أكلتم يا حسرة؟! المناسبة لم تكن مناسبة على كل حال! صدت نفوسكم عن الأكل والشرب! نعوضها إن شاء الله يوم نجاح النائب الأول أنور السادات فى الجلوس على كرسى عبد الناصر!»

زأرنا جميعًا زأرة واحدة كأن تيارًا كهربيًا نفضنا على حين غرة:

ـ «أُبُّ بّ بّ. . يا ساتر يارب!»

ثم انفجرنا فى ضحكة عالية سرعان ما انتبهنا إليها فكتمناها فى مهدها إلا أنها صارت تضطرب فى صدورنا وتتكسر وتتناثر فتافيتها بين أفواهنا ونحن نهبط درجات السلم إلى ميدان التحرير الذى جعل يروق ويتخفف من بقايا كثافة البشر.

٢
زمننا المسروق

ـ «ولكن أنور السادات قد جلس بالفعل على كرسى الزعيم الخالد جمال عبد الناصر يا مروان فى احتفالية مسرحية متقنة حيث انحنى السادات فى تبجيل أمام صورة عبد الناصر متعهداً بالمشى على طريقه وأنه سيحمى مكاسب الثورة بل وسيضاعفها بإذن الله ولكن ها هو ذا يتنابر على تكسير بنيتها الأساسية ويفرج عن أعداء الثورة من الإخوان المسلمين وعملاء الإمبريالية الأمريكية الصهيونية ويناصر التيار الدينى المتطرف يستقوى به على كل فصائل اليسار والناصريين ومن يلوذ بهم فماذا فى وسعنا أن نفعل يا مروان ونحن نوشك أن نصير منبوذين مطاردين فى الجامعات فى المؤسسات فى الصحف فى الشارع فى النقابات؟! بهادر أبو النور كانت رؤيته نفاذة مع أننى زعلت منه يومها!! الآن وبعد مرور كل هذه السنين الطويلة أشهد بأنك يا عم بهادر قلت الحق: فعلاً نحن المصريين والعرب جميعًا لسنا سوى مماليك للجالس على أريكة السلطنة فها هو ذا أنور السادات يوسع من دائرة مماليكه الجلبان! كل خصوم عبد الناصر أخرجهم من السجن أو

أتى بهم أشباحًا من العزلة ليكونوا طابورًا مملوكيًا خاصًا يحارب له فى الجبهة الداخلية ضد كل من يدافع عن ثورة يوليو وبرامجها الاشتراكية ومكاسبها العمالية ومنهم من له قوة ونفوذ جماهيرى فى الصحف أو فى المؤسسات العلمية أو الأوساط المالية والتجارية!!». .

هكذا قال متولى درويش بلهجة ساخرة بل تكاد تكون شاخرة كذلك. كنا جلوسا فى محل «لابَأس» فى شارع قصر النيل حيث انزوينا فى ركن قصى من القاعة الجوانية بعيدًا عن شلة أصدقائنا زملائنا الناقد السينمائى سامى السلامونى والديكوريست نهاد بهجت والممثل أحمد زكى والمخرج أحمد يحيى والصحفى عادل حمودة وغيرهم وغيرهم من أصدقائنا الذين آثرنا أن ننهى هذا الموقف الخاص به وبى بعيدًا عنهم حتى لا نشركهم فيه فلا نصل إلى نتيجة حاسمة إذ لا بد لإحدى رغبتين قويتين أن تنتصر على الأخرى بإقناع الآخر بها: ذلك أن متولى درويش أتته فرصة ثمينة للهجرة ويريد إقناعى بأن أهاجر معه أنا الآخر سيّما والفرصة متاحة وقد لا تتكرر بمثل هذه الامتيازات. . فى حين أننى أريد إقناعه بالبقاء فى مصر طالما أن عمله فى الترجمة غير مرتبط بأية مؤسسة حكومية. الأكثر طرافة أننى لم أكن أعرف لماذا أريده أن يبقى فى مصر برغم ما نلقاه فيها من صنوف العنت والهوان؟! هل لأننى اكتشفت فيه صديقا نقيا نادر النقاء فارتبطت به فى السنوات الأخيرة كأخ يعزّ علىّ فراقه؟ ربما! هل لأننى فجعت فى عدد المهاجرين لدرجة خيل لى معها أن مصر نفسها تهاجر؟ أغلب الظن أنى كنت بالفعل مرتعبًا من هذه الظاهرة؛ فلقد هاجرت معظم المواهب

والكفاءات النادرة فى جميع الميادين الأكاديمية والأدبية والفنية والمهنية حتى المتميزين من أصحاب الحرف اليدوية العريقة هاجروا، بل حتى ضباط الشرطة بل ضباط من القوات المسلحة بل ومن بين الضباط الأحرار أنفسهم جميعهم لهثوا وراء المال النفطى فاشتغلوا ضباط أمن وحراسة لمشايخ النفط ومستشارين للأمراء. المؤكد أن أصحاب المواهب والخبرات الثمينة قد طورد الكثيرون منهم لصالح أهل الثقة من المماليك الجدد وإن كانوا بلا خبرة بلا موهبة بلا ضمير بلا وازع أخلاقى؛ أما البعض الآخر فقد ضاق بالخنقة الاقتصادية الطاحنة ولم يجد أمامه ثمة من مفر من السفر بحثًا عن مستقبل لعياله الذين بدأت الدولة تتخلى عنهم وعن عيال مصر قاطبة وشيئًا فشيئًا تأخذ الحكومة من الشعب موقف الثرى البخيل النذل من المتسولين وأبناء السبيل.. ضرب الفراغ أطنابه فى أحشاء البلاد؛ احتل الكومبارس والعاطلون من الموهبة والخلابيص جميع المقاعد الرئيسية؛ ضؤلت مصر بضآلة ممثليها، باتت بكل مؤسساتها مجرد ديكور يحتله ممثلون، كل شاغل لموقع أو مركز أو مكانة إنما هو شخص فهلوى يمثل هذا الدور أو ذاك..

- «خلاص يا متولى! كفى! الصورة قاتمة من حالها فلا تزيدها قتامة!.. سافر! أنا الآن مقتنع تمامًا بأحقيتك فى الهجرة! وليس عندك مشكلة مهنية فأنت تجيد الإنجليزية والفرنسية قراءة وكتابة و..!»

- «يبقى أن تقتنع بأن تهاجر أنت أيضًا!»

انبرى يغرينى بأهمية الفرصة؛ إن الملحق الثقافى العراقى صديق حميم له؛ هو شاب لطيف، مثقف، ذو مزاج مصرى، تخرج فى

جامعة القاهرة وتمكن خلال خمسة عشر عامًا من معرفة كل كبيرة وصغيرة فى أجواء مصر الثقافية والسياسية والعلمية والصحفية بل ويعرف عن عشوائيات القاهرة ما لا يعرفه كبار مسئوليها، هو صديق للكثيرين وبخاصة أصحاب الأسماء النظيفة والسمعة الطيبة الشريفة، مع نسبة معينة من الراقصين على الحبال يجيد هو اختيارهم من بين الصحفيين والأدباء والمتشاعرين ليكونوا مماليك السفارة بشكل أو بآخر فى خدمة النظام العراقى. كان ماجد الصايغ - الملحق العراقى - زميل دراسة لمتولى درويش ومفتونًا بلغتيه العربية والفرنسية معًا فأتاح له فرصًا كثيرة لترجمة الكثير من الكتب الأدبية والسياسية لوزارة الثقافة العراقية التى كانت كتبها تلقى رواجًا كبيرًا فى القاهرة من خلال المكتبة العراقية فى شارع سليمان فى مواجهة مقهى ريش وهو مكان عبقرى نجح الناشر المصرى الحاج محمد مدبولى فى اقتناصه وتجهيزه كمكتبة تطل على منتدى المثقفين لكنه باعه للحكومة العراقية واشترى بدلاً منه ذلك المحل الذى كان يفرش أمامه جرائده بكشكه الشهير فى ميدان سليمان طوال خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن العشرين قبل أن يصبح واحدًا من أعلام مصر الأفذاذ المؤثرين فى الحركة الثقافية إذ ليس منا من لم ينشر له مدبولى كتابًا أو أكثر. . وها هى ذى وزارة الثقافة العراقية تلعب الدور الذى كانت تلعبه مصر فى حقل الثقافة من خلال حركة نشر عارمة تنتج كتابًا كل ست ساعات وتنتج مجلات ودوريات تغطى جميع التخصصات الأدبية والفنية والعلمية والإبداعية الصرفة كانت تستوعب مواهب العالم العربى؛ الآن انتهى ذلك كله فى عصر السادات هذا الانفتاحى القاحل ولكن وزارة الثقافة العراقية قامت على أنقاض الثقافة المصرية فلجأ من نجوا من الهديم إلى بلاد الرافدين

فاستوعبتهم، وأصبح كل كاتب كل شاعر كل باحث كل مفكر يؤمل في نشر كتاب له ضمن مطبوعات وزارة الثقافة العراقية في واحدة من عشرات السلاسل والدوريات التي تصدرها . .

متولي درويش وكثيرون من الجادين أمثاله كانوا يكتبون بانتظام للمجلات العراقية : الأقلام، آفاق عربية، الطليعة الأدبية، الثقافة الأجنبية . بعض الصحفيين كانوا يكتبون أعمدة وزوايا ثابتة في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية نظير أجور محترمة جداً؛ صحفيون وروائيون ونقاد كانوا لا يجدون متنفسا إلا في مطبوعات العراق .

كل هذه الملابسات طرحها متولي درويش أمامنا في قعدتنا المنزوية في «لابّاس» لكي يغريني بالموافقة على الهجرة معه للخلاص من ذل الحياة في مصر وسط أشباه المثقفين الذين لا يتورعون عن المتاجرة بكل شيء حتى مصير زملائهم وحتى شرفهم . الفرصة كانت مغرية في الواقع : لقد وافقت الحكومة العراقية على تمويل مجلة ثقافية سياسية أدبية جامعة ومحايدة، بمعنى أنها لا تكون خاضعة لإشراف رقابي من أي حكومة عربية ولهذا سيكون مقرها باريس وستعمل على بلورة جميع الاتجاهات السياسية والثقافية في العالم العربي بحيث تنشر ما لا يمكن نشره في أي بلد عربي لأي سبب من الأسباب كما تتمتع بأريحية من حرية الرأي كما في مجلات الغرب حيث لا مانع من أن تنقد التيارات بعضها على صفحاتها؛ كذلك وافقت الحكومة العراقية على أن يكون المترجم والناقد المصري متولي درويش هو رئيس تحرير هذه المجلة التي ستكون شهرية؛ وقد صدر القرار بالفعل وكلف متولي

بتأسيس الهيكل الإدارى والجهاز التحريرى الذى سيعمل معه؛ وإنه يتعشم - بكل صدق وحرارة أن أرافقه لأكون ساعده الأيمن فإن أهم ما يحتاجه من محررين كاتب مثلى يصلح أن يكون محرراً عاماً أو «أديتور» كما يسمى فى لغة المهنة. أما حكاية أنى متزوج وعندى طفلان فتلك مسألة محلولة، سأسكن وزوجى وطفلى فى استديو خاص، شقة صغيرة من حجرتين وصالة فى الحى اللاتينى قرب مكتب المجلة: سأضمن لطفلى حضانة رفيعة المستوى وحياة راقية وتعليما أرقى ولغة فرنسية تضاف إلىّ وإلى أسرتى، ثم إنه قد آن الأوان - فى اعتقاده - لأن أرى أوربا وأعيش حياتى كما ينبغى..

برغم كل هذه المغريات التى كانت تدخل فى نطاق أحلامى منذ أن قرأت طه حسين وتوفيق الحكيم ورفاعة الطهطاوى وزكى مبارك ومحمد مندور، وذكرياتهم الحميمة فى باريس. إلا أننى - بكل أسف - كنت على يقين من أن زوجى ستشكل أكبر عائق أمام نجاح هذه التجربة؛ إنها فلاحة صرفة، لم تتخل - ولا هى قابلة ولا أنا أريد - عن أى شىء من تقاليدها الصارمة حتى لهجتها، لقد فاتها سن التعليم بالنسبة للغة الأجنبية فإن كان لديها القابلية وهى لديها بلا شك فإن ذلك يحتاج لوقت طويل أتعلم فيه أنا الآخر ولو مبادئ اللغة الفرنسية مع ملاحظة أننى لا أعرف أية لغة سوى العربية وهذا نقص يخجلنى لكننى لا أستطيع المغامرة بالعيش فى باريس بجلالة قدرها دون أن أكون ملما بأية مفردات فكيف إذاً يكون طعم الحياة؟ كيف تتعامل زوجى مع البقال والجزار والبوابة وحضانة الأطفال؟ إنها لا شك تكون تجربة قاسية على زوجى وطفلىّ ناهيك عن أن ذلك وحده يمكن أن

ينغص عيشى ويفسد متعة التجربة سيما وأنه لم يعد هناك وقت للضياع فى مغامرات خرقاء. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننى كنت اسما نظيفا على قدر من الاحترام، وأرسيت مداميك مشروع أدبى شرعت فى بناء وحدات منه فى روايات وقصص حظيت بترحيب مشجع من عامة القراء، وأخشى إن سافرت أن أفقد الأرض التى مهدتها وتفاصيل المشروع الذى بدأته؛ ثم إننى على قناعة تامة بأن أى مشروع أدبى فى الواقع لا بد أن يصيبه الهزال والوهن إذا واصله الكاتب فى أى منفى حتى ولو كان منتجعًا اختياريا بعيدًا طويل الأمد. ومن جهة ثالثة فإن مزاجى المصرى المعجون فى الحوارى والمقاهى والخرائب والغرز، تلك هى مادتى وذاك هو متاعى. .

مثلما اقتنعت بضرورة هجرته اقتنع بأهمية بقائى فى مصر. انصرفنا ذلك اليوم وقد اتفقنا على سهرة خاصة تكون هى سهرة الوداع قبل سفره ولتكن محدودة جدًا يعنى لا يضاف إلينا معًا سوى صديقنا عادل الطوخى، وليكن ذلك فى بيتى قبل سفره بأربع وعشرين ساعة أو نحو ذلك.

٣
ليلة ليلاء

كنت جالسًا فى شرفة بيتى فى الطابق الأرضى، التى تتسع بالكاد لكرسيين متقابلين فإن انضم إليهما ثالث فلا بد أن يحتل جزءًا من الردهة . يفصل بينى وبين الشارع حوالى ثلاثة أمتار مزروعة بالنجيلة الخضراء يحدها عن الشارع سور من الأسلاك الشائكة اختفت أسلاكه تحت طبقات كثيفة من أفرع وأوراق نباتات تسلقية سريعة النمو والانتشار لم تجد من يواليها بالتهذيب والتشذيب فتضخمت وتوحشت وتطاولت حتى أصبحنا مضطرين إلى الوقوف فى الشرفة إذا أردنا رؤية المسافة المحاذية لبيتنا من الشارع وأصبحنا فى نفس الوقت مهددين بثعابين وسحالى وفئران تتخذ لنفسها مخابئ تحت هذا الجسر الأخضر الهايش الذى ينكسر عند نهاية الشرفة ويتخفف من كثافته حيث يوجد باب ذو شبكة حديدية يفتح على ممر عريض من الحصباء من المفترض أن تدخل منه السيارة وتلف يمينا حيث يوجد باب البيت وأمامه مساحة فارغة مشمولة بحضن السور . . وقد اعتدنا أن نجلس فى هذه الشرفة نترقب الشارع إذا كنا فى انتظار ضيف، لكى نشير له بأن يدفع البوابة الحديدية ويدخل ويمشى مع الممر؛ ثم نسرع بانتظاره على باب الشقة أو ملاقاة سيارته وإرشادها إلى المركن . .

الليل كان فى أوله؛ شاشة التلفاز منعكسة بكاملها أمامى فى زجاج باب الشرفة المفتوح فى مواجهتها من الداخل وفى مواجهتى من الشرفة، لا شيء على الشاشة سوى مآذن وقباب وصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يجأر بأذان العشاء؛ من حين لآخر تمر فايقة فيفصل جسدها بينى وبين شاشة التلفاز ذاهبة إلى المطبخ أو عائدة منه؛ رائحة مرق البط بدأت تهدأ قليلاً تزاحمها رائحة التقلية لطشة الملوخية. بدأت أضجر من طول الانتظار؛ حين وقفت صار الشارع كله مرئيا لكنه كان موحشا بصورة مقبضة.. الشارع كله مجرد عمائر ذات أعمدة واقفة تحت أسقف خرسانية، طبقات من جخانيق يفح منها الظلام وتحوطها أكوام من الرديم وشكائر من الأسمنت وبقايا زلط وحديد وقوالب طوب؛ الشقق المسكونة فى هذا الشارع الجانبى الطويل تعد على أصابع اليد الواحدة ولا يكاد ينبعث منها أى بصيص من ضوء أو حبال غسيل أو أى مظهر ينبئ عن حياة ها هنا؛ ثمة شاحنات بمقطورات راكنة فى أماكن متباعدة يوحى منظرها الخبيث الجهم بأنها مختبئة ها هنا من شيء ما، ليس ثمة من نور مع أن الأعمدة مصطفة على الجانبين إلا أنها ـ وهى كثيراً ما تظل طول النهار مضاءة ـ مطفأة فى الليل الحالك تبدو فى الظلام كأنها أضلاع حوت خرافى أكلته اليابسة مصمصت عظامه تركتها كمسلات شاهقة..

اعتياد الظلام ضوء نسبى؛ سحبت شيش باب الشرفة وأقفلت درفتيه من وراء ظهرى حتى لا يمنعنى خيال الضوء الداخلى من الرؤية. بعد برهة وجيزة صرت أستطيع التفرقة بين القط الأسود النائم فوق كراكيب العمارة المواجهة وبين خرقة سوداء متكورة بجواره. ولما كنت

على يقين بأن الصديقين قادمان لا محالة رحت ألتمس فى عدم انتظام المواصلات سببًا رئيسيا فى تأخيرهما عن الوصول. كان بصرى قد استقر وتمركز فى تلك الكوعة على الناصية البعيدة التى يبدأ منها شارعنا الجانبى إذ هى - الكوعة - مطلة على الشارع الرئيسى الذى يبدأ من ميدان محطة الأتوبيس ويتجه غربًا إلى المقطم. هذه الكوَّعة عبارة عن مبنى دائرى يضم كافتيريا ودار عرض سينمائى صيفية ذات طابع عائلى لكل عائلة ترابيزة مستقلة للأكل وتناول المشروبات أثناء الفرجة على العرض السينمائى إلا أنها أوقفت نشاطها إلى حين؛ المبنى خريطته الأرضية دائرية فى الأساس مما أتاح لنا رؤية مساحات كبيرة من الشارع الرئيسى، وأى داخل إلى شارعنا فى النهار نرى ظله ممدودا على الأرض قبل ظهور جسده؛ وأى قادم إلينا لا بد أن يأتى من وراء هذه الكوعة، التى كثيراً ما تأخذ شكل الكعبة المشرفة، طوال النهار يلف حولها ناس، لا تعرف من أين أتوا، بعضهم ذاهب إلى محطة الأتوبيس أو قادم منها، كما وأن سماسرة الشقق والأراضى لا يكفون عن اصطحاب أسر ووفود للفرجة على شقق للبيع أو للإيجار أو على محلات مطلوبة لأغراض بلا حصر؛ وكذلك مقاولو البناء والنجارة والنقاشة والحدادة والسباكة يدلقون ها هنا شاحنات محملة بالأنفار والفواعلية والصنايعية وكلهم لا بد أن يلف حول هذا المبنى ليتجه إلى أى شارع يشاء إذ هى فى موقع جعلها كاللقمة المحشورة فى الزور إلا أنه يعكس ذكاءً عبقريًا فى إقامة مصيدة جماهيرية لا بد أن توقع بهم فيصيروا من زبائنها! . .

أخيراً ظهر شبحان يمشيان فى تؤدة، كل منهما ممسك بجعبة من

البلاستيك ؛ ظلهما تجسد بوضوح ؛ اقتربا، توقفا يتلفتان بحثًا عن أى بواب ليسألانه من أى هذه الحارات الفرعية المتعددة يدخلان؟ إن القادم إلينا يرتبك دائمًا أمام كثرة النواصى على الجانبين مع العلم بأنها متشابهة فى معظمها. شبت على أطراف أصابعى، أدخلت أصبعى فوق لسانى أطلقت صفيرًا حادًا؛ تلفتا؛ لوحت لهما بذراعى فى اتجاه مدخل البيت؛ تركت الشرفة إلى الردهة فأبلغت زوجتى بأن الضيفين قد وصلا. لبست الشبشب الزنوبة وتأهبت للخروج لملاقاتهما عند باب السور؛ لكننى ما كدت أصل إلى باب شقتى لأفتحه خارجا حتى انشق الفضاء عن صرخة فزعة كانت مثل كرباج هوى فوق قلبى فشرخه؛ إنها صرخة طفل عجوز مرتعب من عفريت طلع له فى الليل. يا للكارثة، الصرخة آبت إلى ولولة مرعوشة البدن فى فتحة سور بيتى..

اندفعت فايقة تجرى لتمسك بى تمنعنى من الخروج إذ لا بد أن مجهولا أصاب أحد الضيفين بطعنة خنجر غادرة فى الظلام. هكذا قالت بكثير من الثقة الرهيبة. ارتعبت لمجرد تصورى حدوث ذلك لكننى نزعت نفسى منها بقوة واندفعت خارجًا أهرول مفكوك الأعصاب تتسارع دقات قلبى، فيما جرت فايقة إلى الشرفة..

بقفزتين صرت فى قلب الحدث: إنه فهمى بك القزاز كومة لحم سائبة تنتفض من حلاوة الروح بين أيدى صديقى متولى درويش وعادل الطوخى، اللذين راحا يربتان على صدغيه فى تحنان، يدلكان صدره كل واحد من ناحية. ولأنه زكيبة من اللحم الثقيل كان ارتطامه بالبوابة الحديدية قد زلزل الأرض وفصل قائمها عن دعامته الحجرية وكان من الواضح أنه لولا أن متولى وعادل لحقا به فى الوقت المناسب لتهاوى

على الأرض والباب الحديد فوقه . بكلمات بسيطة لاهثة فهمت منهما أنه ظهر فجأة من وراء البيت من الجهة المقابلة لهما ودخل البوابة قبلهما بخطوة واحدة ليحدث هذا الذى حدث . بقى الأمر غامضًا مبهمًا ولكن . . أُف ف ف ، فهمى فعلها على نفسه ، نضح بنطلونه ببطش عريضة من بول وغائط ، من أمام ومن خلف صار منظره كريهًا شكلا ورائحة . .

بمعاونتهما سحبناه إلى الداخل ؛ بمعاونتهما أدخلته إلى الحمام لكنه كان فى دهولة السكران الفاقد وعيه يرتعد زائغ النظرات فى شعور بالهلع . استأذننى عادل الطوخى فى أن يتولى أمره فإنه ـ عادل ـ ليس يقرف من هذه المناظر التى اعتادها فى المعتقل حيث كان يناط به جمع جرادل البول والغائط لدلقها فى المراحيض وغسلها وغسل ثياب المساجين . عرَّاه عادل من ملابسه كلها فيما هو فاقد للإرادة مستسلمًا تمامًا . كور ملابسه القذرة ورمى بها بعيدًا ، عاونه على النزول إلى حوض الحمام ، فتح فوقه الماء ، شمر ذراعيه ودهك الصابونة فوق الليفة ثم أعطاها له وشدَّ عليه ستارة المشمع وخرج . على أن الدقائق طالت وهو لم يخرج وصوت الماء لا يزال يتدفق . دخل عادل وأنا معه ، أزاح ستارة المشمع ، وجدناه مقعيا فى قلب الحوض كالفاقد الوعى وقد انسدت مصفاة الحوض بكتل من غائط لا يزال يتدفق من مؤخرته السائبة . . ديك أم اللى جابوك فى ليلتك هذه المقرفة من أولها ؛ هكذا رحت أدمدم لنفسى وقد تشاءمت وضاقت الدنيا فى عينى ؛ لكن عادل الطوخى ـ ما أجمله ـ نجانى بشجاعة وقام بإقفال الماء ، بقبضة قوية من ساعد قوى قبض على ذراع فهمى وسحبه : إطلع !

وبسرعة أحاطه بالبشكير مداريا عورته بربطه بإحكام حول خصره، وبكساحة الماء راح يسلك مصفاة الحوض ويحلل خشونة الكتل ويفتح فوقها الصنبور السفلى حتى نظف الحوض تمامًا ثم غسل يديه كأن شيئًا لم يكن ثم جعل يربت على ظهر فهمى بصوت دافئ ويد حانية:

ـ «لماذا أنت ترتعد هكذا؟ هدئ نفسك يا رجل! ما الذى حدث؟! الحمد لله أن تلقيناك فى اللحظة المناسبة! هل هى غيبوبة سكر؟ لا تخف! مم أنت خائف قل لى؟!.. هات أى جلابية يا مروان!»

ـ «جلابيتى تتسع بالكاد لفخذه!»

ـ «لكنه لا بد أن يتدفأ وإلا أصابته نزلة شعبية!»

دخلت حجرة نومى وجئت بملاءة طرحتها فوق ظهره ووضعت له كرسيًا فى الحمام أجلسته عليه لربما تكون فى جوفه بقايا. يا كرم الله! من حسن الحظ دخل صهرى سمير الشيخ قادمًا لتوه من البلد عقب إجازة نهاية الأسبوع. أخذت عنه حمولته المعتادة ورجوته أن ينطلق من فوره إلى بيت فهمى بك القزاز يطلب غيارا داخليًا وجلبابًا لفهمى بك، وإذ عرف سمير الشيخ أن فهمى بك محتجز فى الحمَّام إلى أن تجيئه الثياب فتح ساقيه؛ وكان ذكيا لبقًا حين أجاب خيرات هانم بأن علبة بوية انكبت عليه عندنا؛ ولكنه ما أن عاد إلينا بالهدوم حتى فوجئنا بخيرات هانم تصل إلينا فى أعقابه؛ لقد لعب الفأر فى عبها فجاءت على الفور لتقف على حقيقة ما جرى. كانت ترتدى الروب المنزلى المحتشم ذى لون بنفسجى..

ارتدى فهمى ملابسه وانتقلنا إلى حجرة مكتبى. لا أدرى ماذا كنا

سنفعل لو لم يحضر سمير الشيخ. كان نشطا، جهز لنا جردل الثلج والأكواب وأطباق المزة وجلس فى الردهة فى مرمى ندائى. حينما وصلت خيرات وأستأذنت في الدخول علينا لم يعجبها منظر زوجها سيما وأنها قد دخلت الحمَّام ورأت حال ملابسه المخلوعة، فامتعضت أكثر مما انزعجت، لم تنزعج حقًا إلا حينما وقع بصرها عليه جالسًا على الفوتى شاحب الوجه زائغ العينين كالميت؛ بيد منتفضة يحيط الكأس ثم يرفعه بكلتا يديه إلى فمه ليأخذ رشفة خاطفة ثم يضع الكأس مبتسمًا فى بلاهة. أعيدت حكاية الموقف مرات ومرات من كل من عادل الطوخى ومتولى درويش ومنى ومن فايقة كل واحد يروى ما أدركه من الموقف فإذا هو فى مجمله: فى اللحظة التى كان عادل ومتولى ينعطفان فيها على بوابة السور فوجئنا برجل يظهر فجأة من الحارة الملاصقة للسور، ما أن ظهر حتى حود خطوة واحدة فدخل بوابة السور التى يقصدانها فاسترشدا به وتبعاه فى الدخول فشعر بهما فتلفت خلفه متوقفًا فرأى وجهين قريبين من كتفيه فارتعد ودارت به فصرخ متهاويًا فاقدا وعيه وبقى فى شبه غيبوبة لوقت طويل حتى وهو مفتوح العينين..

حتى تلك اللحظة كنت لا أزال خالى الذهن تمامًا من وجود علاقة من نوع ما بين كل من عادل الطوخى ومتولى درويش وبين العميد فهمى القزاز مأمور السجن السفاح المعذب قاتل زوجتيهما وطفليهما فى حفل استقبال فى سجن النساء؛ غير أن الخاطر دهمنى فجأة فأردت الاستيثاق منه بشكل ما؛ ألهمنى الله مدخلا لبقا، اصطنعت الاستدراك:

ـ «آسف يا جماعة! آسف يا فهمى بك! نسيت أن أعرف بينكم!»

بدأت بتقديم الضيفين، أشرت إليهما ناظرا لفهمى :

ـ «الناشر الأستاذ عادل الطوخى!»

هز رأسه مرددًا :

ـ «طبعًا طبعًا!»

ـ «تعرفه من قبل يا فهمى بك؟»

هز رأسه تلقائيًا بالموافقة :

ـ «طبعًا طبعًا!»

ـ «وتعرف المترجم؟ الناقد الأستاذ متولى درويش؟»

هز رأسه مبتسمًا فى بلاهة :

ـ «طبعًا طبعًا!»

نظرت للصديقين :

ـ «أظنكما تعرفان العميد فهمى القزاز!»

هزا رأسيهما فى دماثة وترحيب. قال عادل الطوخى :

ـ «نار على علم!»

وقال متولى درويش :

ـ «رأيت حضرته مرة منذ سنوات لكن شكله الآن تغير كثيرًا!»

ـ «فى صحتكم!»

كانت خيرات جالسة معنا فى الحجرة وكان لوجودها حضور منعش حقًا وإن بقيت طوال الجلسة تحملق فى زوجها من تحت لتحت بنظرات اشمئزاز مقهور، إلا أن وجهها سرعان ما يشرق إذا نظر فيه أحد. سرعان ما لاحظنا أنها مشمئزة من شىء ما فى وجه زوجها؛ انتبهنا فى الحال إلى أنه منخرط فى البكاء بعنف وأنه يقاوم حتى لا ينفجر بكاؤه بصوت فاضح. .

- «عن إذنكم!»

ثم وقفت ورمقتنى بنظرة مع غمزة من شفتيها فهمت منها أنها تريد أن ألحق بها خارج الحجرة. حملت كأسى وخرجت وراءها، عند خروجى من الباب حانت منى التفاتة فرأيت فهمى بك منكسًا رأسه كالتلميذ المذنب يبكى؛ قلت لنفسى: فلأترك الغرماء وحدهم لبرهة، الجلاد والضحية فى المواجهة ولكن ما أقوى الضحية وما أتعس الجلاد!. .

اقتادتنى خيرات الشامى إلى الشرفة، أشارت لى بالجلوس وسحبت كرسيًا اقتربت به منى؛ مالت نحوى بعنقها البديع الأتلع، زفرت من أعماق صدرها؛ همست بنبرة أسيانة آسفة:

- «أنا الآن تصورت الموقف بالضبط! هو حينما شافهما وراء ظهره فى الظلام فجأة. وعرفهما توهم أنهما يتربصان به لقتله فسقط من طوله!. . مصيبته مصيبة يا أستاذ مروان وحملها ثقيل لم أعد أطيقه!. . مسألة أن يرتعب فيشُخ على روحه أصبحت متكررة! يكفى أن ينام فيطلع له كابوس فيغرق نفسه فى البلل ويصوت كالنسوان وهو نائم!. . ساعات يسرح مع نفسه وفجأة ينتر نفسه

واقفًا يبحث عن الطبنجة مدعيًا أنه حاسس بأنفاس أرواح فى البيت تريد قتله! يدعى أحيانًا أنه يسمع تنفسها ويرى أشباحها تقفز من البلكونة! . . مرة خرج إلى الجنينة عاريًا يطلق الرصاص على الشجر وفى الهواء! . . هو ماشى فى سكة الجنون على مهله ولكنى سأسبقه إليه يا أستاذ مروان! . . والله لولا العيال لطلقته بأى ثمن! . . أرجوك يا أستاذ مروان خلك جنبى فى هذه المحنة لأنى فى أمس الحاجة لرأيك ونصائحك! . . هل تعرف لماذا جاء إليك الليلة بغير موعد؟ . . »

ـ «لا طبعًا! . . خبرينى أرجوك!»

أعطيتها أذنى فى شغف متوتر بالتوجس من مجهول غامض أراه قد أطفأ بريق الإشراق فى عينيها الجميلتين جدًا. حاولت هى أن تبلع ريقها؛ لكن الشحوب الجاف على شفتيها وشى بأن ريقها نشف. زفرت، بللت شفتيها بطرف لسانها، خرج صوتها ملفوفًا بأغلفة سميكة من مشاعر الأسى والحسرة حجبت رنينه الطروب لكنها نضحت بحرارة الألم والشعور بالهوان:

ـ «السافل يسبنى فى شرفى! . . »

عجزت عن الاستمرار فصمتت برهة تقاوم الضعف والاستسلام للبكاء الذى من الواضح أنها تمقته برغم غرق عينيها فى بحيرتين من دموع لؤلؤية:

ـ «ومع من يتهمنى هل تعرف؟ مع أخى عبود!! تصور يا أستاذ مروان؟ أنا! يتهمنى بإقامة علاقة عشق مع أخى الذى ربيته بنفسى!!»

ـ «هذا فعلا هو الجنون!!»

ـ «إنه نقص فى الرجولة! . . أرجو أن تفهمنى: هو مكتمل الذكورة أربعة وعشرين قيراطا لكنه صفر فى الرجولة! ليس فيه من أخلاق الرجال شىء أى شىء ولهذا لا أطيقه ولا أعطيه نفسى أبدًا! عمرى فى حياتى كلها ما أعطيته نفسى طواعية لأنه ليس يعترف بنفسى هذه من الأساس فلا يعطينى فرصة للتعبير عن نفسى! إنما هو يغتصبنى بالقوة والعنف الحيوانى! فى معظم الأحيان أصبحتُ آخذها من قصيره فأتركه يعبث بى كيفما شاء لخمس دقائق على الأكثر بمجرد انتهائها أكون غرقت فى النوم تلقائيًا للهروب من جسدى! . . اسفة يا أستاذ مروان! ولثقتى فى ثقافتك وعقلك النيِّر قلت لك ما لا أستطيع قوله لأى مخلوق آخر خاصة أنه حرمنى من كل الأصدقاء فلم يعد لى من يغرينى بالفضفضة فيريحنى مثلك فأعطنى هذا الحق واحتملنى سايقة عليك النبى! . . لقد أردت أن تكون على بينة من أمرى معه لأننى لست آأمن جانبه وأخشى غدره وخسته!»

ـ «ولكن لماذا جاءنى الليلة؟!»

ـ «حينما سبنى طار صوابى! بصقت فى وجهه! ركبنى الجنون! . . أغلقت باب الحجرة علينا وحدنا من الداخل وفين يوجعك! نزلت فوقه ضربا بالشبشب قطعته فوق رأسه وكتفيه! تلاحظ أن ريقى ناشف لأننى بصقت عليه كل ما فى جوفى من بصاق! . . عمرى ما كنت أتصور أنى يمكن أن أمد يدى عليه أو حتى أشتمه! عمرى ما فقدت عقلى وفعلت ما فعلت إلا اليوم وأشعر الآن

كأننى فجرت وكفرت!! . . تصور أننى لم أكن أتصور أنه على كل هذا اللحم هش وهزيل كالعنزة المريضة؟! يظهر أن الجبان دائمًا هكذا قوته كلها تجيئه من البدلة الرسمية والكاب! بدونهما يشعر أنه كلب لا يستاهل إلا الركل بالقدم . .

المهم أنى تشبثت بالطلاق! أرسلت أخى عبود إلى البلد ليجيء بأبى وأهلى يخلصوننى منه بالقوة! . . هو يعلم أن أبى وإخوتى وأولاد أعمامى إن أمسكوه لن يتركوه حيا! . . هو الآن لم يعد فى الخدمة! أقصد أنهم جمدوه أو ركنوه على الرف من حوالى شهرين! من يومها وشعوره بالضعف يزداد فتزداد خسته وسفالته! . . الليلة جاءك يجرى ليأتى بك أنت والمدام فايقة لتهدئتى وإقناعى بالتنازل عن طلب الطلاق! . . أنا غمزت عبود بأن يختفى ويعود آخر الليل بأى حجة! . . لم يحدث فى حياتنا أن وصلت الأمور إلى هذه الدرجة! ولكنى أحب أن أعطى لنفسى فرصة التدبير للانفصال على مهل لأنى لن أطيقه بعد أن تطاول فما رأيك يا أستاذ مروان؟!»

وقفت حائرا متطيرا من هذه الليلة الليلاء الغريبة. رأيت أن ربع ساعة زمن طويل يقضيه الضيوف بدونى؛ فى نفس الوقت حمدت للظروف أن أطلعتنى على هذا الذى عرفته الآن من خيرات الشامى. رجوتها أن تفوِّت هذه المرة من أجل خاطرى وأن تواصل احتماله إلى أن نروق ثم نبحث معا عن حل يرضاه الجميع. كنت أكلمها فيما أنا ماش فى الشرفة إلى حجرة مكتبى وهى ماشية بجوارى تصغى فى اهتمام. دخلنا عليهم، بادرتهم قبل أن تجلس:

ـ «آسفة يا جماعة! نكدنا عليكم!»

قال متولى درويش :

ـ «لا نكد ولا حاجة يا مدام! هذا بالنسبة لما شفناه فى حياتنا مزاح صبيانى!»

ضحكة تهكم قصيرة وقعت من شفتى عادل الطوخى :

ـ «بالعكس يا مدام نحن سعداء جدا بالتعرف على حضرتك بعد أن تعرفنا على فهمى بك!».

وجود خيرات الشامى أشاع البهجة فينا حقا؛ أقصد ثلاثتنا بالطبع : عادل الطوخى ومتولى درويش وأنا . . نظراتنا لا تنى تتلاقى على شعور بالأسف من أن هذه الزنبقة اليانعة، هذه القصيدة الشعرية الرومانتيكية البديعة زوج لمثل هذا الحيوان الدنىء الدنس! . .

ظهرت فايقة محمرة الوجه من حرارة المطبخ؛ هتفت بلهجتها الفلاحية :

ـ «العشا جاهز يا رجالة!»

التفت عادل الطوخى ناحيتها محملقا فيها بانبهار، ثم نظر لى متسائلا :

ـ «هل المدام . . أخت المدام؟»

قالت فايقة :

ـ «هل تشبهنى أو أشبهها؟»

هتف متولى درويش :

ـ «طبق الأصل والله يا مدام!»

أضاف عادل :

ـ برتقالة وانقسمت نصفين!»

هتفت فايقة بعبطة مفتوحة الصوت :

ـ «وهل أنا جميلة مثل خيرات؟!»

تبادل عادل ومتولى نظرة صبيانية لطيفة ثم لاذا بالصمت الباسم الذى هو أبلغ من الكلام . .

تعشينا على الطريقة الريفية : على المائدة كل واحد أمامه طائفة من أطباق ملآنة تخصة وحده فإن نفدت فالصوانى والأبرمة أمامه حافلة بالفائض يغرف منها ما يشاء . استأنفنا القعدة فى حجرة المكتب وقد تكفلت خيرات الشامى بجمال روحها ولباقتها الفنية فى حكى النكت والمفارقات الضاحكة ، سلبت ألبابنا فنسينا أمر مواصلات العودة من منطقة قاحلة كهذه . ولكن الفرج أتى من جانبها أيضا ؛ فبعد منتصف الليل تناهى إلى أسماعنا صوت هامس لهدير محرك سيارة ، سرعان ما أنبأتنا فايقة أن سيارة تقف دائرة تحت سور بيتنا ، ثم ما لبث الصمت حتى نطق نقراً هينا على الباب ؛ فإذا بالقادم هو عبود الشامى شقيق خيرات . انخضت أخته وتجمد وجهها من فرط التوجس . اجلس يا عبود ، قال : معى سائق تاكسى ، صحت فيه وصاحت أخته : ها ت السائق ؛ ففى التو أطلت فايقة من الشرفة ونادت :

ـ «بطل العربة وتعال يا أسطى!» .

جاء الأسطى، فما الأمر؟ وخرجت خيرات مع عبود إلى الشرفة ثم نادتنى بعد برهة. اتضح أن عبود قد امتلأ صدره حنقا وغضبا مما رآه يجرى لأخته من هوان، فنقض اتفاقه السرى معها، وبدلا من أن يلف لفة ويعود أخذ نفسه وسافر إلى المنصورة بالفعل وانفرد بأبيه على جنب وحكى له ما حدث من طقطق لسلامو عليكم؛ فاستشاط أبوه غضبا وأمره بأن يقوم من ساعته فيرجع إلى القاهرة يستأجر تاكسيا ويأتى بأخته وشنطة هدومها لتبيت الليلة فى حضن أخيها إن كان يعجب ذلك المأفون القذر..

على قدر ما أصابنى من ضجر وضيق هتفت فيه:

ـ «حلو! عملت خيرا! نحن فعلا كنا فى احتياج لسيارة توصل الضيفين إلى القاهرة! أما أبوك فسأكلمه فى التليفون غدا من مكتبى وسأشرح له كيف سوينا المسألة!».

يبدو أن الولد عبود كان ميالا لهذا المرسى، فلم يعلق. سحبته ورائى إلى الحجرة وقلت لفهمى بك:

ـ «خلاص يا فهمى بك! عبود لن يعود إلى البلد اليوم! أبوه ينتظره الآن هناك لكنى سوف أعتذر له غدا أو على كل حال سألتقيك غدا!»

انبسطت ملامحه، انتعش، مدَّ يده بالكأس الفارغ، فى الحال قام متولى درويش بصب كأس جديد له، وبالمرة قرر التخلص مما بقى فى الزجاجة فوزعه على الكئوس ثم انتبه فرفع يده والتفت إلى السائق:

ـ «تاخد كاس يا أسطى؟»

فى قليل من الخجل قال الأسطى:

ـ «على لسانى ولا تنسانى!»

صب ما تبقى فجاء كأسا معتبرا. فايقة الفلاحة لماحة، قامت وأتت بطبقين فى كل منهما قطعة لحم وخرطة مكرونة بالبيشاميل مع حاشية من سلاطة خضراء، قدمت واحدا لعبود والآخر للأسطى الذى رمقها فى امتنان عظيم ثم وضع الكأس ووقف منحنيا وتلقى الطبق ثم جلس؛ فى دقائق معدودة أجهز عليه. الولد عبود كان محترما وابن تربية هى نفس تربية صهرى سمير الشيخ الذى جلس وإياه فى الردهة يبحثان فى التليفزيون عن تسجيل لأهداف الكرة التى سجلت اليوم فى مباريات الدورى؛ اعتذر عبود للسائق بلباقة، حاسبه على نصف المقاولة التى اتفق معه عليها فى مشوار للمنصورة ولكن بشرط أن يقوم الآن بتوصيل «البكوات» بالمجان إلى بيوتهم؟ قال السائق بأريحية: ومن غير فلوس يا باشا. حملتهم السيارة جميعهم ـ بيجو سبعة راكب ـ لتوصيل فهمى بك وزوجه وصهره إلى بيتهم فى صحراء المماليك ثم تنطلق إلى القاهرة بعادل ومتولى. حينما ارتميت على سريرى كالبهيمة الفطسى جاءت فايقة وارتمت بجوارى، رمقتنى بعينين حزينتين ناعستين، ثم زفرت، ثم قالت وهى تغمض عينيها وتطفئ بلحة الضوء: والنبى صعبانه علىّ خيرات يا حرام!

الفصل الخامس

١

حق العبد فى تغيير سيّده!

كانت سيارة بهادر أبو النور تجرى فى صحراء المماليك منحدرة من المنزل الحاد لجبل المقطم إلى كوبرى القلعة فطريق صلاح سالم فى اتجاه مطار القاهرة لكى نوصل متولى درويش. كنت جالسا على الكرسى الأمامى بحذاء بهادر أبو النور بينما جلس متولى درويش وعادل الطوخى على الكنبة الخلفية؛ قد ارتصت حقائب متولى فى شنطة السيارة وفوق سقفها. مدينة نصر على يميننا ومصر الجديدة على يسارنا؛ المدينة آخذة فى الاتساع والتضخم السرطانى تنضاف إليها أحياء رقمية جديدة كل بضعة أشهر ومع ذلك فالمساكن نادرة وباهظة التكاليف..

يحلو للأستاذ بهادر أبو النور أن يختبر أصدقاءه فى معلوماتهم التاريخية؛ الواقع أنه ليس مولعا بالاختبار فى ذاته إنما هو مولع دائما باستعراض ثقافته التاريخية وبخاصة تاريخ مصر الحديث والمعاصر وبشكل أشد خصوصية تاريخ محمد على باشا الكبير الذى هو مفتون بشخصيته وبدوره الرائد الكبير فى تحديث مصر المعاصرة وبسط نفوذها التاريخى على المنطقة العربية باعتبارها حدود الأمن المصرى..

قال بهادر وهو يلوح بذراعه من فوق عجلة القيادة إلى الصحراء المترامية على يميننا لم تخدش المدينة النصرية الجديدة هيبتها ولم تبدد وحشتها :

ـ «هل يعرف أحدكم لماذا سميت هذه المنطقة كلها من ضاحيتنا إلى المطار بصحراء المماليك؟»

قال عادل الطوخى ممتعضا :

ـ «أنا شخصيا ليس يهمنى أن أعرف سوى أنها بنيت فوقها مدينتكم ومدينة نصر! وليس يهمنى فى مدينة نصر سوى السمسار الذى سيخرب بيتى إن شاء الله قبل أن يجد لى شقة فيها على قدّ الحال!»

فشخ بهادر حنكه وأطلق صيحة يُفترض أنها ضحكة ساخرة تعمد أن يجىء إيقاعها على شىء من البذاءة أنهاها على هذا النحو :

ـ «هاااا هاى! . . فكرتنى بمسرحية للكاتب العبثى العالمى من أصل سورى جورج شحادة!

نسيت عنوانها! فيها شخصية طريفة تقدم تعريفا للوطن من وجهة نظرها يقول : الوطن هو مؤخرة بقرتى!» .

ثم استأنف الضحكة صريحة هذه المرة رائقة الصوت وأضاف :

ـ «معك حق والله يا عادل! . . الوطن الآن يتضاءل شيئا فشيئا! لم يعد يتسع للأحلام!»

عاجله متولى درويش :

ـ «لم يعد يتسع لعياله! أن تجد مسكنا يأويك! أن تجد وظيفة! منفذا للرزق! رصيفا تمشى عليه! هواءً نقيا تتنفسه! كل ذلك دخل فى نطاق المستحيلات!»

بقصد التنكيت قال عادل:

ـ «أسموها صحراء المماليك لأننا جميعا مماليك!

نحن جميعا من أملاك الرئيس وأهل منزله!

ومجلس وزرائه ومجلس شعبه! الواحد منا إما مالك أو مملوك!»

فجأة رأينا السيجارة بين شفتى بهادر مشتعلة، مع أننى ـ الملاصق له فى الكرسى ـ لم أره وهو يسحبها بطراطيف أصابعه ويشعلها. نفث الدخان مبتسما:

ـ «باب الهجرة مفتوح على كل حال! هاجر أنت أيضا تجد ما يسرك!»

يبدو أن عادل أراد أن يوجه إليه رسالة استياء من سريته فى إشعال السيجارة حتى لا يتورط فى العزومة علينا؛ ففتح علبته الأجنبية وقدمها لمتولى ثم لى، ثم تجاهل سيجارة بهادر وقدم له العلبة؛ فلما رفع بهادر أصبعيه بسيجارته اصطنع عادل أنه لم يكن رآها، اكتفى بغمزه:

ـ «أنت يا عم بهادر أمهر من رأيت فى العمل السرى!»

قهقهنا بصفاء؛ ثم استدرك عادل:

ـ «أنا فكرتك بشخصية فى مسرحية وأنت فكرتنى بمقولة لعنترة بن شداد عندما افتقده أبوه يوم أن غزت قبيلة طيئ قبيلة عبس!..

قال عنترة لأبيه أنا اليوم عبد لعبس وغدا أكون عبداً لطيئ! تريدنى أن أدافع عن ماذا وأنت لم تعترف بأبوتك لى؟!»

بعث لى بهادر بغمزة شقية لكى أكون معه على الخط، ثم سأله مازحا:

ـ «هل تقصد أنك فقدت الإيمان بالوطن؟!»

هبَّ عادل صائحا مصححا:

ـ «لا يا أستاذ بهادر! الوطن هو الذى فقد الإيمان بى! لم يعد يهمه شأن المواطن!

امتلكه الحكام!.. قصدت القول بأننى اليوم مملوك لأنور السادات ويستطيع أقل خادم من حاشيته أن يبيعنى يسجننى يخفينى تحت طقاطيق الأرض! فإن هاجرت سأكون مملوكا لسادة جدد أقلهم شأنا شخصية الكفيل!.. فمملوك بمملوك دعنى مملوكا لسادة أعرفهم وأعرف كيف أحتال للنجاة منهم!!».

فتح متولى زجاج النافذة ليرمى عقب السيجارة فى الشارع فهبّ علينا الهواء عاصفا؛ قال متولى وهو يسرع برفع الزجاج كما كان:

ـ «مهم أن يجرب الإنسان سادة جدد!

وهذه فى نظرى رفاهية مملوكية: أن يكون لك الحق فى تغيير سادتك واستبدالهم!»

قال بهادر بحماسة:

ـ «أصبت يا متولى! ليت الواحد منا يملك هذه الحرية!»

ـ «ولماذا لا يملكها؟!»

هكذا سأله متولى بدهشة، فأشعل بهادر سيجارة أخرى بنفس الطريقة ثم قال:

ـ «أنت لست مملوكا لأنور السادات وحاشيته فحسب! أنت أيضا مملوك لزوجك وعيالك وربما أمك وأبيك وإخوتك إن كنت المسئول عنهم إلا تنسى أنك متحرر من الزوج والولد! . . وأحسن حاجة عملتها أنك بعد رحيل المرحومة لم تتزوج! وعادل أيضا لم يفعلها ولهذا يستطيع مثلك أن يضرب عصاه ويمشى وراءها كما يقول المثل: فإن حدث له مكروه والعياذ بالله فى الغربة يصيبه وحده!».

قال متولى فى كثير من الشجن:

ـ «أنا لم أكرر الزواج لسببين يا عم بهادر: الوفاء للمرحومة يأتى فى المرتبة الثانية! ولكن فى المرتبة الأولى عدم رغبتى فى إنجاب مزيد من المماليك! أخطر وأحط ما يفعله رجل فى مصر فى عصرنا هذا أن ينجب عيالا تستعبدهم الحكومة ويحولهم المجتمع الفاسد إلى لصوص وقطاع طرق أو قوادين يتاجرون بشرف الوطن!».

استدرك عادل الطوخى:

ـ «سألتنا يا عم بهادر سؤالا وشردنا عنه لم نعرف إجابته!».

شوح متولى درويش بغيظ:

ـ «خصلتنا يا مصريين! خصلة وسخة! دائما أبدا نترك الأصل

ونتشعلق فى الفروع دون أن نفهم شيئا! إن الذى علم المصريين هذه الخصلة كان لئيما! بلؤمه جعلنا قوما لا ننهى قضية بدأناها! . . كلها حوارات تشرد بنا إلى موضوعات جانبية حتى ننسى الموضوع الأصلى! وقد ننساق إلى بذاءة وسباب!».

ضحك بهادر ساخرا:

ـ «تسخط على شىء فيما أنت تفعله؟؟».

أردت أن أختبر معلوماتى بقول شىء ما:

ـ «حد علمى يا أستاذ بهادر أن المماليك كانوا يأتون إلى هذه الصحراء ليتدربوا فيها على الفروسية وفنون القتال والحصار والخطط والمناورات وما إلى ذلك!».

هز بهادر رأسه علامة الصح والاستحسان ثم أضاف بلهجة تميزية:

ـ «وكانوا أيضا يصفون حساباتهم الشخصية فيها! يتواعدون على المبارزة بالسيوف حسما لخلاف أو عراك إنهم أولاد كاااالب! كانوا يدعون الناس للمشاهدة كأنهم سيلعبون مباراة كرة قدم! . . الواد المقريزى جاب تاريخ هذه الصحراء بالتفصيل! أما الواد على باشا مبارك فخططه التوفيقية جابت سيرتها وهى ماشية! . . وعلى فكرة يا واد يا مروان! الفتوات من أبناء البلد ورثوا هذه العادة عن المماليك ولكن بالنبابيت! وجاءت روايات نجيب محفوظ فحصرتهم فى جبل الدراسة!».

حين وصلنا إلى ساحة المطار كانت شمس الظهيرة تتعامد فوق رءوسنا ونحن نلهث فى إنزال الحقائب عن السقف ناهيك عما كان فى

شنطة السيارة، حقائب كبيرة وصغيرة ومتوسطة وهاندباج إضافة إلى الحافظة الجلدية التى ألصقت بشخصيته باتت جزءاً رئيسيا فى شكله إذ لا يراه أحد إلا وهذه الحافظة معلقة فى كتفه . . وإذًا فمتولى درويش لم يترك شيئا فى بيته كما لو كان لا ينوى الرجوع إلى مصر مطلقا . قال بهادر :

ـ «ما هذا يا ابن القحبة؟ لماذا لم تفكك جدران شقتك وتعبئها فى الحقائب مع بقية العفش؟!» .

قال متولى :

ـ «معظمها كتب ودوريات أحتاجها فى عملى!» .

تركتهم مهرولا إلى مدخل المطار . سحبت عربة ولحقنى عادل بأخرى؛ مشينا ندفع العربات لاهثين والسجائر مع ذلك مشتعلة بين شفاهنا!

٢
صـــدمــة المطـــار

الصالة الخارجية للمطار كانت تعج بكتل بشرية معجونة فى بعضها: فرق تقتعد الأرض بالجلابيب والبلغ والشباشب الزنوبة تحتضن القفف والأكياس والأجولة والصناديق؛ من الواضح أنهم عمال بناء ومحارة ونقاشون ونجارون وحدادون، يطوف بهم مقاول يجمع جوازات سفرهم بين يديه. فرق أخرى من أفندية على مستويات مختلفة من اللياقة التشكيلية المظهرية؛ تعرفت بينهم على نماذج مألوفة لنا فى الأوساط الصحفية. لمحنى أحدهم فهرول نحوى، صافحنى وكله زهو وفرح، كل ما يعنيه إبلاغى بأنه مسافر ضمن وفد من الزملاء إلى السعودية للعمل محررا فى جريدة عكاظ، لقد استوردت الجريدة طاقما كاملا من المحررين من أصغر محرر إلى رئيس تحرير ومن مصحح إلى مصور ورسام للكاريكاتير. فريق ثالث ورابع وعاشر من المدرسين والمهندسين والصيادلة والأطباء وأساتذة الجامعة كلهم مسافرون إلى الخليج بعقود عمل يتعين فيها كفيل، لا أحد من هؤلاء وأولئك - أيًا كان مركزه - يحق له دخول بلدان الخليج أو العمل فيها إلا من كفيل يضمنه ويكون بمثابة ولى أمره وسيده فى البلد يحتفظ بجواز

سفره وبمدخراته فيصير سجينا لا يستطيع الحركة بله الهروب إلا برضاء الكفيل فإن كان أحمق وتمرد أو هرب فالكفيل يبعث بالشرطة تقبض عليه وتسلمه إليه شأنه شأن العبيد المماليك قبل إلغاء تجارة الرقيق . .

أخيرا تمكنا من اختراق الكتل بصعوبة قاسية إلى منصة تسليم الحقائب . وقفنا بعيدا عن الطابور نترقب وصول متولى إلى دوره . أخيرا تقدم وبجانبه أحد عمال المطار يدفع عربتي حقائبه . أخذ الموظف جواز سفر متولى ، تصفحه ، ثم تفحصه ، ثم تصفحه مرة أخرى مع التفحص ، بدا عليه ظل من التشكك ؛ سحب دفترا وراح يقلب فيه ويمر بعينيه على قائمة أسماء ؛ أخيرا طوى الدفتر ودفع به تحت الطاولة ثم نهض واقفا :

ـ «بعد إذنك لحظة واحدة! خلك أنت!»

وخرج . راقبناه ، رأيناه يدخل مكتب مدير أمن المطار . بعد حوالى خمس دقائق رأينا مدير أمن المطار مقبلا نحونا ومن ورائه موظف الحقائب . اقترب منا الرجل ، كان فارعا ، شديد الأناقة ، باسم الوجه ، صافحنا واحدًا واحدًا ، قدم لنا نفسه ، فقدمنا له أنفسنا واحدا بعد الآخر فى اختصار وعجالة . تهدلت ملامحه إذ ركبت فوقها ابتسامة صفراء تشى بنشوة الظفر . . بدماثة مصطنعة هلل فى شكل ترحاب :

ـ «شكرا! ألف شكر! إننا لمحظوظون! كل من أردنا رؤيتهم جاءونا لحد عندنا فأهلا وسهلا بكم! تفضلوا القهوة فى مكتبى!»

ثم استدرك :

ـ «الأستاذ بهادر أبو النور يمكن أن ينصرف حالا إذا أراد! . . أما

الأستاذ متولى والأستاذ عادل والأستاذ مروان فلى قعدة قصيرة مع حضراتهم لكنها ربما تطول قليلا!».

لابد أن الشحوب كان ظاهرا على وجهى مثلما هو ظاهر على وجوه ثلاثتهم، ريقى نشف وتصلب كأنى ابتلعت مسطرة حديدية. كان مدير أمن المطار قد اكتفى بتوجيه أوامره وارتد عائدا إلى مكتبه فى خطو عسكرى وقدر وفى هدوء ولا مبالاة الواثق من أننا صرنا فى قبضته تحت حراسة رجاله. عادل ومتولى صارا كخيالى مآتة فى مهب ريح تطوح بهما، ولكن بحكم اعتيادهما عملية القبض عليهما واعتقالهما مرات عديدة استطاعا أن يتماسكا ولو بنسبة قليلة من الشجاعة. ثمة فجيعة إضافية كانت تنمو بسرعة الضوء فى نظراتهما؛ سرعان ما اتضحت حين سأل عادل ممسكا بذراع متولى خوف الوقوع:

ـ «هو؟!»

غمغم متولى كالذبيح:

ـ «نعم! هو؟ تصور يا عادل؟!»

ـ «تتذكر؟ أفعوان الأوردى! قرصته سم!»

ـ «هو الذى لفق القضية لمؤمنة صديق وكيَّفها!»

ـ«أنسيت أنه الصديق الأوحد لفهمى القزاز؟!»

ـ «إنه مدربه! مدرب فهمى!»

ـ «ولكن متى ترقى إلى هذا المنصب؟!»

وكان بهادر أبو النور قد حاذانا واستمع إلى الحوار الهامس المتفجع؛ فاستدرك عليهما:

ـ «لا يهمنا متى ترقى! إنما يهمنا الآن أن نعرف:

هل هذه توصية من الواد فهمى القزاز بهدف إرعابنا أو تعطيلنا؟!»

بصوت تعيس قال متولى:

ـ «سنعرف طبعا! لكنى بدأت أتشاءم!»

قال الموظف للحمال:

ـ «أزح هذه العربة على جنب! وسع السكة!»

بشيء من التحدى دفع متولى عربتى الحقائب بيديه حتى اقترب بهما من حرمة المكتب وقال للحرس أن يجعلوا بالهم من هذه الأمانة حتى نخرج من عند الباشا. وكان بهادر أول من تقدمنا للدخول..

أمرنا الرجل بالجلوس فجلسنا وجلس هو إلى مكتبه وقد لاحظت أننا جميعا ريّحنا فى القعدة إما لشعورنا بالإرهاق الضاغط وإما لإحساسنا بأن القهوة ستطول فعلا؛ وبدا لى أن اتجاهنا هكذا على الكراسى هو نوع من المقاومة والإيحاء بأننا شخصيات لها قدرها وأهميتها فى المجتمع. كنت أنا المتوتر الوحيد تقريبا لأننى لم يسبق لى القبض علىّ مطلقا فى يوم من الأيام لأى سبب من الأسباب سياسية كانت أو جنائية؛ ثم إن القلق راح يأكل فى دماغى بحثا عما يمكن أن أكون قد فعلته أو كتبته أو هرفت به فى قعدة يتضمن ما يصلح أن يكون مبررا للقبض علي مع اثنين من مشاهير الماركسيين العاملين وليس العاملين ماركسيين!..

بهادر أبو النور وجهه مبتسم دائما أو لعل وجهه ذاك المستطيل بذقن كفك الحوت يأخذ شكل الابتسام حتى وهو غير راغب فيه.. الآن قد

امتص الفزع دمه؛ لكن الفضول قد نشط فى عينيه الطيبتين الخجولتين فأضفى على ملامحه الطفولية المرتبكة شيئا من الحيوية. نهض واقفا؛ ولأول مرة فى حياته يقدم علبة سجائره السوبر كليوباترا إلى أحد. أزاح الرجل يده برفق ومودة:

ـ «شكرا أستاذ بهادر أنا لا أدخن!»

ـ «تسمح لنا؟»

ـ «أسمح»

ثم عاد إلى ما كان منشغلا فيه بتركيز: سماعة التليفون على أذنه اليسرى فيما يده اليمنى تقلب في نوت الأرقام، طلب حوالى أربعة أو خمسة أرقام تكلم فيها مع ناس وأخذ منهم أرقام ناس ثم طلب هؤلاء الناس فأحاله ناس على أرقام إلى أن بدأ يشعر بالتوتر ويضع السماعة فى حركة توحى بأنها مؤقتة، ثم أوحى لنا بأنه لا يزال منشغلا فى أمر يخصنا، راح يتمتم كأنه يكلم نفسه وهو قاصد أن يسمعنا ما قال: «وبعدين يا فلان بك! ولكن هذه غلطتى! كان يجب أن أعرف أنك آخر لهوجة ستقرأ القرار وتنسى وتضعه فى درجك وتغلقه بالمفتاح!»..

هذه العبارة التى سمعناها جيدا كانت أول بادرة على كذبة مفضوحة؛ إتسرب هذا المعنى من نظرة ذكية سربها إلينا بهادر أبو النور من تحت لتحت ثم رفع رأسه نحو الرجل مصدِّرًا إليه بريقه الإعلامى كشخصية عامة مشهورة الاسم والوجه أيضا، كأنه يكمل بالكلام ما بدأه بغمزة العين:

ـ «إيه بقى الموضوع يا سعادة الباشا؟ اعتبرنى أخوكم الكبير!..

هؤلاء زملاء أعزاء ويهمنى كوكيل لنقابة الصحفيين أن أعرف ما هى الحكاية؟»

سحب الرجل ملفا من جواره وفتحه ثم راح يخبط بأطراف أصابعه على الورق مرددا فى ضجر كأنه يحدثنا فى أمر نعرفه: مع الأسف المساعد بتاعى أخذ القرار ليسجله فى الدفتر ثم نسى حضرته ووضع الدفتر بالقرار فى الدرج وأغلق عليه لكنه سيجىء فى الصباح الباكر فلا تقلقوا. .

- «قرار ماذا يا سعادة الباشا؟ نحن لا نعرف عم تتكلم!. . ونحن دماغنا هذا ابن كاااالبْ ليس يفهم إلا الكلام الواضح! لا تؤاخذنى! أنت حضرتك تعطلنا الآن عن سفر يتعلق بمصائر ومصالح! ومن حقنا أن نفهم السبب!»

قال الرجل فى محاولة زائفة لأن يكون أخا:

- «الحكاية أن الأستاذ متولى درويش والأستاذ عادل الطوخى متهمان بمحاولة قتل العميد شرطة فهمى القزاز!. . أما الأستاذ مروان فمتهم بالاشتراك فى المؤامرة باعتبارها حدثت فى بيته وبمعرفته!»

لكأن تيارا كهربيا جرى فى أوصالى، تكهربت أعصابى، صرت أنتفض. رحنا جميعا نتصادم بالنظرات فى صمت ذاهل. إن هى إلا برهة وانفجر عادل الطوخى باكيا:

- «نذل! قذر! حيوان! هل نسى أننى مسحت له خراءه بيدى هاتين وصبَّنته فى الحمَّام؟!»

متولى راح يصفق كفا على كف كالفاقد اللُّب:

ـ «قسما بالله العظيم أنى ما كنت أعرف شخصيته إلا ليلتها! أقتله؟ كيف؟ ولماذا؟ وبأى سلاح؟!»

سألت الرجل:

ـ «ماهو تاريخ الشكوى يا باشا!»

ـ «فى الصباح التالى للحادثة!»

ـ «هل قال فى المحضر إنه استحم وغيَّر هدومه فى بيتى؟ وأن الأستاذ الطوخى هو الذى شطفه بيديه؟ هل قال إنه هو الذى سعى لصداقتى وفرض نفسه علىّ بالتنطع والكلاحة؟ هل قال إنه هو الذى زارنى ليلتها بدون موعد لكى أصالحه على زوجته وأحاول إقناعها بالتنازل عن طلب الطلاق؟ هل قال إنه تسافل عليها واتهمها فى شرفها و. . . »

ـ «من فضلك! من فضلك يا أخ مروان! لا داعى لمثل هذا الكلام هنا! تتكلم فى حدود اللياقة لو سمحت!»

ـ «أريد أن أثبت لسيادتك أنه ليس يؤخذ بكلامه!»

ـ «ليكن فى علمك: أنا لست المكلف بالتحقيق فى هذه القضية ولا فى غيرها! . . أنا كل مهمتى تنفيذ قرار سيادى يمنع ثلاثتكم من السفر حتى ينتهى التحقيق فى هذا الاتهام!»

قال بهادر بلهجة مرحة:

ـ «منعهم فحسب؟»

جاراه الرجل فى المرح.

ـ «لأ طبعا! المفروض أن أسلمهم للنائب العام لإجراء التحقيق! خاصة وأن سفر الأستاذ متولى عقب الحادث مباشرة يؤكد صدق الشكوى! ولابد أن ثلاثتهم دبروا للهروب خارج البلاد واحدا بعد الآخر!»

وأطرق برأسه لكى لا يرى ردود الفعل على وجوهنا بعد هذا البيان المخيف الذى أذاعه علينا. عندئذ بكى ثلاثتنا وكنت أشعر لأول مرة بالقهر والمذلة؛ وكان متولى درويش قد غاص فى الكنبة الجلدية واضعا كفيه على عينيه وراح ينتحب فى حرقة وحرارة. قال بهادر:

ـ «حضرتك فيما أظن تتفق معى أن هذه قسوة! أين يذهب الآن هذا المسكين بحقائب سفره التى دوخته ودوختنا؟ وتذكرة سفر بالشىء الفلانى؟ وارتباطات بمواعيد أقل مخالفة فيها تخرب بيوت ناس!!.. لا تؤاخذنى يا باشا! خروجهم من المطار إلى النيابة معناه أنهم مجرمون هاربون من العدالة وهذا غير صحيح كما أنه.. ما تأخذنيش.. مسئولية خطيرة قد تؤدى إلى محاكم وقضايا تعويضات و.. ما ذنبهم إذا كانت النيابة لم تطلبهم للتحقيق؟ هل طلبتهم وتأخروا أو راوغوا؟.. لا تؤاخذنى حضرتك إذا قلت إن هذا ظلم كبير وعقاب على غير جريمة وهو أمر لا يمكن السكوت عليه!»

ـ «أستاذ بهادر! الحادثة كما هو مؤرخ فى الشكوى لم يمر عليها أكثر من ثلاثة أيام واليوم هو الرابع!».

فى أسف واستنكار شديدين قاطعه بهادر:

ـ «وبهذه السرعة يصدر قرار سيادى يمنعهم من مغادرة البلاد؟ وقبل

أن يجـرى مـعـهـم أى تحـقـيق فى أى جـهـة؟! . . إصح لى سيادتك! . . اعقلها أنت سعادتك ولسوف اقتنع! إذا كنت تعتقد أن هذا يمكن أن يدخل العقل خلاص . . نُدخله فى عقـولنا وفى المكان الذى تشاء!»

قهقه الرجل ضحكنا مجاملة له ضحكة مريرة. قال وفى نبرة صوته إيقاع كذب يكاد يكون صريحًا؛ مصطنعا الهدوء والدبلوماسية مال برقبته نحونا قائلاً بصوت خفيض، من فرط إحساسه بأنه يكذب كانت بعض الكلمات لا تكاد تُسمع:

ـ «قـرار المنع! . . خل بال سيـادتك مـعى! . . أصله جـاءنا اليـوم فحسب ولهذا حصلت هذه الـ . . اللخفنة! . . الأسماء كانت لا تزال طازجة فى دماغ موظف البوابة! . . وعلى فكرة أحب أن أقول لحضرتك حاجة! . . هذا القرار وراءه فهمى بك باتصالاته الشخصية فهو لحوح ليس يصبر على شىء! . . فى نفس البلاغ قدم مـذكرة عـاجلة بأن تحرياته أكدت أن متولى بك سيحاول الهرب إلى باريس خلال ساعات ويطالب بترصده ومنعه حتى يتم التحقيق!»

وجدتنى أهبّ فيه صائحًا:

ـ «لا تحريات ولا دياولو! هو كان ساهرًا معنا وسـمعنا نتكلم فى موضوع السفر وموعده! وهو شاركنا الحديث فيه حتى بالأمارة عرض علينا المساعدة فى أية خدمة نطلبها منه!! الحمد لله أننا قلنا له شكرًا!»

قال الرجل والبهتان واضح على بشرته الصفراء الداكنة:

ـ «المهم أنه أقنع سيادة الوزير بشكواه!» ثم استدرك فى الحال:

ـ «على كل حال! كلامك معقول يا أستاذ بهادر! سأفكر حالا فى حل ملائم! . . شف يا أستاذ متولى! شف يا أستاذ بهادر! أنتم شخصيات محترمة وواجبى أن أعاملكم باحترام يليق بكم! . . كان المفروض أن أبلغ النيابة الآن بما حدث لتتصرف هى! . . ولكنى احتراما لكم . . لن أفعل! . . هذه واحدة . . الثانية أننى لو أبلغت فعلى الأقل ستستدعيكم النيابة بمجرد عودتكم إلى منازلكم! . . ولكننى احتراما لكم أيضًا . . سأعتبر أنى لم أتشرف برؤيتكم! لن أكتب محضرا ولا أى شىء! وفى هذه الحالة سوف تستدعيكم النيابة أيضًا ولكن على مهلها بعد يوم يومين ثلاثة حسب ظروفها! هذا كل ما أستطيع تقديمه من خدمة!»

ثم وقف لينهى المقابلة؛ رفع يده بجواز السفر:

ـ «تفضل باسبورك يا أستاذ متولى! أنا لا شفتك ولا عرفتك! مع السلامة!»

كانت التعاسة كسلاسل حديدية ثقيلة مربوطة بأقدامنا وأيدينا ورقابنا فيما رحنا ندفع العربات المحملة بحقائب متولى إلى سيارة بهادر أبو النور . وفيما كانت السيارة فى طريقها إلى بيت متولى درويش فى الهضبة الوسطى بجبل المقطم كنت أجهد ذهنى فى محاولة لتذكر شىء غريب: كيف استطعنا تحميل الحقائب كما كانت؟ ذلك أن الكيفية التى تمت بها كانت غائبة عن ذهنى تمامًا . .

٣
ثمالة فى كأس الشفق!

ضربت فايقة صدرها بيدها وشهقت شهقة انتهت بصرخة مشحونة بفزع من فوجئ بضربة غادرة من وراء ظهره. انهارت، ألقت بنفسها فوق الكرسى جاحظة العينين من فرط الذهول وجعلت تولول فى فجيعة وقد انخطف لونها. لحظتها كنا منفردين فى المطبخ وكان صهرى سمير الشيخ يذاكر فى حجرة مكتبى ولم أكن أرغب فى أن يعرف بالخبر الآن على الأقل. فارت القهوة فوق النار فأغرقت الكنكة وأطفأت شعلة البوتاجاز فأسرعتُ بإغلاق الغاز ورميتُ بالكنكة فى حوض الماء وفتحت الصنبور لأغسلها وأملأها من جديد إلا أن انهيار فايقة وتَّرنى فتنازلت عن القهوة مؤقتًا. فى تلك اللحظة جاء سمير مهرولا على صوت الصرخة؛ فإذا بفايقة تغادر المطبخ فى عصبية؛ تدخل حجرة النوم؛ بعد برهة تخرج وقد سكبت فوق جسدها فستانًا واسعًا وطرحت فوق رأسها شالاً من الحرير:

ـ «تعال معى يا سمير!»

سحبته من رسغه بحدة، هرولت به نحو باب الشقة..

ـ «رايحة فين يا فايقة؟!»

وهى تفتح الباب بإصرار:

ـ «سأجىء حالا فلا تقلق!»

شدت الباب وراءها؛ ارتددت مسرعًا إلى الشرفة لألتقيها عند باب السور:

ـ «اعقلى يا فايقة ولا داعى للجنون!»

لكنها اندفعت إلى الشارع ساحبة أخاها سمير غير مبالية بما سمعت..

حدث ما توقعته..

فبعد ما يقرب من ساعة أمضيتها فى الفرجة القلقة على برامج التلفاز، وباب الشرفة مفتوح على مصراعيه وأذناى مرتبطتان به أكثر من ارتباطهما بصوت التلفاز، تناهى إلى مسمعى صوت همهمة تقترب مع خطوات يتكاثف إيقاعها عند باب السور؛ نترت جسدى قائمًا إلى الشرفة..

ـ «مساء الخير يا أستاذ مروان!»

إنه صوت خيرات الشامى وهذا هو هيكلها الحميم؛ كانت أصابع يدها اليمنى متعاشقة مع أصابع يد فايقة اليسرى، ومن ورائهما عبود الشامى وسمير الشيخ متماسكين مثلهما؛ وكان قرص الشمس الغارب يتخفى وراء الهضبة العليا للمقطم لا يبين منه سوى فصٍّ قرمزى أضفى على سماء شارعنا الهادئ وعلى سور بيتنا وعلى رءوس الداخلين غلالة من سرِّية ساذجة مفضوحة بائسة كأننا والحياة جميعًا صائرون إلى غروب وشيك..

الغروب كان شاخصا فى وجوههم، طبقة من دموع تجففت على خدودهم انعكس فى لمعانها احمرار عيونهم الذابلة من فرط البكاء. انزوى كل من سمير وعبود فى الشرفة وانعزلا فى الركن الداخلى البعيد لامتداد الشرفة. أما فايقة فبعد أن جلست منكسة الرأس سرعان ما هبت واقفة ثم مضت إلى المطبخ.. وأما خيرات فقد زحزحت نفسها على الكنبة الأسيوطى حتى صارت بحذائى مباشرة؛ كانت تقاوم الخجل لتنظر فى عينى بثبات لكن رموشها جعلت تتراقص وثمة دموع تترقرق فى مآقيها؛ لكى تتخلص منها فتحت عينيها، فهالنى ما فيهما من إمكانية اتساع مطاطة إلى حد جعلهما مثل كأسين فى قعرهما ثمالة عكرة..

- «أستاذ مروان! أنا آسفة جداً جداً من هنا ليوم القيامة!! ما هذا الذى فعله المجنون؟! أرجوك اشرح لى الموقف بالضبط!»

جفلت، مال الكأسان العينان فاصطكا ببعضهما فانكبت الثمالة وتناثرت على خديها المتكورين فتكرمشت الشامة البرتقالية اللون حول شفتيها المزمومتين:

- «رغم أنى متأكدة من أنه نذل ويفعل كل شىء فإننى غير قادرة على تصور ما قالته لى فايقة!»

حكيت لها ما حدث بالتفصيل؛ أنصتت بإمعان وقد صار وجهها كتلة لهب. ثم سألتها:

- «أين فهمى الآن؟»

- «جبان! خاف منى فهرب!.. اسأل فايقة عن الذى فعلته فيه! هى

التى حاشتنى عنه وأنا أريد تقطيع لحمه بأسنانى! كل ما شفته منه طول حياتنا كوم! وحكاية اليوم لوحدها كوم! أكلما ولفت على أصدقاء جدد يضربهم؟! يسعده أن يكرهنى جميع الناس مثل كراهيتهم له لكى نعيش معًا فى سجن الكراهية؟! أنا امرأة رباها أهلها على الغالى ولكننى اكتشفت اليوم أنه نجح فى أن يجعلنى وضيعة مثله! يخلق منى.. وأنا ممن يسمونهن بملائكة الرحمة.. امرأة شرسة تمد يدها على زوجها؟! الله يلعنه ويلعن هذه العيشة النكدة! أنا يا ناس وبكل صراحة أعاشر رجلا مجنونًا بالفعل! وبصراحة تعبت من إهانتى له لكى يطلقنى وهو جبلة فريزر! حتى كرهت نفسى!..»

استجابت لحركة يدى إذ طالبتها بتهدئة انفعالها، فخفضت صوتها قليلا وتجسدت التعاسة على وجهها. عندئذ قالت فايقة فى نبرة موتورة كأنها إلى الآن ترفض ما حدث:

ـ «يأكل معنا عيشا وملحا وقلوبنا صافى يا لبن وثانى يوم يبلغ فينا النيابة ويرمى علينا مصيبة؟! هل فى الدنيا بنى آدم بهذا الشكل يا ربى؟!.. ماذا فعل له مروان الألفى حتى يجىء له بمصيبة؟!»

بدا كأن خيرات تذكرت شيئًا؛ استدركت:

ـ «قال لى مرة إنه مغتاظ منك!.. يتصور أنك تحتقره!.. يتوهم أنك تعرف ما يقال عنه بين الصحفيين والمثقفين ولا تحكيه له باعتباره صديقك!.. أنا لم أفوِّتها له.. قلت له إنك رجل محترم ولا تنفع مخبرًا!.. ليلتها زعل منى وتكلم كلامًا فارغًا كثير!..»

شردت لبرهة كأنها نسيت ما تود قوله لكنها انتبهت :

- «على فكرة يا أستاذ مروان! . . أنا متأكدة أن كلام رجل المطار ليس صحيحًا! أقصد أن قرار المنع من السفر هذا لا دخل للوزير فيه وسوف أتأكد بنفسي وأثبت لك!»

تشبثتُ بهذه العبارة الأخيرة فسألتها :

- «فمن يكون إذًا فى رأيك يا مدام خيرات؟!»

اعتدلت فى جلستها فقربت رأسها من رأسى؛ وكانت فايقة قد تسللت إلى المطبخ حين سمعت انطفاء البوتاجاز إثر غليان الماء ثم عادت حاملة الصينية بالأكواب فوضعتها على الطقطوطة أمامنا ثم مالت ودست رأسها بين رأسينا وبقيت منحنية تتلكأ فى تقليب السكر فى الشاى لتسمع ما تقوله خيرات مع أنه مسموع؛ فكأنها بذلك أوحت إلى خيرات أن تتكلم بصوت خافت :

- «هذه مجاملات يخدمون بها بعضهم! إنهم يتعاونون لإنقاذ بعضهم بعضًا من ورطات ومصايب! يسوون المسائل قبل وصولها إلى الوزير وأحيانًا تكون الخدمة معتمدة على نفى الواقعة من أساسها إذا تسرب خبرها إلى الوزير! . . واحد كبير يكلم واحدًا كبيرًا آخر يوصيه بأن يأمر بكذا وهكذا أشياء من هذا القبيل وأنت كلك مفهومية وتستطيع أن تتصور ما أنا عاجزة عن توضيحه!»

- «هل أنت متأكدة أنها شغل الصغار؟»

- «شغل كبار صغار! . . ثم . . أستاذ مروان! هل أطلعك رجل المطار على نص القرار؟»

ـ «لأ طبعًا!»

ـ «وهل اقتنعت حضرتك بأن الوزير يمكن أن يستصدر قرارًا بمنع سفر ناس ويتم تبليغه وتنفيذه فى ظرف يوم أو يومين بدون تحقيق من أى جهة؟!»

ـ «هذا ما قاله الأستاذ بهادر أبو النور!»

ـ «وعلى فكرة يا أستاذ مروان! لو كان هناك قرار سيادى رسمى بالمنع ما كانوا تركوكم هكذا بسهولة من غير محضر تحقيق على الأقل!»

ـ «فما الهدف إذًا من وراء هذا؟!»

ـ «كل ما فى الأمر أنه نجح فى تعطيل الرجل عن السفر إلى أن يرهبه بما فيه الكفاية ويرهبكما أيضًا أنت والأستاذ عادل!»

تعبت فايقة من الانحناء مستندة بكفيها على ركبتيها، فتهاوت على أقرب كرسى، صارت تحملق فى الفراغ شاحبة الوجه وقد بدا عليها أنها كبرت فى السن عشرين عامًا، فشعرتُ بالأسى والأسف من أجلها؛ ظننت أنها ـ وقد صارت شبحا ـ فقدت القدرة على التفكير والكلام؛ لكنها مالت فأمسكت بكوب الشاى وجرعت ثم هتفت وقد عيل صبرها:

ـ «والحل يا مروان؟ هل ستطلبكم النيابة ومتى تطلبكم فى سنتها السوداء هذه؟!»

طمأنتها:

ـ «لا تنزعجى يا فايقة! لقد أبلغنا النقابة! الأستاذ بهادر هناك الآن والنقيب يجرى اتصالاته لمعرفة حقيقة الأمر من أساسه! . . وإن ذهبنا للنيابة لن نذهب وحدنا طبعًا! سيكون معنا محامى النقابة، الأمور ليست سائبة! ثم إنه ليست هناك جريمة ولا حتى مجرد اشتباه فى جريمة!»

قالت خيرات:

ـ «متى ستطلبكم النيابة فى تقديرك؟»

ـ «أتوقع أن يكون غدًا!»

ـ «ربنا معكم ومعى إن شاء الله!»

قالتها حاسمة وبلهجة ذات معنى تشى بأنها قد تتخذ إجراءً ما وها هى ذى تطلب توفيق الله. وقفت تعدل هندامها:

ـ «بنا يا عبود!»

عانقت فايقة وقبلتها؛ صافحتنى بحرارة متجنبة النظر فى عينى، لكنها فاجأتنى بأن أحاطت رقبتى بيديها وانكبت على رأسى فقبلتها:

ـ «أرجوك أن تغفر لنا هذا الموقف السخيف! إن شاء الله لن يحدث لكم أى مكروه وسوف يسافر الأستاذ متولى إن شاء الله!»

أصرت فايقة على أن توصلها حتى باب السور:

ـ «ربما تجدين عدوا يتربص بك تحت السور!»

ـ «مقبولة منك يا فايقة! لك حق تقولينها!»

وأنا ألوح لهم من الشرفة لاحظت أن سمير الشيخ وعبود الشامى قد تعانقا ثم تصافحا بحرارة؛ وكان سمير يصر على توصيلهما إلى البيت لكنهما دفعاه بالقوة داخل السور وأغلقا الباب ملوحين لنا بيديهما.

٤
شجاعة امرأة

في حوالى العاشرة من مساء اليوم التالى رأيت السيارة البويك السوداء تقف رأسيًا أمام باب السور باعثة ضوءها العالى يتسلق جدار الشرفة ويصافح وجهى فى جلستى أمام التلفاز مندمجًا بكل كيانى فى الفرجة على مصارعة المحترفين إذ هم كالثيران أو أشد ضخامة وقوة ومع ذلك يطيرون فى الهواء كالفراشات ويشبعون بعضهم بعضا ضربا عنيفا قاتلا فانعكس ذلك على مشاعرى صرت أشعر تارة بالارتياح الشديد كأننى الضارب وتارة أخرى بالقهر الذليل كأننى المضروب. ضوء السيارة المقتحم وشى بأنه مرسال من عزيز حميم؛ ثم إننى سرعان ما تعرفت فيه على شخصية بهادر أبو النور. كان قد نزل ودخل خطوتين مقتربا من الشرفة، هتفت فيه:

ـ «ادخل بالسيارة واركنها فى الداخل!»

ـ «انزل أنت وتعال!»

ـ «لحظة ألبس هدومى!»

سمعت فايقة حوارنا فى حجرة النوم فقامت وأطلت من الشرفة نفسها:

ـ «مساء الخير يا أستاذ بهادر!»

ـ «معلهش يا مدام أقلقناكم!»

ـ «بالعكس! نحن تعبناك معنا!»

ـ «الأستاذ مروان سيسهر معى ساعتين تلاتة!»

ـ «البيت واحد!»

فوجئت بوجود متولى درويش وعادل الطوخى فى السيارة؛ أبديت دهشتى. قال بهادر:

ـ «مؤمنة صديق سبقتنا إلى البيت!»

ـ «جميل!»

ـ «وسيادة النقيب!»

ـ «معقوله؟!»

ـ «إن شاء الله تكون سهرة طيبة!»

كنت بجوار عادل الطوخى على الكنبة الخلفية فيما جلس متولى درويش بجوار بهادر.. بقايا أنفاس من المرح كانت تعبق جو السيارة؛ والجو يشى باحتفالية تشى بدورها بوجود أخبار تستحق الفرح..

وجدنا مؤمنة صديق تحاول ركن سيارتها أمام شرفة حجرة المكتب المطلة على الشارع. عاكسها بهادر بأضوائه العالية، فلمحنا سيادة النقيب جالسًا بجوارها كقط رومى ضخم لا تتعارض خفة ظله مع كبريائه الفطرى الشامخ. زحفت بنا سيارة بهادر داخل البوابة ذات السقف البلاستيكى المقوس ثم ركنت ونزلنا.

حين جلسنا فى مكتبه قال بهادر فيما يشبه خطاب الترحيب وهو واقف لصق الباب الداخلى للحجرة:

ـ «طول عمرى أقول إن الشخص هو الذى يصنع الكرسى ويعطيه من هيبته وجديته وشرفه وأمانته بما يعطى للكرسى قيمة وأهمية!»

كنا نعرف طبعًا أنه يقصد بالتورية عمنا شامل زهران نقيب الصحفيين المخضرم. حقوقى تعلم فى جامعة السربون بباريس؛ إلا أن باريس لم تنسه هويته الشعبية المنتمية إلى شارع مراسينا بحى السيدة زينب؛ هو من نفس جيل بهادر أبو النور، الجيل الذى قام بثورة يوليو؛ شبان ذلك الجيل كانوا معجونين بالوطنية وهذه بدورها عجينة ثقافية خبزتها وأنضجتها نهضة رواد العلوم والآداب أبناء ثورة تسع عشرة من القرن العشرين. كان شامل زهران من أعيان الجيل الذى تعلمنا على يديه معنى الصحافة الوطنية ومعنى أن يكون الواحد صحفيًا عالى القدر يفرض احترامه على خصومه فى السلطة. وهو شأن الكثيرين من أبناء جيله كان مثقفًا يكتب فى السياسة والأدب والفن التشكيلى والموسيقى والعمارة بنفس الكفاءة. ولأنه فى أساسه فنان مطبوع وله محاولات جادة فى رسم لوحات تتحاور فيها الألوان ببلاغة تتفوق على بلاغة أسلوبه فى الكتابة مع أنه أسلوب ذو طابع شديد الخصوصية فى رشاقة جمله القصيرة المكثفة المحشوة بالمعطيات وبالرحيق العذب حيث كل جملة ـ على قصرها ـ تقدم شيئًا جديدًا، معلومة جديدة؛ كما أنه أشبه بالصقر، حين يكتب يطير محلقًا فوق موضوعه ليرينا مساحته بسرعة ثم يحوم فوق جغرافيته فيلتقط من أرضه صورا كلآلئ معبرة؛ مقاله الصحفى أدب غاية فى البساطة والجزالة معًا، يشعر القارئ بأن أصداءً

نغمية تهدهد الأعطاف بالأنس والمودة يكون لهما فعل السحر فى تفتيح عينيه وتوسيع بصيرته. لقد وصل إلى أعلى المراتب فى بلاط صاحبة الجلالة فنيًا وإداريًا؛ شارك فى النهوض بصحف كانت خاملة، وفى تأسيس صحف لم يكن لها وجود من قبل، وتحديث دوريات كانت عتيقة جهمة ثم باتت عروسًا مجلوة يخطب ودها جميع القراء. إنه إلى ذلك يتميز بمرونة عبقرية ـ طبعًا. . فى التعامل مع السلطة السياسية التى تهيمن على الإعلام كله وتضع مبدعيه فى حظائر، تسحبهم أو تقيدهم وقتما تشاء وتوجههم نحو ما تريده هى فحسب، فإن شرد شارد أكلته الذئاب الجائعة المفترسة. كان، بدهائه ووعيه وحكمته وهدوء أعصابه يتجنب الصدام المباشر مع السلطة فلم تسخط عليه أية حكومة. بنعومته الجهنمية وخبراته المهنية العميقة استطاع أن يحظى باحترام مؤسسة الرئاسة؛ فى نفس الوقت لم يمتثل ـ وقد شرفت بالعمل معه لفترات طويلة ـ لأى توجيه ولم يكتب إلا ما يتسق مع قناعاته ووجهات نظره. لم يتخذ من القرارات إلا ما يوافق ضميره الإنسانى ثم المهنى. إلا أنه كان بارعًا فى صياغة آرائه ـ كتابة وتحدثا ـ بمنتهى الأدب والدماثة وخفة الظل. ومنذ انتخابه نقيبًا فى دورة سابقة أعطى النقابة قوة وحضورا وفاعلية؛ فى جميع قضايا السياسة والمجتمع كان للنقابة بياناتها وإسهاماتها فى تنوير الأطراف المتخاصمة وفى مواجهة الفساد والاستبداد. أما فى دورته الراهنة فقد بات شبه متفرغ للنقابة بعد إذ تجاوز السبعين من عمره ولم يعد مرتبطا بمسئوليات إدارية مكتفيا بمقاله الأسبوعى فى إحدى المجلات السياسية العريقة، وعموده اليومى فى صحيفة قومية؛ لكن هيبته كانت إلى ازدياد، ومنصب النقيب فى ظله مرهوب الجانب يقيم له جميع المسئولين ألف حساب؛ خاصة أن حياته

الشخصية يسقط عنها الحائط الرابع فكأنها سياق مسرحى معروض على النظارة فى هواء طلق؛ حياته مرئية، مضاءة؛ سيارة متواضعة نصف عمر، شقة صغيرة جداً فى جاردن سيتى من زمن الرخص فى الإيجار، مرتبه ومرتب زوجه الصحفية حليمة فتوح تكاد مفرداتهما تكون معروفة لكل من يعملون فى الحقل الصحفى؛ كلاهما اليوم على المعاش ولولا حفنة من الجنيهات تجيئه من مقال هنا أو لقاء هناك ما استطاع أن يغطى نفقات بيته وعياله؛ أعتى أجهزة التخابر والشائعات لا تقوى على تشويه سمعة رجل يحترم قلمه وضميره وموقعه وقارئه بشكل صارم وحاد ولكن دون أن يتخلى مع ذلك عن شخصيته البسيطة المرحة الآسرة المفحمة بمنطقها وحلاوة التعبير عن رأيها . .

أن يتصل هذا النقيب بمكتب وزير الداخلية يطلب التحدث إليه فإن طلبه يقابل باهتمام شديد ويجد ترحيبًا فوريًا. بعد نصف ساعة من المكالمة كان سيادة النقيب شامل زهران يشرب القهوة مع سيادة الوزير فى مكتبه. كان الوزير متلهفًا لمعرفة هذا الأمر الخطير الذى طلب النقيب أن يحدثه فيه وجها لوجه حيث لا ينفع فى التليفون؟ . الابتسامة الكبيرة دائمًا على ثغر النقيب يتكور منها خداه فيبدو أنه يعتقل بداخله طاقة هائلة من المرح، وكثيراً ما يظهر هذا المرح بالفعل ولكنه يكون مؤلما بما تحمله القفشات والنكات من مضمون سياسى قارص. قال النقيب للوزير وقد اصطبغت ابتسامته بلون الفجيعة إن الأمر بالفعل فى منتهى الخطورة: عميد شرطة معزول يعبث بأقدار الناس بموجب وهمْ سكن عقله المريض؛ اتهم ثلاثة من أعضاء نقابة الصحفيين بالتآمر عليه ومحاولة قتله، وآخر ما كان يتصوره المرء أنه بناء على بلاغ له فى قسم الشرطة يصدر قرار بمنعهم من السفر هكذا دفعة واحدة بلا إحم ولا

دستور، وبالفعل يتم منع أحدهم من السفر فيعود بحقائبه ويتلقى أمرا من مدير أمن المطار بالانتظار فى بيته إلى أن تطلبه النيابة!! فما هذا العبث بحق الله يا سيادة الوزير؟!.. تعطيل مصالح كثيرة؛ إهدار سمعة وكرامة ثلاثة من الصحفيين ناهيك عما لحقهم من رعب وفجيعة!..

عندئذ ـ يقول سيادة النقيب ـ كان الدم يحترق تحت بشرة الوزير حيث اربدّ وجهه وصار هو يهز رأسه فى تفجع وينقر بظفر أصبعه على المكتب فى وعيد وتهديد متوترين قال النقيب: إن الوزير قد بدا كأنه سمع شيئًا عن هذا الموضوع من قبل، إذ ما لبث حتى زام قائلاً:

ـ «هذا إذن هو الموضوع!!»

سأله النقيب فى تشكك:

ـ «عند سيادتك علم به؟!»

قال الوزير بحركة تنفيض من يديه كأنه يتبرأ منه:

ـ «لا لا لا! إطلاقًا! لكنى استنتجته الآن!»

وبدا كأنه مرتبك بعض الشىء، فسأله النقيب:

ـ «ماذا استنتجت سيادتك؟»

عالج الوزير ارتباكه بابتسامة شاحبة ثم أوضح وهو يدير وجهه يمينا ليقرأ قصاصة ورق فوق صابونة ورقية:

ـ «زوجة العميد الذى تقصده حضرتك السيدة خيرات الشامى.. أليس هو ما تقصده؟»

ـ «وهل يستطيع فعلها غيره؟ أم أن عندكم من يستطيع؟!»

ضحكا معًا، وعانق الوزير على الغمزة الضاحكة بغمزة مثلها:

ـ «الخير كثير والحمد لله!»

ضحكا ثانية فى قهقهة قادت النقيب إلى استطراد لا بد منه تمشيا مع «أدب الحوار»:

ـ «اللهم زد وبارك!»

ـ «المهم أن زوجته أرسلت لى برقية من مكتب السنترال المجاور لمبنى الوزارة تطلب المقابلة العاجلة لأمر كما قالت له خطورته! وطلبت مكتبى فى التليفون!.. وبصراحة يا شامل بك أنا أحترم هذه السيدة جدًا ولولا ذلك لنفيت زوجها إلى سفند العفاريت فى أبعد مكان فى الصحراء. هذه السيدة الفاضلة سهرت بجوار سريرى فى مستشفى الشرطة ثلاثين ليلة قبل أن أصبح وزيرًا ولم يكن فى الأفق ما ينبئ بأننى سأصير وزيرًا! وكان لسهرها وتمريضها فضلا كبيرًا فى تجاوزى أزمتى القلبية بسلامة الله!.. إحساسى يقول إن سيدة فاضلة مثلها وتطلبنى كأنها تستغيث لا بد أن تكون فى محنة!.. لهذا حددت لها موعدا عاجلا وهى زمانها الآن فى الطريق!.. لكن.. حضرتك الآن فسرت لى الموقف! من المؤكد أنها تطلبنى لشىء كهذا!.. هل هى على علاقة بأحد من السادة الذين..»

ـ «صداقة عائلية تربطها وتربطه بالأستاذ مروان الألفى وزوجته!»

ـ «وإذا فهذا هو الموضوع! أكيد هو!»

إن هى إلا دقائق ودخل من يهمس للوزير بأن السيدة خيرات الشامى وصلت؛ فأمر بإدخالها. كان يتصور أنها لا تعرف شخصية النقيب؛ لكنها فاجأته بأن صافحته بعد مصافحتها للوزير قائلة فى تبجيل ومودة:

- «أهلا وسهلا أستاذ شامل زهران!»

- «تعرفينه يا مدام خيرات؟!»

تراقصت رموشها فوق عينيها وخفقت دماء الخجل فى الرمانة المرسومة تحت خدها وحول شفتيها؛ قالت:

- «طبعًا يا معالى الوزير! الأستاذ شامل نقيب الصحفيين للمرة الثانية وأنا من قرائه تربيت على أسلوبه الجميل وعندى كتاب له عن الأنظمة السياسية السائدة فى العالم!.. بالأمارة فى سلسلة: كتب للجميع!»

ثم جلست، كبرياؤها وثقتها بنفسها فوق الحرج والارتباك والتلعثم؛ وكأن شعورها بالمسئولية العامة فوق شعورها بمصلحتها الشخصية، وبنبرة يتجسد فيها الصفاء وشرف النفس دخلت فى الموضوع مباشرة:

- «معالى الوزير أنا فى محنة! أخاف القول بإن فهمى مجنون بالفعل والعيش معه تحت سقف واحد أصبح فى منتهى الخطورة!.. إن إدمانه للتعذيب لا علاج له! لم يعد يجد من يعذبه فانقلب علينا يتلذذ بتعذيبنا وتعذيب ناس محترمين أكلنا معهم عيشًا وملحًا!.. الأستاذ مروان الألفى طبعا شامل بك يعرفه! أخلاق عالية! ومخلص لنا! وفى ليلة عزم الأستاذ مروان صديقيه..»

حكت الحكاية بالتفصيل الدقيق كأنها تستعرض قدرتها على الكتابة الصحفية والقصصية؛ ركزت ـ بوعى وشرف ونزاهة على أن مصدر كل الأوهام فى حياة زوجها إحساسه بأنه مجرم وقاتل فلو شعر بكلب أو قط يمشى وراءه فى الظلام أو حتى فى النور اعتقد بأنه مدسوس عليه ليقتله!! فما بالك وقد فوجئ باثنين من أشهر ضحاياه؟!.. وبعد أن أشادت بشهامة وكرم الأستاذ عادل الطوخى الذى حممه بيديه ولم يقرف منه؛ قالت ما هو أغرب، صفقت كفا على كف وقالت إنها حينما زارتها زوجة الأستاذ مروان فى بيتها باكية من هول ما حدث سألته هى فى غيظ كيف تفعل هذا فى شخص لم يتعرض لك بالأذى؟ رد قائلاً فى برود أسود:

ـ «مروان بتاعك يستاهل قطم رقبته! إنه لا يحبنى ولا يحترمنى! يعرف من يكرهوننى ولا يقول لى ماذا يقولون عنى وماذا ينتوونه لى؟! إنه مثلهم وهم جميعًا أعدائى! يعنى أعداء الحكومة! نعم يجب أن تفهمى ذلك: أعدائى هم أعداء الحكومة هم أعدائى! وبخاصة هؤلاء الصحفيين الأنجاس عدم المؤاخذة يا أستاذ شامل!»

أنهت كلامها بزفرة حارة:

ـ «دبرنى يا معالى الوزير! ماذا أفعل أنا وعياله؟ إننى احتقره وأكرهه من كل قلبى وفى نفس الوقت أخاف أن يظهر كرهى واحتقارى أمام عيالى فتكون الكارثة!.. ولكن.. يا ربى.. إن الكارثة حصلت بالفعل!.. الولد والبنت لا يحبانه! يشخط فى ابنته ويكشر عن أنيابه ويجز على أسنانه كما يفعل مع المجرمين فى

السجن! البنت تفعلها على نفسها فى كل شخطة! تتجمد! ما أن ينظر إليها نظرته الشريرة الحاقدة حتى تنسرع البنت وتظل طول الليل تنتفض وهى مسكينة تعرف أن الصراخ سيتسبب فى أذيتها! فى مرة حملها وهى فى المهد ليرميها من الشباك لتسكت نهائيًا عن الصراخ وهو حيوان لا يدرى أن المغص فى بطنها هو الذى يصرخ! . . أف ف ف!»

انفجرت باكية بحرقة المقهورة المضغوطة فى موقف درامى شديد التعقيد. خيم عليهم صمت أليم. الوزير رجل دمث حقًا كما يؤكد النقيب مفسرًا ذلك بأنه وإن كان شرطيًا فى الوظيفة فإنه فى الواقع أميل إلى المدينة شكلا وسلوكًا وملبسًا بل ومفردات الحياة اليومية ربما لأنه قادم من مباحث أمن الدولة التى أمضى فيها مدة خدمته بنجاح؛ ويعقِّب النقيب على ذلك بأن شخصيته المدنية الرقيقة خدمت شرطويته وعجلت بترقيته وتوصيله إلى منصب الوزير . .

معلقا على حالة خيرات هانم قال الوزير للنقيب فى كثير من الأسى والغضَب الإنسانى:

ـ «ليت أمثال فهمى يعرفون أن العنف مرض عدواه سريعة الانتشار! . . هو فى الأصل إدمان . . شأنه شأن أى عقار مخدر: يدمر خلايا العقل ويقتل القلب ومتى ما قتل القلب فى إنسان لا يعود إنسانًا بالمرة! بعض الحيوانات المفترسة تكون أرحم منه ببنى جنسه! . . هل تعرف يا شامل بك أن هذا كان موضوع رسالتى للدكتوراه: العنف أقصر الطرق إلى فشل رجل المباحث! . . وهل تعرف أننى أدرِّس هذا للأولاد فى أكاديمية الشرطة؟ ومع

ذلك فإن الأكاديمية مع الأسف لا تعرف ما حجم الخراب الذى دخل نفوس طلابها قبل مجيئهم إليها! . . لا كشف الهيئة ولا أى كشف يضمن لك الكشف عن الجوهر الإنسانى والتربوى بطالب تقدم إليها وهو على عتبات الرجولة! من المستحيل طبعًا أن تهدّ بنيانا لتعيد بناءه من الأساس!»

يقول النقيب أن الاشمئزاز كان ملازمًا لسيادة الوزير مدكور صالح طوال الجلسة لدرجة أنه طلب لهم عصير الليمون أكثر من مرة بذريعة ارتفاع درجة حرارة الجو. لقد اعتذر للنقيب عما حدث، رجاه أن يبلغ الأستاذ متولى درويش أن من حقه السفر فى أى وقت وليحجز من الآن فى أقرب طائرة؛ أما حكاية فهمى القزاز والمتورطين معه فى هذه المسخرة فله معهم تصرف حاسم صارم باتر بإذن الله. ثم استدرك وهو يقف ليصافح النقيب:

ـ «هذه مشكلة أمكننا حلها! الدور والباقى على مشكلة هذه السيدة التعيسة حقًا! تلك فى رأيى هى المشكلة الأعقد. . ربنا معها على كل حال!»

وقفت الست خيرات فصافحت النقيب أوصته بإبلاغ اعتذارها للسادة الصحفيين الفضلاء. وقام الوزير بتوديع النقيب حتى باب المصعد.

الفصل السادس

١

قطعُ القطِيعةِ

شهور طويلة لم أعد أذكر عددها مضت كنت أشعر خلالها ـ ربما لأول مرة فى حياتى . . بشىء من الرضا عن النفس ؛ ذلك لأننى نجحت خلال هذه المدة الطويلة ـ ربما لأول مرة فى حياتى كذلك ـ فى الالتزام بقرار حكيم اتخذته ونفذته بحسم وصرامة : قطعت علاقتى بفهمى القزاز كأن لم تكن، لا اتصال لا سؤال لا تجىء سيرته على الإطلاق فى بيتى أو على لسانى فى أى مكان، نفيته تمامًا من وجودى لدرجة أن زخمه بدأ يزول من أنفى، وبقعه بدأت تنمحى من مشاعرى . . الجميل أن زوجى هى الأخرى فرحت بما حدث برغم محبتها الشديدة لخيرات ؛ بذكائها الفطرى أدركت أن البعد عن هذه الأسرة غنيمة . .

تبعا لذلك كان لا بد من هجران قعدة محمد شعبان فى كشك المحطة ؛ أصبحت أقف عند المحطة التالية لمحطة الدوران الرئيسية، عند كوعة مبنى الجهاز الإدارى للحى، حيث الأتوبيس مرغم على التوقف عندها خدمة لموظفى ورواد مبنى مقر الحى . الشىء الوحيد الذى أصبحت أشعر بافتقاده مؤخرًا هو صديقى معتز الأقصرى ؛ فمنذ وقت

طويل لم أصادفه فى الأتوبيس؛ بل إن مقاله فى جريدة أخبار اليوم توقف منذ ما يزيد على ثلاثة أعداد وربما أربعة، وأنا من فرط ربكتى وانشغالى بمحاولة مضاعفة العمل من أجل استكمال نفقات الحياة المتصاعدة بشكل جنونى ـ وربما من فرط خستى أيضًا ـ لم أكلف نفسى بالسؤال عنه ولو بتليفون لمكتبه فى دار الأخبار! . . وذات يوم ركب من محطة رئاسة الحى رجل متين البنيان أنيق الملبس تبدو عليه سمات الأهمية، تذكرت أننى كثيراً ما شاهدته فى صحبة معتز وتوقعت أن يكون على صلة قربى بالسيدة عواطف زوج معتز لشدة التشابه بين تقاطيع الوجهين. اتضح أنه مهم فعلا؛ فما كاد يصعد حتى تلقى التحية من معظم الركاب؛ على الفور قام أحدهم وتخلى له عن مجلسه؛ الرجل عندما جلس وشافنى واقفًا لصق الزجاج الحاجز بيننا وبين السائق حملق فى وجهى فعرف أننى من أصدقاء معتز الأقصرى، فوقف باحترام وتوقير:

ـ «تفضل حضرتك!»

إزاء ترددى أمسكنى من ذراعى وأجلسنى مكانه:

ـ «أنت أخ أكبر!»

أخذ مكانى فى الوقوف. سألته فى قليل من الحرج:

ـ «أظنك تقرب للسيدة عواطف؟!»

ابتسم فى دماثة:

ـ «أنا شقيقها وائل أمين! مهندس مدنى! نائب رئيس الحى!»

ـ «فرصة سعيدة يا أستاذ وائل! . . قل لى . . الأستاذ معتز لا ينشر مقاله منذ . . . »

ـ «أما علمت؟!»

ـ «خيـــراً؟!»

ـ «الأستاذ معتـز سافر العراق! صدام حسين طلبـه بالاسم مع كم واحد ممن كانوا زملاءه أيام كان يتعلم فى القاهرة! . . و . . هو بصراحة أحب أن يتم الأمر فى سرية! أصله غير واثق من نجاح التجربة! قال أجرب كم شهر! هذا بينى وبين حضرتك فحسب! أما عموم الناس فتقول لهم إنه فى رحلة صحفية طويلة الأجل!»

ـ «أخذ زوجه معه؟»

ـ «طبعًا! هو لا يستطيع مفارقتها يومًا واحدًا!»

ـ «يعنى أغلق شقته!»

ـ «هى لم تعد شقته!»

ـ «باعهـــا؟!»

ـ «بادلنى! أخذ شقتى فى شارع شهاب بالمهندسين وأعطانى شقته! خيـر وبركة! هى فى الأصل كانت هكذا من الأول: شقتـه هذه كـانت ولا تزال باسـمى وهى بجوار عـملى لكن أختى عـواطف أصرت على السكن فى ضاحية بعيدة فتركتها لها! الحمد لله جربت بنفسها فكادت تُجن من الوحشة والخوف!»

ـ «عزلوا من هنا قبل السفر أم بعده!»

ـ «هما تركا لنا كل شيء واتكلا على الله بهدومهما ونحن الذين نقلنا على مهلنا عفش هذا مطرح عفش ذاك! الحمد لله! . . أرجو أنك لا تذيع الخبر الذى قلته لحضرتك! . . أقصد لا تقل إنه سافر وإلا سيزعل منه ناس كثيرون!»

ـ «اطمئن!»

تكتمت الخبر بالفعل كأنى لم أسمعه . .

على أن نجاحى فى الابتعاد عن قعدة محمد شعبان فى كشك المحطة لم يكن موفقا تماما؛ لقد هربت من قعدته فوضعته الظروف الغريبة فوق رغبتى فى القطيعة . .

كنت جالسًا ذات عصرية طرية على مقهى ريش بشارع سليمان، فى الممر غير المسقوف الذى كان ملقف هواء لا مثيل لطراوته المنعشة حتى على بحر الإسكندرية؛ كنت منكبا على ديوان (الأخضر بن يوسف ومشاغله) للشاعر العراقى سعدى يوسف اشتريته لتوى من المكتبة العراقية؛ استلبتنى صوره الشعرية من أول سطر؛ مددت يدى تتحسس فنجان القهوة خلال اندماجى فى القراءة؛ فإذا بيد كبيرة خشنة توضع فوق يدى؛ وإذا هو محمد شعبان . . كان مارًا من أمام المقهى فرآنى قرب الرصيف فتسلل جالسًا على الكرسى المقابل . . نحيت الديوان وهللت فرحًا بمرآه . .

البسمة المزمومة الشفتين يحبسها الحياء كلما أطلّت خلال أسنانه المنسقة الشديدة البياض . أفرغ زجاجة البيبسى كولا فى الكوب وابتسامته تتفاعل مع الغاز المتدفق من الزجاجة بفوران يرفع طبقة

الرغوة فصارت هى الأخرى تفور على شفتيه وتطرطش؛ أخيراً فردها على ضحكة مقطومة بنغمة تعكس الاحتجاج والأسف:

- «يا عم إحنا عملنا فيك حاجة لا سمح الله؟!»

- «ولع! ولع خلى الكلام يحلا!»

لكزته بعلبة السجائر لأوقف استطراده إلى أن أخترع سببا وجيهًا يبرر انقطاعى عن قعدته، لكنه صادر محاولتى:

- «لعلمك! كل السائقين والكمسارية شافوك وسألونى عن سر زعلك منى فأقول لهم إسألوه فهو الذى يعرف!»

- «أنا فعلا قصرت فى حقك!.. لكن!.. قعدتك تغرينى بالدرغمة فى التدخين فيبوظ منى اليوم!»

- «ونحن لا نرضى أن يبوظ منك اليوم!»

قالها بنبرة تهكمية خفيفة الظل حميمة؛ انفجرنا فى ضحكة عالية لمجرد أننا نريد أن نضحك؛ لكننى تذكرت شيئًا:

- «فكرتنى! أبو الليل نقل فرشه؟ لم أعد أراه! أقصد أن زوجتى طلبت فاكهة أكثر من مرة لكنها لم تجده فى مكانه!»

شَوح بذراعه فلمعت فيروزة كبيضة اليمامة فى خاتم غليظ كصامولة قلاووظ فى أصبعه الخنصر:

- «أبو الليل فى السجن!»

اعتدلت متحفزا:

ـ «ماذا قلت؟ فى السجن؟!»

ـ «بخته أسود وحظه مثل عقله مجنون وأعمى! . . يستاهل ما جرى له!»

هو كان متعاطفا مع «أبو الليل» وضده فى آن معًا؛ لكنه حكى لى حكاية أذهلتنى: الست عواطف على نياتها، عقلية طفلة لا تقدر المسئولية، تقف فى البلكونة لكى تنشر الغسيل وهى نصف عارية، بقميص نوم كتَّافى لا يستر شيئًا، تميل فوق سور البلكونة فينكب صدرها كله فوق حافة السور فتتركه لمدة طويلة حتى تنتهى على مهلها من عصر قطع الغسيل فى الشارع ونشرها؛ الولد الصايع لطفى العجلاتى وصديقه أبو الليل يبعثان بنظراتهما الوقحة تركب فوق الثديين الطليقين وهى تشعر بذلك وتراه فلا تفعل شيئًا لردعهما بل تبتسم لنفسها فى لا مبالاة؛ تطورت النظرات الوقحة فاصطحبت معها كلمات غزل أكثر وقاحة تمتدح الصدر والخدين والعينين والفخذين والمؤخرة وحتى القدمين؛ لا يتورع الواحد منهما عن الذهاب إليها تحت البلكونة يضرع إليها طالبًا موعداً مثل محمد فوزى شحات الغرام؛ وكلما لاذت هى بالصمت المائع والابتسامة الرخوة ازداد كلاهما جرأة؛ أصبحت هى موضع رهان بين العاشقين؛ راحا يترصدان زوجها الأستاذ معتز الأقصرى، يعرفان متى ينزل ويركب ومتى يعود؛ فى ذلك اليوم الأغبر راهن الواد لطفى صديقه أبو الليل على أن يثبت له أن الست ميالة وجاهزة تنتظر من يتقدم ويخلص . . الرهان كان: إذا نجح لطفى العجلاتى فى إثبات ما يقوله وأوقع بها فعلا فإن تكاليف القعدة كلها تكون على حساب أبو الليل وفى شقة بعيدة

محترمة . . ما أن نزل الأستاذ معتز وركب الأتوبيس واطمأن العاشقان إلى أنها صارت الآن وحدها فى الشقة حتى ركب لطفى رأسه المقطوشة وصعد درج السلم بجسارة؛ كان فى نفس الوقت مطمئنًا إلى أن الشقة المقابلة لشقة الأستاذ معتز سافر أصحابها وأغلقوها يعنى إذا صوتت الست عواطف وصيَّحت لن تجد من يغيثها ويكون قد قفز إلى الشارع فى لمح البصر . . طرق بأصبعه على باب الشقة؛ عندئذ كان أبو الليل غير مصدق وفى نفس الوقت يخشى أن يأكلها لطفى وحده فى شقتها على سرير زوجها وما أفخره، فتبعه محتفظًا بخط الرجعة وبمساحة يرقبه منها . . الست قالت: مين؟ قال بكل بجاحة: أنا لطفى يا ست عواطف؛ ردت بترحيب: أهلا سى لطفى يلزم خدمة؟ قال: عاوزك فى كلمتين؛ قالت: وماله! حاضر! لحظة واحدة ألبس الروب! . . الغبى لم يكن يعلم أن الست عواطف اشتكت لزوجها رزالة هذا الولد وصديقه الفكهانى؛ لم يكن يعلم أن شقيقها المهندس وائل أمين ـ بطل الملاكمة فى النادى الأهلى والشخصية الثانية فى حى تقسيم صحراء المماليك ـ أصيع منه ومن الذين خلفوه وتربية حوارى الكيت كات وفى غاية الشراسة، وأنه منذ اشتكت له أخته وهو يدبر للإيقاع بالصديقين البلطجيين بمعرفة الشرطة والنيابة العامة ومن يومها وهو يترقب هذه اللحظة؛ لم يكن البلطجى التعيس يعلم أن أخاها المهندس الملاكم وائل أمين نائم فى الغرفة الداخلية فى انتظار تشريفه؛ فلما أبلغته أخته بمجىء الولد نبه عليها أن تفتح له الباب وتتقبله فيما كانت يده تدير قرص الهاتف ليبلغ الشرطة بأن الفأر طبٌ فى المصيدة؛ حينما فتحت باب الشقة قفز أبو الليل الدرج صار هو الآخر فى فتحة الباب؛ أدخلتهما فى الصالون؛ وكما أوصاها أخوها تسللت فى خفة وتربست الباب

بالمفتاح ودخلت به إلى أخيها فسلمته له وخرجت؛ أشارت إلى الغرفة:

ـ «تفضل هنا يا اسطى لطفى!»

انتفض صاحبنا واقفًا منفوخ الصدر كالديك الرومى؛ مشى مختالا نشوانا؛ دخل الحجرة، فى الحال انغلق بابها. كان المهندس وائل وراء الباب بالفانلة واللباس وعصا من الشوم لا تنكسر، وفين يوجعك، دبّ دبّ دبّ . . دبّ . . كسر عظامه بالمعنى الحرفى للكلمة، ثم اشتغل بَالبونَية واَلشلوتَ حتى شوه وجهه طمس عينيه؛ أخيرًا عفقه من قفاه وطوح به فاصطك بالباب فتهاوى فاقد الوعى فى غيبوبة تامة؛ ثم خرج إلى أبو الليل، فإذا به وقد وجد نفسه حبيسًا ركبه الجنون فتسلق سور البلكونة ورمى بنفسه فهوى على الأرض يعوى . . قبضت الشرطة على الجثتين أودعتهما المستشفى؛ يتجدد حبسهما كل خمسة وأربعين يومًا: جريمة اقتحام بيت بهدف هتك العرض والاغتصاب مع سبق الإصرار والترصد . . وطبعًا لم يكن من الممكن أن يبقى الأستاذ معتز فى نفس الشقة؛ لقد تشاءم من المنطقة كلها فبادل صهره بشقته . .

ختم محمد شعبان حكايته المأساوية مستدركًا:

ـ «سمعت أنه سافر إلى العراق يعمل مستشارًا خصوصيًا لصدام حسين الذى قيل إنه صديقه فهل هذا صحيح؟ . . هاه! إذن فهو صحيح! أنا أصدق أنه صحيح! أم ترانى غير فاهم؟!»

كنا بالقرب من رصيف شارع سليمان، وجهانا للشارع وظهرانا لعمق الممر. وكان بهادر أبو النور جالسًا فى آخر الممر مع الشاعر

العراقى عبد الوهاب البياتى والقاص الشاب يحيى الطاهر عبد الله والشاعر المصرى الثائر . . أمل دنقل والناقد النوبى الماركسى الشاب أيضًا خليل كلفت ذى الجسد الضئيل القصير حتى ليستطيع بهادر أبو النور أن يضعه فى حقيبته السمسونيت لكن عقله الناشط الذكى وخفة ظله يحصنانه ويعطيانه ظلا مضاعفًا يوهمك بأنه ربما كان أطول قامة من بهادر نفسه مع أنه لا يزيد إلا قليلاً عن طول ذراعه . وقبل أن أنفرد بالجلوس وحدى ها هنا مع ديوان شعر سعدى يوسف كنت جالسًا معهم؛ كان البياتى بخفة ظله الخارقة يحكى لنا كيف أنه أكل البنت من الشاعر الفلسطينى محمود درويش؛ أصل الحكاية أنه كان مدعوا إلى مؤتمر فى إحدى العواصم العالمية لعلها باريس فالتقى هناك صديقه وصديقنا الشاعر محمود درويش الذى كان مدعوا هو الآخر ممثلا للشعر الفلسطينى فإذا هو نجم نجوم المؤتمر قد وقع فى غرامه عدد هائل من الفتيات من أجمل جميلات العالم من شاعرات وصحفيات ومذيعات ومضيفات لكن محمود اختار من بينهن واحدة تتسق مع ذوقه النسائى الرفيع فإذا هى قصيدة لسيد شعراء الكون؛ ولكن من سوء بخت محمود أنه نزل مع البياتى فى نفس الفندق؛ فبينما كان محمود وفتاته يحتسيان القهوة معًا فى الريسبشن دخل عليهما البياتى ليشرب القهوة هو الآخر؛ حياهما وانفرد بنفسه فى ركن قصى؛ إلا أن الفتاة ما أن رأته حتى فقدت توازنها وتكهربت وجعلت ترسل له النظرات المنبهرة الوالهة إذ من الواضح أنها عرفت أنه الشاعر العربى الكبير عبد الوهاب البياتى قريب ناظم حكمت ولوركا وبابلونيرودا؛ أحس البياتى أن الفتاة تريد أن تقول له شيئًا مهمًا، لعلها تريد ـ لولا بقية من ذوق وحياء ـ أن تترك محمودًا وتأتى إليه، أحس كذلك أن محمودا

قد امتعض منها لهذا السبب وأنه يبذل جهداً استثنائيًا ليشدها إليه ويصرف انتباهها عن البياتى ؛ وبدا للبياتى أنه قد نجح فى ذلك بالفعل حيث امتنعت الفتاة عن النظر إليه وركزت كل انتباهها فى الاستماع إلى حديث محمود الهامس ؛ لكن يبدو أن سجائره قد نفدت فاستأذن منها ريثما يختطف علبة سجائر من غرفته ؛ ومشى فى اتجاه المصعد، فما أن غاب جسده داخل المصعد حتى انتقلت الفتاة وجاءت إلى البياتى فصافحته فى اشتياق حار، ولا بد أن كاريزماه الخاصة هى التى جذبتها إلى أخذه بالحضن وتقبيله فى خديه معبرة له عن شديد امتنانها وافتتانها بشعره وها هى ذى تُفتتن بشخصه من أول ما رأته ؛ دعاها للجلوس ؛ طلب لها مشروبا، راح يستمع بشغف إلى صوتها الخفيض الناعم وهى تحدثه عما يفعله شعره فى خيالها ووجدانها فإذا بها تركية مسلمة تتحدث العربية بطلاقة مع أنها مقيمة فى فرنسا ؛ وفيما هو مستمتع بما تضخه عليه من إشعاعها الأنثوى الهادر لمح محمودا آتيا من ممر المصعد، رآه ينظر إلى حيث كان جالسًا مع فتاته فلم يجدها فلم يعن بالركن الذى ينزوى فيه البياتى مع فتاته السليبة ؛ استدار لينصرف خارجا ؛ قال البياتى :

ـ «حبيت أقطع قلبه نهائيًا فقلت له :

محمود! فتلفت ورآنا معًا! قلت له :

تفضل يا راجل خذ القهوة معنا! قال شكراً ومشى!»

ثم يضيف البياتى ساخراً بلهجة ذات معنى :

ـ «محمود أخى وحبيبى أى نعم ولكن ما إلو فى ها القضية!»

عند هذه الذروة فرغ كل ما فى صدرى من ضحك؛ تركتهم وعبرت الشارع إلى المكتبة العراقية وأنا غير قادر على السيطرة على نفسى من فرط الإغراق فى الضحك من عبارتين للبياتى الجميل: «حبيت اقطع قلبه نهائيًا!» و«لكن ما إلوفى ها القضية!»، يعنى أن محمودا ليس فارسًا فى النساء، أو شيئًا من هذا القبيل، أى طفولية وصبيانية ساحرة؟ ما أبدعها من معْيلة، حين يفيق الكبار فى لحظة من اللحظات من ثقل القضايا الكبيرة والهموم الضخمة الضاغطة فيكتشفون ـ ربما للمحة عابرة ـ أن الزمن قد سرق منهم طفولتهم وشبابهم ثم انثنى يبيع لهم بعض مشاهد من أطيافها سرعان ما يتعرفون فيها على شبابهم المسروق فيتشبثون بها ظنًا بأنها رُدت إليهم! . . فى المكتبة لم أصادف جديدا سوى ديوان (الأخضر بن يوسف ومشاغله» فأخذته وعدت به إلى المقهى لأنفرد به وحدى فإذا بمحمد شعبان يتصيدنى فى هذه القعدة على غير توقع . .

جاء بهادر أبو النور؛ جلس محتضنا الضلع الداخلى الضيق للترابيزة تاركا حقيبته السمسونيت على الأرض، واضعًا حزمة تخينة من الصحف المطوية فوق الترابيزة، ثم صفق مناديًا الجرسون «ملكْ»، حاسبه على ما شرب، ثم أشعل سيجارة وناداه من جديد:

ـ «يا ملكْ! هات لى فنجان قهوة على حساب ابن القحبة هذا!»

وأشار إلىّ، فتمهل ملك ناظرا لى وله بكثير من الحرج وقد احمر وجهه المتكور يغالب الرغبة فى الابتسام والمرح يقمعهما خشية الانسياق إلى التطاول وما قد لا تحمد عقباه؛ رفع ذراعه فى حركة احتجاج واعتذار لى عما سمعه من لفظ يستقبحه؛ وكان الصليب الأخضر فى رسغه تحت باطن كفه زاهى الخضرة أليفا؛ قال بحياء:

ـ «أجيب يا مروان بك؟»

انفجر المقهى كله بضحكة صاعقة من هذه النكتة التى فطن إليها الجميع حيث اعترف مِلك وأيَّد ببراءة ودون قصد بأننى ابن القحبة المقصود . .

قلت ملوحًا بيدى فى احتجاج على سؤاله :

ـ «طبعا يا ملك! الأستاذ بهادر أخونا الأكبر من حقه أن يطلب ما يشاء بالألفاظ التى يشاء! هات قهوة لثلاثتنا!»

بهادر أبو النور ومحمد شعبان يعرفان بعضهما بالضرورة كما أن محمد شعبان يتفهم شخصيته جيدًا ويقرأ عموده فى أخبار اليوم كل أسبوع، ومن تعليقاته المأثورة عندى أن الأستاذ بهادر «مريَّح دماغه وبيلعب لوحده فى سكة بعيدة عن وجع الدماغ»، أى أنه يكتب فى قضايا الفكر والفن والأدب وما إلى ذلك . .

قال بهادر دون تمهيد :

ـ «أولاد القحبة أصبحوا يسافرون فى السر كاللصوص! يخافون أن نحسدهم؟ أم ماذا يخافون بالضبط؟! سنقاسمهم فى رزقهم! . . أما إنه زمن ابن كا ا ا ا لب فعلا!»

ـ «تقصد معتز الأقصرى؟»

ـ «معتز وغيره! إنهم مجموعة كبيرة مؤخرًا!»

ثم أشار بإبهامه إلى ما خلف ظهره :

ـ «هذا الداهية ابن الداهية!»

ـ «البيــاتى؟»

ـ «ينتقى الكفاءات الصحفية والفكرية نقاوة معلم! يوهم كل واحد أن صدام حسين شخصيًا طلبه بالاسم!»

ـ «وما شأن البياتى بهذا؟»

ـ «أنت أصلك فلاح غبى! هذا الشاعر الكبير يضرب عصفورين بحجر واحد! إنه الآن متصالح ولو مؤقتًا مع حزب البعث! مطلوب منه المساهمة فى بناء قاعدة فكرية سياسية صحفية أدبية تشتغل على صناعة زعيم جديد فى العراق بدلاً من عبد الناصر! وفى نفس الوقت يخدم أصدقاءه الذين يؤمنون بفكره ويؤمن بفكرهم!»

ـ «ولكن من أدراك؟! هل لديك معلومات مؤكدة؟ أم أن هذا هو اجتهادك؟!»

ـ «المسألة.. لا تكن ابن قحباء.. ليست محتاجة لمعلومات ولا اجتهادات ولا دياولو!.. يكفى أن تلاحظ أن كل الذين سافروا من هذه الدفعة الأخيرة على الأقل كان البياتى هو الذى أغراهم أو توسط لهم أو قدمهم التقديم اللائق بهم للمسئولين فى المؤسسات العراقية!.. أنا شخصيًا وقعت تحت إغرائه لكننى كما تعرف مثل السمكة ومصر بالنسبة لى هى الماء! من أين لى بفرقة كالمسرح القومى أو المسرح الحر أو العديد من الفرق المسرحية المصرية؟ حياتى هى المسرح ولا جمهور لى إلا المصريين فحسب على وجه التحديد وليس يعنينى أحد سواهم! هذا هو ردى النهائى قلته له الآن! ثم إننى نسيت التعامل مع الأرقام!»

مدَّ محمد شعبان علبة سجائرة كأنه ينبهنا إلى وجوده :

ـ «سيجارة يا أستاذ بهادر!»

ثم أشعل لنا، وقعت من بين شفتيه ضحكة :

ـ «الأستاذ بهادر محق فى قوله! أنا سمعت الأستاذ معتز يقول لنسيبه : مش عايز مخلوق يعرف إنى سافرت!»

وانخرط فى ضحك عميق أراد إيقافه فوقعت منه شخرة غير مقصودة، فظهر الارتياع على وجهه وغطى حنكه بيده فبرقت الفيروزة فى أصبعه كسيمافور محطة السكة الحديد؛ ولكن بهادر أبو النور أزال عنه الحرج بأن أطلق شخرة صريحة تخينة ثم التقط حقيبته ووقف آمراً : قم لأوصلك.

٢
ومضة حلم قومى

فى نشرة الثانية والنصف مساء يوم السادس من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، الموافق عشرة من رمضان من نفس العام، دهمتنا أخبار الحرب فى أول وهلة استقبلنا الخبر باعتباره مجرد خبر صاخب على طريقة الإعلام المصرى، يقصد به تهدئة الجماهير الغاضبة من حياة موقوفة على جبهة القتال بغير تقدم؛ وصحيح أن المسئولين عن إعلام النكسة الكذاب الهياص قد أُبعدوا وجيء بعبد القادر حاتم إلى بيته القديم، الذى أنشأه فى ماسبيرو، ليرسى قواعد إعلام جديد يقوم على الصدق والحيدة فى نقل الأخبار وتداولها؛ إلا أن ثقة الجماهير فى ذلك كانت مهتزة تشبه مشاعر الذى يحذر من أن يلدغ من جحر واحد مرتين؛ فما أن بدأت تباشير الصدق فى الخبر حتى بدأ الناس يستوعبون الحقيقة الماثلة على أرضية من الثقة الكاملة فيما يذاع عليهم مسموعًا ومرئيًا ومقروءًا من خبر متطور متجدد اتفق على وقوعه جميع وكالات الأنباء، والقنوات الإخبارية والصحف فى العالم أجمع، صدقنا بما لايدع مجالاً للشك أن قواتنا المسلحة عبرت القناة واقتحمت خط

بارليف المنيع فقتلت وأسرت واحتلت ورفعت العلم المصرى على أرض محررة، ثم أخذت تتقدم شرقًا.

عمت البلاد فرحة طاغية؛ لم يكن الشعب المصرى فى يوم من الأيام فرحًا بعياله الذين ماتوا فى الحرب أكثر من فرحته بالناجين، مثلما كان يومذاك. الناس كأنهم انعتقوا من الأغلال، تحرروا من الذل، ردت إليهم ثقتهم فى أنفسهم فى بلادهم فى عيالهم فى مستقبلهم؛ وكانت رفرفة العلم المصرى فوق رأس سيناء تشخيصًا لكرامة العرب حيث العلم المصرى هو رأسهم التى لم تكن تعرف إلا الشموخ والفتوحات الإسلامية العظيمة، طوال أيام الحرب لم تحدث فى البلاد جريمة واحدة؛ حالة من التسامح سادت بين ربوع البلاد. . . لكن الفرحة ما لبثت حتى اغتيلت بوقف إطلاق النار، بالثغرة التى مكنت أمريكا إسرائيل من شقها فى جدار الجيش المصرى؛ لتطويق النصر وإفشاله، ولكن هيهات؛ كل ما هنالك أن الجسر الجوى الأمريكى حفظ لإسرائيل ماء وجهها واختلق لها موقعًا تتفاوض منه بروح معنوية مرتفعة.

كنا جلوسًا فى مكتب رئيس التحرير نشاهد خطاب السادات فى مجلس الشعب فى جهاز التلفاز، الذى أعلن فيه كيفية اضطراره لوقف إطلاق النار بعد أن تمكنت قواتنا المسلحة من تدمير القوة الدفاعية الإسرائيلية فى ست ساعات، بعد انتهاء الخطاب خيمت علينا الكسفة فمررت حلوقنا وجمدت مشاعرنا، رن جرس الهاتف الداخلى على مكتب رئيس التحرير، رفع السماعة ثم قال:

- «تليفون لك يا مروان!».

قلت لعامل السويتش أن يحول المكالمة على مكتبى، ثم هرولت إليه، جاءنى صوتها الدافئ الحميم مكسور الخاطر بعض الشىء مما أزعجنى مقدمًا؛ فيه رخامة مخشوشنة، نصف نائم نصف يقظان :

- «مساء الخير!».

قلبى يخفق بقوة، أخشى أن يكون مكروه قد حدث لها، أو للعيال؛ إنها لم تطلبنى فى مكتبى أبدًا ومن أين تطلبنى والتليفون لم يدخل بيتنا بعد، خير اللهم اجعله خيرًا :

- «أيوه يا ماما فيه حاجة حصلت ولا حاجة؟!».

- يوووووه ! حاجات وحاجات وحاجات!».

- «يا ساتر يا رب! يا ساتر يا رب! حصل إيه يا فايقة؟!».

ضحكة قصيرة لكنها رنت فأزاحت الخشونة عن صوتها:

- «أنا خيرات يا أستاذ مروان!».

- «مش معقول! مدام خيرات الشامى!».

-«انزعجت!!».

- «إطلاقًا! تصورتك فايقة إمرأتى!».

-«حتى صوتى يشبه صوتها؟!».

- «شىء عجيب فعلاً! . . . . يخيل لى أن اللهجة الفلاحية توحد الأصوات! تجعلها شبه بعضها الخالق الناطق!».

- «ألا تحب أن ترانى؟».

- «من قال هذا؟!».

- «إذا لم تكن تحب أن تراني فأنا أحب أن أراك؟!».

- «يا مدام خيرات أنت سيدة فاضلة وأنا تحت أمرك وإذنك في كل وقت! هذا شرف لي!».

- «متأكد؟!».

- «هل عندك شك؟!».

- «نعم عندي!».

- «في وشه ولا تغشه!».

- «أنا مقصر في حقك لكن....».

- «لا تكمل! أنا متفهمة جداً... لكن...».

أرضية الصوت نشحت برطوبة الدمع:

- «ما الحكاية يا مدام خيرات؟ نغصت قلبي!».

يبدو أنها تعطلت عن الكلام؛ ناديتها:

- «مدام خيرات! هل فهمي بك طلقك؟».

- «أرجوك! تكلمي بوضوح لا أفهم!».

- «قبل أن أتكلم! هل أنت مصر على مقاطعتنا؟!».

- «الآن يمكن أن يتغير الموقف!».

- «إذاً فتعال! إني في احتياج إليك! أريد أن أراك بفارغ الصبر!».

- «متى؟!».

- «الآن إن استطعت!».

- «ولكن أين؟!».

- «فى البيت طبعًا!».

- «ظننتك فى المستشفى!».

- «أنا فعلاً فى المستشفى ليل نهار، لكنى عائدة إلى البيت حالاً ستوصلنى سيارة المستشفى».

- «وهو كذلك! انتظرينى مسافة السكة!».

بعد وضع السماعة شرد خيالى لبرهة وجيزة فيما يمكن أن يكون قد حدث؛ لكنى وأنا المتشائم بطبعى رأيتنى أحاول إيقاف خيالى عن التفتيش بين التوقعات، وأنا مصلوب فى عارضة الأتوبيس الحديدية طاف بخيالى أن أمر على بيتى فأتغدى وأصطحب فايقة معى إلى بيت فهمى القزاز؛ إلا أننى عندما نزلت فى محطة رئاسة الحى صرت مقتنعًا بالذهاب من فورى إلى خيرات الشامى إذْ من الواضح أن فى الأمر أمرًا عاجلا ومن اللباقة أن أكون وحدى كما أوحت لى خيرات فى الهاتف؛ فاتخذت طريقى إليها مباشرة.

٣
المأساة

سحابة من الكآبة مكفهرة مقبضة تخيم على البيت من الخارج توحى بمصاب أليم؛ أيكون فهمى القزاز قد توفى إلى رحمة الله؛ ولكن ما هذا التغيير الذى طرأ على الشقة الملاصقة لشقته وهى الأخرى ذات مدخل خاص بممر من الناحية المقابلة؛ يبدو أن الأرملة تركتها لساكن جديد فغيَّر شكلها ولون طلائها؛ لعله هذا الواقف فى الشرفة الملاصقة لشرفة فهمى؛ رجل طويل القامة نحيف البدن، مُطبَّق الوجه لزج الملامح، تعكس بشرته الجرباء دمًا أصفر قاتمًا يشع خبثًا، يرتدى بدلة صيفية من الكتان خضراء اللون قاتمة الخضرة فوق قميص سمنى اللون مفتوح الأزرار منفرج الياقة، كان يقف لصق سور الشرفة وقفة طاووس يدخن بشراهة ويرقب الشارع بنظرات وقحة مشمئزة، تجاهلته عندما اقتربت، انقطعت على الممر المؤدى إلى باب شقة فهمى؛ لكن صوت كل من إيمان وزياد ابنى فهمى صافح رأسى من فوق سور الشرفة:

- «إزيك يا عمو!».

كان الطفلان فى ضيافة ذلك الرجل، فازداد توجسى :

- «أهلاً يا حبايبى !» .

من باب اللياقة أضفت :

- «مساء الخير !» .

- «أهلاً أستاذ مروان ! إزى حضرتك !» .

صوته مطابق لشكله تمامًا، صوت حلقى عريض ملىء بالأنفة والادعاء والغطرسة، كأنه وارث للسيادة المطلقة أبًا عن جد، وياللعجب؛ إنه يعرف اسمى، ويرفع الكلفة بينه وبينى . كانت خيرات قد شعرت بوجودى فأطلت من شرفتها إطلالة خاطفة، لكنها كافية لإقناعى بأنها انطفأت وتبهدلت؛ سارعت بفتح الباب؛ ولأول مرة منذ تعرفت عليها لا تكتفى بالمصافحة باليد، بل تميل نحوى لكى أحضنها وأقبلها؛ شعرت بها فى حضنى كما لو كانت فى بحث دءوب عن حضن آمن يحتويها لعلها تستريح على صدره ولو لبرهة كهذه من حمولة نفسية بدت فى عينيها ثقيلة مبهظة على جميع المستويات . . . .

دموعها أغرقت كتفى :

- «خير يا مدام خيرات؟ كفى الله الشر !» .

- «سترى !» .

سحبتنى من رسغى إلى الصالون فى الردهة : فهمى بك القزاز كومة لحم فوق كرسى متنقل، ذراعه اليسرى مرمية بجواره، الشلل النصفى واضح، رأسه الصلعاء كبطيخة مشقوقة من الجنب شقًا مقوسًا، خط

داكن متعرج هو أثر الخياطة بعد فك الغرز، الريالة فى تدفق يغرق شدقيه فتسيل على صدره؛ يده اليمنى كسولة لا تكاد تشعر بالمنديل المتكور فى قبضته.

ما أن رآنى حتى انفجر فى البكاء بصوت تعيس مكلوم، كطفل عاجز يتيم الأبوين، غصبًا عنى انحنيت فوقه رحت أقبل رأسه وأربت على كتفيه، ودموعى أكثر تدفقًا من ريالته؛ لقد تأثرت بصورة ما كنت أتوقعها مطلقًا؛ تأثرت إلى حد الحلول فى شخصه أو حلوله فى شخصى، لعل ما أشعر به آنئذ من آلام نفسية حادة أقوى من الآلام الجسدية التى تعذبه وتضنيه، كنت كأننى أزمع أن أنوب عنه فى الجانب الأفعل من آلامه.

أصابنى فرط البكاء بالدوار؛ لحقتنى خيرات بحبتى أسبرين ريفو، أصرت على أن تعمل شايًا لنا جميعًا....

- «متى حدث؟!».

وضعت أكواب الشاى فوق طقطوقة صغيرة على يسارى فيما بينى وبين فهمى، وجلست قبالتى تكاد ركبتها تلامس ركبتى حينما ترفع الكوب لتسقى فهمى. قالت: إن ذلك حدث منذ حوالى سبعة أشهر أو ربما أزيد أو أقل قليلاً؛ أغمضت عينيها متراجعة برأسها إلى الوراء قليلاً كأنها تهرب من كابوس مرعب يترصدها... قالت: إنها فى تلك الليلة بالذات -سبحان الله- كانت نائمة بجواره، إذ شعرت من أول الليل أنه غير طبيعى، يشكو من زغللة ودوخة وألم فى رأسه؛ فى وسط الليل قامت وقاست له الضغط ودرجة الحرارة، ثم قررت نقله فى الحال إلى المستشفى؛ استنجدت بالوردية الساهرة وبقيت فى

الانتظار على أحر من الجمر تتخبط فى إجراء بعض الإسعافات الأولية التى تعرفها، قبل وصول عربة الإسعاف بدقائق كانت حالته قد تفاقمت؛ أيقنت هى أن انفجاراً وشيكًا يتهدد مخه؛ فى المستشفى أثبت الفحص المبدئى العاجل ضرورة الإسراع بالتدخل الجراحى؛ حاصروا جلطات راحت كأنها تستدعى بعضها بعضًا، بذل الأطباء ما فى وسعهم حتى أنقذوه من موت محقق؛ لكن . . . اللهم لا اعتراض ليتهم ما أنقذوه! لقد أنقذوا فى الواقع مأساة حية لكى تبقى مصدر عذاب لا ينتهى، له ولذويه؛ هو الآن تكهن، لابد من فريق يسهر على خدمته وهذا إن توفر فى المستشفى على نفقة الدولة، لن يكون متوفراً بأى درجة منذ انتقاله إلى البيت، كما أن فاتورة الدواء باهظة تقصم ظهر مرتبها ومعاشه الضئيلين، ناهيك عن تغذية مخصوصة وسوائل معينة وتمريض متخصص مقيم و . . . و . . . . و . . . .

زفرت من أعماق صدرها؛ غلبها البكاء الصامت الحراق، صار وجهها مثل سلة الخوص الملونة التى تباع فى الموالد ملآنة بالحمص؛ كان تجسيد المعنى الشعور بالتعاسة فى أجلى صورها القاهرة للإنسان. تملكنى شعور بالعجز؛ إنى لمدرك تمام الإدراك أية محنة هذه التى تكابدها، ماذا تفعل هذه التعيسة الآن حقًا؟ هل تقضى بقية عمرها ممرضة له وحده ولن تستطيع فى نهاية الأمر تطيببه إلى حد الشفاء؟ أم تعنى بتربية طفليها ولو دون المستوى التعليمى والتربوى الذى حلمت به لهما؟ ومن أين لهما بالإنفاق؟ وكيف يمكنها توفيق أوضاعها كموظفة مرتبطة بمواعيد وساعات عمل لا فكاك منها؛ ليستقر راتبها؟ فيما مضى كان هناك ـ من بين جنود الأمن المركزى ـ من يجيئها ليكنس وينظف

وينسق الأشجار ويقضى الطلبات، أما اليوم فلم يعد يجيئها أى أحد، فمنذ بضع سنوات وهى تعتمد على أخيها عبود الذى أصبح فى هذه الآونة مشغولاً بامتحاناته؛ يعنى أصبح مطلوبًا منها أن تقوم بنفسها بكل شىء فياله من عبء يقصم الظهر حقًا. . .

برغم يقينى من عجزى الكامل عن تقديم أية مساعدة عملية فعالة وجدتنى أسألها :

- «أنت طبعًا محتاجة لنقود بأرقام مرعبة!».

- «الفلوس آخر ما يقهرنى! أبى الله يستره يقوم بالواجب على آخر جهده! وأخى الكبير بعث لى ثلاث دفعات بمبالغ كبيرة نأكل منها الآن! إنما المصيبة كيف سأرى الطفلين كيف سيكون شكل المستقبل فى ظل هذا الوضع؟!».

وأشارت بأصبعها السبابة إلى كومة اللحم الملقاة فوق الكرسى المتحرك؛ كلماتها ترتعش شفتاها فتنثر ما يتراكم فوقهما من دموع، وكان رأس فهمى بك منكسراً فوق صدره مستغرقًا فى نوم عميق يعلو شخيره يتصادم الشهيق مع الزفير فتتلاطم الأصوات كصوت الرعد كدوى القنابل يزعجه هو نفسه فينتبه رافعًا رأسه مبربشًا بعينيه، فلا يلبث إلا قليلاً حتى ينكفئ ذقنه على صدره منسحبًا من الحياة تمامًا. . . . قالت فى أسى :

- «نقص الأوكسجين فى الدم! على فكرة هو قوى البدن جدًا! اعنى! ما شاء الله لو حدث لغيره ما حدث له لمات فى الحال!».

- «ألا ترين الموت أرحم له ولك؟».

- «أكيد ولكنى لا أريد أن يموت حتى وإن بقى هكذا مدى الحياة!».

- «عجايب والله يا مدام خيرات! حتى وإن كان ذلك يعذبه ويعذبك؟!».

- «أنا واثقة أن خيالك ليس مريضًا حتى تظن أنى أتشفى فيه وأطلب إطالة مدة تعذيبه! أنت لن تفكر بهذه الطريقة أليس كذلك؟».

- «إنى أفهمك جيدًا ولكن. . . .».

- «عندى أمل كبير فى أن يشفى! لعل الطب يتقدم وهو بالفعل يتقدم وبسرعة!».

- «عذاب أقوى من أمل واه جدًا!».

- «لكنه أمل! الواقع أنى أحب عيالى وأكره أن يوصفوا باليتامى! مستعدة لأن أستمر فى خدمته مدى الحياة كما هو فى سبيل أن لا يشعر عيالى باليتم كما حدث له هو! من سوء حظ أنى شفته وأنا طفلة صغيرة جدًا حينما تيتم وصار حاله يصعب على الكافر! يروح المدرسة حافيًا بجلباب مرقع لا يتغير! ياه! أيام الله لا يعيدها ولا يكتبها على ابنه وبنته!».

نسيت أننى رأيت الولدين فى شرفة جارهم أثناء دخولى إلى هنا فسألتها عنهما بالمناسبة؛ شوحت بذراعها خلف ظهرها بقرف واشمئزاز:

- «أظنك رأيتهما وأنت داخل عند زفت الطين نبيل!».

- «نبيل من؟!».

- «نبيل البحطيطى! ساكن الشقة المجاورة!».

- «ما هذا الرجل؟ حدثينى عنه!».

- «صديق لفهمى من حوالى ثلاثين عامًا! وحتى يومنا هذا لم أعرف شغلته بالضبط ولا فهمى يريد أن يقول لى! مرة هو كان زميلى فى كلية الشرطة، لكنهم فصلوه! ومرة محام! ومرة خبير سياحى! هو غامض وغير مهضوم عندى!».

- «دفع خلو رجل للأرملة فى هذه الشقة؟».

- «ذنبها فى رقبة فهمى! ولية غلبانة ترملت على أربعة عيال! اشتغل عليها فهمى ودبسها فى حزمة قضايا وراء بعضها إشى آداب وإشى سرقة وإشى وإشى كل يوم والثانى يجرجرها إلى القسم والنيابة وسين وجيم، وقلة حيا! وناس يهددوها بتشريد العيال وخطفهم وحبسهم لحد الولية ما طلعت وسابت لهم الشقة بتراب الفلوس! فهمى وصاحبه ضحكا على الحاج صلاح صاحب البيت بخلو رجل كبير، والآخر انتهت بملاليم ورفع قيمة الإيجار! الحاج صلاح الآن يكرهنا كلنا ولا يطيق رؤيتنا ولولا أنه يحب أبى ويمت له بصلة قربة بعيدة لكانت حياتنا فى بيته صعبة!».

- «الأخ نبيل هذا يفرض نفسه عليكم طبعًا!».

- «بكل ما تتخيله من برود وكلاحة! فهمى يأتنس به!! حقًا إن الطيور على أشكالها تقع! عنده صبر أيوب في القعدة والقدرة على ملء الفراغ بأى كلام كأنه بالع راديو! عرف كيف يأكل عقل العيِّلين!».

شوحت بمعنى : فلنطوى صفحته، ثم استدركت :

- «الأيام القادمة ستكون أسود مما تتخيل! كيف أواجهها وحدى من غير صديق مثلك ألجأ إليه ساعة التعب طلبًا للرأى والمشورة؟».

- «ليتنى أكون عند حسن ظنك فعلاً! على كل حال خليها على الله! أنت إنسانة نظيفة وقلبك كبير حقًا! ولا أظن أن الله يخذل أمثالك!».

كانت جالسة قبالتى مباشرة، ويبدو أن عبارتى الأخيرة لمست فيها الوتر المشدود فارت؛ بدت كأنها شعرت بالأرض تدور بها بعنف لدرجة أنها رفعت ذراعيها تتساند على الهواء فانهارت؛ لكنها مالت بجذعها فألقت برأسها فوق ركبتى وانخرطت فى بكاء عنيف راح يزلزلها ويزلزل الأرض ويزلزلنى؛ ورأس فهمى سائب على صدره يهتز كمشكاة يداعبها الهواء. بعد برهة من الحذر والتردد مددت يدى الواجفة وملست على شعرها بكل ما فى قلبى من عطف عليها وحسرة على موقفها الدرامى المركب؛ إلا أن صوتًا كطلقة الرصاص نفض يدى ورمى بها إلى جانبى؛ كان باب شراعة الباب الزجاجية قد انزاح مدفوعًا بقوة همجية صبيانية فاصطك بالحائط محدثًا هذا الصوت المفزع؛ على أن اليد التى امتدت من خلال الشبكة الحديدية لتزيح الترباس من الداخل، كانت ترتدى كمُ البدلة الخضراء القاتمة فى أصبعها خاتم ذهبى لافت للنظر . . . حينما انزاح الباب وظهر هو ممسكًا بالولدين بيديه راح يرشقنا بنظرات تلصصية تجسسية وقحة يطل منها خبث واتهام مسبق ونية معقودة على الترصد مستعدة سلفًا للتخوين . . . .

كانت خيرات قد اعتدلت فى جلستها وواجهته؛ خُيل إلى أن أنفها الشامخ الممتد سيغادر وجهها مندفعًا كالرصاصة تخرق عينيه؛ بدا وجهها من الجنب عالى الكبرياء؛ بكل هدوء وحدة هدر صوتها بقوة دون صراخ أو صخب:

- «ما هذا الذى فعلته يا حيوان! من الذى أباح لك أن تفتح بابى بهذه الطريقة الهمجية البلطجية؟! ألم يمر الأدب على داركم؟! اطلع بره!».

ثم صرخت تستعجله وقد أخذت سمت من سيقوم ليضرب أو يفعل شيئًا مروعًا:

- «اطلع بره يا حيوان! أما سمعت؟!».

يا للرخاوة والتدنى، الرشيق الأنيق المتغطرس صار مثل زعزوعة القصب، يحاول تلوين ابتسامته بصبغة المزاح والأريحية العائلية المتسامحة عند الأزمة برغم قسوة هذه الألفاظ، الغريب أنه بدا بالفعل مقنعًا بصوته العريض المفتوح:

- «شكرًا يا مدام! لكن ليس أنا الذى دفع باب الشراعة! أنا الذى فتحت الترباس، لكن ابنك هو الذى. . . . .».

- «تعلم أن تطرق الباب أولاً!».

- «هل أنت جادة فى غضبك؟!».

- «أنت حتهزر معايه؟ أنا طول عمرى جادة فى كل شىء! يلا اتفضل من غير مطرود عشان تعرف إنى جادة!».

- «متشكر!»

سلط عليها نظرة ملأها بروح العتب، والأخذ على الخاطر، وما إلى ذلك؛ وإذ تأكد أن بركانًا فى عينيها على وشك الانفجار انسحب خارجًا تاركًا الباب مفتوحًا. قامت فأغلقته وربتت على ظهرى إيمان وزياد.

- «سلام على عمو!».

صافحتهما وقبلتهما وأجلستهما بجوارى....

- «يجب أن أنصرف الآن! فايقة لا تعرف أنى هنا!... إلى اللقاء!».

وقفت. وقفت هى الأخرى وصافحتنى:

- «خلينا فى دماغك!».

- «إن شاء الله!... ربنا معك!».

عند خروجى رأيته واقفًا فى الشرفة نفس الوقفة؛ جاءت عينى فى عينه؛ أردت أن أداوى جرحه، لوحت له بذراعى فى حركة ودودة، فحيانى بمثلها فى صمت كظيم.

الفصل السابع

١

ثمرة صبر الحكيمة

مفاوضات فض الاشتباك بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية تكاد تشكل إيقاع حياتى اليومية؛ أنا بصفة خاصة؛ ذلك أن أصغر إخوتى كان قد تم تجنيده قبل نشوب الحرب بنحو ستة أشهر، ثم سيق بعد التدريب مباشرة إلى جبهة القتال؛ ثم لم نعد نعرف عنه أى شىء؛ فباتت نفوسنا جميعًا - إخوتى وعشيرتى فى البلدة وأنا بطبيعة الحال - معلقة بعمليات فض الاشتباك للإفراج عن كتائب الجيش الثالث الميدانى لعل أخى يكون من بينهم أو على الأقل نعرف مصيره، أيًا كان هذا المصير بدلاً من هذه البلبلة والشحتفة التى نعيشها، إخوتى وأنا، منذ جاءتنا أنباء الحرب عبر المذياع.

كنت أتابع الأخبار على شاشة التلفاز مساء ذلك الخميس المتوتر المشحون بالألم، والانقباض حزنًا على مصير أخى الذى كان نجاراً ماهراً يتأهب للاستقلال عن معلمه بالتجهيز لورشة خاصة به، ولكن بعد فراغه من واجب التجنيد، وكان قد خطب ابنة خالته وراح يستدبر قطعًا من أخشاب مستعملة سابقًا، ويصنع منها جهاز عروسه بيديه،

إلى أن كاد ينتهى منه قبل استدعائه المفاجئ للتجنيد بأيام قليلة فقام بتستيفه مؤقتًا فى المطرح الذى اقتطعه من دارنا فى البلد وأعده ليكون عشًا للزوجية المرتقبة، تلك الصورة كانت باعثة على الانقباض والتشاؤم بعد أن عرف أهل بلدتنا كلهم مصير أبنائهم المجندين إلا نحن لم يصلنا أى خبر ؛ أما الآن فقد تزايد إلحاح إخوتى وضغطهم علىّ بأن أسعى ما أمكننى لاستلقاط أى خبر عنه أو حتى عن الوحدة التى كان منتميًا إليها، ولقدْ فعلت؛ أوصلتنى وساطتى إلى دفاتر السجلات العسكرية فى العباسية فأنبأتنى أنه من بين المفقودين، وعلينا أن نتحلى بالصبر ما دام قد فات الكثير ولم يبق إلا القليل من الوقت والقلق؛ على أننى عدت من بلدتنا اليوم كسير الفؤاد من منظر أبى وأمى : كهل بائس مهزوم ممصوص البدن يتربع فوق الكنبة كهيكل عظمى لاينى يرسل إلى باب المندرة نظرة شغوفة كأنها خفقة قلب كلما خايله ظل يعبر الطريق أمامه؛ فى حين تكومت أمى فى العتبة بجلبابها الأسود وطرحتها السوداء منزوية فى ظل الدرفة المثبتة من باب المندرة، مريحة ذقنها فوق قبضة يدها فاقدة السيطرة على عينيها اللتين راحتا تركضان بين أحذية السائرين تتفحصها بحثًا عن ذلك الحذاء الميرى المسمى بالبيادة، تتسلقان الأكتاف، تصافحان الوجوه تتذوقان نكهة الملامح والتقاطيع .

قالت فايقة، ربما لمجرد استدراجى للخروج من هذا الصمت الذى حبست نفسى فيه منذ عودتى من البلد :

- «غدًا الجمعة!» .

خيل إلى أن بوابة الحبس قد انزاحت فغمرنى الضوء والهواء واقتحمتنى الأصوات المتداخلة . . .

زحفت أناملها فوق يدى المنطرحة على مسند الكنبة الأسيوطى، كررت :

- «أقول غدًا الجمعة!».

انتبهت، ضحكت :

- «حتى هذه كدت أنساها!».

- «فاتت كم جمعة لم نذهب لخيرات؟ وكل جمعة تقول : الجمعة القادمة إن شاء الله! . . . لقد طوّلنا يا مروان!».

- «ليت هذا الحيوان يعرف قيمة هذه المرأة الجوهرة!».

- «آخر جمعة شفناه فيها كان العلاج الطبيعى يبشر بخير!».

- «تصورى يا فايقة! أحيانًا أظن أن هذا البنى آدم ربنا بيحبه والدليل على ذلك أنه أعطاه خيرات الشامى زوجه له!».

- «على فكرة يا مروان! . . . ربما ينفض الاشتباك بين القوات ولا ينفض الاشتباك بينك وبين فهمى القزاز!».

قالتها بلطف وهى تهم بأن تخرج لسانها على سبيل السخرية من إلحاحى الدائم على رغبتى فى قطع دابر العلاقة بينى وبينه، بينما الواقع يؤكد صعوبة ذلك بذريعة التعاطف مع خيرات وولديها التعيسين . . .

ثم إننا ذهبنا بالفعل لزيارته صبيحة يوم الجمعة رغم أننى كنت مرهقًا

من تأثير مشوار البلد ذهاب فى الفجر وعودة فى المساء من نفس اليوم، ناهيك عن عبء نفسى ثقيل ومحتم، حملنا معنا بعض حلوى للعيال اشتريتها من الطريق الزراعى المتاخم له مدخل مدينة طنطا. استقبلونا بحفاوة بلغت حد الصياح وصراخ ترحيب العيال والبكاء من فرط الشوق كأننا غبنا عنهم سنين عددا؛ فرحتهم بمجيئنا لحظة صدق من صفاء إنسانى لا تشوبها أية شائبة من افتعال؛ فإذا هى تنعكس علىّ أنا وعيالى فرحة على نفس الصفاء مضافًا إليها قدر كبير من السعادة لأننا تسببنا فى الترويح عن أسرة مأزومة تعيسة. . . .

أشد ما أبهجنا لأول وهلة منظر فهمى القزاز إذ هو يفلح فى النهوض عن كرسى الصالون ليقف نصف وقفة كى يصافحنا بيده. . . يا لها من مفاجأة سارة؛ سرعان ما انتبهنا إلى ما طرأ عليه من إضافة آلية، حيث ركبت فى ساقه اليسرى ما يشبه ساقًا صناعية عبارة عن قدم متصلة بأعلى الفخد بأربطة قابلة للفك والربط وتضييق أو توسيع دائرة بالرباط، لكى تشد الساق الطبيعية وتخضعها لحركة الساق الصناعية؛ كما أضيف إلى يده اليمنى عكاز معدنى ذو قبضة دائرية تحيط بزند اليد؛ لكى تساند قبضة يده القابضة على العكاز. . . بذلك صار بإمكانه أن يمد ساقه اليمنى فتخطو، فيرتكز على العكاز إلى أن يجر ساقه اليسرى الصناعية؛ وهكذا يستطيع أن يتنقل فى البيت فى أى مساحة محدودة فى أى مكان، هذا فى حد ذاته تقدم كبير جداً، لكن التقدم الأكبر كان فى وجهه؛ لقد استرد سمت الأصحاء، عادت الدماء الطازجة تجرى تحت بشرته القمحية اللون، صار قادراً على التحكم فى المنديل وفى تجفيف حنكه من الريالة التى أقلعت عن سيولتها، فأبت

إلى إفراط فى اللعاب يفقد هو السيطرة عليه عندما يتكلم؛ بل أنه صار من الممكن التحاور معه بشكل ما وبخاصة إن كنت تعرفه من قبل معرفة جيدة؛ إنه على الأقل يستطيع أن يصدر صوتًا نفهم منه أنه يقصد: لأ، وآخر يعنى: نعم، وأن يهز رأسه بمعنى الموافقة أو بمعنى الرفض بشكل واضح؛ بل ويمكنه تضعيف الرفض أو تعظيم الموافقة بحركة الرأس مضافًا إليها بسطة فى الملامح أو جهامة وتكشيرة بين الحاجبين؛ فإن كان بالك طويلاً وصبرت عليه تستطيع أن تفهم منه عبارات كاملة لكنها ربما تأخذ وقتًا طويلاً؛ إذ إن مفردات كثيرة سوف تلتبس عليك إيقاعاتها الصوتية وحينئذ لا سبيل إلى استيضاحها، إلا بأن تعيد المفردة عليه بحركة استفهامية؛ فيرد عليك بما تفهم أنه نعم أو لأ، فتعيد عليه مفردات مرادفات أو متشابهات حسبما يمكن أن يتماشى فى ذهنك مع سياق العبارة؛ عندئذ قد تسعفك خبراتك بالتقاط المفردة الصحيحة التى قصدها؛ فما إن يسمعها حتى يبتسم ويميل برأسه فى هزات لتأكيد الموافقة . . .

الجميل حقًا أنه كان يستطيع الاعتماد على نفسه فى تناول الطعام بشرط أن يكون مجزءًا سهل التناول بحيث تقوم يده اليمنى بالمهمة ببطء وعلى أقل من مهلها؛ فإن كان فى المائدة سوائل وحساء ساعدته خيرات بالملعقة من الطبق إلى فمه . . . .

بعد أن تناولنا الغداء معًا على ترابيزة السفرة انتقلنا لنشرب الشاى فى الأنتريه المفتوح على باب الشرفة؛ بضع خطوات أصر على أن يمشيها وحده بدون مساعدة من أحد؛ إلا أنه اضطر لقبول المساعدة عند الجلوس . . . .

بعد أن اعتدل فى جلسته جعل يصدر أصواتًا مجوفة وأحيانًا ملتوية متداخلة من المفترض أنها كلام موجه لى؛ كان يصدرها بغير عناء؛ إنما الطريف أننى الذى كنت أشعر بالإعياء من نطقها؛ ولعله قد وقر فى وهمه أنه صار يتكلم بطلاقة ولباقة وتدفق مفترضًا أننى قد فهمت عنه بكل دقة . . . فلما خُيِّل إلى أن البلاهة قد تجسدت لا شك على وجهى وبدوت عاجزاً عن فهم أى شىء مما سمعت ضحكت خيرات فاتسعت رقعة الشامة، ثم انضغطت تحت خديها كأنها ملاءة تكرمشت؛ ظهرت أسنان ناصعة البياض دقيقة كصفين من حبات اللولى؛ قالت وهى تقلب الشاى بالملعقة: إن فهمى يدعوننى للمجىء هنا للسهر معه كلما وجدت عندى وقتًا يسمح بذلك، ولسوف يستمتعون بوجودى معهم، وأنهم من جانبهم -يعنى هو وأصدقاؤه- سوف يجلبون السرور إلى نفسى بقدر ما يستطيعون.

يخرب بيتك يا مدام خيرات! هكذا قلتها فى نفسى بقصد المبالغة فى الإعجاب والتقدير فيما رحت أنظر إليها فى ذهول ولسان حالى يقول : أفتستطيعين فهم كل هذه العبارة الطويلة المتسقة المتكاملة المعنى والبناء، من هذه الكركبة الصوتية المبهمة؟! أتراه قال ذلك حقًا أو حتى أوحى به؟ أم أن خيرات هى التى اقترحت هذا الكلام من عندها على لسانه لكى تغرينى بالمجىء؟!

لما طالت نظرتى المتسائلة وأمعنت التحديق فيها، شعرت خيرات بأننى غير مصدق، ابتسامتها سحبت أطراف الشامة فوق ثغرها، قالت فى جدية لا يملك القلب إلا أن يتخطف لإيقاعها الخالى من الهنك والرنك واللوع:

- «أستاذ مروان! هذا كلامه صدقنى! لم أقل كلمة واحدة من عندى! أنت طبعًا كلك مفهومية وتعرف أن كلامى غير كلامه من جوه ومن بره! . . . فهمى بالفعل نفسه ومنى عينه أن تشرفهم بالسهر معهم ولو مرة فى الأسبوع! شلته ما شاء الله عليها من عينة صاحبك اللى ما يتسمى!».

- «أنت على هذا تفهمين كل صوت يصدر عنه؟! والله إنها لعبقرية!».

- «ولماذا لا تقول الصبر؟ إن كان فى الأمر عبقرية تكون عبقرية الصبر المصرى الموروث! . . . صبر الممرضة الحكيمة أيضًا! . . . آه يا أستاذ مروان لو ربنا ينولنى اللى فى بالى : أفيق يومًا فأجدنى غير مطلوب منى أى شىء! فأجلس فى منتجع بعيد وأؤلف كتابًا عن معنى ملائكة الرحمة كما أتمثله فى خيالى! . . . بالمناسبة لم تقل لى رأيك فى الخرابيش التى أعطيتها لك! هى طبعًا لعب عيال! أنا عارفة! لكن ما رأيك فى الأسلوب؟ آه لو عندى وقت للقراءة لطورت أسلوبى وتجرأت على الكتابة! . . ، . . . من يدرى؟ . . .».

- «هل تصدقيننى لو قلت لك إن خرابيشك هذه ليست لعب عيال؟ و . . . .».

- «هى إذًا لعب كبار؟».

وزقزق العصفور فى حلقها؛ خيِّل إلى أن عصفورًا يقف على خدها مستكنًا فى ظل الشامة؛ صهلل بنصف ضحكة عبرت عن مدى خجلها

مما قد يكون لى من رأى سلبى ساخر فيما قرأته من خرابيشها تلك. قلت لها فى جدية :

- «والله عندك الاستعداد فعلاً! وما المانع فى أن تصيرى كاتبة؟ ثم إن فكرة كتاب عن ملائكة الرحمة فكرة طيبة جداً فليتك تأخذينها بجدية وتبدأين فى تنفيذها من الآن!».

الحُلم يتلألأ فى عينيها الجميلتين المقموعتين بظل من الحزن الأسيف :

- «إن شاء الله يا أستاذ مروان بتشجيعك!»

تدخلت فايقة على غير توقع؛ لكزت خيرات فى جنبها :

- «والنبى دا أنتى زى البرميند! أسلوبك يا محلاه! طب تصدقى إنى قعدت على دفترك هذا وفليته بالكلمة؟».

- «بجد يا فايقة؟ قرأته؟»

- «قلت لك فليته بالكلمة!»

أحاطت بها تحت إبطها وقد أشرق وجهها بضوء نيونى فسدقى، فيما اصطبغ وجه فايقة من تحت إبط خيرات بلون قرمزى؛ ولكن فايقة عدلت وضعها على الكنبة الخيرزان :

- «والله يا مروان أنا أتكلم الجد! خيرات كاتبة فى دفترها حاجات قشعرت جسمى، وأنا أقرأها! . . . لوكنت لا أزال تلميذة فى المدرسة لاقتبست منها عبارات كثيرة لمواضيع الإنشاء تشبه الحكم والأمثال!».

سألتُ خيرات قبل أن أنسى :

- «الأخ نبيل يسهر مع فهمى كل ليلة؟» .

بنبرة أسيفة!

- «مع الأسف!» .

تدافعت الأصوات من حنك فهمى : آاه . . . . . آاهْ، فى إيقاع متصاعد يشبه إيقاع النفىُ أو لعله الفزع ؛ سألتها :

- «هل يقول لأ لأ لأ؟ يعنى لا يسهر معه؟» .

ضحكت :

- «لأ! هو يقول شيئًا آخر . . . حتى شُف . . . ؟» .

وتوجهت بالسؤال إلى فهمى :

- «نبيل يسهر معك كل ليلة؟» .

أصدر الصوت المفهوم بأنه : نعم، وأيَّده بهزة من رأسه تعنى الموافقة . قلت :

- «وإذًا فما معنى ما قاله منذ برهة؟!»

ضحكت مرة أخرى أعمق فانحسرت الشامة بأكملها تحت الخدين المتكورين كخوختين، ثم هزت رأسها فى استعبار، ثم مالت نحوى باعثة إلى شرفة نبيل نظرة ذات معنى تحذرنى به من احتمال ظهوره فيها ؛ قالت بصوت خفيض :

- «هو يريد أن يعبر لك عن غيظه وضيقه من سيرة هذا الشخص!

تصور! اتضح لى هذه الأيام يا أستاذ مروان أن فهمى بدأ يفيق إلى أن هذا الشخص خسيس! إنه كثيراً ما يبكى حينما يسمع سيرته أو يراه! هناك شيء أتمنى أن أفهمه فى علاقة فهمى بهذا الشخص البذيء! ما أنا متأكدة منه حسب فهمى لمشاعره وأحواله أن فهمى يندم الآن على أنه أعطى هذا الشخص فرصة ليدخل بيتنا ويكشف مستورنا!».

- «والله إنى لفى حيرة يا مدام خيرات! إذا كان فهمى يقرف منه بهذا لحد الكابوس فلماذا يسمح له بدخول بيته والسهر معه؟!».

- «وهذا بالضبط ما سيجعلنى أفرقع!».

- «اطرديه أنت من بيتك!».

- «حصل! عشرات المرات! ولا فائدة! جبلة جليدية! فى موعده الليلى يدق على الشراعة أو ينادى بصوته القبيح إن لم نفتح له بسرعة!».

- «يدق ينادى لا أحد يسأل فيه!».

- «فهمى يفضحنا إذا لم نفتح! سوف يعطى الإذن لواحد من الجالسين بأن يفتح له! المشكلة كلها فى فهمى! إنه مصاب بنقطة ضعف أمام هذا البنى آدم الكريه!!».

ثم وجهت لى نظرة تدعونى بها لأن أنتبه إلى ما ستفعل، ومالت على فهمى :

- «هل تحب نبيل يا فهمى؟».

أصدر الصوت الحاسم المفهوم بأنه : لأ؛ أضاف إليه نفس الكركبة الصوتية التى تقول: آآآآءّ! آآآآءّ؛ مع تكشيرة تعنى الاشتمئزاز والقرف، بل إنه حوّل وجهه بعيداً عنا وبصق على شخص غير مرئى فى اتجاه شرفة نبيل . سألته أنا :

- «لماذا لا تطرده؟!» .

يا لهول ما رأيت على وجهه من تعبير، تعبير يقطع بأن ذهنه يعمل بكفاءة وأنه يملك القدرة على تشكيل ملامح وجهه تبعًا لنوعية انفعالاته؛ قرأت فى وجهه شعوراً يمكننى ترجمته إلى كلمات مؤداها : إنها علاقة صداقة قديمة ربطت بينهما؛ ولتوضيح وتعميق هذا المعنى جعل يحرك يده حركات تمثيلية إيضاحية تمثل اقتطاع لقيمات من أرغفة ثم تغميسها فى طبق وهمى ثم الدفع بها إلى الفم، يعنى بوضوح شديد إنهما أكلا معًا عيشًا وملحًا؛ ثم نظر إلى خيرات ولفت نظرها إلى حركته، ثم نظر لى ملوحًا بيده نحو فمه ونحو رأسه ونحو خيرات التى سرعان ما تبسمت قائلة :

- «يقول باختصار إن العيش والملح هو نقطة الضعف التى تكلمت عنها ويجب أن أعرفها!» .

دهشتى عظمت؛ ليس لأنه استطاع أن يعبر بملامح وجهه عن مثل هذه المشاعر أو المعانى التى وصلت إلينا، بل لاكتشافى بأنه يملك شعوراً من الأساس .

٢
مفاوضات فك اشتباك عائلى

برغم إرادتنا أصبحنا نتكاسل عن زيارة خيرات؛ ثم اتسعت مساحات الأزمنة بين الزيارة والأخرى؛ إلى أن انقطعت تمامًا طوال ما يقرب من عام أو لعله يزيد بعدة أشهر، خلال تلك الفترة لم نكن نتذكر عائلة فهمى إلا حينما يجيء عبود الشامى ليستعير شيئًا من صهرى سمير الشيخ، أو تهاتفنى خيرات من المستشفى على مكتبى فى المجلة: كيف الحال وازى الصحة والحمد لله، وخلينا نشوفك وإن شاء الله. مشاغلنا الشخصية ضوعفت فتفرغنا لها؛ لا يمر يوم إلا ويأتينا خبر عن وعكة ألمت بأبى أو أمى، أو تطرأ علينا واسطة ذات رأس كبير يمكن أن يساعدنا فى احتساب أخى شهيدًا عند الحكومة مثلما احتسبناه عند الله، فتشغلنا هذه الواسطة أيامًا طويلة فى التنقل بين إدارة السجلات وعديد من الإدارات نستوفى أوراق وتواريخ وشهادات، وفى النهاية لا شىء يفيد، موال مرض أبى وحده لم يكن فحسب حاضرًا فى كل برهة فى حياتى فى القاهرة، بل يشحططنى فى السفر ثلاث وأربع مرات أحيانًا فى الأسبوع. ذات سفرية عدت من البلدة مساء الجمعة، وفى مساء السبت تلقيت برقية من البلدة تقول: احضر حالاً فأبوك

يحتضر . . . فى فجر الأحد سافرنا؛ كان أبى قد يئس من شروق صبح يطلع فيه وجه ابنه آخر العنقود ذى المعزَّة الخاصة؛ ولعله استشعر حقيقة المصير المؤلم الذى آل إليه ولده؛ لعل روح ولده الشهيد ـ كما قيل لى إنه كان يهذى به فى لحظاته الأخيرة ـ قد نادته من أفق الغيب؛ فتعين عليه أن يشدَّ الرحال إليها من فوره . . . . هكذا قالت أمى وهى تنفرد بى آخر الليل بعد انفضاض سرادق العزاء:

- «كان نائمًا على جنبه الأيمن فى فرشته! وكنت متربعة لصقه على حافة السرير! ساعات طويلة وهو يهلوس بكلام شاب منه ما تبقى من شعرى! يقول : أيوه أنا عارف أنت فين بالضبط فى الكيلو ميّه وتسعة وحاجيلك حالاً! أنا فى السكة آهه ما تخافش علىّ! . . . فين وفين على ما سكت! بربش بعينه! شفت منجل عزرائيل فى بياض عينيه! وهياها السكتة!».

بعد رحيله بأشهر قليلة رحلت أمى بنفس الطريقة، هى الأخرى - كما قالت أختى الكبيرة المتزوجة من ابن عمى فى الدار الملاصقة لدارنا - كانت تهلوس وتنادى على ابنها وزوجها لكى يدلاها على السكة إليهما. وإنه لما يبعث على التأمل والاتعاظ أن يجىء اعتراف الحكومة باستشهاد أخى عقب رحيل أبويه مباشرة كأن ثلاثتهم كانوا بالفعل على موعد يلتقون فيه وراء الغيب؛ لقد خَيَّل إلينا -إخوتى وأنا - أن الإشارة الواردة من الحكومة تعلننا باستشهاد أخى ما هى إلا برقية أرسلتها أمنا من العالم الآخر تعلننا بسلامة الوصول إلى كنف ابنها وزوجها . . . .

على أن الحياة أخذت تزداد سوءًا يومًا بعد يوم؛ كأنه مكتوب على

المصريين جميعًا -ما عدا الطبقة الحاكمة- أن يدفعوا ثمن الهزيمة والنصر معًا؛ ليعيشوا هم ومشايخ النفط فى رغد وبلهنية؛ المستفيد الوحيد من حرب أكتوبر التى أهرق فيها دم المصريين هم مشايخ النفط الذين رفعوا أسعار نفطهم فاندلع لهيب الأسعار فى مصر حتى باتت الحياة شبه مستحيلة، جميع فئات الشعب أضربوا عن العمل الوطنى طالما أن مرتباتهم لم تعد تكفى نفقات المواصلات وحدها، كل واحد صار يبيع ما يقدر عليه من حدود مسئوليته، لا يعطيك أى موظف أى خدمة إلا إن دفعت ثمنها مضاعفًا؛ انقلبت الموازين تمامًا. . . رياح السموم عبرت الصحراء، واحتلت أجواء مصر، أوحت إلى أنور السادات بأفكار مسمومة تطق فى دماغه فجأة فما يلبث حتى يطرحها فى خطاب رسمى يطلب الاستفتاء العلنى عليها؛ ها هو ذا يصرح على الملأ باستعداده للسفر إلى إسرائيل نفسها وإلى أى مكان من أجل عيون سلام شامل يعم البلاد العربية، وتكون حرب أكتوبر المجيدة هى آخر الحروب بين العرب وإسرائيل. . . ثم إذا بالمسألة تتجاوز كونها مزحة أضحكت حتى الإسرائيليين أنفسهم؛ إلى عتبات الجدية؛ إذا بها تتحول بالفعل إلى اتفاقية للسلام تحت إشراف وضمان العراب الأمريكى. . . زيارة أنور السادات لإسرائيل كانت فضيحة تاريخية شاهدها العالم أجمع، لم نكسب من ورائها سوى العار والمذلة! وإسرائيل التى كانت تقيم لنا ألف حساب وتخشى بأس المصريين لم تقدم شيئًا لقاء هذا التنازل، ردت إلينا أرضنا المحتلة التى صرنا قاب قوسين أو أدنى من تحريرها بالكامل، لولا أن شاءت القوى المهيمنة على أقدارنا أن تَرد إلينا أرضنا فى صيغة منحة وتنازل يعنى: خذها وأرنى عرض أكتافك ولا شأن لك بما يدور حواليك فى المنطقة على

رأى صديقى القهوجى . . . وقعت مصر فى عزلة عربية طاحنة، أغلقت فى وجوهنا أبواب الرزق فى صحف ومجلات الخليج التى كان من الممكن لمقال أو قصة على صفحات واحدة منها أن يعدل ميزان المصروفات فى البيت، خاصة أن فايقة تشملت وأدخلت حسين ورشا مدرسة قومية خاصة بمصروفات، هى نفس المدرسة التى التحق بها إيمان وزياد ابنا فهمى القزاز، وبالمرة اشتركت لهما فى السيارة الأتوبيس النظيفة التى تنقلهما إلى المدرسة وتعيدهما إلى البيت مع زميليهما ابنى فهمى، وميزة هذه المدرسة أنها تحتفظ للتلميذ بمقعده من الحضانة إلى الثانوية العامة ملتزمة بتعليمه فى جميع هذه المراحل . . . .

ذات ليلة فوجئنا بباب السور يرتج، وثمة من ينادى اسم ولدى حسين؛ تعرفت فى الصوت شخصية خيرات؛ خطوت إلى الشرفة ونظرت فصدق حدسى؛ إنها بالفعل خيرات، ولكن من هذا الذى يرافقها؟ استدرت مهرولاً، فتحت باب الشقة، قفزت السلم، حودت إلى ممر الحصباء، فتحت باب السور يا مرحب! خيرات؟ أوُوه وفهمى بك أيضًا؟ وعبود؟ و . . . أهلاً عم الحاج . . .

قدمته لى خيرات:

- «بابا! الحاج عبد الفتاح الشامى! تاجر مانيفاتورة فى المنصورة وكفر الزيات وطنطا وبلاد تركب الأفيال! . . . .».

وضحكت فى تحفظ

- «أهلاً أهلاً! فرصة طيبة جدًا يا حاج عبد الفتاح! . . . ! ما هذه المفاجأة السارة يا مدام خيرات؟».

عانقته بحرارة. كانوا قد ركنوا بحذاء الرصيف سيارة ملاكى ماركة بيجو صالون سبعة راكب بنمر من محافظة الدقهلية. قلت لعبود أن يدخل بها ليركنها داخل حوش البيت، وتقدمتهم إلى الداخل. . . .

الحاج عبد الفتاح الشامى رجل مهيب حقًا، على مشارف الخامسة والسبعين من العمر، لكنه باسم الله ما شاء الله متين البنيان قوى البدن، ملامح وجهه تفيض بالحيوية، كأنها مياه صافية تجرى بين الأخاديد ترويها برحيق الصبا؛ يرتدى بدلة فاخرة من تلك الماركات العالمية الشهيرة مع رباط عنق يشهد بأنه عريق الذوق فى التعامل مع أربطة العنق، وكذلك مع الأحذية الثمينة؛ مع ذلك فإن عطر شخصية ابن البلد يفوح من أعطافه فيخيل إليك أنه يرتدى تحت البدلة جلبابًا وعباءة وطاقية؛ وإنه لمتسق فى الإهابين؛ وذلك أن لهجته هى لهجة كبار الطبقة المتوسطة من أهالينا فى القرى، المشبعة بالحكمة والمأثور الشعبى والموروث من العادات والتقاليد والأصول وفنون الكلام؛ فى نفس الآن هو أفندى شديد اللباقة عصرى المفردات والأفكار، مرن، ابن نكتة، يده شديدة وكبيرة معطاءة طيبة فى تلويحها فى مصافحتها . . . . صرت سعيداً بالتعرف عليه حقًا؛ فمن أول وهلة تشعر أنك قد تعرفت على رجل بمعنى الكلمة إن قال فعل، وإن وعد نفذ، فضلاً عن أنه لطيف، إشعاعه جاذب كابنته خيرات بالضبط.

بعد قليل اتضح أنهم جاءوا يلتمسون عندى المشورة فى أمر يشغلهم طوال الأيام الأخيرة، هكذا قال الحاج عبد الفتاح مباشرة وبوضوح. أهلاً وسهلاً أنا فى الخدمة. قال فى لطف ولباقة وهو يلوح بيده الكبيرة ذات الأصابع الطويلة نحو ابنته :

- «خيرات تحكى لك!».

حولت بصرى تجاه خيرات التى التصقت بفايقة على الكنبة كأن كلا منهما تلوذ بالأخرى. اعتدلت خيرات:

- «أستاذ مروان أنت شاهدت كل شىء تم على يدك! رأيت ما فعلته أنا ليشفى فهمى ويقف على حيله وإنى أحمد الله على ذلك!».

- «لا أحد ينكر ذلك مطلقًا ولكن ما المشكلة؟!».

- «هل يعقل يا أستاذ مروان أن معاشه الضئيل ومرتبى التافه يكفيان لنفقات المعيشة والسكن والصرف على العيال فى المدارس مع مصاريف الكسوة والأدوية ووو؟».

- «هذا مستحيل طبعًا!».

- «لا تؤاخذنى! . . . لولا الحاج عبد الفتاح ربنا يخليه لنا لكنا الآن فى ذل! فهل نعيش مدى الحياة على حساب أبى؟ حتى لو كان أبى لا يمانع فهل هذا ينفع يا أستاذ مروان؟».

ردت فايقة نيابة عنى:

- «والله ما ينفع أبدًا!».

بعد قليل من التردد قالت خيرات:

- «جاءتنى فرصة نادرة! إعارة لمستشفى خمس نجوم فى السعودية فى مدينة الرياض العاصمة! بمرتب خيالى! فى الشهر الواحد يساوى مرتبى هنا فى سنتين! . . . أنا لا أريد أن تفلت منى! لا بد أن أفعل شيئًا لعيالى! إذا لم أعمل الآن فمتى يكون ذلك! بعد أن

أكبر ويصيبنى العجز؟ . . . » .

- «وما المشكلة بالضبط؟» .

- «المشكلة الآن يا أستاذ مروان أن فهمى يريد أن يمنعنى من السفر لكى أبقى بجواره أخدمه وأخدم عياله! . . طب ومن أين نأكل يا عم فهمى؟ لا يعرف سوى البكاء! فدبرنا يا أستاذ مروان الله يخليك!» .

وجدتنى فى حيرة بالغة اضطرتنى إلى التفكير بصوت عال :

- «وضع فهمى مؤلم! هل يحمل هم نفسه أم همّ العيال؟ إنه حتى لا يستطيع احتمال أية مسئولية فكيف بحق الله يا مدام خيرات تتركينه فى هذه المحنة وتسافرين؟!» .

الرضا كله ينعكس على وجه فهمى وهو ينظر نحوى فى امتنان، حاول أن يقول جملة مفيدة فنطقها حرفًا حرفًا وهو يلوح بأصابع أربعة :

- «ال . . . ع ق د أ . . ر . . ب . . ع . . . سن . . . ين!» .

وتحدرت الدموع على خديه . بكت فايقة لبكائه ثم لوحت بذراعها فى وجه خيرات :

- «أربع سنين؟ كتير يا خيرات!» .

قال الحاج عبد الفتاح :

- «ستجىء فى زيارات طويلة! لها شهر إجازة كل سنة تقضيه مع العيال!» .

قالت خيرات :

- «العيال يقضون معظم النهار فى المدرسة!» .

قاطعتها فايقة فى حدة :

- «وهذا المسكين من يرعاه يا ربى؟!» .

تبسم الحاج عبد الفتاح؛ سرت عدوى الابتسامة حينما صار فهمى يرمق فايقة بخجل طفولى من فرط فرحته الطاغية بدفاعها عنه . قال الحاج عبد الفتاح :

- «عدم المؤاخذة يا ست فايقة! أعوذ بالله من قولة أنا سأبعث بامرأة كبيرة من أقاربنا تقعد به، وبالعيال! ومن ناحية أخرى فإن عبود ابنى باق معهم إلى أن ينتهى من موال التخرج والتجنيد! يعنى فهمى بك سيبقى فى أعيننا مثلما كان طول عمره!» .

- «عداك العيب يا حاج عبد الفتاح! فعلاً عداك العيب!» .

وتوجهت إلى فهمى :

- «الوضع هكذا لا بأس به يا فهمى بك! أنا معك فى أنك ستلقى الكثير من المشقة ولكن . . . فليكن . . . احتمل . . . لا تنسى أن مدام خيرات هى الأخرى ستتحمل مشقة أصعب! يكفيها ابتعادها عن عيالها لوقت طويل فى بلاد الغربة! . . . الأمر صعب عليكما معًا، ولكن ما باليد حيلة يا فهمى بك! آدى الله وآدى حكمته! . . . بصراحة أنت يجب أن تكون راضيًا وأن تدعو للمدام بالتوفيق فى غربتها من أجل أن توفر لكم حياة تليق

بكم فى هذا الزمن الصعب!» .

شكل بكائه اختلف؛ لم يكن الوجه مكفهرا ولا العينان محتقنتين؛ لم يعد ثمة شعور بالقهر والمذلة، بل إنه بدا منبسط الأسارير؛ فانتقلت إلى جواره؛ ربت على كتفه برفق:

- «اتفقنا يا فهمى بك؟» .

هز رأسه بالموافقة فى صمت. فى الحال نشطت خيرات؛ فتحت حقيبة يدها، سحبت أوراق السفر؛ هى إذًا كانت قد أعدت كل شىء، يعنى كانت شديدة الإصرار على السفر وفى نفس الوقت تريده أن يتم برضاه وبموافقته بدلا من اللجوء إلى طلب الطلاق الذى لا تحتمله. قدمتْ له القلم والورقة التى تتضمن موافقة الزوج على سفر زوجته فى إعارة إلى البلدة الفلانية للعمل فى المستشفى الفلانى لمدة كذا من الزمن... إلخ؛ ثم حملقت فيه بعينيها الجميلتين الحوشيتين اللتين لابد أن يلين الصلب من سخونتهما دون ابتذال؛ مكمن الإثارة فى عينيها أنهما سامقتان لا تعرفان التدنى ولا الابتذال بأى درجة على أى نحو... بكل أريحية أمسك فهمى بالورقة والقلم ثم نظر لى وزام وفعل بيده حركة فهمت منها أنه يطلب شيئًا صلبًا يسند عليه الورقة، ثَبَّتُّ له الورقة فى «البلنشيطة» الخشبية التى أكتب عليها. وقَّع بيد مرتعشة، حاول أن يضفى على حركة التوقيع رشاقة اعتادها عند التوقيع بسحب الزال الأخيرة من اسمه والدوران بها حول الاسم بشكل بيضاوى؛ فكأننا كنا نرقب طفلاً يتعلم الكتابة ونجح فى تقليد حركة كبار المسئولين المهمين عند التوقيع السريع الرشيق المهيب، فضحكنا فى مرح، ضحك هو الآخر ولأول مرة، بصوت عال يقهقه

مثلنا؛ غير أن صوت ضحكه كان ملتبسًا فى آذاننا بصوت البكاء، إن كان ضحكًا فإنه يكون مغرقًا فى الجذل، وإن كان بكاءً فإنه يوجع القلوب حقًا بما فيه من عواء كلبى مهيض؛ لكننا اعتبرناه ضحكًا بناءً على زفرات متلاحقة كتلك التى تعترى كل من أفرط فى الضحك أثناء الضحك فكأن للقهقهة أذيال تجرجر خلفها وهى تنسحب. ثم إنه بعد برهة صاح صيحة تشبه الترجى؛ فانتبهنا نحاول فهم مدلولها، فرفع يده صانعًا بأصابعه شكل الفنجان؛ فسرعان ما هللت فايقة ووقفت تصفق مغتبطة :

- «قهوة . . . فهمى بك طالب قهوة . . . حد له مزاج؟».

وضح أننا جميعًا نريد أن نشرب القهوة. وكان الحاج عبد الفتاح يدخن بشراهة سجائر حامية، ماركة «دنهل»، لا يعطينى فرصة للعزومة عليه بسجائرى السوبر كليوباترا.

الفصل الثامن

الإفلات من مخدع الثعبان

رغم ضيقى بكتابة الخطابات باعتبارها تستهلك وقتًا وجهدًا وتستفرغ طاقة جديرة بأن تنفق فى عمل إبداعى فوجئت بأننى طوال العام الماضى قد دبجت عشرات من الخطابات . تذكرت ذلك اليوم وأنا أقرأ خطابًا وصلنى لتوه من خيرات ؛ أول سطر فيه : كل سنة وأنت طيب ؛ ذلك أن عيد ميلادى ـ الذى لم أحتفل به أبدًا ـ كان قد بقى عليه حوالى ثلاثة أيام : عشرة فبراير الجارى ؛ فتداعت إلى ذاكرتى أطياف بدت جميلة مفعمة بالدفء عن خطاب سابق سجلته لها فى فبراير من العام الماضى ، على وجه التحديد يوم عشرة فبراير حيث حدثتها فيه حديث السخرية ممن يحتفلون بيوم مولدهم ويبالغون فى الكذب على أنفسهم وعلى واقعهم فيعتبرون ذلك اليوم عيدًا ، لا أدرى لماذا طربت عندما تذكرت أننى أحتفظ بمسودات هذه الخطابات مع ما يصلنى من خطابات خيرات ؛ لكننى أدرى أن تبادل الخطابات مع شخص ذى حميمية خاصة ، حبذا لو كان أنثى ، حبذا لو كانت هذه الأنثى خيرات على وجه التحديد ، إنما هى متعة فائقة غابت عنى زمن الصبا والشباب

ولم أكتشف لذة مذاقها إلا الآن . . . لقد اكتشفت مع كل خطاب جديد أنه يكاد يكون إبداعًا حقيقيًا . . . .

فى هذا الخطاب الأخير توصينى -وبإلحاح- بأن أتنازل عن شىء من كبريائى وأعصر على نفسى ليمونة ، وأذهب للسهر مع فهمى ولو لليلة واحدة ؛ لكى أطمئنها على حقيقة أحواله التى باتت قلقة بشأنها نظرًا للشلة التى تسهر معه وتجهده . . . .

ذهبت بالفعل ؛ فاجأتهم فى حوالى العاشرة من مساء اليوم التالى لوصول الخطاب . المفاجأة عقدت ألسنتهم وملامح وجوههم لبرهة وجيزة كانت كافية لأن يستوعبوا حقيقة وقوفى أمامهم فى الأنتريه حيث يجلسون . . . ذلك أن حليمة أم السعد هى التى فتحت لى الباب مرحبة بى فى صوت خفيض خجول ثم تركتنى أدخل إليهم ومرقت هى إلى حجرة النوم . قلت ، للمرة الثانية :

- «السلام عليكم!» .

وصرت أدفع بيدى سحب الدخان الأزرق الرمادى الكثيف ؛ الوجوه والأجساد والكراسى مثل حطام سفن قديمة غارقة ترتج فوقها موجات الدخان فيما هى تكاد تفقد معالمها فى القاع السحيق الذى وجدتنى أخطو على أرضه فى وجل ؛ فما لبثت الحياة حتى دبت فى قطع الحطام فتمطت وانتفضت واقفة فى سمفونية صوتية همجية حيوانية فيها ما يشبه النهيق والنعير والمأمأة والنباح والعواء والثغاء والحمحمة والزمجرة ؛ كان ذلك مقصود به الترحيب والمغالاة فى إظهار الود والائتناس !! . . .

بعد برهة من جلوس بدأت أرى الأشياء على حقيقتها بأحجامها الطبيعية: فهمى غطسان فى مقعد احتواه تمامًا، عجبت كيف لمريض مثله أن يتنفس كل هذا الجحيم المحترق؟! ومع ذلك هو محتقن الوجه ضاحك القسمات؛ على المقعد المجاور جلس زفت الطين نبيل البحطيطى مرتديًا بذلة كاملة بقميص مفتوح لونها كحلى غامق، وكذلك لون القميص لكنه مخطط بخطوط طولية بيضاء؛ يضع ساقًا على ساق؛ فوق ساقه الفوقية ارتصت التعميرات فى صف طويل كمنظومة من الملاليم يفحص فيها ثم يتركها؛ ثمة طقطوقة بجواره فوقها زجاجة ويسكى بلاك آند هوايت وكأس ملآن بمكعبات الثلج يتخلله السائل الكهرمانى اللون؛ فى الوسط طاولة ارتصت فوقها كؤوس وأطباق فيها جبنة وبسطرمة ولانشون وزيتون وشرائح خبز أفرنجى؛ من تحتها على الأرض جردل ملآن بزجاجات البيرة تكسرت فوقها شرائح من الثلج. على الكنبة يجلس الحاج كامل سراج، رجل الأعمال الشهير والرئيس السابق لأحد أكبر الأندية الرياضية والعضو حاليًا بمجلس الشعب عن دائرة بلدته الأصلية: المنزلة؛ بجواره، على نفس الكنبة، صبيه وسائقه وصفيه خربوش أبو أصبع وقد لبس ثوب المعلمنية وانجعص فى قعدته؛ الولد عطعوط الذى سبق أن رأيته عند البواب الذى قادنا إليه فهمى يوم موت الزعيم الخالد؛ هو الذى يتولى أمر الخدمة فيما يختص بالتحشيش من إشعال نار وتجهيزها إلى السقيا بالجوزة رغم وجود شيشة على سبيل الاحتياط أو شرب حجر معسل لزوم تنفيض الصدر من البلغم قبل التحشيش؛ أما خدمة الكئوس فيختص بها خربوش أبو أصبع. من الواضح أن الأجبان وملحقاتها

جىء بها من البقال مع أحد القادمين وقد وضعت فى الأطباق بورق البقال . . .

ما لبثت حتى شعرت بالتقزز من نفسى، لُمْتُها لومًا شديدًا على قبولها المجىء إلى هذه القعدة المقبضة القذرة. اعتذرت ـ وبشكل حاسم وقوى ـ عن المشاركة فى أى شرب، لا كأس لا حجارة حيث أننى ـ فيما زعمت وبإصرار ـ قد استكفيت قبل المجىء، كما أننى لست فى كفاءتهم، ثم إنى لن أمكث معهم أكثر من نصف ساعة نظرًا لانشغالى. كان التوتر يناورنى قادمًا نحوى من الجنب حيث يجلس نبيل البحطيطى؛ صرت أشعر بنظرات سوقية تحدجنى من تحت جفوته مع بسمة أصفراوية؛ ها هو ذا يميل ناحيتى قليلاً؛ فإذا برقبته الطويلة جدًا كرقبة الزرافة قد تجاوزت مسندىْ مقعده ومقعدى والشريحة الضيقة الفاصلة بين مسندى المقعدين ووصلت برأسه قرب رأسى حتى كاد يلامس كتفى، وهبَّات من أنفاسه الكريهة تلفح رقبتى وطرطشات من صوته التآمرى الكريه تصب فى أذنى:

- «من قلبى أدعولك ربنا يهنيك! اللهم لا حسد! . . . إنما هو بمزاجى لعلمك! انبسط كما تشاء! المهم اللى يضحك أخيرًا!».

فار دمّى؛ تراجعت برأسى فى محاولة لكتمان فورانه، وإذ تأهبت للبصق فى وجهه كانت رقبته المطاطة قد سحبت رأسه إلى بعيد وعوجته على الناحية اليمنى هاربًا من نظراتى، وفى نفس الوقت يرمقنى من تحت جبينه بنظرات ثعلبية ماجنة خاطفة كأنه شقى لبد فى حقل الذرة وراح يطخنى بطلقات من رصاص عينيه الفاجرتين. شكله الكاريكاتورى العجيب الواشى بالجنون شغلنى عن الرد السريع؛

لعلنى رأيت أن التأمل فى هذا الكائن أفيد بكثير من استعجال الرد عليه، سيفيدنى على الأقل فى استبيان ما وراء هذه العبارة السخيفة التى هرف بها . . .

فى خفة الذبابة الزرقاء الغليظة حطت رأسه فوق كتفى، لدغتنى فى أذنى بلزوجة هامسة:

- «ما أخبار الحبيب!».

فزعت، تكهربت أعصابى، تيقظت كل قدراتى على المقاومة لإيقاف الصعق وتثبيت جهازى العصبى . . . بقدر ما وسعنى من هدوء سألته:

- «أى حبيب!!».

غريب أمر هذه الرقبة الثعبانية التى، فجأة، تحط على كتفى، وفجأة تنداح مرتدة إلى عرين تندك فيه؛ فى اندياحها حركة ذات معنى يرمينى بالسذاجة، وفى مربط العنق رسمت على الوجه شحوب ورقة الخريف الجافة، سرعان ما يأخذ لون الاخضرار المستعار من مواهب الحرباء، يرسل لى نظرة صفيقة تزمع إيهامى بتعاطفه معى؛ ثم سحبها وسلطها عموديًا على شىء ما فى مواجهته. لأول مرة منذ دخلت أفاجأ بأن فى المكان جهاز تلفاز متربع فى الركن القريب ومفتوح! هل كان مفتوحًا لحظة دخولى؟ أم أنه فتح منذ قليل؟ ومن الذى قام وفتحه؟ الأرجح أنه كان مفتوحًا وأن إشعاعه الخافت كان يضاعف من حجم الضباب فى الردهة المقفلة، ثم إن صخبا ما كان موجوداً فى فضاء الردهة منذ دخلتها؛ مع ذلك يبدو أن هناك من قام بضبطه ورفع صوته فإذا بالفنانة

هند رستم منخرطة فى أجمل وأمتع استعراض رقص شرقى فى فيلمها الرائع «شفيقة القبطية» ؛ وبدا أن الجميع قد حوصروا فى مكان ما تحت قبة هند رستم المتوهجة بالفتُّوة الفنية قبل الجسدية . فى اللحظة التى استسلم فيها دماغى للرقاد على نهدى هند أفزعتنى الرقبة الثعبانية تتسلق كتفى هامسة بفحيح :

- «إنها تراسلنى أنا الآخر! وتحكى لى عن كل كبيرة وصغيرة! . . . الحقيقة أنها فى كل جواب تسلم عليك وتسأل إن كنت شرفتنا هنا أم لا!» .

هززت رأسى فى صمت ، ظل بدنى مقشعرًا ؛ ورغم انصراف رقبته عن كتفى بقى أثرها مطبوعًا عليه كأنها لا تزال باقية ولفح الفحيح صهد يخيم على أذنى . الصهد القادم من هند التى انصهر جسدها العبقرى فى تقاطيع الغواية كانت له قوته الجاذبة لى ؛ أغلب الظن بتواطؤ مع عقلى الباطن هروبًا من لفح الثعبان مؤقتًا لعلى أفكر فى كيفية سحق رأسه تحت قدمى قبل أن يلدغنى على حين غرة ؛ لكن الرقبة الأسرع من ظلها سرعان ما ركبت فوق أذنى وبخَّت فيها :

- «على فكرة يا مروان بك! لا تخطئ فى فهم الذى حدث يوم لقائنا أول مرة! أتذكر؟ يوم انفعلت هى وطردتنى! . . . أونطة! كله فى الهجايص! إنها تعبر عن حبها لى بطريقة معكوسة! ولو لم أكن عارفًا بذلك لأوريتها مركزها أمامك من غير مؤاخذة! . . . مقصودى من الكلام أننى وهى أصدقاء من قديم الأزل ولا أحد منا يقبل على الآخر لمسة الهواء! أحببت أن أقول لك هذا لكى تفهم الأمور على حقيقتها!» .

ثم تجاسر فطبع قبلة على رقبتى على سبيل المراضاة، كأنه بعد إذ طردنى من معيته منحنى حسنة تليق بكرم الناس الطيبين.

وإنى لفى ذلك إذا بى أجدنى قد انفجرت فى ضحك عميق، أخذتنى نوبة من الضحك أوجعت قلبى؛ فنفضت جسدى واقفًا:

- «ليلتكم فل!».

قبل أن يفتحوا أفواههم صرت عند الباب؛ لوحت لهم بيدى من بعيد، ثم ألقيت بنفسى فى فضاء الشارع كأنى قد أُفرج عنى من حكم بالإعدام. كنت أشعر بغضب حاد لم أشعر به فى حياتى من قبل ويداخلنى شىء من اليقين بأن هذه الليلة ستكون آخر صفحة فى كتاب هذه العلاقة الشائكة المحفوفة بمخاطر لا قبل لى بمواجهتها، ولا أنا أرغب فى ذلك، وليس ثمة من فائدة شخصية أو واجب إنسانى يساوى أن أدفع فيه مثل هذا الثمن الباهظ.

الفصل التاسع

١

طرطشة السفالة

أدركتنى حليمة أم السعد لحظة خروجى من باب السور فى حوالى العاشرة صباحًا. هرولت نحوى مرددة: حمدًا لله أنى لحقتك، ثم لفَّت يدها فى طرف الطرحة السوداء وصافحتنى:

- «مستعجل حضرتك؟».

- «خير يا أم السعد؟!».

- «أقعد معاك خمس دقايق بالعدد».

- «يا ستى خليهم عشرة! اتفضلى».

كان أبى يرحمه الله إذا خرج من باب الدار صباحًا قاصدًا الكريم إلى شغله يتشاءم إذا اضطرته أى حاجة إلى الرجوع إلى الدار، فى الحال يداخله اليقين بأن يومه -إن استجاب لهذه الحاجة ورجع- لن يسلم من العكوسات، فإذا هو يواصل طريقه على أى نحو كيفما اتفق. ولقد ورثت عنه هذه الخصلة؛ لهذا ترددت قليلاً، أوشكت أن أعتذر بلباقة طالبًا من حليمة أن تؤجل هذه القعدة لحين عودتى فى المساء، وإنى

لمستعد للمجىء مبكراً من أجلها؛ لكن نظرة الرجاء فى عينى حليمة أجهزت على ترددى، فتقدمتها إلى الداخل . . .

لم تندهش فايقة وهى تفتح لنا باب الشقة من الداخل

بل بدا عليها كما لو كانت على علم بأن حليمة ستجىء لمقابلتى، الدليل أنها ابتسمت فيما تتبادل مع حليمة نظرة تواطؤ فضحتها فايقة بقولها:

- «الحمد لله أن لحقت بك! اقعدى يا حليمة».

جلست حليمة على حرف كرسى السفرة باعتباره أقرب كرسى صادفها. فقلت لفايقة:

- «كنت تعرفين أن حليمة آتية؟».

قالت:

-«بل أتت بالفعل من قبل! حوالى الثالثة مساء البارحة».

-«فلماذا أخفيت عنى الخبر؟!».

وسحبت الكرسى وجلست قبالة حليمة مرتفقا ترابيزة السفرة، أشعلت سيجارة لأشوشر على شعورى بالتشاؤم قبل أن يشوشر هو على أعصابى. قالت فايقة وهى سائرة إلى المطبخ:

- «حليمة هى التى طلبت منى! قالت لا داعى لأن تخبرى سعادة البك حتى لا ينشغل وأنا سأجىء فى الصباح!».

ابتسمت حليمة وصححت:

-«الست فايقة كتر خيرها صلحت كلامى!

أنا تعودت الصراحة! بصراحة قلت لها: لا تخبريه حتى لا يهرب من مقابلتى!».

- «هكذا بالمفتشر يا ست حليمة؟!».

- «هل أغشك؟ هذا ما دار فى نفسى ولكل شىء سبب!».

وكانت فايقة قد توقفت فى منتصف الممر لتسمع، فعلقت:

- «لك نصيب تشرب القهوة».

- «ليتنى سمعت كلامك وانتظرت لشربها!».

تلفتت كالظبى وبعثت لى -عبر كتفيها- بنظرة مصحوبة بحركة من أصابع يمناها المضمومة صاعدة هابطة موحية لى بتهدئة إيقاع الجلسة، فيما وشت نظرتها بأننى سأستمع إلى أخبار مهمة، بل لعلها خطيرة...

جذبت نفسًا من السيجارة فى طلب التركيز هذه المرة؛ صرت مرحبًا فى أريحية بأن تأخذ حليمة أم السعد كامل فرصتها فى الكلام على أقل من مهلها؛ رحت أتجنب ما يمكن أن يشتت ذهنها، تركتها فى صمتها تبحث وحدها عن المدخل المناسب للكلام؛ ثم وجدت أن من الأنسب أن أهيئ لها ذلك جيدًا ولو بالإيحاء؛ وقفت:

- «تعالى يا ست حليمة لنتكلم على راحتنا! أنا لست متعجلاً! اليوم بالذات ليس عندى مواعيد! وبالمرة أثبت لك أننى يستحيل أن أهرب من مقابلتك!».

أجلستها على الكرسى الوثير فى الركن المتاخم لباب الشرفة حيث يطرح السور ظله الكثيف الخضرة عليه فتنعكس خضرته مخففة فى زجاج درفتى الباب فيضفى على الكرسى جواً من التضامن والعزلة. جلست فى مواجهتها، بيدى قدمت لها فنجان القهوة، فبشرتنى بملاك يسقيها لى فى الجنة؛ ثم رمقتنى بنظرة عتاب أمومى، خُيل إلىّ أن طيف أمى قد حل فى حليمة أم السعد إذ هى تأخذ نفس الوضع فى نفس القعدة حينما يروق لها أن تمارس حق التدلل علىّ باعتبارى ابنها الأكبر، بنفس اللهجة قالت حليمة:

- «أنت! . . . قبل كل حاجة قل لى: ماذا يمنعك عن كتابة الجوابات للست خيرات؟! هل هذا يصح!! ما الحكاية قل لى!».

بُهتُّ! لكأننى تلقيت لكمة فى جبهتى دوختنى:

- «أنا! ممتنع! عن الكتابة لمدام خيرات!! كيف يكون هذا؟!»

شوحت فى وجهى بعشم كبير بوجه رءوم ولسان حميم تتشخص فى حميميته روح الود العميق:

- «لك الآن أكثر من حول كامل لم يصلها منك جواب واحد! مع أنها بعثت لك جوابات الدنيا كلها! لكنها يا قلب أمها انكسر خاطرها ورمت بدفتر الجوابات تحت المخدة التى تعودت أن تكتب فوقها!».

- «هى قالت هذا؟!».

- «وهل هى تشبع من القول؟ بعثت لى! وللحاج عبد الفتاح!

ولأخيها عبود! تسألنا كلنا إن كنت غيرت عنوانك أو تكون هى زعلتك فى شىء؟!».

- « بالمناسبة يا ست حليمة! هل هى تبعث بخطابات للأخ نبيل البحطيطى؟!».

- «اتفو! . . . اسم الله على مقامك متأخذنيش طلعت غصبًا عنى! . . . نبيل مين ده اللى هى تعبره وتبعث له جواب؟! أنت فاكرها إيه؟ مجنونة؟ ناقصة تربية؟!».

كثافة ظل السور تكاد تطبق على أنفاسى بشكل مفاجئ وغير متوقع! . . . ثُقب كبير جدًا فى كثافة الزرع الهائش أشبه بفوهة كهف ينسرب منه قضيب من ضوء برتقالى اللون مموه بالغبار والصدأ؛ خُيل إلىّ أنه ممتد بداخلى على نحو أو آخر؛ هاأنذا أكاد أنسلخ عن المقعد أطير محومًا حول فوهة الثقب، هاأنذا قد تحولت إلى حزمة من الغبار المموه بالضوء، ثم أنسرب داخله فأرانى زاحفًا نحو حصائر من الضوء الندى مفروشة على مساحات كبيرة واسعة، وكانت خيرات واقعة على مدد الشوف مرتدية لباس الحكيمة والطاقية البيضاء كدائرة من القشدة فوق حافة سلطانية من المرمر، العجيب أن الشامة على ثغرها كانت واضحة لى برغم البعد الشاسع، سرعان ما فطنت إلى أنها تقترب، سرعان ما تبينت أن حصائر الضوء البرتقالى رمال صفراء مترامية الأطراف تفح صهدًا ملتهبًا يحرق الرؤوس يلسع العقول يشيِّط القلوب يتلف المشاعر، خيرات وحدها، برغم كثبان الرمال من تحتها تمشى بنفس الرشاقة كالغزال مثلما تمشى فى أروقة وردهات مستشفى الشرطة، أكاد أسمع وقع كعبيها المنتظم الجاد الأليف المتسارع كأن كثبان

الرمل من تحتها رخام رنان؛ لكن ياللعجب! فبرغم سرعتها فى الإقبال لا تكاد تقترب، كنت شاعراً بالأسى إلى حد الغيظ من نفسى، فعلاً لقد انقطعت خطاباتى عنها لفترة طويلة، بل طويلة جداً، تقريبًا منذ تلك السهرة المشئومة التى سهرتها مع فهمى وشلته القذرة تنفيذاً لرغبتها . . . الآن لست أدرى بالضبط كيف احتملت القطيعة؟! . . .

- «كُفى عن البكاء الآن يا حليمة!»

صوت فايقة انتشلنى من سرحة فصلتنى تمامًا؛ انتبهت فإذا حليمة أم السعد منخرطة فى البكاء منذ برهة . . .

- «مالك يا أم السعد؟ خير؟».

- «حضرتك تركتنى أهاتى ولم تعبرنى أو ترد على سؤالى!».

- «آسف والله يا ست حليمة أنا فعلاً سرحت فى تأنيب نفسى على عدم الكتابة لمدام خيرات! أنا فعلاً راجعت نفسى فى هذه السرحة وتأكدت أننى غلطان! . . . لكن الذى أحاول أن أحسبه الآن فى دماغى: كم عامًا مضى على سفر مدام خيرات؟».

- «فى الهلال الذى سيهل علينا وعليك خير بعد ثلاثة أيام تكون أكملت أربع سنوات باليوم والساعة!».

عندئذ حان السؤال الذى دهمنى منذ هنيهة بما يشبه الصدمة؛ رحت أردد كالملتاث:

- «معنى ذلك أن مدام خيرات منذ سافرت لم تعد فى أية أجازة! شىء غريب جداً! كيف لم أنتبه أنا إلى هذا وإلى أن من حقها

شهر إجازة سنوية بمرتب تقضيها مع عيالها فى مصر!!».

وقفت فايقة هاتفة بمرح ولكن بلهجة ذات معنى:

- «صلى على النبى واهدأ قليلاً... لا... بل أهدأ كثيراً جدًا!.. روق دمك ورخرخ أعصابك! وجهز نفسك لما ستسمع الآن!!».

يبدو أنها تشفق على أعصابى مقدمًا؛ لفت وراء مقعدى، احتوت صدغى بيديها ودلكتهما برفق ونعومة:

- «ما رأيك فى كوب من الليمون؟».

- «وجب! فعلاً وجب!».

- «أم تحب قهوة ثانية؟».

- «كما ترين!».

- «سأجيء بالاثنين معًا!».

- «ربنا يخليكى يا فايقة!».

تمخطت حليمة فى منديلها؛ كان الدمع قد غسل عينيها الطيبتين الدافئتين بالإنسانية، لكن صفاء العينين جسَّد عكارة الفجيعة التى يلوح ظلها الحزين فى الأمقين، قالت:

- «يا قلب أمها أحبت أن تأخذ العلقة مرة واحدة وتخلص لتفيق للعيال! باسم الله ما شاء الله عملت الخير كله! نغنغت فهمى وعياله فى العز والنعيم وحوَّشت الكثير لهم!».

أشاع عصير الليمون كثيرًا من الإنعاش مسحت حليمة شفتيها، نكست رأسها مصعرة خدها الأيمن فى اتجاه السور -الذى أخذ شكله يربدّ- فى شرود يعكس على وجهها لونًا من الحيرة والخجل والتردد، كمن يهم بعبور ترعة، ثم يستهول اتساعها وعمقها فيرتد جزعًا، واضح أن فايقة كانت تشعر بما يعتمل فى صدرى من قلق وتوجس، كذلك كان واضحًا على محياها أنها على علم، أو على الأقل ملمة بموجز لما جاءت حليمة لمقابلتى من أجله؛ فجعلت ترمق حليمة بنظرة تشجيع مبتسمة:

- «لا داعى للكسوف يا أم السعد! قولى كل ما تشائين لا تخبئى أى شىء! . . . على فكرة من المصلحة أن تقولى ما فى صدرك فالصراحة راحة، وهى الدواء الشافى للعلاقات العائلية وأنت ست العارفين! . . . هيا . . . قولى!».

فكت حليمة طرحتها وأعادت لفها بإحكام حول رأسها ثم اندفعت مرة واحدة:

- «مسخرة وقلة حياء وانعدام تربية! تصور يا أستاذ مروان! الشلة الوسخة التى تقعد فوق فرش خيرات فى بيتها لا كلام لها إلا عن المسكينة التائحة فى بلاد الغربة!! أصبحت هى الموضوع الوحيد للسهرة الصباحى! يحكمون عليها بالطلاق منه فى الليلة الواحدة مائة مرة!! وينشزونها ويسوقونها إلى بيت الطاعة ألف مرة! . . . وهو بسلامته شخشيخة! النذل الخسيس شخشيخة فى أيديهم! يوافق على كل ما يخطرفون به! . . . كله كوم وأن يتهموها فى شرفها كوم وحده! آه يا من يحكمنى على هذا الكلب زوجها إذن لقرمت زمارة رقبته وقطعت

لسانه بأسنانى! القيامة يظهر أنها ستقوم يا أستاذ مروان! فأن يسهر نفر من أصيع الخلق فى بيت رجل من المفترض أنه ممن يسمونهم برجال الأمن! ينهشون لحم زوجته وشرفه كما يحلو لهم، وهو يفشخ ضبَّه ويسمع ويوافق فهذه من علامات الساعة! . . . أنا فلاحة حرة! وخيرات تربية يدى! ووالله! وحق من رزق الدود فى الحجر! وجعل من ابن المتسولة ضابط شرطة! ليس ببعيد أن أدبّ السكين فى قلب أى خلبوص منهم أو أفتح زناد البندقية عليهم جميعًا إذا لم يحترموا أنفسهم ويبتعدوا عن هذا البيت! . . . أول ما رأيت أننى بدأت أدخل المطبخ كثيراً وألامس السكاكين الكبيرة دون مبرر . . . خفت! ليس على نفسى! بل من الفضيحة! ولو أننى أبلغت الحاج عبد الفتاح أو ابنه الكبير أو حتى عبود ستكون مقتلة! مجزرة لا يقوى أحد على منعها من الحدوث، وإن حدثت لا يقوى مخلوق على وقفها! . . . آخر ما زهقت جئت إليك لتنورنى بالمشورة المخلصة! أشر علىَّ بما يجب أن أفعل! . . حضرتك صحافى ومُكاتب فاعتبرنى واحدة أرسلت لك هذه الشكوى، وأنت ملزم بالرد عليها على الملأ دون خوف إلا من الله وضميرك!»

وسكتت، جعلت تشرب بقية عصير الليمون الذى صاط وصار ماءاً عكراً؛ طالت برهة الصمت فأوحت لنا بأنها لخصت كل الموضوع وأنهته كما وضح من ختام الكلام . . . إلا أن فايقة رشقتها بنظرة ذات معنى، ثم استدركت فى احتجاج متوعد:

- «وبعدها لك بقى يا أم السعد؟! قلت لك لا تخبئى شيئًا . . . أنت

لم تقولى أهم ما فى الموضوع كله!!».

قاطعتها حليمة فى حياء مقصود لذاته :

ـ «وهل هذا قليل يا ست فايقة؟ كفاية!».

انفعلت فايقة :

ـ «لا . . . قولى بقية الحقيقة وإلا يكون الكلام مثل قلته!».

بقليل من التردد قالت :

ـ «إنه كلام ناقص!».

ـ «لكنه خطير يا أم السعد!».

لم أعد أحتمل، صرخت فيهما بقدر ما احتملت من ضبط الأعصاب :

ـ «قولى يا أم السعد أو قولى يا فايقة! أهو لغز؟! إلا إذا كنتما تريدان تعذيبى!».

قالت حليمة :

ـ «إنهم عدم المؤاخذة . . . . اسم الله على مقامك . . . يتهمونها بأنها . . . . عشيقتك! أرأيت ما يحيق بنا من مصائب؟!».

قالت فايقة :

ـ «وفهمى بك يسمع هذا الكلام؟!».

شوحت حليمة فى ولولة :

ـ «ويقول إنه سيدبر لضبط العشيقين متلبسين ليشنقهما معًا!».

غلبنى الضحك، كان الأمر فى نظرى يدعو للسخرية ولهذا لم أجد ما أعلق به سوى:

ـ «إنه فى منتهى الغلب! يجب أن أرفع عنه الحرج! هو أصلاً غير موجود وإن كان على قيد الحياة، وليس يعنى، وربما ليس يعى ما يقول! . . . لكننىْ أعرف من هو أصل الشر كله!».

قاطعتنى بحماسة:

«اسم الله عليك! إنه عود الشوك المدعو بنبيل البحطيطى! إبليس! طول الليل بيبخ في القعدة سمومًا! يؤلف أخباراً عن حبيبة قلبى ويحكيها بعين قوية حتى يصدقها هو ويصدقوها!».

حاولت التهوين من شأن ما سمعت، ولكن دقات قلبى كانت تعلو وتتسارع، صرت أشعر بقلبى كأنه مطارد يبحث لاهثًا عن مخبأ آمن. رفعت رأسى بعد تنكيس شارد، اصطدمت نظرتى بوجه فايقة، شعور بخطورة الأمر جعل الدماء تخفق تحت بشرتها، زفرت من أعماق صدرها:

ـ «نظرك بعيد يا مروان! ما تنبأت به وخفت منه يحدث الآن!».

بشىء من نفاد الصبر قالت حليمة:

ـ «دبرنى يا أستاذ مروان ربنا يخليك! أشر علىّ بما أفعل حتى لا تحدث مصيبة يضيع فيها رجال يستحقون الحياة فى أوساخ يستحقون البتر من الحياة!».

بنفاد من الصبر كامل قالت فايقة :

ـ «لابد من وقف هذه المسخرة وفوراً يا مروان! أنت مدرك لخطورة الحدوتة كلها طبعًا! ومن أساسها!».

عمرها ما كلمتنى بمثل هذه الحدة والجدية الآمرة؛ لكنها ما لبثت حتى استدركت :

ـ «الشرف متى دخل فى قعدات السكر والتحشيش عليه العوض فى الكرامة! . . . على فكرة يا مروان ؟إن جئت للصراحة نحن يجب أن نعزل من هنا فوراً! . . . نبحث عن شقة فى أى مكان بعيد عن صحراء المماليك حتى لو كانت عشة! . . . صدقنى يا مروان أنا الآن تشاءمت وفقدت الشعور بالأمان ولن أهنأ به لحظة واحدة هنا طالما أنت فى خارج البيت والعيال فى المدرسة! حتى وأنت موجود فى البيت لن أشعر بالاطمئنان على عيالى لأى سبب من الأسباب! . . . أنت سبق أن قلت بعضمة لسانك عن هذا الشخص السافل إنك لا تخاف من شىء فى الحياة مثل خوفك من عداوة الخسيس! وقلت إن الواحد على الأقل لن يسلم من طرطشة سفالته! . . . قلت هذا أم لا؟!».

ـ «قلت يا فايقة ولا أزال أقوله!».

ـ «شوف لك حل! . . . طرطشة السفالة طالتنا فى ملابسنا الداخلية! إلحق بسرعة ونجنا قبل أن تظهر النجاسة والعياذ بالله على وجوهنا! . . . أنا مثل حليمة أم السعد حرة، وأرتعب من جميع أنواع الفضايح! اعمل معروف يا مروان اغسل هذه

الطرطشة بأى شكل من الأشكال! اخترع لنا حلاً ينجينا من التهور والفضايح!».

- «لا تقلقى يا فايقة! عشمى كبير فى ربنا! سوف يلهمنى طريق الصواب!».

تأبطت حافظة أوراقى؛ غادرت البيت طائر اللب مضطرب الخطوات لا أدرى من أى منفذ أدخل إلى علاج هادئ، لهذه الململمة قبل أن تؤوب إلى كارثة.

٢
نصيحة واحد مخربش

كان الحاج كامل سراج رجل الأعمال فى انتظارى فى مكتبه فى الطابق الثانى من معرض السيارات ـ أو المركز الرئيسى لتوكيلاته المتعددة ـ الذى يحتل الطابق الأرضى كله من عمارة عتيقة فى شارع رمسيس حيث الحجرة الواحدة من حجراتها أوسع من شقة كاملة من شقق أيامنا هذه. ولما كانت جدران المبنى عالية مهيبة فقد أقام سندرة علوية بسلم جميل الشكل جعل منها بهو استقبال يضم مكتبًا له فى حجرة مستقلة، وحجرات أخرى للإدارة والشئون القانونية والسكرتارية. كان لطيفًا، ما أن هاتفته طالبًا منه موعدًا أنفرد به فيه لمدة نصف ساعة على الأكثر حتى لبى طلبى فى الحال، بل شاء أن يكون اللقاء اليوم فى تمام الخامسة، بل كان أكثر أريحية إذ وعدنى بأن توصلنى سيارته إلى مكتبه، ثم توصلنى بعد المقابلة إلى بيتى أو إلى أى مكان أشاء.

طلب لنا القهوة، أمر بإغلاق باب المكتب وإنكار وجوده إلا لمن يعرفون أنه على شىء من الأهمية فى شغلهم.

لاحظت أنه يتحرق شوقًا للاستماع إلى ما سوف أقول، تلمع فى عينيه شقاوة المغامرين المخربشين من كبار الصياع سابقًا وكبار رجال الأعمال حاليًا. يبدو أنه موهوب فى شكله الذى يجذبك إلى حبه بصرف النظر عن محتواه؛ أرأيت إلى ذلك الوجه الهلالى الجبهة البارزة، المفلوج السن فى الفكين، وطابع الحسن فى منتصف ذقنه، وتقاطيع وجهه لم تغادر عالم الطفولة بعد، وإن امتلأت بعصير التجربة العميقة إلى حد الجدارة بسمت الحكومة؛ نعم إن الحكمة ليست محض قول مأثور يتناقله الناس على طول الزمان، إنما هى رُسوٌّ فى الطبع وميل إلى التمعن فى الأمور والتحوط والتدقيق فى الحسابات، لا فى الماديات المالية فحسب، بل فى موازين العلاقات، ومعرفة أقدار الناس ـأو أثمانهم من وجهة نظره كواحد من رجال المالـ ومدى أهميتهم فى الهيئة الاجتماعية . . . كل ذلك إن شفت عنه سمات المعلم الحاج كامل سراج الدين فإن قعدته تشخصه وتؤكده؛ ثم إنه إلى ذلك يمكن إدراجه من أول وهلة فى قائمة أُنقاء العالم، كأن هناك خبيرًا متخصصًا فى اختيار الأطقم وهارمونية الألوان من رباط العنق ومنديل جيب الصدر إلى الجورب والحذاء، إنه «أشيك» من أنور السادات كثيرًا، ويقال إنه يرشد أصدقاءه من رجال المال المسيطرين على مجلس الشعب إلى بيوت الأزياء العالمية التى اشترى منها هذه البدلة أو تلك . . .

جلست على الكنبة الجلدية السوداء؛ وحيث إنه ابن بلد مفتح وداير ولَمَّاح فقد حدس بالفطرة أننى سأقول كلامًا شديد الخصوصية، وأنه من ثمة يجب أن ينصت إليه جيدًا؛ أو هكذا أوحى إلىّ حينما استدرك فحمل فنجانه، وغادر كرسى المكتب، وجاء ليجلس لصقى على نفس

الكنبة؛ وضع الفنجان على الطاولة الزجاجية الواطئة، قدم لى سيجارة ماركة مارلبورو بفلتر أبيض، أشعلها لى بالولاعة الذهبية، ثم أشعل لنفسه واحدة؛ صافح وجهى بعينين وديعتين خُيل إلىّ أنهما تعرفان كل شيء عما جئت أتحدث فيه معه . . . .

ـ «تحت أمر جنابك!».

ـ «الأمر لله يا حاج كامل!».

لم أكن رتبت فى ذهنى كيف أدخل فى الموضوع وبأى صيغة! . . . خشيت أن يقودنى الاحتشاد الانفعالى الزائد إلى ترديد كلمات كبيرة، ربما أوقعتنى فى الغلط فأكون المتسبب فى الفضيحة، ولكن شخصية المعلم «هى التى أوحت لى بالمدخل المناسب: التلامس مع روح أولاد البلد، والعزف على أوتارها المطربة لدى جميع الناس فى مصر:

ـ «أظنك يا حاج كامل تعرف أننى صديق مخلص لفهمى بك ولكل من يصادقنى!».

هتف بنبرة دافئة:

ـ «ودى عايزة كلام؟ ونعم الأخلاق!».

ـ «هل تجاملنى؟».

ـ «نحن أولاد بلد نعجبك! العبد لله يبصُ فى عين البنى آدم يجيء بداغه! بعون الله أفهم معدنه فى الحال! . . . يا مروان بك! البنى آدمين مثل المعادن والأحجار الكريمة! بمجرد النظر تعرف إذا كان هذا الشخص أو غيره من البرونز أو النحاس؟ أو من الفضة أو

الذهب؟ هل هو حجر كريم أو حصوة زلطة!».

ـ «ترى ماذا تكون شخصيتى فى نظرك؟».

ـ «سبحان الله! والله والله تلاته بالله العظيم . . . وعلى فكرة تستطيع أن تسأل فهمى بك أو أنا يمكن أن أسأله أمامك! يقول لك ما قاله العبد الفقير لله تعالى فى حضرتك يوم التقيناك أول مرة وتكرمت بالذهاب معنا يوم حبسة الواد خربوش صببى . . . اسأله».

ـ «ماذا قلت يا ترى؟!».

ـ «قلت له إنك رجل محترم ونظيف والواحد يأمن لك من أول مقابلة على فكرة! دائمًا أبدًا أقول لفهمى إن الأستاذ مروان الألفى أنظف واحد عرفته فى حياتك!».

ـ «ولكن كيف تأكدت أنت من هذا؟!».

ـ «يا بيه أنا عدم المؤاخذة مرَّ علىّ أشكال وألوان من الصحافيين والمكاتبين يعنى أحب أن أقول لك إننى أفهم فى الصحفيين مثلما أفهم فى الفلوس وفى مهنتى! . . . أجيبها لك على بياضة: إننى أزن البنى آدم منهم وأذوق طعم كلامه وطعم تصرفاته فأعرف إن كان صاحب ذمة وضمير أو أنه أونطجى فنجرى كلام! . . . هل أقول لك سرًا؟».

ـ «إن كنت تثق فىّ طبعًا!».

ـ «لهذا سأقوله لك! . . . وأمانة عليك لا تزعل منه!».

ـ «اطمئن! أنا آخر من يزعل فى الدنيا!»

ـ «فهمى بك! . . . لمؤاخذة يعنى اسمح لى! أصله نتن! . . . يوم تفضلت بالذهاب معنا للإفراج عن خربوش حاسبنى على أتعابه خمسمائة جنيه! وحاسبنى على عشرة آلاف جنيه سيوصلها بمعرفته لمسئول كبير فى الشرطة يقوم بتبويظ القضية أو عدم توصيلها لقضية من الأساس! . . . إنقاذ الولد من قضية مخدرات فيها تلبُّس ومضمونة التأبيدة! . . . ماشى! عشرة آلاف جنيه مبلغ تافه للنجاة من تأبيدة كان من الممكن أن يأخذ المحامون أضعاف أضعافه ولا ينجو الولد من السجن فى النهاية! . . . إنما الذى عفرتنى منه يا مروان بك أنه أضاف اسم حضرتك إلى قائمة القابضين!! قال إنه اتفق معك على مائتى جنيه مقابل حضورك الذى سيلعب به أمام بعضهم ويتمنظر أمام بعضهم الآخر ويرهب بعضهم الثالث! . . . إنه لبط فى لبط . . . لكنه سالك وسريع التخليص وعنده خبرة بأثمان كل واحد من زملائه المماثلين له . . . فاهمنى طبعًا يا مروان بك! . . . الداخلية فيها ناس محترمون مثل العسل أهلهم ربوهم على الغالى، ولكن . . . شأن كل الدنيا . . . فيها من أمثال فهمى بك الكثير . . . ناس ما كان من الصواب أن يدخلوا الشرطة من الأساس؛ لأنهم عدم المؤاخذة من أصل واطى! خدمهم الحظ والكوسة فدخلوا فلما استقووا بالمنصب ظهرت سفالة معادنهم فنشروا الفساد! . . . بس بينى وبينك الحكومة فى احتياج لمثله دائمًا! تطلقه مثل الكلب المسعور على من تريد إرهابهم أو

تعذيبهم لسبب من الأسباب!».

ـ «اسمح لى يا حاج كامل! هل حاسبك بالفعل على فلوس باسمى وقبضها؟!».

ـ «هو أغبى واحد شفته فى حياتى! نسى أننى شفتك وأنت نازل معنا فى منتهى البراءة لا تعرف إلى أين نحن ذاهبون! يعنى ليس عندك أى فكرة عن أى شىء فكيف يكون اتفق معك؟! شف الأكادة! عندما قل لى عليك سُقت اللؤم عليه، ولم أعطه! لكنه لف ودار وأرغمنى على شراء هدية لحضرتك! اشتريت ساعة ماركة رادو بالشىء الفلانى وبعثتها لحضرتك معه! وفاتت الأيام وتصور أننى نسيت الأمر! فإذا به يلبس القميص النص كم ويقابلنى والساعة تلق فى ذراعه!».

ـ «وسكتْ؟!».

ـ «فشر! مسكت ذراعه بالقوة لويته وخلعتها منه ورميتها للواد خربوش الأحق بها!... ستراها فى يده!».

ـ «أحسنت والله!»

ـ «يده غرقانة فى الدم يا مروان بك هذا المفترس! ما هو فيه الآن شوية عليه! ضحاياه لا حصر لهم صدقنى بدون مبالغة! الذى مات من التعذيب! والذى مات بضربة خاطئة! والذى انتحر ليخلص من نقمته عليه! والذى انطسّ حكمًا بالمؤبد ظلمًا وعدوانًا! والتى تشرمطت على يديه! والتى فقدت عذريتها من الفتيات السجينات! والتى أحرقت نفسها هربًا من فضيحة سببها

لها! . . . العجيب أنه فى النهاية حينما تعاشره تكتشف أنه أغلب من الغلب وأتفه من التفاهة، وإذن فلابد أن شخصية السفاح الطاغية المتجبر تتلبسه أثناء تأديته لعمله فحسب ثم تهرب؟! الله يلعنه ويلعن أبو الذين خلفوه! يا شيخ فضنا من سيرته المقرفة!».

ـ «تعرفون أنه سفاح مجرم! وغد حقير وسافل ومع ذلك. تسهرون عنده كل ليلة؟!».

لوح بيده المتختخة بحركة من ينبهنى إلى شىء خطير:

ـ «محسوبك لا يزال يحتاجه! هو الآن قد صار عبارة عن روبابيكيا، ولكن اسمه لا يزال موضوعًا فوق الرفوف المحترمة! لا تزال بطاقته الشخصية تشهد بأنه عميد فى الشرطة. عدد محدود من الناس من أمثالنا هم الذين يعرفون ما انتهى إليه أمره! . . . كل المكاتب الحكومية ليست تعرف! بطاقته بالنسبة لى مفيدة فى تخليص مصالح خاصة بى فى الجمارك وفى أقسام الشرطة خاصة أن مصارينى كلها فى السوق، وبيع السيارات لابد له من تقسيط! والتقسيط لبط ومشاكل! أقل مصلحة يمكن استفيدها منه التحشيش فى بيته فى مأمن! . . . ولا تنس يا مروان بك أننى فى الأصل ابن بلد لا يغرنك ملبسى فاللبس غَيّه! ابن بلد يعنى أحفظ العشرة حتى مع الخسيس! السوق علَمنى هذا وأكثر! ابن السوق المفتح لا يخسر أحدًا ولا يعادى حتى الذين يتحرشون به! ثم إنى رجل انتخابات نوادى وبرلمانات وغرف تجارية ومجالس محلية وزيطة!».

ـ «ربنا يقويك! . . . والآن دعنى أكلمك فى الموضوع الذى جئت

إليك من أجله!».

ـ «تفضل حضرتك!».

ـ «هل تصدق يا حاج كامل أننى يمكن أن أخون فهمى القزاز فى زوجته؟!».

بحركة مسرحية متقنة، عبر عن مدى شعوره بالاختناق، معنويًا لا شعوريًا، بأن زفر وفك رباط العنق ووقف صانعًا من يديه مروحة، ثم جلس وقد احتقن وجهه:

ـ «ابن الكلب الواطى نبيل البحطيطى أوسخ ما فى الحياة كلها! راكب على نافوخ فهمى ومكلبش! زهقت أنا وصبيى خربوش من الكلام معه! . . . فهمى بك هو الغلطان يا أبا الحاج! أيام كان بصحته كان يحكى لهذا المدعوق نبيل كل شىء يحدث فى السرير بينه وبين امرأته! . . . رجل خنزير بعيد عنك! . . فهمى بك . . . صدقنى يا مروان بك يكره زوجته! لو استطاع تقطيعها بالساطور لصنع من جسدها ترنشات وشرائح وريش فى أسياخ يأكلها من يحششون معه بعد الإنسطال! . . . فهمى بك والله أعلم عينه مكسورة من جهة امرأته! أدفع أى رهان إن ما كانت هى تذله وتكتم نفسه وهو ضعيف أمامها لسبب من الأسباب! . . . يا رجل . . . النار تأكلنى من عدم غيرة فهمى على زوجته! . . . ليلة ما شرفتنا حضرتك رمى بلاءه وتبلى عليك عينى عينك!».

ـ «ماذا قال الكلب عنى؟!».

ـ «قال: إنه سرح بعقلك بصنعة لطافة، وانتزع منك اعترافًا بأنك

عاشق للست خيرات!».

نشف ريقى، شعرت أن شبكة قد ألقيت فوقى وأننى أحاول الفلفصة من ثقوبها الضيقة، لكزنى الحاج كامل بيده:

- «تظننى غفرتها له؟! لا وحياتك! أنا كانت عينى عليكما وأذنى معكما!... لما رأيته يتغالس عليك وأنت متضايق منه رفعت صوت التليفزيون وغيرت القناة لأسكته عنك!».

- «ما هذا الولد يا حاج كامل؟ ما شغلته؟!».

- «أنا عرفته عن طريق فهمى القزاز منذ حوالى خمسة وعشرين عامًا!... كان عنده شقة جرسونيرة.... فهمى يموت فى النسوان السناكيح الفاجرات...! ونبيل صياد ماهر لبلطيات البرك! مذاقهن مختلف بصراحة! كنا نروح عنده نسكر ونحشش ونركب!... من تحرياتى عرفت أنه كان حرامى خزن متخصص فى فشّ الأقفال الرقمية! وفهمى يتستر عليه وينوبه من الحب جانب!».

ثم لاذ بالصمت فجأة، لابد أنه شعر بالتورط؛ أطال الصمت لإيهامى بأن حديثه انتهى أو أن ما لديه من معلومات عن نبيل قد فرغ عند هذا الحد. وكان لابد أن أسأله:

- «والآن ما الحل فى نظرك يا حاج كامل؟ هل نطرمخ؟ نترك هذا السافل يلطخ سمعة سيدة شريفة وسمعتى أيضًا؟!».

- «لأ طبعًا! ومن يقول بهذا؟ أكتب جوابًا للست خيرات نبِّه عليها أن تقطع السفر وتعود لعيالها!... شخصيتها قوية على فهمى

وهى الوحيدة القادرة على شكم هذا الولد وإيقافه عند حده، حتى وإن لجأت للبوليس، ونكون نحن شهودًا على سفالته! . . . أنا شايف إن حضرتك لك الدلال عليها، وتقدر على التأثير فيها أقصد أنها تحترمك وستسمع كلامك وتجىء فى الحال! بمجرد مجيئها ينتهى كل وجع الدماغ!».

ثم وقف ناظرًا فى ساعته:

- «ليت حصرتك تنبه على الحاجة حليمة أم السعد بأن تمسك لسانها عن هذا الكلام! لا نريد طرطشة! المسألة تكبر وتصبح كارثة! . . . أقرص أذنها من أجل خاطرى، لو جاءت تكلمك مرة ثانية!

- «هل أنت واثق أنها هى التى جاءت وكلمتنى هذا الكلام؟!»

- «وهل تظن أنى سأعتقد أن العصفورة هى التى طارت إليك من بيت فهمى بك وأبلغتك أننا نقول كذا كذا؟!».

ولكزنى ضاحكًا فى عشم ثم تأبطنى فى أخوة وسحبنى إلى الخروج؛ ظل يتأبطنى حتى باب سيارته. . .

كان خربوش أبو أصبع يقود المرسيدس، فيما فضل الحاج كامل أن أجلس بجواره على الكنبة الخلفية فى طريقنا إلى ضاحية صحراء المماليك. راح الحاج كامل يستأنف مقتطفات من حوارنا ليستشهد بخربوش على بعض ما قاله لى، مما جعل خربوش أبو اصبع ملمًا بجوهر المسألة، فقال:

- «يابك الواد نبيل دا فردة جزمة قديمة! جبان على الآخر! يعنى لو

حضرتك قابلته ورزعته قلمين على وشه حيخاف ويجيب ورا . . . إنت بس وريه العين الحمرا يبعد عنك على طول وينساك ! . . . ديته قرصة بس تكون جامدة يعنى لو طلعت بالدم يكون أحسن ! » .

ـ «صدقت يا خربوش ! أنا متأكد من أنه جبان ولكن . . . . » .

ووجهت الكلام للحاج كامل :

ـ «ما رأيك لو أننى قابلت هذا الولد على انفراد لأريه مركزه أو على الأقل أشوف حدوده ! » .

هز رأسه فى ترحيب وأريحية :

ـ «وماله ! هو صحيح ليس يستاهل اهتمامك ولكن يستحسن أن تريه قوتك ! يعنى تهدده ولا تهدده فى نفس الوقت ! المهم أن يشعر بقوتك ! » .

ـ «أخاف أن يعلو صوتنا ويتطور الكلام والصياح وقد نتشابك بالأيدى ! » .

ـ «حكاية التشابك بالأيدى هذه لن تحدث من جانبه أبدًا فاطمئن ! . . . إنما المشكلة أنه هو الذى سيحرضك على ضربه فاحذر أن تضربه أو تمد يدك عليه ! . . . ستقوم الفضيحة فعلاً ، لو أنك انفعلت ومددت يدك عليه سواء بالضرب أو بالزغد أو شد الثياب ! . . . مهما سَخَّنَك وهو بارد خليك أبرد منه تقتله وتسد حنكه فلا يأخذ منك حقًا ولا باطلاً ! » .

ـ «فى رأيك ما هو المكان المناسب لمقابلته؟» .

ـ «فى أى محل عام!» .

ـ «أقول لك يا بك!» .

هكذا صاح خربوش وهو يحرك عصا الفيتيس على السرعة الرابعة حيث قد انفسح أمامنا طريق المقطم .

ـ «قل يا خربوش!» .

وضع سيجارة فى فمه وضغط على ولاعة السيارة :

ـ «مثل هذا الشخص الحشرة لا تقابله فى محل مقفول وعائلى مثل جروبى ولاباس، ولا فى مقهى! . . . قابله فى محل مفتوح واسع منه للريح والسما! مثل كازينو قصر النيل أو . . . بسّ . . . قابله فى كازينو شط الذهب على النيل بين المعادى وحلوان! مكان سياحى معظمه أجانب لو سمعوكم لن يفهموا!» .

نزع الولاعة التى صارت جمرة لهب حمراء، أشعل سيجارته وأعادها إلى ثقبها . . .

ـ «شفت الواد؟!» .

ولكزنى بيده معبراً عن الإعجاب بذكاء صبيه . قلت :

ـ «والله فكرة نيرة فعلاً يا خربوش! إذا بك اسم على مسمى!» .

بعد برهة سألت :

ـ «أنا فعلاً أريد تنفيذ هذه الفكرة فهل تساعدنى يا حاج كامل؟» .

ـ «أين تحب أن تقابله ومتى؟»

ـ «فليكن يوم الخميس القادم الساعة الخامسة مساء فى كازينو شط الذهب هذا!»

ـ «بإذن الله يحصل! . . . اسمع . . . سأقول له إن الأستاذ مروان يعزمك على العشاء فى كازينو شط الذهب بمناسبة احتفاله بعيد ميلاده!».

ـ «تتصور أنه سيجىء؟!».

داس بكفه على الهواء مؤكدا:

ـ «غصبا عن بوزه يجىء! وسيجىء لك بهدية!».

ـ «تظن؟!».

ـ «سيرقص من الفرح إذا عرف أنك تدعوه! أنا متأكد أنه يحب الانفراد بك ليجد ما سوف يقوله لنا بعد لقائه بك! . . . هو أصله متأكد أنك عندك أخبار عن الست خيرات التى يموت هو فى غرامها، ويعتبرك خازن أسرارها! . . . ولعلمك: هو مستعد لصرف أموال فى سبيل أن يستدرجك فى الكلام ليعرف أسرارها عندك!».

ـ «يعنى انتظره فعلاً فى الميعاد؟».

ـ «على ضمانتى!».

قال خربوش:

ـ «الأمر لا يمنع أن تعشيه وأمرك إلى الله!».

ـ «أعشيه! خسارة!».

قال الحاج كامل:

ـ «شط الدهب فيه كل المستويات يعنى يمكن أن تطلب عشاءً ومشروبا فى الحدود التى تراها... أسعار رخيصة على كل حال!».

ـ «خلاص يا حاج كامل سأنتظره!».

وحينما دلفت من باب السور إلى بيتى فطنت إلى أننى من غد يجب أن أفوت على الإدارة لاستعجل صرف مكافأة الحوافز حتى أكون جاهزاً لهذه العزومة التى فرضت نفسها على ميزانيتى بسماجة تضاهى سماجة المدعو.

٣
لقاء الأفعوان

كنت منزويًا وحدى فى ركن بعيد فوق مسطاح النهر مباشرة، ولكى أرسم شكل الاحتفالية طلبت زجاجة بيرة مثلاً، فجاءت مع الكوب وطبق الترمس، رحت أجرع على مهل وأرقب شمس الأصيل وهى تلقى بقرصها القرمزى فى قلب النهر يأخذ حمامًا يطفئ شواشى اللهب، ويزيل عنه الغبار بعيد السفر؛ كانت مويجات النهر تداعبه، فإذا بكل أسود قاتم يزحف على الأرض فيحجب جانبًا من رداء الأصيل، ثم يتسلق الترابيزة منكبًا نحوى؛ سلسلة متعاشقة من الأطوال صارت شاخصة فى عينى: رقبة طويلة كالثعبان، جذع طويل، ساقان طويلان، ذراعان طويلان ينكسران كجناحى جرادة أسطورية إذ هما ينكفآن على صدرى فى محاولة لضمى واحتضانى، لكأن تمساحا واسع الشدقين يحاول ابتلاعى. . .

ـ «أهلا أستاذ نبيل! تفضل!».

مدد ساقيه منجعصا على الكرسى المصنوع من الجريد؛ نظر إلى

زجاجة البيرة فى أنفة؛ بصوت جنرال فى جيش الاحتلال العثمانى بَعْبَع من حلق عريض مفتوح:

ـ «ما هذا الذى تشربه!! شيل شيل!».

ومد ذراعه ليزيح الزجاجة. قبضت على يده بقبضة أودعتها كل ما فى طاقتى من عزم ومن رغبة حقيقية صادقة فى استدعاء القوة واستجلائها؛ فوجئت برخاوة يده كأرنب ميت متهدلة الساعد والذراع؛ فسرعان ما استهيفت نفسى؛ عالجتها بأن تبسمت على سبيل الاعتذار عن غلطتى:

ـ «أعلم أنك محبٌّ للبيرة وتشربها!».

ـ «أشربها مضطرًا لزوم التقشف الإجبارى! إنما فى حفل عيد ميلاد حضرتك لا أقل من شىء كهذا!...».

لم أكن انتبهت إلى حقيبة جلدية فخمة كان قد وضعها على الأرض بجوار كرسيه؛ فتحها، سحب منها زجاجة شمبانيا مبهرة من نوع باهظ الثمن، ليس يشربه سوى أثرياء الأثرياء؛ وضعها فوق الترابيزة بعلبتها الفخمة لكنه رفعها ليقربها من وجهى:

ـ «إقرأ تاريخها! عمرها ثلاثون عامًا!... نسفحها أولاً... ثم نحلى بالدمبل! معى واحدة دمبل كبيرة! يعنى ليلتنا فل الفل والياسمين!... وبعدين كل سنة وأنت طيب يا مروان بك!».

قدم لى علبة فخمة، تجمدت فى قعدتى؛ فتح العلبة ولوح بها أمام عينى فإذا هى تحتوى ثلاثة أقلام تبدو من الذهب: حبر سائل، وحبر جاف، ورصاص:

ـ «طقم ذهب نادر كنت شريته على ذمة واحد سيخدمنى خدمة العمر لكنه استندل ومات قبل أن يفعلها! . . . وأخيراً يطلع من نصيبك! حلال عليك يا عم تكتب به روائعك!» .

أقفل العلبة؛ ولعله فسر تجمدى وعدم حماستى للإمساك بها على أنه نوع من التردد بسبب الخجل؛ فبكل رقة، ودون أن يقف، مد ذراعه الطويل ودس العلبة فى جيبى على صدر القميص؛ فارتعش بدنى بعنف؛ عجزت عن اتخاذ أى إجراء فورى، كأنى قد اندلق فوقى فنطاس من الماء البارد . . . .

متودك هو على التعامل مع الكازينووات ومع هذا الكازينو على وجه التحديد . . . سرعان ما اعتدل فى جلسته آخذاً سمت البك المعتبر لا سبيل للتشكيك فى بكويته . . . فى الحال حضر طاقم كامل من الجرسونات يومئون برءوسهم فى دماثة وتبجيل وائتناس . . . إن هى إلا دقائق وفوجئت بأن زجاجة البيرة قد محيت، وطبق الترمس الكالح قد أزيل أثره، حلت محلهما كئوس فخمة، جردل ثلج، عديد من أطباق عامرة بأنواع مختلفة من السلاطات وشرائح البسطرمة واللانشون والبيض المشوى والأجبان، يا للهول حقًا، كل هذه مجرد مزة؟! ما أتعس العشاء الذى كنت أنوى تقديمه: «اتنين اسكالوب بانيه» .

راح الجرسون يفتح زجاجة الشمبانيا فى مهرجان صفق له الزملاء ونبيل حيث نجح الجرسون بمهارة فائقة فى إيقاف اندفاع الفوران واعتقاله بالكأس فى حرفنة. أمره نبيل ـ بأريحية البكوات ذوى القلوب الإنسانية ـ بأن يصب لكل واحد من زملائه رشفتين فى نفس الكأس

على سبيل التحية فى مقابل : «كل سنة وأنت طيب» . يقولونها للأستاذ مروان بمناسبة عيد ميلاد حضرته . ثم غمزه بنظرة تجيد الكلام بجميع اللغات، ولكز الجرسون بكوعه فى عشم كأنهما أصدقاء قدامى :

ـ «خذ راحتك فى تجهيز أفخم عشاء عندك على شرف مروان بك!» .

ـ «مفهوم يا باشا!» .

ـ «إتكل!» .

جاءتنى رقبته لحد عندى عابرة سطح المائدة؛ تدفق الشحوب الشقى من عينيه :

ـ «من حسن الحظ أنك جئت تحتفل فى هذا المطرح! إنه مثل بيتى! وأنا فى أحيان كثيرة . . . مثل هذه الأيام . . . أحب أن أستفيد من خبراتى كخبير سياحى! كمرشد أحيانًا على كبير : وفود ورحلات وهناء بالصلاة على حضرة النبى! يعنى كل ساعة والثانية ننط على هنا نعدل رءوسنا ونمشى!» .

ـ «يعنى أنت الآن مرشد سياحى؟!» .

ـ «فقط؟! لأ طبعًا! . . . عندى مركب سياحى ملكى! إن شاء الله أعزمك فيه قريبًا! . . . وعندى كافتيريا ملكى أيضًا فى مكان مهم جدًا فى مدينة الأقصر يديرها أخى الأصغر خريج كلية الآثار، الذى احتقر الوظيفة واشتغل معى! . . . ثم إنى شريك بالأسهم فى عدد من شركات الفنادق!» .

ـ «ما شاء الله ما شاء الله اللهم زد وبارك!» .

إلى أن قاربت زجاجة الدمبل على الانتهاء، ورفعت أطباق المزة ووفدت أطباق تزفها روائح الحمام المشوى والكباب والأرز بالخلطة؛ وحتى شروعنا فى الأكل كان لا يزال يحدثنى فى قصة حياته الحافلة، منذ مولده فى حى القبارى بالإسكندرية؛ لأب صاحب مركب لصيد السمك؛ دخوله كلية الشرطة زميلا لفهمى، فصله منها بتهمة أخلاقية جرجره فهمى القزاز للوقوع فيها، ونجا منها ووقع هو فيها لسوء بخته؛ التحاقه بكلية الحقوق وحصوله على الليسانس بامتياز؛ قيده فى نقابة المحامين؛ احترافه لقضايا التعويضات التى جمع منها ثروة طائلة، وقوعه فى هوى الآثار المصرية؛ تجارته فيها، وكانت لا تزال تجارتها مباحة إلى وقت قليل مضى؛ اكتشافه لصناعة السياحة. . . . وكنت أزدرد الطعام فى بطء شديد، صرت أفاجأ به على الترابيزة عقب كل سرحة فألتقط لقمة أغطى بها لذعة الدمبل الحارقة.

شخصيته فاضت حتى أغرقتنى، كدت أنسى الهدف الرئيسى من هذه المقابلة؛ لُمتُ نفسى كثيراً على أزوراری عن بعض الوجوه الإنسانية بناء على شكلها الخارجى أو حتى على الصورة التى يرسمها الغير عنها؛ ما يدهشنى الآن أن وجدت فى شخصيته بقاع ضوء كثيرة جداً؛ وكان فى بعض تجلياته المرسلة يكاد يقودنى إلى السخرية من نفسى على سخريتها منه سلفًا. . . لقد بدا فى منظورى لحظة شخصية لا يستهان بها، مفتوحة، متدفقة، معطاءة، تلقائية، يمكن أن تستقطب الثقة فيها عند من يتعاملون معها. . .

توقف عن المضغ تمامًا، أشعل سيجارة وأشعلت مثلها ثم وجدتنى أقول:

ـ «هذا عيش وملح بيننا يا نبيل! والعيش والملح عند أهل الفلاحين هو أوثق رباط بينهم!».

ليضع ساقًا على ساق اضطر إلى عدل قعدته فى اتجاه النهر حيث الفراغ متسع لساقيه الفارعتين؛ وفى أريحية وبصوت دافئ:

ـ «ثق أننى أحبك من دون عيش وملح! ولهذا انتهزت هذه الفرصة وجئت إليك لأقول لك بالمفتشر وبكل بساطة لا تفسد للود قضية: إننى أحب خيرات الشامى وهى تحبنى وما بيننا متين!! وحضرتك اشتغلت عليها بالجوابات بأسلوبك الساحر أثرت فيها جعلتها تميل إليك! هجرتنى وأنت السبب!!».

ـ «هجرتك؟!!».

ـ «طبعًا! وأنت السبب!».

ـ «يعنى.. عدم المؤاخذة يا نبيل! هذه سيدة فاضلة ومحترمة، ثم إنها زوجة صديق عمرك!... وأن تقول إنها هجرتك معناه أنه يوجد علاقة بينكما!».

ـ «وهل هذا يحتاج لذكاء؟!».

ـ «علاقة من أى نوع؟!».

ـ «علاقة حب! حب ساخن!».

ـ «بمعنى؟!».

ـ «بمعنى ما يحدث بين العشاق!».

ـ «علاقة جنسية تعنى؟!».

ـ «نعم!».

ـ «وهى زوجة صديقك الصدوق؟!».

ـ «الحب يعمى العيون من غير مؤاخذة! من يقع فى الحب لا يدرى ما يفعل! . . . وأنا واقع فى الحب لشوشتى وهى مثلى فماذا نفعل غير أن نمارس الحب؟!».

ـ «لكنها متزوجة و. . . . .».

ـ «وهل كل متزوجة أوكل متزوج يذوق طعم الحب الحقيقى؟! لا! كثيرون مجرد أزواج وزوجات فى الحياة أمام الناس وأوراق الحكومة فحسب أما فى الفراش فلا!! . . . فى الفراش لا تصير المرأة امرأة بحق إلا مع من تحب! . . . ولا يصير الرجل رجلا بحق إلا مع من يحبها!».

ـ «فلسفة غريبة جدًا!! ومنطق أغرب!!».

ـ «أنت الذى تُعقِّدها!».

ـ «يعنى هى مسألة بسيطة فى نظرك؟!».

ـ «من أبسط ما يمكن! . . . خيرات الشامى تزوجت فهمى القزاز على الورق، وداخل البيت أمام العيال! . . . وتزوجتنى أنا للفراش!».

ـ «فى بيت فهمى؟!».

ـ «فى الفنادق يا باشا! كل الفنادق مفتوحة!».

ـ «اتق الله يا نبيل! إن ما تقوله الآن محض خيال وأنت نشوان! إن مدام خيرات الشامى عاقلة مثقفة يعنى يستحيل أن تقيم علاقة جنسية معك أو مع غيرك؛ لأنها مسئولة وتدرك العواقب!».

لمع الحقد فى عينيه لمعة الفحم؛ سرعان ما اختفى نبيل الدمث اللطيف الذى كان منذ برهة فى مدخل المساء، حل محله مارد مطاط مخيف؛ خُيل إلىّ أنه قد تمطى والتف من فوق رأسى ليحصرنى فى برواز بيضاوى الشكل، مثَّبتًا رأسه فوق صدرى؛ قال بلهجة ممطوطة ردَّاحة:

ـ «أيواااه... مثقفة! هذا هو الكلام الذى ملأت به دماغها فاستكبرت علىّ!... أنا يا أستاذ مروان لست طيشة... أراقب علاقتكما من يوم ما عزمك فهمى على الغداء يوم غوران الزعيم فى داهية!... هى لم تتغير من جهتى إلا يوم طردتنى أمامك من بيتها، مع أنها كانت تمزح!... لكن... أنت تزعم أنها مثقفة ولا يمكن أن تعشق أحدا؟ أحب أن أقول لك إنى خبير بتفاصيل جسدها من الداخل أكثر من فهمى مائة مرة!... إذا كنت أنت قد رأيت جسدها عاريًا فإننى أعطيك أمارة تثبت أننى شفته وتذوقته وعندى كامل مقاساته بالملى متر! إن الشامة التى على حنكها وخديها موجودة بنفسها وبنصها على فرجها!... هل أقول لك دليلاً آخر؟! إنها من شدة عشقها لى تلبس القميص الأسود لتلتقينى به فى الفراش كالفانوس يشع ضوءًا من جميع

النواحى! إنه علامة على اعتدال مزاجها واشتياقها حين تلبسه لابد أن تثير الحجر فيفضى نفسه فوقها لا يتركها وفى جسده قطرة واحدة! . . . إنى واثق أنها لا يمكن أن تسلونى! هى عائدة عائدة لى فى نهاية الأمر، فإن كنت تحبنى أو تحبها حقًا فأرجوك أن تنسحب من حياتها! أقصد من حياتنا!».

الثقة التى يتكلم بها تذهلنى، تحبط مقاومتى، كما أن حرارة قوية تسرى فى عباراته فترقص منها تقاطيع وجهه رقصة دجاجة ذبيحة . . .

صرت فى بلبلة كاملة . . .

لكننى مع ذلك استطعت الرسوَّ على حقيقة دامغة ماثلة، إننى أمام شخص مريض نفسيًا بعقدة ما، وأنه إلى ذلك مثال للسفالة والانحطاط، مثله لا يمكن أن يكون محبًا على الإطلاق، لا ولا يمكن من ثمة أن يحبه أى أحد. إن المحب لا يقبل أن يتحدث عن محبوبه بمثل هذه السفالة. المرجح أن الخيال المريض لهذا الشخص قد اختلق علاقة، ثم غذاها بشواهد من الواقع، ثم صدقها فى النهاية بهدف باطنى وحيد: الفضح إلى حد القتل الانتقامى البشع؛ فممن ينتقم يا ترى؟ من فهمى؟ من خيرات؟ منى؟ من نفسه؟ لكن الانتقام من أى من هذه الأطراف لابد أن يأخذ الآخرين فى سكته؛ ولكن لابد أن يكون هناك طرف رئيسى يستهدفه الانتقام فمن يكون بالضبط؟ تعاودنى البلبلة: أتكون خيرات قد غلطت معه بصورة أو بأخرى وإن بغير قصد وأنها أفاقت وأرادت إصلاح غلطتها بردة فعل قوية فأصابته بهذا الجنون الانتقامى البشع؟! . . . .

كل هذه الخواطر تجمعت فى مكعبات الثلج فى الكأس الذى رحت أحدق فيه بتركيز كأننى سأجد فيه الصواب. أخيرًا وضعته على المائدة:

ـ «نبيل! اسمعنى جيدًا! هات يدك فى يدى!».

أعطانى يده، قبضت عليها بحرارة هاتفًا:

ـ «وحق جلال الله وهذه العشرة الأصابع المتعاشقة أننى لم أقرب مدام خيرات الشامى، ولم أر جسدها من الداخل على الإطلاق! لو معك مصحف سأقسم لك عليه أن علاقتى بخيرات نظيفة نظيفة نظيفة ولا تكاد تكون علاقة! . . . أنا لن أدافع عن مدام خيرات فهى حرة تفعل ما تشاء فى حياتها، ولكنى أدافع عن نفسى! . . . . أما الجوابات التى كنت أرسلها ردًا على جواباتها فإننى أتحداك أن تجد فيها كلمة واحدة تدل على وجود علاقة مشبوهة! . . . ثم إن زوجتى كانت تقرأ الجوابات وردودها وليس يعقل طبعًا أن . . . .».

قاطعنى فى حيرة:

ـ «فلماذا قاطعتنى؟!».

ـ «الله أعلم! تستطيع أن تسألها! ألم تقل لى ذات ليلة إنها تراسلك؟».

ـ «قطعت عنى جواباتها قطعت النور والماء!».

ـ «أنا أيضًا لم أعد أكتب لها منذ مدة طويلة!».

ـ «خلاص يا عم! حبايب!».

ـ «نبيل! لن نكون حبايب حقًا إذا لم تكف لسانك عنى! . . . أنا لم أسئ إليك أبدًا . . . فكل ما أرجوه منك بسيط: لا تذكر اسمى فى حديثك عنها! أنت حر معها ومع صديقك! أما بالنسبة لى فأنت . . .».

ـ «ما دمت قطعت صلتك بها فإنى أشكرك على هذا التوضيح ولن تجىء سيرتك بعد الآن على لسانى!».

ثم اعتدل متأهبًا للوقوف ممسكًا بعلبة السجائر والولاعة وسلسلة المفاتيح؛ بصوته الحلقى، بلهجة المعتاد على البقششة:

ـ «بما أنى الضيف وأنت صاحب الحفل يعنى صاحب البيت فاسمح لى بالانصراف لأطل على الشلة الوسخة عند فهمى! لابد أن أراه كل ليلة! أتأتى معى؟».

ـ «فيك دماغ وأعصاب لمزيد من الشرب؟!».

ـ «هذا الذى فعلناه مسح زور! الشرب الحقيقى سيبدأ بعد حوالى عشرين دقيقة! . . .».

وقف فعلاً، أشار إلى الزجاجة:

ـ «أتركك مع هذين الكأسين تنقنق فيهما مع مزاجك!».

ضغط على يدى بيده كرمز للمصافحة. أمسكت بيده:

ـ «انتظر! سنمشى سويا!».

ـ «خليك على مزاجك!».

ـ «أنا استكفيت! وتأخرت!».

جلس من جديد ولكن على حرف الكرسى ممددًا ساقيه فامتد ظلهما هابطًا فى مسطاح النهر؛ بذراعه الطويلة، ومن خلف ظهره، طرقع للجرسون بأصبعيه، جاء الجرسون ممسكًا بحزمة من الفواتير. بعنجهية أشار له نبيل فى اتجاهى:

ـ «حاسب البك لكى نمشى!».

تكاد الأرض تميد بى... حاسب البك يا ابن المركوب؟! كيف؟ أتكون لحظة الضرب قد حانت؟ إذًا فقد صدق الحاج كامل سراج الدين حينما قال إنك سوف تحرضنى على ضربك! ولكن هل استطيع ضرب نخلة؟! وماذا يفيد الضرب إن قدرت عليه؟... كل أعصابى تحفزت للمقاومة؛ بكل هدوء أزحت يد الجرسون بحركة حاسمة:

ـ «أنا لم أطلب منك شيئًا سوى زجاجة البيرة وهذا هو حسابها!».

أعطيت ورقة بخمسة جنيهات وطلبت منه البقية، ثم جلست بحركة مستعارة من أولاد الشوارع أوحى بها أننى لبط مثله، وعلى استعداد للفضيحة والذهاب إلى قسم الشرطة وما إلى ذلك من سكك متوقعة، راح الجرسون يتبادل نظرات متوترة مع نبيل، وكان يبدو على الجرسون أنه مقتنع بما قلت. قال نبيل:

ـ «أستاذ مروان أنا عملت الواجب وأكثر، كأى صديق مدعو لحفل عيد ميلاد صديقه: هدية خاصة وقدمت! واجب المشاركة فى الاحتفال وقدمت شمبانيا ودمبل!... كل هذا وحضرتك يا

صاحب البيت والحفل لا تريد أن تدفع ثمن العشاء والسرفيس؟!».

ـ «يا أخ نبيل هذا المشروب وهذا العشاء أنت فرضته عليّ وليس هذا من الذوق على فكرة ولا هو جدعنة! . . . أنت تفترض أننى أحمل فى جيبى خزنة فلوس أمشى بها مستعداً لدفع أى حساب فى أى مكان فى أى وقت مهما كان قدره!! يعنى باختصار أنت تعمدت توريطى! تهزأ بى! تضعنى فى موقف البلطجى الملابط . . . فهل هذه جدعنة؟!»

سحب ساقيه كثعبان يلم ذيله تحت بطنه؛ تمايلت رقبته فوق المائدة فيما بين ذراعيه المنكسرين كجناحى جرادة خرافية الحجم فى حركة من يقدم الملاذ للخلاص من الورطة:

ـ «أستاذ مروان إذا لم يكن معك نقود الآن فهذه ليست مشكلة! المحل محلنا وأنت رجل معروف واسم لامع فى عالم الصحافة، يعنى فلوس المحل عندك مضمونة مائة فى المائة فخُش فى الموضوع دوغرى!»

الجرسون وضع الفواتير على الترابيزة ووضع فوقها ملاحة خزفية ثقيلة حتى لا يطيرها الهواء، ثم استدار مشوحًا فى عصبية باردة:

ـ «حلوها مع بعضكم!»

ومضى يلبى نداءً جاءه من الداخل. استطرد نبيل:

ـ «ثم إننى يا أخى ليس يرضينى أن تتعرض لمثل هذا الموقف السخيف حتى لو لم يكن بيننا سابق معرفة! نحن جدعان يا جدع! أنت

ليس معك نقود! ميّل على أخيك نبيل! لماذا تنكسف؟ أنا مستعد لأن أسلفك هذا المبلغ ولك أن ترده وقتما تشاء، ولكن بشرط أن أعطيه لك يدًا ليد! وتحاسب أنت!... ليس لشيء! وإنما لحفظ كرامتك أمام المحل!... خذ منى فلوسًا وحاسب أنت!... هى كم؟»

أمسك الفواتير وراح يحسب. لم أعد قادرًا على السيطرة على انفعالى؛ وقفت:

- «احسب كما تشاء فهذا أمر لا يخصنى! تدفع أو لا تدفع هذا أمر يخصك أنت مع المحل!... وإنى أنذرك يا نبيل: إذا لم تحترم نفسك فقسمًا بجلال الله لأجعلنك تندم على وجودك فى الحياة! سوف تعرف أننى أصيع منك عند اللزوم!».

رقبته تمطت حتى حاذت رأسى وأنا واقف فيما هو لا يزال جالسًا؛ من حنك مفشوخ عن أسنان صدئة صفراء يفح منها ما يهب على الوجه عند فتح باب الثلاجة من لفح بارد؛ خرج صوته سائحًا فوق وجهى كبيضة فاسدة انقشعت وسالت على صدرى:

- «يعنى تحترمنى لشخصى إذا صرفت عليك! وتحتقرنى إذا قصرت فى الانفاق على مزاج سعادتك؟! ما أرخصك يا احترام!».

ثم استقرت عينه فوق جيب قميصى، فتذكرنا ثقله الذى كان يضايقنى طوال الجلسة؛ فنزعت علبة الأقلام، ووضعتها أمامه على الترابيزة:

- «شكرًا لك يا نبيل على هذه الهدية العظيمة! وشكرًا لك على نبلك وكرم أخلاقك!».

اندفعت خارجًا فى خطو ثابت متحفز؛ كنت أتوقع أن يقوم ورائى فحاولت السيطرة على استنفارى . . . وإلى أن وصلت إلى الممر الذى يوصلنى إلى عتبة سلم يصعد بضع درجات إلى طريق الكورنيش، لم يكن ثمة من حركة وراء ظهرى؛ إلا أننى رأيت نفس الجرسون مقبلاً نحوى من الجناح الأيسر ملوحًا لى بيده فى حركة ودودة لكى أقف. توقفت متحفزا للدخول فى عراك؛ لكن الجرسون نادانى فى ود ثم همس فى أذنى:

- «هل يمكن أن أتعرف على سعادتك؟».

- «أنا الكاتب الصحفى مروان الألفى!».

مد يده وصافحنى بحرارة:

- «حضرتك تعرف فهمى بك القزاز؟».

- «صديقى!».

- «حلو! هل استطيع مقابلتك؟ أعطنى موعد!».

- «لماذا؟!».

- «هذا ما سوف أقوله لك عند المقابلة!».

- «ضرورى؟!».

- «جدًا جدًا . . . أرجوك!».

وقدم لى ورقة فى نوتة جيب مع قلم:

- «اكتب العنوان والتليفون!».

كتب بسرعة :

ـ «قابلنى بعد غد الساعة الثالثة مساءً!».

فيما كنت أصعد أول الدرج لمحت الحاج كامل سراج الدين مقبلاً من شارع الكورنيش نحو الدرج، من ورائه ظهر خربوش أبو اصبع. رأيانى فتوقفا :

ـ «عدت بسلام؟!»

هكذا سألنى الحاج كامل وهو يصافحنى فيما راح خربوش يفتش فى وجهى عن التأثير الذى تركته المقابلة؛ ذلك أن وجهى كان لا يزال محتقنًا، وبقايا الغضب تربك ساقى. قلت :

ـ «مثلما وصفته يا حاج كامل : حرضنى على ضربه لكننى عملت بنصيحتك!».

سحبنى من يدى وارتد عائدًا إلى الكورنيش :

ـ «الولد خربوش نبهنى! خفنا أن تحدث بينكما فضيحة فجئنا بسرعة لعلنا ننفع فى فضها!».

ـ «كادت تحدث أو ربما حدثت بالفعل!».

فى السيارة حكيت لهما ما دار بالتفصيل، فصفق الحاج كامل كف على كف وهتف :

ـ «ابن وسخه رسمى! يريد إذلال كبريائك ويشعرك بأنه أعلى منك بأى شكل!».

قال خربوش:

- «يعنى عرفت تشكمه؟».

- «بقدر ما استطعت!».

قال الحاج كامل فى شىء من خيبة الأمل:

- «يعنى فشلت المقابلة!».

- «ليتها ما تمت!».

- «دعه لى! سأوقفه عند حده!».

- «أرجوك يا حاج كامل! كان هذا هو هدفى من الأساس يوم كلمتك فى الأمر! باعتبارك الشخصية الكبيرة فيهم، وتستطيع وقف التخين فيهم عند حده!».

- «كنت سأفعل! لكننى أحببت أن تتقابلا ربما استطعتما تصفية النفوس!».

- «تصفية نفسه هو! أنا...».

- «حصل خير يا مروان بك! لا تنفعل!».

فى المرآة الداخلية العاكسة لخلفية الطريق لمحنا سيارة نبيل - الرينو الصغيرة الشبيهة بالكابينة - مقبلة وراءنا من بعيد؛ خربوش هو الذى تعرف عليها ونبهنا، ثم ضلله ودخل من تحويدة فرعية تخترق الطريق إلى بيتى.

٤
مفاجأة لاسعة

من فرط اهتمامى بموعد الجرسون معى ركنت حزمة الصحف جانبًا وانخرطت فى مراجعة تل من الموضوعات والأخبار حتى أجهزت على كل ما كان أمامى من مهام. كانت الساعة تجاوزت الثانية مساءً بدقائق، فأخذت أتصفح الجرائد والمجلات فى انتظار مجىء الجرسون الذى أصبحت شغوفًا بلقائه؛ رحت أحدِّس ما يمكن أن يكون لديه من موضوع يريد أن يحدثنى فيه؛ إن شكل الجرسون ولهجته فى طلب التعرف على شخصيتى وطلبه مقابلتى بعد سؤالى عن مدى معرفتى بفهمى القزاز كل ذلك يشى بأن لديه شيئًا أو ربما أشياء شديدة الأهمية تخص فهمى . . .

رن جرس الهاتف: تليفون لحضرتك. . . .

ـ «أنا منير يا مروان بك!».

ـ «منير من؟!».

ـ «منير عبده! جرسون شط الدهب الذى. . . ».

ـ «مرحبًا! أنت تحت فى الاستعلامات؟ هم لديهم خبر بأنك آت

لى!».

ـ «لا تؤاخذنى يا مروان بك! اليوم لن أستطيع المجىء! شىء طارئ عطلنى! . . . هل يمكن أن تتكرم وتؤجل الموعد للأسبوع بعد الآتى؟».

ـ «أسبوعان بحالهما؟ قل يوم أو يومين!».

ـ «ليتنى أقدر لو كان بيدى لطرت إليك! . . . . وعلى العموم كل تأخيرة وفيها خيرة!».

ـ «لو سمحت يا أخ منير! أحب أن تعطينى ولو فكرة سريعة! إشارة إلى الموضوع الذى تريد أن تقابلنى بشأنه؟!».

ـ «ليس ينفع فى التليفون! الموضوع يلزمه قعدة من غير مؤاخذة!».

ـ «بخصوص؟!»..

ـ «حاجة إنسانية! حدوتة مهمة جدًا!».

ـ «عليك بزملينا الأستاذ صبرى موسى! يتبنى أوجاع الناس ويصيغها فى حواديت مؤثرة جدًا. . . .».

ـ «يا أستاذ مروان الموضوع يطلبك أنت شخصيًا ـ أنا بالمناسبة من قراء الأستاذ صبرى ولكن الموضوع يخص صديقك فهمى القزاز! . . .».

ـ «موضوع صحفى مثلاً؟!».

ـ «ممكن صحفى ونص كمان!».

ـ «عن ماذا؟!».

ـ «ماذا هذه هى التى سأجيئك بها فى الموعد إن شاء الله! . . . . أصلها ماذا ثقيلة حبتين! ماذا ولماذا وأين ومتى وكيف وكل هذه الاستفهامات سأجىء معى بشهادات ميلادها وبطاقاتها الشخصية والحدق يفهم يا أستاذ مروان! . . . أنا بالمناسبة قرأت قصتك الجمعة الماضية فى ملحق الأهرام بالصدفة، وأنا أفرش الجرنان على الأرض لأصلى فوقه! حلوة جداً . . . أنا قرىء يعجبك ولى فى الزجل! . . . يكفى هذا الآن لأن غراب البين ظهر ويبصبص للتليفون فقل لى حضرتك هل أجيئك فى نفس الموعد من الأسبوع بعد الآتى؟».

ـ «وهو كذلك يا منير سأنتظرك إلى اللقاء!». داهمنى إحباط مغيظ؛ بعد كل هذه السربعة لأفرغ له إذا به ـ وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ـ يعلقنى لأسبوعين قادمين، عليه اللعنة، يبدو أنه لبط هو الآخر، ولكنه كان بارعًا فى إثارة فضولى بحيث لا يمكن نسيانه أو تجاهله. انصرفت إلى كومة الجرائد والمجلات المصرية والعربية والأجنبية التى توفرها المجلة لقسم المراجعة ولغيره من الأقسام، أكثر ما يهمنى فى الصحف العربية صفحات الثقافة أقطعها أحيانًا للاحتفاظ بمقال أو قصيدة أو معلومة توثيقية، أما الملاحق الأدبية والفنية فإننى أحتفظ بها كلها لأرشيفى الخاص لأقرأها على مهل سيّما وأننى شغوف بالتعرف على الأصوات العربية الجديدة فى القصة والشعر والنقد والفن التشكيلى والسينما والموسيقى. كثير من ملاحق الصحف النفطية أكداس من الورق فيها متسع لكل من هب ودب من حملة الأقلام يكتبون كتابات بدائية ساذجة ركيكة اللغة؛ إلا أنه يتصادف أحيانًا أن تلمع بين هذه الأكداس موهبة حقيقية. هذا على سبيل المثال ملحق لجريدة عمانية

كبيرة وإنى لمن المعجبين بجديته فى التوسيع للمواهب الواضحة، ولهذا أتصفحه بيقظة وانتباه شأنى مع الصحف التى أحترمها. .

يا للمفاجأة العجيبة: قصة بقلمى مفرودة على ثلاث صفحات برسم كبير مع صورتى. تذكرت أن مكتبهم فى القاهرة قد طلبها منى فأعطيتها لهم منذ حوالى شهرين ونسيتها. بدأ دمى يروق تلقائيًا، ليس برؤية القصة منشورة فحسب بل إلى ذلك ابتهاج بحفنة من الدولارات سوف أقبضها من مكتب الجريدة خلال أيام قليلة؛ ما أرهب ما تفعله الفلوس فى الإنسان! تغير حالته من النقيض إلى النقيض حتى قبل وصولها إلى اليد. . . ولكن. . . . ما هذا. . . . دعك من الفلوس الآن وانتبه إلى هذه المفاجأة. . . فى الركن الخاص بناشئة الكتاب والشعراء قصة قصيرة بعنوان: «ليالى القميص الأسود»، يقدمها المحرر فى برواز فى الهامش الفوقى بحفاوة، ويصف الكاتبة بأنها أحدث صوت نسائى فى القصة القصيرة المصرية، ولكن نظرًا لجرأة التناول، وحساسية الموضوع أوصت الكاتبة بإخفاء اسمها والرمز له بحرفين اثنين هما: خ أ

قبل أن أقرأ القصة راح قلبى يخفق بشدة متصاعدة تبعًا لما فى خواطرى من فوران تتضارب فيه المشاعر. هاتف شع من الحرفين مخاطبًا حدسى، الذى ما لبث حتى استلّ الاسم بالكامل من وراء الحرفين: خيرات الشامى؛ بل إن نظرتى كادت لا ترى الحرفين إذ رأت الاسم الصريح مكانهما نظرًا لارتباط القميص الأسود فى سويداء قلبى بخيرات الشامى كأنه قد بات رمزًا لها وحدها! . . . .

٥
ليالى القميص الأسود

(فى ليلة عرسها كانت هناء مخضوضة . إنها طبعًا غشيمة ، أصلها كانت لا تزال طفلة ، تخرجت فى مدرسة التجارة وعُقد قرانها فى نفس العام . . .

ليلة الدُخلة كانت تنعى هَمّ الذى سيحدث بعد انصراف المدعوين وانفضاض الفرح ، حين ينغلق الباب عليهما وتصير هى وجهًا لوجه مع عريسها الذى لم تكن تعرف عن طبعه أى شىء ، إنما كانت معجبة بشبابه وبمركزه الوظيفى المرموق وبأسرته الفقيرة المجاورة لهم فى المسكن لأكثر من عشر سنوات . . . . .

أخيرًا جاءتها اللحظة المرعبة . . . . جلست على حرف السرير وجلة ترتعش ، تتفرج على عريسها وهو يخلع ثيابه أمامها بدون حرج . . . بعدما لبس البيجامة جاء إليها متبسمًا يتصبب عرقًا رغم أن الجو فى الشارع شديد البرودة ! . . . رفع التاج عن رأسها ، مال عليها كالمسروع الجعان يفسِّخ فيها كأنها بطة محمّرة يريد قطمها ، لكنها كانت سخنة تلسع أصابعه فيتركها ليمسكها من مكان أبرد قليلاً ، سخونتها امتصت برودته فتمهل وتعقل ، قبلها فى جبينها ، جرت الدماء فى

أوصالها إذ هو يهبط بفمه على شفتيها ويطوقها بذراعيه . . . أوقفها . . . أدارها . . . أمسك بدلاية السوستة وسحبها نازلاً بها . . . انفك ظهر فستان الزفة . . . . خلعه عنها علقه بعناية وحرص ـ بما أنه مستأجر بمبلغ كبير ـ في المشجب الواقف بجوار السرير . . . صار جسدها بالقميص الداخلي ذي اللون القريب من لون الياسمين والمعلق على الكتفين بشريحتين رفيعتين كانت هي متحفزة، منتبهة بتركيز، تريد أن تجعل بالها من كل شيء، تستوعب كل ما سيحدث لها خطوة خطوة، تستشعر من كل خطوة أهميتها ومدى ضرورتها في إثارة اللذة وكيف، إنها خالية الذهن تمامًا ورصيدها من التجربة الجنسية صفر في كل موادها من المداعبة إلى التقبيل إلى كيفية الإيلاج وكيفية فض البكارة التي سمعت عنها حواديت بعدد شعر رأسها . . .

أما القبلة التي تلقتها الآن ـ وهي أول قبلة رجالية على شفتيها في حياتها ـ كادت بالفعل تنفضها من حرارة شيء ممتع راح يتمشى في عروقها . . . أخذها العريس في حضنه، ضغط عليها بقوة، نثر على جيدها وكتفيها وخديها وشفتيها لهاثه ولعابه وقبلاته بحركات هستيرية جنونية جوفاء حركات الجائع الشهوان الذي يريد أن يضع البطة كلها في حنكه مرة واحدة قبل أن يجيء مجهول يشاركه فيها، ولهذا راح يعضعض فيها في أماكن يستحيل قضمها وتضرس منها أسنانه . . . ضاقت أنفاسها، دفعته عنها بلطف، لاحظَت شيئًا من الضيق على وجهه، راقبتْ جسده، لم تجد أن حياة في المنطقة المرموقة، تعجبت من خمودها، عزتْ ذلك إلى اضطرابهما معًا، قالت بلطف: عن إذنك أجهز العشاء زحف وراءها إلى المطبخ، دسَّ نفسه بين إليتيها من

الخلف، أحست بدبيب الحيوية وقيامها فيه وفيها بصورة مفاجئة، أراح رأسه فوق قفاها، عصرها، انتهى فى خطفة البرق، آب إلى الخمود. . . شعرت بأنها سقطت من أعلى طابق فى ناطحة سحاب فتكسرت عظامها، أطفأت شعلة البوتاجاز وانحنت تتساند عليه خوف التهاوى على الأرض من دوخة جعلت الأرض تدور من تحتها، صوت خرير المياه فى حوض الحمَّام فوق جسد العريس كأنه صوت طشطشة جسدها وهو يتقلى فوق النار. . . كانت شبه مغشى عليها، لا تكاد تدرى كيف تلم جسمها وتقف على حيلها متماسكة. . . تشربت الغيظ وحبات العرق البارد مع أنفاسها المتقطعة. . . على المائدة دفن وجهه فى أطباق العشاء الذى لم يكن شهيًا. . . شاهدا فيلم السهرة كل فى مكانه المتباعد. . . فى الفراش داعبها، استسلمت له فى شغف وتحفز: خمود! خمود! خمود! . . . قال لها بعصبية معتاصة بطعم الحقد: البسى قميصًا آخر وتعالى. . . لبست القميص الوردى، جلست لصقه على كنبة الأنتريه تصبّ له البيرة التى يجرعها باستمتاع، يلف سجائر الحشيش، يأمرها بأن تتمشى أمامه رائحة جائية، فهمت أنه يريدها تستعرض مفاتنها أمامه، قالت لنفسها: ما يضرَّش، أخذت تتمشى على النحو الذى تعرف بالغريزة أنه يهيج الرجل. . . . جاءتها صورة الفنانة شادية وهى تمثل دور «إيرما لادوس» العاهرة العالمية الشهيرة، ضحكت، ثم خجلت، ثم اغتاظت من نفسها ومنه، جلست على كرسى فى مواجهته. . . قال لها: اشربى جرعة بيرة، تذوقتها احتملتها حتى نهاية الكوب، انتقل إليها، أدخل السيجارة بين شفتيها: خذى لك نفسين. . . أخذت، كحت، شفطت، كحت، شفطت، دمعت عيناها، أزاحت يده بالسيجارة. . . دهس السيجارة فى المنفضة،

أحاطها بذراعيه، حملها إلى السرير، لامستها حيويته القائمة نصف قومة، استبشرت، فتحت بابها للبهجة . . . . البهجة انكفأت: خمود! خمود! خمود! . . . بعد قليل تعالى شخيره . . . بعد قليل سحبها شخيره المنتظم الإيقاع إلى بئر مظلم غابت فيه عن وعيها تمامًا . . . .

في الليلة الثانية كانت مجلوة حتى رضيت عن نفسها في المرآة، كانت ترتدي قميصًا في لون السماء الصافية يشف عن تقاطيع جسدها بالكامل . . . ظل العريس طوال الليل يجرع البيرة ويدخن سجائر الحشيش ويفرض عليها المشاركة كوبًا بكوب وسيجارة بسيجارة حتى داخت، ثقل رأسها، تشوش، اختلطت عليه المرئيات، استسلم لاسترخاء تام كأن لا علاقة لها بجسدها من وراء منطقة الوعي كانت تشعر به يحملها بين ذراعيه إلى السرير . . . بشريحة ضيقة جدًا من ضوء الوعي الغائب شعرت بيديه تعبثان في جسدها، في جميع أنحائه، شعرت بآلام قاسية لذَّ لها أن تتجاهل وجعها في انتظار ما قد تسفر عنه من لذة تتعشقها وتصحيها، لكنه بعد قليل يؤوب إلى خمود قاهر مذل لكبريائها الجسدي . . . في منامها تتداعى صور ومشاهد مما كانت تسمعه من صديقات أمها ومن الداية عن مثل هذه الهزائم التي يزول أثرها بعد حين وتتصحح الأمور والأوضاع من تلقاء نفسها . . .

في الليلة الثالثة دخلت الحمَّام وزينت نفسها أربع مرات، غيرت أربع قمصان: الفسدقي والبنفسجي والأزرق الفيروزي والبنبه المسخسخ، ما بين القميص والقميص أشواط من صراع مرهق مرير ضد الخمود، رقص وتمريغ وتدليك وعبث جنوني، سيحان ولزوجة

مقرفة تنتهى بالقميص إلى جوف الغسالة الكهربائية وبها إلى حوض الاستحمام، ثم الاستسلام لإيقاع الشخير المنتظم يغرقها فى بئر النوم الغطيس . . .

فى الليلة الرابعة كان الخمود سيد الأخلاق طوال النهار والليل، كل ما هنالك من حياة ظاهرة أن قمصانها السابقة كانت منشورة على حبل الغسيل الممدود فى الشارع بعرض البلكونة . . . ناداها الشخير مبكرًا وكانت هى فى انتظاره مشتاقة إلى غيبوبة تريحها من السأم وتنسيها هذه اللعبة السخيفة المضنية من أساسها . . .

فى الليلة الخامسة فتحت الدولاب، لا يزال عندها الكثير من قمصان النوم الجديدة المدخرة من سنوات طويلة مضت، أمها أتخمت دولابها بعدد هائل من قمصان النوم أشكالاً وألوانًا ومستويات مختلفة من الأقمشة الشفافة كأن قمصان النوم هى المحور الرئيسى فى الحياة . . . وقفت قُصاد نفسها فى مرآة الدرفة الداخلية للدولاب، الرف الذى رصت فوقه القمصان والسنتيانات والكلوتات ظاهر بأكمله جوارها فى المرآة . . . نظراتها تنتقل بين رصات الأغلفة السيلوفانية المزركشة بصور لنساء عاريات فى ألوان بهيجة سخنة، تبحث بينها عن قميص يختزن فى لونه فى شكله بارود الرغبة وعنفوان الإثارة . . . كانت تشعر وكأنها تخطط لبعث الحياة فى أرض شراقى . . . كانت كأنها تبحث عن مولد للنار حيث لا ثقاب وإن توفرت حكاكة . . . كانت وياللعجب تجد لذة فى تلك اللحظة لعلها ألذّ من تلك التى وُعدت بها منذ مولدها إلى اليوم . . . سحبت أكثر من مغلف فتحته واستخلصت منه القميص وفرطته على جسدها فى المرآة ثم طوته

وأعادته إلى مغلفه . . . فوجئت بالعريس واقفًا بحذائها وأمامها فى المرآة . . . برفق وحنو أزاحها قليلاً، مد يده إلى الرف، سحب مغلفًا لا تدرى هى كيف اكتشف مكانه والتقطه من بين الرصات، فتحه، إذا به القميص الأسود . . . ذهلتْ لبرهة ملغمة بالتشاؤم وهو يفرده بابتهاج . . . لم يكن يدور بخلدها مطلقًا أن ترتدى القميص الأسود وهى عروس، كان خيالها متمركزًا فى الألوان السخنة الزاهية المبهجة المثيرة، أما القميص الأسود اللون؟! . . . ولكن، لماذا لا؟ إن سواد لونه وإن كان حادًا قاتمًا فإنه يلمع بالأصالة والسخاء الحريريين . . . جالت نظراتها بين طياته، بدأت تبتهج من لذة اكتشافها ـ لأول مرة فى حياتها ـ لأصالة اللون الأسود وجماله الكلاسيكى الفاتن الرصين المهيب جميعًا كأنه سيد الألوان وإنه لكذلك بالفعل فيما يظهر لها . . . . رأته يسيل متدفقًا على جسدها فى سخاء فانتشت . . . ياالجمالها الفاتن . . . كانت كأنها ضوء باهر يشع من فانوس أبنوس يرسم فى الفضاء وجها أين منه القمر؟ وكتفين فشر المرمر، وذراعين وساقين وجيدا أتلع وصدرا كحوض النافورة، تلك كلها أوصاف راح العريس يتغنى بها . . . يا للغرابة المذهلة ها هوذا العريس ينتفض، قام الدم فى عروقه ضخ فى وجهه صارت بين ذراعيه هذه المرة مدعومة بقوة سحرية، الآن هو عريس فعلى بحق، الآن يسرى فيها التيار الكهربى ينفض جسدها نفضًا، الآن تشعر أن ما تراكم بين حناياها وأضلاعها من غبار وأتربة هموم وأوجاع وكوابيس كل ذلك يتطاير منها فى الفضاء يخففها يتركها بعد حين كالخساية وقد نُزعت عنها الأوراق الذابلة والألياف الخارجية الخشنة فلم يبق منها سوى القلب الندى الرطيب مغطى بملاءة من وريقات الشجر . . . .

يالله كم أحبت القميص الأسود! . . . بات هو التميمة السحرية فى حياتهما، بات رمزًا للبهجة واعتدال المزاج فى حياتهما بوجه عام. . . بات زوجها لا يقوم ولا ينام إلا عليه. . . غصبًا عنها أصبح القميص الأسود يتوارى لأسابيع وربما شهور تحت ضغط الهموم اليومية القاهرة أصبح زوجها يتعامل مع القميص الأسود باعتباره لغة خطاب موجه منها إليه، إذ إنها كثيراً ما تستسلم له فى الفراش مرغمة تحت ضغط أو على سبيل الاعتياد والصدفة أحيانًا، إنها فى الواقع لا يتجه خاطرها إلى لبس القميص الأسود إلا إذا كان مزاجها رائقًا بالفعل والرغبة عندها صاحية، هكذا ارتبط القميص الأسود بهذا الفعل على وجه التحديد. . . زوجها ليس يفهم هذا إنما يفهم ـفحسبـ أنها «تلاعبه» بالقميص الأسود الذى ارتبط عنده بالتوفيق فى الأداء، وكونها لا تلبسه لحظة يريدها معناه أنها ليست تريده فتعْمد إلى إحباطه وقتل الرغبة فيه. . . يستبد به الغضب، يرغمها على ارتدائه بكل وسائل الضغط من تملق إلى لوى بوز إلى الإمساك عن الصرف إلى التهديد والوعيد إلى التذلل أحيانًا. . . عند هذه الحالة تنزل على رغبته حتى لا يتمادى فى الهوان على نفسه فيفسد فى مذاقها طعم الرجولة الكريمة التى هى شرط أساسى لكى تستكن إليه راغبة متطامنة كريمة أيضًا. . .

إلى النقيض جاءت حالتها النفسية. . . أصبحت تكره القميص الأسود باعتباره قد بات رمزًا لخضوعها غير الأنثوى. . . فى السابق كان خضوعها أنثويًا غريزيًا طبيعيًا يتم فيه تبادل اللذة بين إرادتين متكافئتين كل منهما تنازلت بمزاجها عن شىء من خصوصيتها من أجل تقسيم المتعة بينهما، أما الآن فخضوعها بات نفسيًا قهريًا، لم يعد

الجنس جنسًا بل صار «عملاً» فيه سيد ومسود، صار ـ ربما عند زوجها بشكل خاص ـ هما رئيسا، كأنه الطريق الوحيد أمامه فى الحياة لإثبات رجولته التى لا شك يشعر ـ كما تشعر هى ـ بأنها ضائعة تمامًا خارج البيت بصورة صادمة لها لدرجة أنها ـ وهى الأنثى ـ أصبحت تميل إلى الاسترجال والخشونة والعنف أحيانًا للدفاع عن نفسها ضد أطماع الرجال من أصدقاء زوجها ومعارفه . . .

كرهت القميص الأسود بعد أن انطبعت عليه نفسية أسود منه ذات طبيعة قذرة : كان زوجها ذلك المأفون ـ لكى يثبت فروسية تليق بعنفوان الإثارة فى القميص الأسود ـ يملأ جوفه بالبيرة والويسكى والأفيون ويعبئ مخه بالهيروين المشموم بل ويذهب إلى الصيدلى الصديق ليعطيه حقنة فى رأس عضوه نفسه ليصير وتدًا صلبًا يصمد فى هبد ورزع لعدة ساعات تتحول فيها المسكينة هناء من زوجة أو من أنثى محترمة إلى مجرد وعاء، إلى أداة يعبث بها رجل مأفون غائب عن الوعى لا هو يستمتع حقًا ولا هى عندها أدنى رغبة فيما يُفعل فيها إذ إنها فى الواقع ليست «تفعل» شيئًا . . . كثيرًا ما كان يقع مغشيًا عليه لا يفيق إلا بإسعافات طبية . . . أخيرًا كان لابد أن يحدث ما حدث : انجلط الدم فى مخه، انفلج نصفه الأيسر تعطل لسانه أصبح مأساة فى حياتها . . . لكنها برغم عطفها الشديد عليه، لن تنسى طوال حياتها حقارته ونذالته، لقد أتيح لها ذات ليلة أن تسمع من وراء الستار حديث السكارى الشمامين الحشاشين الأفيونجية فى حجرة صالون بيتها يثرثرون بلا حياء حول أوضاعهم الجنسية مع زوجاتهم أو عشيقاتهم أو خادماتهم، وقد غاص الخنجر المسموم فى قلبها حين فوجئت بذكر

القميص الأسود ومدائحه خلال الحديث فأيقنت أن زوجها ذاك المأفون لابد أن يكون قد حكى لهم - مثلهم - عن مغامراته معه . . . كان أعمق شعور بالعبودية الحقة يسحق نفسيتها ، يكفى أن شلة من أصيع الخلق يسهرون فى بيتها ينتهكون حرمته وحرمتها وهى لا يحق لها طردهم! . . .

تلك قصة حكتها لى إحدى صديقاتى وطلبت منى أن أكتبها وأنشرها لعلها تنبهنا إلى ما فى نفوسنا من سواد تطرح مسئوليته على الألوان ظلمًا وعدوانًا . . . وها أنذا قد فعلت . »

٦
طائر من ألف ليلة وليلة

أعدت قراءة القصة وحدى فى البيت عدة مرات بأمزجة مختلفة على عدة أيام؛ ثمة حميمية ربطتنى بها، لعلها شخصية الكاتبة التى تعاطفت معها تمامًا حتى وإن اتضح بعد ذلك أنها ليست خيرات الشامى، لكن حدسى يؤكد لى أنها هى، وخبرتى فى الكتابة القصصية والروائية تقول لى إن الحدث الرئيسى فى القصة قد وقع للكاتبة نفسها وليس فيه أى تأليف أو تطفل على تجربة غير معاشة غير محسوسة جيدًا، المرجح عندى أن خيرات الشامى كتبت تجربتها الذاتية مع عريسها فهمى القزاز، الذى قد نستشف شخصيته بوضوح فى شخصية الزوج فى القصة، نفس الخصال والملامح والطبع الخسيس والنفسية المركبة؛ ومن ثم، فمن المرجح كذلك أن يكون المأفون فهمى القزاز قد حكى للمأفونين من أقرانه فى السهرة ـ ومن بينهم نبيل البحطيطى ـ ما كان من أمر فروسيته فى ظل إثارة القميص الأسود، ولا شك أن حديثه كان مؤنسًا فى لحظات النشوة عند السكر وعند الشم ناهيك عن أريحية الأفيون واسترخاء الحشيش وميله إلى الفضفضة؛ وعلى هذا يكون فهمى القزاز قد أفلح فى إذكاء الخيال الجنسى الشرير عند نبيل البحطيطى المولع أصلاً بجمال خيرات إلى حد استخسارها فى فهمى؛

ومن المحتمل أن يكون افتتان نبيل بخيرات إلى حد الوله المجنون والهستيريا ناتجًا عن كثرة ما حكاه فهمى عن فروسياته مع القميص الأسود، وفى يقينى أن جنون نبيل بخيرات يقوى بين لحظة وأخرى نتيجة لضعف شخصية فهمى من الأساس، أما وقد أصبح فهمى كتلة من الروبابيكيا لا قيمة لها فإن هدف نبيل الآن ـكما يلوح لىـ يتركز فى محاولته إزاحة فهمى من طريقه بأى شكل ليستأسد على خيرات يلوى ذراعها يخضعها تحت ملكيته بالخسة والابتذال. هو نوع من عشم إبليس فى الجنة، ولكن منذ متى كان الوصولى المجنون على دراية بعواقب الطموح الأخرق؟ . . .

ـ «والله إنها لطيبة وبنت حلال تصور يا مروان؟ . . . ونقية!».

هكذا قالت فايقة حينما شرحت لها ما دار فى خواطرى، ثم مصمصت بشفتيها فى استعبار:

ـ «تصور لو أنها لم تكتب هذه القصة ولم تقرأها أنت! . . . كانت شخصية خيرات ستبقى ملوثة فى نظرك أبد الدهر! على الأقل كانت ستهتز وتصبح محل شك!».

ـ «نحن لم نتأكد بعد أنها هى التى كتبت!».

ـ «بوستة! بوستا . . . اااه!».

أتتنا الصيحة عبر السور مقتحمة باب الشرفة مكررة صداها مرتين. تفزع فايقة دائمًا من صيحتين: التلغراف والبوستة، كلاهما قد يحمل إليها أخبارا صادمة من البلد، ما أن استوعبت صوت ساعى البريد حتى قفزت إلى الشرفة هاتفة:

ـ «أيوه! تفضل!».

دلف ساعى البريد من باب السور وسلمها مظروفًا فخيمًا بحجم الصفحة الفلوسكاب، كنت مسترخيًا على الكنبة الأسيوطى مفعمًا بحدس متخم بالمرح بعد إذ رأيت وجه فايقة ينبسط، ثم ينعقد ما بين حاجبيها على شكل ثلاث علامات تعجُب؛ عندئذ لمحت خط خيرات على المظروف. تجسدت الدهشة على وجه فايقة وصارت تلوح بالمظروف صائحة فى مرح:

ـ «عجايب! إنها خيرات! يئست من مراسلتك على المجلة فجربت البيت؟!».

ـ «ليس هذا هو المهم الآن! المهم أننى متأكد أن القصة داخل هذا المظروف!».

فعلاً كان ملحق الجريدة بكامله فى المظروف، وفى وسطه خطاب من ثلاث صفحات من «بلوك نوت» قصير. جلست فايقة لصقى تشاركنى فى قراءة الجواب... الحزن العميق يخيم على سطور الجواب: ارتفاع مستوى دخلها المادى بصورة لم تكن تتوقعها وهى على فيض الكريم، المعاملة الكريمة التى تلقاها فى مستشفى الرياض وكيف يدللونها لكى تبقى أطول فترة ممكنة؛ البقشيشات والهدايا الثمينة التى تتلقاها من مرضاها مشايخ النفط والأمراء الذين تسهر على راحتهم بإخلاص وضمير مهنى وروح إنسانية؛ الكتب التى توفرت لها بسهولة ففتحت عينيها على العالم الذى طالما حلمت به وافتقدته فى واقعها المرير فى مصر؛ نجاحها فى تجميع مادة أولية لكتابها عن مهنة التمريض، ومعنى أن تكون الحكيمة حكيمة بحق وجديرة بلقب:

ملاك الرحمة ؛ كل ذلك بالغ الحلاوة لكنها تتذوق فى نسيج الرحيق السكرى لذع مرارة خفية تفسد عليها كل متعة وتمغمص بالها فلا تجد لها ملاذا ـ والوقت طويل يلزمه بال أطول ـ سوى القراءة والكتابة تدفن فيهما قلقها فما أن تندمج فى أى منهما اندماج الصفاء والضياء ما أن تشعر بالسعادة حتى ترى فى عمق الوهج نقطة سوداء رأس الدبوس تزحف نحوها يتضاعف حجمها كالكرة، ثم يتسع قطرها مكتسحًا الضوء من حواليها، ماذا تملك عندئذ سوى أن تسند رأسها على كفها مستسلمة لطائر أسود من طيور ألف ليلة وليلة يحملها على جناحيه يغوص بها فى أجواز الفضاء فى جنح الظلام يصل بها إلى القاهرة يحلق فوق سرير ولديها وهى تراهما وتبكى من كل عين حفان، تكاد تقتل نفسها تتخلص من جناحيه ترمى بنفسها فوق السرير ولو لدقيقة تملس بيدها عليهما تقبلهما تحكم الغطاء فوقهما، تغصب على نفسها فتعبر إلى الأنتريه لتلقى نظرة على فهمى وهى موقنة بأنها ستراه كما هو غارقًا فى ضباب الحشيش وبلاهة السُكر وغيبوبة الهيروين حتى وإن كان قد كف عن التعاطى بعد المرض فإنه باق فى قلب المعمعة تحت طائلة التأثير ؛ يا ربى قلبها يأكلها فى سبيل أن تطمئن ولو بنظرة واحدة. ما أجمل أن يرن جرس الهاتف حينئذ، ينتشلها من المحيط المعتم فتفاجأ بالضوء من حولها ؛ مرحبًا بأى نداءٍ من أى سرير من أى غرفة فى المستشفى، ستلبى فى الحال وهى فى منتهى السعادة فهذه هى لذتها الوحيدة فى الدنيا حاليًا، هذه هى اللحظة التى تشعر بأنها تتحقق فيها، هى اللحظة الوحيدة التى تنسيها ـ مؤقتًا ـ محيط الظلام وجناحى ذلك الطائر الأسود. عقب الفوقان من كل تحليقة تقرر إنهاء ارتباطها والعودة فورًا إلى القاهرة وبارك الله فيما رزق ؛ لكن الطائر الأسود

نفسه سرعان ما يحملها ويريها أى بؤس ينتظرها فى القاهرة مع كومة من اللحم الخسيس لا يثمر فيها طيب ولا معروف؛ هل تتصور يا أستاذ مروان أن ذلك البنى آدم السافل المدعو نبيل يرسل إلى مدير المستشفى جوابات كيدية تحرضه على فصل خيرات الشامى من المستشفى؟، على كل حال فمن حسن الحظ أن المستشفى بجميع المسئولين يعرفون حقيقتها جيداً، إنما الذى بات يزعجها حقًا مع كل ذلك الشوق والندم هو مجرد التفكير فى العودة؛ مجرد تصورها للعيش مع فهمى وشلته القذرة فى حياة واحدة بات أمراً مستحيلاً؛ لكن كيف تتصرف مع العيال؟ العيال هم مصدر قلقها الوحيد؛ إلا أنها تتعشم أن يهديها الله قريبًا إلى حل يرضى جميع الأطراف بإذن واحد أحد.

الفصل العاشر

١

سفرية غامضة

لأول مرة يهاتفنى الحاج كامل سراج الدين فى مكتبى فى المجلة، بكثرة التحيات وتكرار عبارات عامل إيه والحمد لله . . . إلخ، سألنى إن كنت بعثت جوابًا للمدام خيرات كما اتفقنا؟ فخشيت أن أقول له إننى بعثت عدة جوابات خلال فترة قصيرة وتلقيت عددًا من ردودها وأن حالتها النفسة تزداد كربًا على كرب بسبب تفكيرها الجدى فى العودة وإحساسها القوى بضرورته يقابله فى نفس الوقت إحساس أقوى بأنها عائدة إلى مأساة لن تستطيع احتمالها دون خسائر باهظة لا يقوى أحد على دفعها . . . فقلت للحاج كامل إننى بعثت جوابًا من كم يوم وتلقيت ردًا منها بأنها تقوم الآن بالترتيب للعودة؛ فإذا به يقاطعنى كأن ما أقوله ليس يعنيه فى شىء:

ـ «فيه خدمة بسيطة وحياة والدك!».

ـ «تفضل!».

ـ «فهمى بك ضاعت شنطته السمسونيت فى البيت! وفيها أوراق ومستندات خاصة به! . . . لا أقصد أنها سُرقت! أقصد القول

بإنها . . . تائهة! يعنى محطوطة فى مكان منسى! ولكن المشكلة أن فهمى بك وأنا ودادة حليمة فتشنا البيت شبراً شبراً! سلقط فى ملقط لم نجد لها أثراً! بينى وبينك أنا لا أحب أن أرتكب ذنبًا وأشك فى واحد معين ولهذا يجب أن أتأنى! . . . أصل الموضوع يا مروان بك خطير: ستتهم فيها كلنا نبيل وخربوش وأنا! فمن يدهس فى البيت غيرنا؟ لو ضاعت هذه الشنطة يا مروان بك سوف أجعلها كارثة على دماغ نبيل حتى يعترف، لأن صبيى خربوش يستحيل أن يفعلها! . . . أخذت بالك حضرتك؟! . . . و . . . ».

ـ «اسمح لى! ما هى الخدمة المطلوبة منى؟».

ـ «أقول يعنى لو حضرتك بعثت لها خطابًا بالبريد المستعجل تسألها فيه! إن كانت تتذكر موضوع هذه الشنطة؟ . . . أنا اخترت حضرتك لأنك لك الدلال عليها! وجوابات فهمى كما تعلم يكتبها له نبيل! وردود خيرات عليه يقرأها عليه نبيل أيضًا! . . . أريد أن يكون هذا الأمر سراً بينى وبينك فحسب! . . . هذا الأمر يهمنى جداً يا مروان بك على فكرة فأرجوك كل الرجاء أن تأخذه بجدية! اتفقنا؟».

ـ «ماشى يا حاج كامل!».

ـ «بس يكون بسرعة وحياة والدك!».

ـ «حاضر يا حاج كامل!».

شغلنى أمر هذه الشنطة السمسونيت التى لم تكن على البال هى

الأخرى؟ قررت أن أكتب لخيرات وأسألها فعلاً عن هذه الشنطة، سيما وأن الحاج كامل نجح فى إثارة رغبة شريرة رأيتنى عليها ميَّالاً لإدانة نبيل كأننى سأكون سعيدًا لو اتضح أنه هو الذى سرقها. وفيما كنت مستغرقًا فى كتابة الجواب دخلت فايقة بفنجان القهوة فوضعتها ثم جلست، بدت كأنها ستطلعنى على خبر يجب أن يهز العالم كله من فرط خطورته:

- «اسكت يا مروان... مش أنا رحت المدرسة النهاردة وشفت عيال خيرات وقعدت معهما: زياد وإيمان!...».

وأكملت العبارة بحركة ولولة من يديها عبَّرت بها عن لطم الخدود وشق الجيوب والصوات والعويل، وقد شحب لونها وضؤل وجهها كأنها قادمة من جنازة...

- «حصل إيه يا فايقة خضتينى؟!!!».

- «تصور يا مروان؟! لا يريدانها! تعود أمهما أو لا تعود مسألة ممسوحة من دماغهما! لا يقولان: ماما! يقولان: مدام خيرات! وأحيانًا خيرات بس!... لا توجد عاطفة نهائيًا يا مروان!».

- «رغم ما تبعثه لهما كل شهر من أموال وملابس مستوردة يغار منها عيالك!».

- «الولد زياد يقول: أنا مش فاكر شكلها الست دى!».

- «متعاطفان مع أبيهما؟!».

لطمت خدها مرة أخرى أكثر حدة:

ـ «البت إيمان تسميها الباشسجان!».

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله، وعلاقتهما بحليمة؟».

ـ «كنت تعال شفها وهى تبكى!».

ـ «فى المدرسة؟!».

ـ «بعدما خرجنا!».

ـ «ولماذا ذهبتما أساسًا؟!».

ـ «كانوا طالبين أولياء الأمور من أجل رحلة!».

ـ «وما بكاء حليمة؟!».

ـ «يئست من جعلهما يحبان أمهما أو يشفقان على أبيهما! . . . تصور يا مروان؟ الآية انعكست: بدلاً من أن تُحنن حليمة قلب العيلين على أمهما أصبحا يكرهان حليمة نفسها إذا جاءت بسيرة أمهما أمامهما! لا يفرحان بالهدوم الجديدة! يلبسانها غصبًا عنهما! . . . وبدلاً من أن تجعلهما يفهمان أبيهما أصبحا يقرفان منه! نعم يا مروان يقرفان منه! إيمان وزياد لا يمكن لواحد منهما أن يمسح حنك أبيه مرة! أو يسنده إلى الحمّام! أو يقضى له أى طلب! شفت أنت ماذا يفعلان لو جلسا يأكلان معه على مائدة واحدة! مستحيل! دائما يهربان من رؤيته فى الساعات القليلة التى يقضيانها فى البيت! . . . البنت إيمان شتمته مرة! تصور يا مروان؟! ش ت م ت ه! قالت له: داهية تقرفك! المذهل يا مروان أن البنت والولد تقاريرهما تقول إنهما من أكثر تلاميذ

المدرسة أدبًا وتربية وحسن أخلاق ووداعة! أليس هذا شيء يخول العقل يا مروان؟!».

ـ «شيء مؤلم فعلاً والله يا فايقة!».

ـ «هذا الجواب الذى تكتبه . . . لها؟».

ـ «نعم!».

ـ «أبصق فى وجهها لو سمحت! أنا جادة لست أهزر! . . . قُل لها كلامًا يشبه البصق فى الوجه! . . . إيه! . . . ما صدقت؟! خلعت جلدها ونسيته؟! نسيت لحمها؟! وحضرتها قاعدة تكتب لى قصصًا؟ جاتها ستين نيلة! تيجى تشوف المآسى اللى هى مألفاها فى بلدها!».

ـ «حلمك شوية يا فايقة!».

ـ «فى الأول كنت محتارة: أقف مع مين؟ كل واحد كان موقفه مقنع! الآن قلبى يلعنهما معًا! . . . كنت استعقل خيرات والآن هى فى نظرى بغير عقل! . . . فإن جاء لها عقلها ولحقت نفسها وعادت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فربما أحبها من جديد! . . . صرح لها يا مروان أنها وراءها فى مصر سنوات طويلة من التعب المر فى علاج نفسية العيلين حتى يعودان إلى حضنها ولو بعد فوات الآوان!».

كلام فايقة كان له تأثيره حقًا فى الخطاب الذى كتبته؛ لم أسوِّد الدنيا فى وجهها ولكننى ناشدتها بلهجة تقرب من الضراعة أن تعود بأى شكل فى أقرب فرصة ممكنة. سجلته فى مكتب بريد شارع مجلس

الأمة القريب من مكتبى . . . فى المكتب أخبرنى عامل السويتش أن الحاج كامل بك سراج الدين اتصل بى ويرجونى الاتصال به فور عودتى إلى المكتب . . .

جاءنى صوته متهللاً . داعبته قائلاً : لعلك علمت بأننى كتبت الخطاب وسجلته الآن ؛ فهتف بى :

ـ «عندى خبر أهم من الخطاب الآن!» .

ـ «أفرحنى به إذن!» .

ـ «أخيراً ستتحرر من الاحتلال البحطيطى!» .

ـ «وجلجلت ضحكته الصاعقة فارتجّت السماعة فى يدى فأبعدتها عن أذنى قبل أن تخترق طبلتها ؛ فلما استطرد كان صوته مسموعًا على البعد» .

ـ «سنأخذ فهمى بك ونسافر إلى الاسكندرية! جوها جميل وهادئ فى شهر أكتوبر! . . . نقعد لنا ثلاثة أيام حلوين فى الشاليه بتاعى أو فى شقتى فى سيدى بشر! منها ترويق لأعصاب الرجل وتجديد مناظر! ومنها فرصة للتحاور مع فهمى بك على رواقة لعله يعرف دخله من خارجه! ربما يكون له ديون عند أحد فيتذكرها فنخدمه فى السعى وراءها! أو ربما يكون له مصالح فى جهات فنتعرف عليها! . . . على فكرة كل هذه الأشياء لم نكن فى احتياج لتذكرها لو لقينا الشنطة السمسونيت بتاع فهمى بك!» .

ـ «حليمة أم السعد وافقت على سفره!» .

ـ «طبعًا! وأنا كلمت الحاج عبد الفتاح الشامى فى المنصورة واستأذنته ففرح وشكرنى وطمأنته على أن فهمى بك فى عهدتى!»

ـ «ومتى ستسافرون؟»

ـ «الآن! وهذا خربوش وصل ومعه فهمى بك!»

ـ «على خيرة الله! رحلة سعيدة!»

ـ «انتظر! أنت حضرتك معمول حسابك فى الرحلة! فرصة لن يكون البحطيطى موجودا فنجلس معًا نتذوق بعضنا بعضًا وتكون صداقة بحق! . . . إذا كنت مشغولاً الآن قل لى متى أبعث لك السيارة مع خربوش تأتى بك إلينا . . . سنبقى أسبوعًا كاملاً نغسل أنفسنا من وساخة القاهرة! . . . تعال طاوعنى! ستستمتع إلى أقصى ما تتصور ولن تخسر مليمًا واحدًا! . . . هيه؟ خربوش يأتى؟»

ـ «كان بودى والله يا حاج كامل! . . . اليومان القادمان أهم أيام الأسبوع بالنسبة لى فى شغل المجلة!»

ـ «يا خسارة! . . . خذ فهمى بك معك!»

الكلمة الوحيدة التى فهمتها من صوت فهمى بك هى : آلو؛ لكن إيقاعاته الصوتية كانت تشى بنغمة الرجاء والإغراء؛ ثم إن حرارة الخط انقطعت فوضعت السماعة وانصرفت إلى ما كان ينتظرنى من عمل . . .

سافر فهمى بك مساء الأربعاء. وفى مساء يوم الجمعة، حوالى الساعة الرابعة مساءً فوجئنا بحليمة أم السعد تطرق بابنا، ثم دخلت علينا هلعة شاحبة الوجه . . .

ـ «خيراً يا أم السعد؟ ما بك؟!»

قالت إنها آتية لتوها من قسم الشرطة . . .

ـ «يا لاا اهوى ى ىْ! . . . وصلت لقسم الشرطة؟!»

هكذا ولولت فايقة. قالت حليمة :

ـ «عمرى ما خطر فى بالى أن يحصل ما حصل لكن . . . منه لله الحنش!»

ـ «حنش ده يطلع مين يا أم السعد؟!»

سألتها فايقة وهى ترتعش ؛ فاستدركت حليمة :

ـ «اللى ما يتسماش نبيل!»

ـ «استر يا رب! ماله!»

ـ «حيودينى المروستان!»

قدمنا لها كوبًا من الليمون، رجوناها أن تحكى لنا بالتفصيل ما حدث ؛ فتشربت أنفاسها وجعلت تحكى . . .

٢
حادث مشبوه

. . . «فهمى بك من كم يوم رأيته يعكرش فى قعر الدولاب ويبرطم ويصوت مثل طفل ضاعت لعبته . . . فين وفين على ما فهمت أنه يسأل عن شنطة اسمها سنسومايتى كانت هنا فى قعر الدولاب! . . .

«صراحة أنا كنت اختيلت بهذه الشنطة مرة! شفتها تحت الهدوم أول ما جئت مصر لكننى منذ مدة طويلة لم أرها فنسيتها . . .

«تزربن وبكى! وفى الليل نادانى الحاج كامل وشرح لى أن هذه الشنطة ليس فيها فلوس ولكن فيها ما هو أهم من الفلوس ولا يمكن أن يكون عفريتًا دخل البيت من ورائنا وسرقها رغم أن الذى سرقها لن يستفيد مما فيها! . . . ووصفها لى الحاج كامل بأنها سوداء اللون لها قفلان على الجانبين، وسحب شنطة كانت مع المخفى نبيل وقال: مثل هذه بالضبط يا أم السعد الخالق الناطق، ونبيل قال: فعلاً وكانا يتوهان فى بعضهما أيام كان كل منهما يحمل شنطته ويتقابلان . . .

«قلت للحاج كامل إننى فاكراها وفاكرة شكلها وسوف أعرف إن شاء الله أين اختفت بعد أن أروق لها . . ولكن الحاج كامل قال: لسه حتروقى؟! تعالى ورايا! . . . دخل وفتش فى الحجرتين حتى شنط

العيال فتش فيها ووراء الكراكيب وتحت السراير ونملية المطبخ وكان مغتاظًا أشد من فهمى ويصفق كفا على كف ويقول لفهمى: خلاص يا عم موت يا حمار على ما يجيلك العليق! . . . وأنا كنت مغتاظة من هذه الحريقة التى قامت ولم تكن على البال، أقول: اشمعنى دلوقت افتكرتوا الشنطة؟ والحاج كامل يقول كأنه يردح لى: كان لابد ننتظر يا أختى لحد ما يفوق من الغيبوبة ويتعلم الكلام ونتعلم إزاى نفهمه! فهمتى يا أختى؟! . . .

«ربك والحق أنا كنت حاسة بالعار: عيب على امرأة مثلى أن يضيع من بيتها ولو قشاية. . . صممت على أن أجدها قبل أن يعوصنى ضياعها وأنا المسئولة عن البيت وربما يعوص ناسًا أكبر منى محترمين كالحاج عبد الفتاح الشامى خصوصًا إذا كان صاحب الشنطة واحدًا خسيسًا مثل فهمى سريع الغلط قد يطول لسانه الزفر على الرجل ويتهمه بأنه أوصانى بسرقتها! . . . نويت أن أشد تليغرافًا لخيرات أسألها عن مكان الشنطة هذه لعلها تكون على علم بها وبه، وانتظرت حتى يجىء عبود فى أول زيارة من التجنيد ليكتبه لى باسمى. . .

«فلما جاء عبود سألته هل يتذكرها؟ فقال: نعم. . . أين هى يا عبود؟ قال: إنه كان يعرف أن فيها أشياء مهمة تخص زوج أخته، ولما كانت شقتنا صارت سداحًا مداحًا يدخلها كل من هب ودب ويدهوس فيها كيفما شاء خاف عليها فنقلها من قعر الدولاب الذى تخلعت أبوابه وفسدت أقفاله وضاعت مفاتيحه، وأخفاها فوق سطح الدولاب من الداخل البعيد لا أحد يستطيع رؤيتها إلا إذا وقف فوق سلم، هكذا، وجاء بسلم المطبخ ووقف على آخر درجاته رغم أنه طويل القامة ومدّ

ذراعه كله وتمطى مائلاً بصدره حتى تمكن من سحبها من الركن محاطة بموجات من التراب المتطاير منها . . . .

«اطمأن بالى ؛ مسحت التراب عنها وصعدت السلم وركنتها بيدى فوق حافة سطح الدولاب نصفُها كله بارز لكل من يدخل الحجرة إلى أن يجىء فهمى بك من الاسكندرية . . .

«بات الولد ليلتـه مـعى ومن صـبـيـحـة ربنا توكل على الله إلى وحدته . . .

«البارحة كان الخميس ، الدراسة نصف يوم ، رجع زياد وإيمان من المدرسة فغديتهما ، إلا والمخفى نبيل يطبّ علينا كالقضا المستعجل ، الولد زياد مولف عليه والبنت إيمان تستظرفه ، دخل كعادته لا إحم ولا دستور كأن البيت بيته ونحن الضيوف . . . هو يجىء كل خميس قرب أذان العصر ليذاكر لهما ويراجع دروس الأسبوع الماضى وهما يفرحان بهذه العملية وينسيان نفسيهما فيها . . . يقرفنى فى عيشتى لمدة ساعتين ثلاثة ، أتخيل ـبعيداً عن السامعينـ أن فى جوفه قش أرز يحترق ، وأتخيل أن الدخان يطلع من جسمه يعبئ الجو كله ويعمى العين ، غصباً عنى لابد أن أقوم بالواجب ، مطبخنا فى آخر الشقة من يقف فيه تنقطع صلته بالشقة من وراء ظهره ، والمخفى نبيل لا يجلس على بعضه ، عينه لايجه ، لابد أن يتنتور فى كل حتة ، إذا احتاج الولد أستيكة أو قلماً أو دفتراً من الحجرة يقوم هو بسرعة ويحضرها له ، وإذا أراد هو أن يفك حصراً فى الكنيف قام دون استئذان ومشى إليه . . .

«طلعت إلى البلكونة أشوف ما هذه الدوشة تحت بلكونتنا كان الحاج صلاح صاحب البيت الذى يسكن فى الجناح الورانى فى شقة

بمساحة الشقتين شقتنا وشقة المخفى وبابها يفتح على شارع ورانى، يقوم ببناء دور فوق البيت بمساحة شقته ليتزوج فيها ولده الوحيد، وكان ساعتها يزعق للمقاول والمقاول يزعق للبنايين وهم يزعقون للفواعلية، والمشكلة أن جدران شقة الحاج صلاح تشقق بعضها ويرتج سقفها والحاج صلاح يلوم المقاول على أنه لم ينجح فى الترميم والمقاول يتهم الحاج صلاح بأنه يبنى فوق أساس حجر ولابد من فلوس كبيرة لعمل ترميمات وصلابات وكلام من هذا. . . مسيت عليهم ونبهتهم إلى نوم الرجل ومذاكرة العيال فابتعدوا يتفاهمون بالراحة. . . .

«ما دريت إلا وزياد عند باب الشقة يقول: مع السلامة، والباب ينفتح، والمخفى نبيل يخرج ممسكًا بشنطة. . . قلبى انقبض، وحق ذى الليلة ومساها تخيلت كأن الشنطة تنادينى وتستجير بى، ربنا ألهمنى، تذكرت أنه لحظة مجيئه لم يكن يحمل شنطة ولا أى شىء، سألت زياد وإيمان: هل كان يحمل شنطة عندما جاء يا أولاد؟ قالوا: مش فاكرين، جريت وراءه: استنى لو سمحت. . . أمسكت بالشنطة، فشدها من يدى بقوة وبوجه مخيف، جريت خطوتين ونظرت فوق الدولاب فلم أجد شنطة فهمى، عدت إليه أجرى، هجمت عليه: هات الشنطة. . . شنطة مين يا ولية هل جننت؟ شنطة فهمى يا حرامى. . احترمى نفسك يا وليه فأنت تعرفين أن شنطتى شبيهة بشنطة فهمى الضائعة روحى شوفى أين ضاعت! . . . قلت له شنطة فهمى لقيناها بالأمس وهذه هى. . . كلمة منى كلمة منه أطبقت فى خناقه وفين يوجعك، أضرب وأصوت، أصوت وأضرب. . .

«اتلم الناس علينا . . . الحاج صلاح جاء يجرى مخضوضًا، أصله من صحاب الحاج عبد الفتاح الروح بالروح . . .

ـ مالك يا أم السعد؟ ماذا جرى؟ خلنا نتفاهم بالعقل أحسن.

«ما قدر أن يفك عن رقبته يدى . . . ».

ـ اتركيه لى وإن كان جدعًا يهرب!

«بسلامته عفى، قبض على ذراعه بقوة ففككت يدى وحكيت الحكاية من طقطق لسلامو عليكم . . . المقاول بصّ له بعين قوية».

ـ عدم المؤاخذة يا نبيل بك أنا شفتك بعينى وأنت داخل هنا من غير شنطة.

ـ الحاج صلاح اسم الله عليه قال:

ـ أنا أعرف شنطة الأستاذ نبيل من بين مائة شنطة! ياما هددنى بها وقعد أمامى يفتحها ويقفلها . . . شنطتك يا أستاذ نبيل أنظف من هذه وأقفالها لامعة وهذه صدئة وعليها كوم تراب متخزن يعنى باختصار هى شنطة فهمى بك من غير كلام!».

«المخفى من بجاحته:

ـ التراب الذى ترميه فوقنا حضرتك يجعلنا نتنفس ترابًا ونبصق طينًا فمتى تنتهى من البناء؟!

الحاج صلاح شوح له، فضغط على ذراعه هزه:

ـ خليك هنا بلا توهان! نحن لابد أن نفض الاشتباك بينك وبين

الولية! وخلك جدعًا! إنك فى بيت أعز أصدقائك وهو الآن غير موجود ويجب أن نرد غيبته أم ترانا نستندل ونفترى على الولية الغلبانة؟!

ـ المخفى صمم:

ـ دى شنطتى ومستعد أثبت!

ـ يعنى لو رحنا للبوليس تقول كده؟

ـ وللنيابة لو حبيت!

ـ إيه رأيك يا أم السعد؟

«قلت: نروح... طلعنا على القسم فى عربة الحاج صلاح ومعنا المقاول...

«المأمور من حسن حظنا طلع معرفة الحاج صلاح، رجل ذوق لا يتخير عن السامعين، سمح لنا بالجلوس... الحاج صلاح الله يستر عرضه قدمنى للمأمور بدخلة محترمة وركز على كونى الدادة بتاع فهمى بك القزاز... المأمور أعطانى وجهه...

«حكيت له الحكاية من أول ما سألنى فهمى عن الشنطة لحد ما ضبطتها فى يد المخفى نبيل... وكنت أبص فى عينى المأمور فأشوف أنه مقتنع بكلامى وكل شوية يبص للشنطة ويتأملها... فلما انتهيت من كلامى نظر للمخفى نبيل وابتسم».

ـ يظهر يا نبيل بك إن الشنطة تشبه لفهمى بك ولا تشبهك!

«المخفى ضحك تقولش معزة بتمأمأ:

ـ يا سعادة البيه الميه تكدب الغطاس! هى بتقول إن الشنطة شنطة فهمى القزاز . . . وأنا بقول إنها شنطتى . . هى لا تستطيع أن تثبت أنها شنطة فهمى! لكنى أستطيع أن أثبت لحضرتك الآن أنها شنطتى!

ـ كيف؟ اثبت إذن!

ـ الإثبات أننى أعرف كل ورقة فى شنطتى! وكل ورقة فيها مطبوع فوقها اسمى وشغلتى وعنوانى ورقم تليفون مكتبى . . . أنا سعادتك نبيل البحطيطى المحامى! آدى كارنيه نقابة المحامين . . . والشنطة دى فيها ملفات قضايا خاصة بمكتبى! قضايا ناس موكلنى! مظبوط كده سعادتك؟

ـ كلام منطقى مفهوم!

ـ حلو سعادتك! بقى أن نفتح الشنطة ونفحص ما فيها من أوراق . . . إذا طلع فيها أى سيرة لاسم فهمى القزاز أكون أنا محل شك! تمام سعادتك؟

ـ تمام . . . هات الشنطة .

ـ تفضل سعادتك .

ـ افتحها بمعرفتك وأرنا .

«مد المخفى أصابعه وأزاح القفلين فطرقع اللسانان، رفع الغطاء، أخذ ملفًا وأوراه للمأمور: على كل صفحة لافتة مكتوبة بالمطبعة باسم نبيل البحطيطى المحامى وتحته عنوان المكتب ورقم التليفون كما قال . . .

«المأمور فتح الملفات كلها وفر الأوراق صفحة صفحة وقرأ من كل صفحة شيئًا طويلاً، أعاد وزاد لوقت طويل طويل طويل، وفى الآخر طوى الأوراق ووضعها فى الشنطة وأغلقها :

ـ شيل شنطتك يا أستاذ نبيل . . . فعلاً يا ست حليمة الشنطة شنطة الأستاذ نبيل مائة فى المائة !

«شفت ميزان العدل يميل بعيدًا عن الحق فصرخت :

ـ يعنى إيه يا سعادة البيه؟

ـ يعنى هو أثبت أنها شنطته وأنت ليس معك أى دليل؟

ـ وشهادة الحاج صلاح والمقاول؟

«الحاج صلاح دلدل أذنيه :

ـ طلعت شنطته فعلاً يا أم السعد !

«والمقاول رفع كتفيه ومط بوزه وقطع خنس وأنا غلبنى البكاء، نزلت لطمًا على أصداغى :

ـ يعنى خلاص سيأخذ الشنطة؟ ! ظلم وافتراء !

ـ ياست حليمة احفظى لسانك ! على كل حال ! كل ما استطيع أن أفعله أن أكتب لك محضراَ رسميًا . . . ماشى؟

«الحاج صلاح قال له :

ـ يستحسن سعادتك ! المحضر يسند موقفها أمام فهمى بك عندما يجىء بالسلامة من الاسكندرية !

ـ وهو كذلك . . . يا . . . تعال يا فوزى . . . اعمل محضر للست حليمة سجل فيه كل ما شفته وسمعته كلمة كلمة وخذ توقيعاتهم عليه!

«أمين الشرطة عمل المحضر، ومشينا ودمى يغلى من شدة الغيظ من شدة الظلم أقول يا رب! أحلف مائة يمين على المصحف أن الشنطة شنطة فهمى وهذا البنى آدم سرقها عينى عينك، لكن حكاية فحص الأوراق هذه لا شأن لى بها، أنا لى شأن بما أنا متأكدة منه . . . .

«اليوم الصبح خبَّط علىّ الحاج صلاح وسألنى :

ـ «أخذت رقم المحضر وتاريخه؟

«انخض قلبى، قلت : لا، لماذا لم تنبهنى يا حاج صلاح وأنت تعرف أنى غشيمة؟ قال : ولا يهمك تعالى أخذك بعربتى إلى هناك . . . أخذنى الرجل الله يستره، كشف بنفسه على دفتر الأحوال مع أمين الشرطة، وهذه هى نمرة المحضر، فهل أنا أخطأت؟ بماذا تنصحنى الله يسترك؟».

٣
حطب الذاكرة

وجدتنى عاجزاً تماماً عن تقديم أى نصح لحليمة أم السعد، بل يكاد رأسى يكون قد شُلَّ من وقع الضربات الموجعة لفرط ما فيها من خرق، لكأننى أشهد فيلماً بوليسياً سخيفاً ساذج الحبكة ليس له ثمة من هدف إلا إثارة ذهولنا دونا عن خلق الله كلهم! ها هى ذى فايقة تجمدت فى جلستها واضعة يدها على خدها شاحبة الوجه تنتظر نهاية الفيلم ربما؟ يتجسد على ملامحها سؤال ذاهل: وبعدين؟! . . . كانت محملقة فى وجه حليمة كأنما قد تسمرت نظرتها فى عينيها؛ وإذ تبينت بعد قليل أن الحكاية تبدو بلا نهاية رفعت نظرتها بصعوبة عن وجه حليمة وألقت بها على وجهى وقد دبت فيها حيوية الرعب والفجيعة؛ دمدمت كأنها تكلم نفسها:

ـ «يظهر أنه مكتوب علينا!»

شوحت فى وجهى بيديها الاثنتين فى غضب شحب منه وجهها حتى تغيرت ملامحه التى أعرفها:

ـ «كان يوماً أسود من قرن الخروب يوم تعرفت على زفت الطين! . . . اشرب . . . احشر نفسك فيما ليس لك فيه! أصلها

ناقصة وجع دماغ وعوصة! . . . يا أخى فضها سيرة سايقة عليك النبى! . . . كنا خلصنا من هذه الشبكة السوداء فما الذى جرجرك لكتابة الجوابات مرة ثانية؟! عدم المؤاخذة يا أم السعد اتركونا فى حالنا بقى! . . . أنا تعبت من القلق ومن الوسواس حتى اختل ضغط دمى! . . . ناس لسنا من ثوبهم ولا همُ من ثوبنا قلوبهم من حجر ويفعلون ببعضهم ما تفعله مطرقة الحداد فوق السندان فهل نحن فى قوة السندان يا مروان؟! متى سنخلع منهم قبل أن يفششوا دماغنا!».

لكأنها طسَّت وجهى بطاسة زيت مغلى؛ أكاد أصرخ من سريان النار فى دمى. هذه أول مرة فى حياتها تنفجر فايقة، تقرصنى قرصًا موجعًا وعن عمد، مما وشى بأنها كانت تغار من خيرات وتضحك على نفسها فيما الشعور بالقهر يتراكم على صدرها؛ لكنها محقة تمامًا فى ثورتها وفى كل كلمة قالتها. . .

مسحت حليمة دموعها بأطراف طرحتها:

ـ «والله يا ست فايقة هانم أنت جئت بالفائدة! معك الحق كله! ولكن. . . الناس لبعضها يا ست فايقة! زوجك صحافى محترم! بلاش يا ستى يكون صاحب فهمى! اللى أنا أعرفه إن الصحافى يساعد الناس على حل مشاكلهم الحاج عبد الفتاح يقول إنهم الحمام الزاجل الذى يأخذ مواجعنا ويطير بها إلى برج الحكومة وأهل العدل! . . . والست خيرات صاحبتك يا ست فايقة وتعزك وهى الآن فى محنة وزوجها فى مصيبة! وعلى فرض أنهما يجىء من ورائهما وجع الدماغ! ألسنا نحب فعل

الخير طمعًا فى ثواب الله؟!».

فايقة التى كانت منذ هنيهة فى سورة غضب حاد سرعان ما انقلبت إلى النقيض، لانت ملامحها، فاضت الدماء تحت بشرتها وهى تهبّ واقفة تحتوى حليمة أم السعد بين ذراعيها تربت على ظهرها والدمع يترقرق بين مآقيها خلال نظرات تعكس الشعور بالحيرة والتوجس إلا أن غضبتها كان لها الفضل فى انصراف حليمة وإعفائى من الإدلاء بأى نصيحة؛ كل ما هنالك أننى حينما ودعتها عند باب السور طمأنتها بأن موقفها سليم ولن يلومها أحد عليه.

على أننى صباح يوم السبت وأنا فى طريقى إلى محطة الأتوبيس فوجئت بأننى قد غيرت مسارى ومشيت فى اتجاه قسم الشرطة.

قدمت نفسى للمأمور بصفتى الصحفية؛ تلقانى بترحاب ودماثة؛ كان غاية فى اللطف والرقة إلى حد قادنى إلى المقارنة بينه وفهمى القزاز؛ كلاهما ضابط شرطة وصاحب رتبة مرموقة ولكن شتان بين تربية هذا وعدم ربابة ذاك. رداً على مجيء القهوة التى طلبها لى مددت يدى بعلبة سجائرى مفتوحة، أزاح يدى بلطف شديد خُيل إلى أن يده الرقيقة تبتسم حياءً؛ بيده الأخرى قدم لى علبته الفضية مفتوحة على صفين من السجائر سوبر كليوباترا فأخذت منها واحدة....

كان وجهه المصرى الأليف يشبه دورقًا من البللور؛ ولمَّا كانت ملامحه البهيجة منفرجة فإن ابتساماته المتناثرة فى كل ملمح كانت أشبه بأسماك الزينة الملونة تسبح فى مياه الدورق البللورى... عجبت من أن يكون مثله ضابط شرطة يتعامل مع الجماهير رأسا. يبدو أنه لمح ذلك العجب مجسداً على وجهى، مال برأسه على الفنجان وأخذ رشفة:

ـ «لا يغـرنك منظرى!! إن وجـهى الآخـر يظهـر عند اللزوم!. . .
على فكرة أنا من عشـاق مجلة صبـاح الخيـر وأعتـبرها مـدرسة صحفية حديثة جدًا وشديدة المصرية كما أننى من عشاق حجازى الرسـام وصـلاح الليثى وحسن فـؤاد وجـمـال كـامل ومن قـراء السعدنى وصبرى موسى وعبد الله الطوخى ومفيد ورءوف أما فتحى غانم ولويس جريس وعلاء الديب فحدث ولا حرج! ولا داعى طبعًا لأن أمدحك وأنت موجود أمامى!».

بعد رشفة أخرى أضاف بروح من سيلقى نكتة:

ـ «وبالمناسبة فأنا أكتب الشعر!

ـ «كسبنا صلاة النبى!»

دهشتى كانت مشوبة بفرحة طاغية حينما رأيته يفتح الدرج التحتى لمكتبه؛ سحب نسخة من كتاب مطبوع بشكل بدائى بغلاف ذى رسوم ساذجة تقلد لوحات الفنان يوسف فرنسيس الرومانسية تقليدا حرفيًا يكاد يشف ذلك البورتريه الشهير ليوسف: الفتاة الناعمة الحالمة ذات الشعر الحريرى المتطاير فى الفضاء حول رأسها فيما عيناها مسبلتان فى نشوة:

ـ «وهذا ديوانى الأول! طبعـتـه على حـسـابى فى مطبـعـة بحى لاظوغلى! طبعت خمسمائة نسخة وفرحت بشعرى مطبوعًا ووزعته على الأصدقاء والمعارف المغرمين بالشعر! أرجو أن ترى فيه ما يستحق القراءة!».

نزع قلمه الباركر واحد وعشرين من جيب السترة، باستمتاع راح

يكتب إهداءً مطولاً. صافحته بحرارة؛ جعلت أقلب النظر فى غلاف الكتاب، عنوانه جميل حقًا: «حطب الذاكرة» للشاعر صفوت خليفة. تصفحت على عجل؛ ياه، شعر حداثى متعدد الأشكال، عمودى وتفعيله، نكهة الشعر واضحة فى السطور التى التقطتها عيناى، ياه، بل إنه شعر حقيقى موهوب، مفرداته طازجة؛ نعم فمن أول وهلة تبين الموهبة...

دسست الكتاب فى حافظتى الجلدية؛ قلت له: إنك شاعر حقًا فيما يبدو؛ فاحمر وجهه صار كالأوطاية؛ قال إنه من عائلة يكثر فيها المغرمون بالشعر مع أنهم فلاحون من ذوى الأملاك تعلم معظمهم فى الأزهر وعادوا إلى بلدتهم فى محافظة الشرقية؛ أبوه الشيخ محمود خليفة كان كبير القضاة فى المحاكم الشرعية وكان شاعرًا فحلاً؛ وأخوه اللواء شرطة عازم خليفة يكتب للإذاعة والتليفزيون مسلسلات دينية؛ وأخوه الأصغر جبران خليفة المقيم فى الاسكندرية يكتب الأغانى والأوبريتات؛ وأخته آخر العنقود سمية خليفة فنانة تشكيلية صاحبة نشاط ملحوظ فى قصر ثقافة الزقازيق. أحببته كأنى أعرفه منذ الطفولة باعتبارنا معًا نكاد نكون نفس العائلة الفلاحية نفس الطبقة نفس الثقافة ذات العصب الدينى الصلب.

أطلعنى على محضر حليمة أم السعد، قرأته بصعوبة شديدة بمعاونة صفوت بك. لم يختلف مضمون المحضر عما حكته حليمة... علق صفوت بك:

ـ «بعد انصرافهم جاءنى خاطر وسوس لى بأن شنطة نبيل البحطيطى هذه كانت محجوزة عند فهمى القزاز لسبب من

الأسباب ونجح هو فى خطفها أو اختلاسها؟! . . . بينى وبينك أنا مقتنع برواية حليمة! لكننى لا أستطيع إثبات السرقة! فكل ورقة فى الشنطة مطبوع عليها اسم مكتبه، ثم إنه محام معتمد فى النقابة لا يحق لى احتجازه بدون سبب مقنع!».

- «عفواً صفوت بك! ألم تلاحظ طبيعة هذه الأوراق؟ ماذا يكون فيها؟» «أظنها عقود شركة بين نبيل وشخص آخر فى عقار أو . . . أظنها كافتيريا أو مشروع سياحى فى هذا الاتجاه! . . . المهم أننى فحصتها ورقة ورقة فلم أعثر على كلمة واحدة عن فهمى القزاز! . . . شهادة الحاج صلاح كانت مائعة وغير حاسمة! . . . تعرف لو أننى عثرت على اسم فهمى القزاز فى أى ورقة ولو لمرة واحدة لأخذت بشهادة الحاج صلاح واحتجزت الشنطة لعرض المحضر على النيابة والتحقيق فيه بشكل منهجى!».

أفكار وخواطر راحت تختلط فى رأسى وصدرى تتصادم كالسحب؛ طقَّ الصدام فأحدث فى ذاكرتى شراراً ضوئيًا اهتز منه بدنى فكدت أنتفض واقفًا كأننى اكتشفت خبيئة أثرية ثمينة؟ ذلك أننى قد ألهمت فجأة بخاطر جعلنى أهتف بصوت يرتعش من روعة المفاجأة:

- «مهلاً صفوت بك! . . . إن فهمى القزاز ليس اسمه فهمى القزاز فى شهادة الميلاد، وبالتالى فى جميع الوثائق الرسمية! الآن تذكرت اسمه الرسمى: خليل إبراهيم جاد الله! واشتهاره باسم فهمى القزاز له قصة طويلة يمكن أن أحكيها لك فيما بعد!».

ضرب صفوت بك جبهته بيده؛ ارتكن براحتيه على حافة المكتب كأسد جريح، يتدفق الدم تحت بشرته وقد شابته ظلال رمادية غامقة، بعد برهة اعتدل واضعًا أصبعه السبابة فى فمه وجعل يضغط عليه بأسنانه ويدمدم:

- «مظبوط! فعلاً! لكننا جميعًا فى الداخلية لا نعرفه إلا بهذا الاسم! . . عليه اللعنة! طول عمره شخصية متلبكة غامضة مريبة ومليئة بالعُقد النفسية والطبقية ولابد أن الله أوقعه فى شر أعماله القذرة! . . . ما يحرق دمى الآن أن الاسم الذى قلته حالاً يخيل إلىّ أنى قرأته فى أوراق شنطة البحطيطى! نتذكر كلمة جاد الله فعلاً! وبذلك يكون البحطيطى خدعنى خدعة العمر! . . . تخيل . . . أنا الآن واقع فى أزمة سخيفة جدًا! دمى يأكلنى ولكى استرد نفس الشنطة بنفس الأوراق التى كانت فيها أمر مستحيل تقريبًا! اللهم إلا أن ارتكب أعمالاً انتقامية من هذا المدعو نبيل، وهذا يعكر دمى حين أضطر إلى مجرد التفكير فيه! . . . ولكن . . . دعنا ننتظر إلى أن يظهر فهمى ونعرف جلية الأمر لعل ربنا يلهمنا التصرف السليم!».

- «صفوت بك هل تعرف فهمى القزاز جيدًا؟».

- «هل يزعجك إن قلت لك إننى عرفته لدرجة أنى ذات يوم تمنيت زواله من الوجود؟ . . . صدقنى ولا تندهش . . . أنا أحب الشرطة! أحب هذه السترة التى أرتديها بهذه النياشين والشرائط! أحب هذه القبعة وأحب عملى وأفخر به كمهنة من أشرف وأنبل

المهن . . . إلا أن أمثال فهمى القزاز يلوثون شرفها! إنهم من عناهم سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال حديثه الشهير : «لا تعلموا أولاد السفلة العلم!» وهذا البنى آدم هو من أدنى السفلة الذين نكبت بهم جميع المهن النبيلة كالطب والمحاماة والقضاء والصحافة، وحتى العلوم الدينية الأزهرية دخلها كثيرون من أبناء السفلة . . . وهم ليسوا بالضرورة من أبناء الفقراء . . . فتاجروا بالشريعة وبالفتاوى . . . لو كان الأمر بيدى لأفرغت خزنة مسدسى الحكومى هذا فى قلب فهمى القزاز ومن هم على شاكلته من كلاب التعذيب المغرمة بنهش لحوم البشر . . . لكى أبقى وأمثالى نشرف بانتمائنا لهذا العمل الوطنى الشريف!!».

- «صفوت بك أنت فعلاً شاعر ورومانسى! . . . أنا سعيد جداً بالتعرف على حضرتك ويشرفنى أن أكون صديقًا لك!».

- «أنا الذى يشرفنى أن يكون صديقى أحد أصحاب الأقلام الشريفة الواعدة!».

- «وإذًا فأرجوك أن تقبل دعوتى لك على العشاء فى بيتى! . . . ستجد فيه صورة من حياتك الريفية!».

- «أزداد شرفًا . . . على الأقل لأعرف رأيك فى الديوان!».

- «هذا هو الكلام البديع! سأعكف الليلة على قراءته! . . . وفى حموتها يكون موعدنا بعد غد مثلاً!».

- «خله بعد بعد الغد! يوم إجازتى! لا داعى لأن تشغل بيتك بمسألة العشاء هذه واتركها للظروف! سأجيئك فى حوالى التاسعة مساء!».

- «جميل! . . . هذا هو عنوان بيتى!».

كتبت له العنوان فى قصاصة فاندهش من أننى لا أحمل بطاقات مطبوعة باسمى. صافحته وانصرفت مبتهجًا باكتشافى لمن كان الأحرى بصداقتى بدلاً من زفت الطين.

الفصل الحادى عشر

١

غنيمة السفاح

. . . . «الحكاية وما فيها يا أستاذ مروان . . . تسمح لى أن أحكى الحكاية من أولهـا ! . . . مـعلهش احـتـملنى قليـلاً فـالماضى داخل فى الحاضر وكل أول يبحث له دائمًا عن آخرٍ . . .

«أبى كان جنايني ا فى جناين توفيق مجللى الوحش باشا لعلك تسمع عنه طبعًا ! . . . لـم ينجب أبى سواى وأختى شوق التى تكبرنى بتسع سنوات . . . بعد الثورة انقلبت الأحوال فمات الباشا وتوزعت أرضه وجناينه فـمـا كـان من أبى إلا أن سعى ، لَمّنا وأتى بنا إلى مصر القاهرة ، اشتغل فى سوق الخضار فى روض الفرج فرازا للفاكهة وأحيانا سمساراً وخـبيـراً مثـمنًا لطرح الجناين وهو على شـجره لصـالح المعلمين الذين يشترون ما فوق الشجر ، وكـانت الحياة ستحلو ، لكنه لم يكمل العامين ومات فى أكلة منزول عبارة عن عجينة من جوز الطيب المطحون مع حشيش وسكر وكان يومها معزومًا على امرأة وأكلة دسمة عندها فكتم المنزول على قلبه فمات من وقته . . . . سنى وقتها إثنا عشر عاما وأختى شوق فى الثانية والعشرين . . . أمى ركبها عفريت اسمه البلد البلد

البلد، أخذت ابنتها وعادت بها إلى بلدتنا البلينا بمحافظة سوهاج قبل أن تنفد من يدها أجرة السكة الحديد . . . سبحان الله وكأنها كانت ترى ما سوف يحدث لها : ماتت فى حضن أهلها بعد شهر واحد من سفرها وحاولت أختى شوق أن تتصل بى لتبلغنى فلم تعثر على عنوان، كنت تائهًا فى سوق الخضار، مرة أشتغل شيالا فينهد حيلى بعد يومين، ومرة أخرى بياعًا فى وكالة، وفى كل مرة يطلع لى من يضايقنى، ويدس لى عند المعلم فيطردنى، إلى أن جاء يوم أغبر من أوله، كنت قرفان فقعدت أشرب كرسى دخان فى قهوة السوق فإذا برجل قاعد قبالتى يحلق فى وجهى، جاء وقعد بجوارى : لمؤاخذة يا ابنى أنت ابن المرحوم فلان؟ قلت : نعم أنا ابنه منير عبده رشوان، لحظتها لم أكن منتبهًا إلى أن عامًا بحاله مرّ على وفاة أبى، لكنى انتبهت على وقع الصدمة التى جاء بها من بلدتنا منذ أسبوعين : أمى ماتت وأختى شوق تزوجت ولدا على قد حاله أخذها وسافر إلى العراق . . . اسودت الدنيا فى وجهى، خيالى صور لى أن أتخلص من حياتى بأى شكل . . . لأجل النصيب المقسوم قمت أتمشى فى السوق، ما دريت إلا وأنا وجهًا لوجه أمام ولد ابن وسخة متخصص فى مضايقتى والكيد لى، يستضعفنى لأن له أقارب وعزوة، كعادته تحرش بى، أطبقت فى خناقه وأطبق فى خناقى، كان قويًا، صار يشيِّع لى البونيات وضربات الركبة والرأس وأنا أقاوم وأشيِّع له بعض الضربات والناس واقفون يتفرجون، صرت على وشك أن استفرغ روحى إن لم يتوقف ابن الوسخة عن ضربى، لم أجد مفرًا من الخلاص النهائى من ذلى، كانت دفعة قوية منه ألقت بى فوق عربة يد محملة بالموز لبائع سريح فى طريقه إلى البوابة ليخرج بها، العربة اندلقت وتطايرت سباطات الموز

وأنا من فوقها حيث تخرشم وجهى وسال دمه، وكان خنجر الموز المغروز فى إحدى السباطات قد صار على الأرض تحت يدى فقبضت عليه دون أن يرانى أحد، وبينما الولد قد انحنى على البائع يعتذر له ويساعده فى عدل العربة جئت أنا من ورائه دككت سن الخنجر فى نحره وسحبته بقوة لا أدرى من أين جاءتنى، وكأننى أزيل عنق سباطة الموز، انفصل دماغه عن رقبته وانكفأ على صدره. . . فى البوليس وفى المحكمة شهد الشاهدون بأنها كانت خناقة أفضت إلى موت، وشهد صاحب عربة الموز أننى كنت الأضعف وكنت بين الحياة والموت لحظة أن قتلته. . . رزعتنى المحكمة عشر سنوات أشغالاً شاقة فى سجن أبى زعبل. . . وفيه تعرفت لأول مرة على فهمى بك القزاز، أيامها كان نائبًا للمأمور وكنت الأقدم منه، يعنى حينما نُقل هو بترقية إلى نائب للمأمور كان الباقى من مدة سجنى أربع سنوات فقط؛ إنما هو كان المدير الفعلى للسجن وحاكمًا بأمره فيه وجميع المساجين لا يعرفون مأمورًا سواه. . . بمجيئه كان السجن فى توتر واضطراب دائمين بسبب حفلات الاستقبال المتواصلة لوفود جديدة من الإخوان المسلمين والشيوعيين، وفهمى بك يده ثقيلة وكرباجه يشرح اللحم والعظم، جعل المساجين يمشون على العجين فلا يلخبطونه، كان أجن من الجنون إذا هدد بأنه سيفعل فينا كذا إن لم نفعل كذا علينا أن نمتثل فى الحال إذ إنه سينفذ التهديد إن تباطأنا فى التنفيذ. . .

«جسمى يقشعر الآن من بشاعة ما كان يفعله فينا، قسوته تصير أبشع مما تتخيل مع مساجين السياسة، المثقفين أصحاب الرأى والمشايخ بتوع قال الله وقال الرسول، قتل الواحد من هؤلاء حلال فى نظر

السجان فى جميع رتبه . . . لعلك تظن بأن السجان المعذب يتملق السلطان بقسوته على من يتطاولون عليه أو يشتغلون ضده، لا لا لا، السبب الأكبر هو أن المسجون السياسى فقير لا يجيء من ورائه خير . . . ولعلم حضرتك: أنا تأكدت بالتجربة والخبرة أن جميع السجانين الجلادين أرباب التعذيب هم أجبن وأخسّ خلق الله قاطبة، وإذا جمعناهم كلهم من جميع أنحاء العالم ووضعناهم فى كتاب واحد يكون أنسب عنوان له: فهمى بك القزاز! . . . أما عتاة المجرمين الذين يشغى بهم السجن طوال الوقت من مهربى وتجار المخدرات إلى القتلة إلى لصوص المال العام والنصابين والمحتالين فقلما تصل القسوة معهم إلى حد البشاعة، تمشى بهم الحياة فى السجن بدون أى وجع دماغ . . . القادرون منهم . . . خصوصًا تجار المخدرات ولصوص المال العام - يأتيهم النعيم من بيوتهم كل يوم كأنهم فى فندق خمس نجوم، حتى المدمنين يجيئهم الكيف فى جوف الأوانى، تتغير ملاءات أسرتهم وهدومهم، يستحمون بالصابون المعطر يقرأون الجرائد وفى زنازينهم تليفزيونات وكتب وكافة شيء يعوزه الواحد فى الحياة، لكن كل بثمنه طبعًا، وفهمى بك أشطر من عرف كيف يتعامل مع هذه النوعية من المساجين. . . .

«من حلاوة الصدف أن يكون هناك وسيط بين السجين والسجان، يثق فيه كلاهما ويسترجله ويستأمنه . . . ومن دعوات الوالدين لا شك أن يعطينى الله سبحانه هذه الموهبة السحرية التى لم أكن على وعى بها من قبل؛ لم أقصد إليها قصدًا، لكن سجينًا موسرًا جدا استلطفنى فاصطفانى لخدمته، فملأت دماغه، فخاوانى، كان يطلب مزيدًا من

الحرية والرفاهية فى زنزانته، يعنى تجىء زوجته وتقضى معه وقتًا طويلاً ممتعًا فى الزنزانة، صرح باستعداده للمنح فى سبيلها بغير حدود، فى نفس الوقت كان السجان هو الآخر -نظرًا لكونى خادم السجين الثرى- قد بدأ يستلطفنى ويسترجلنى ويستأمننى خصوصًا أننى مؤدب فى كلامى ولسانى حلو وأحترم الجميع والجميع يحترموننى. . . التقطنى السجان، اشتغل لى فى الاسطوانات التى أصبحت محفوظة لنا عن ظهر قلب، أوهمنى بأنه خاوانى مع حفظ المقامات، ولغبائه ـ والسجان دائمًا غبى والأشد منه غباء سجان التعذيب ـ لا يفطن إلى أننى أعرف ماذا يريده منى بالضبط كما يعرف أن استعمال القوة ـ وهى أداته الوحيدة ـ لن تفيده فى شىء مهما ارتفع سقف التعذيب وصار منه إلى المقبرة، فإذا به يستدرجنى بهذه المخاواة المزعومة والمستحيل قيامها أصلاً لكى أكون عميلاً له، أنقل له أخبار زملائى المساجين، فبما أننى محبوب منهم بشكل ظاهر ويبادلوننى الود والتحية فلابد أن أكون على علم بما يقولون ويفعلون ويفكرون؛ لم ينس أن يقلوظنى ويلبسنى عمامة الزيف بإقناعى بأننى أفعل ذلك خدمة للأمن ومساهمة منى فى الضبط والربط، وفى المقابل يصبح من حقى أن أتمتع بميزات كثيرة فى الأكل والشرب والحركة والشغل النظيف ولا بأس أن أفتح بوفيها صغيرًا لصنع الشاى والقهوة خاصة أننى أكاد أكون السجين الوحيد الذى لا يزوره أحد ولا يسأل عنه أحد ولا يعرف أين يذهب ولا ماذا سيفعل حين يخرج. . . .

«التفتيح حلو، واستعمال المخ أحلى: لو قلت لا، سأكرع من بئر الذل والهوان إلى ما لا نهاية، ماشى يا سعادة الباشا أنا خدامك، أما

نقل الأخبار التى تجلب الأذية للزملاء فبعيد عن شواربه، لكننى بدلاً من نقل الأخبار المزعجة نقلت له أخبار مفرحة: السجين فلان الفلانى فى الزنزانة رقم كذا قال إنه مستعد لدفع عشرة آلاف جنيه إذا سمحوا لزوجته بأن تقضى معه يومًا كاملاً فى الزنزانة!! أو فلان الفلانى مستعد لدفع عشرين ألفا لو تركوا زيارته تدخل من غير تفتيش، أن يسمحوا بزيارة أمه التى تحتضر ... إلخ إلخ.. إنما هناك شىء أحب أن أشرحه لحضرتك: الناس الذين فهمهم على قدهم يتصورون أن وسيط الرشوة الكبيرة لابد أن يكون بالضرورة شخصًا كبيرًا محترمًا قوى الشخصية فى المظهر والمختبر والمركز وغير ذلك من أوصاف، أنا بالتجربة والخبرة أقول: كلما كان الوسيط شخصًا تافهًا بلا مركز أو هيئة اجتماعية كان أنسب لهذه المهمة الشائكة، فمثل هذا الشخص إذا باظت الشغلة وانكشف أمره واعترف يستطيع الطرفان: الراشى والمرتشى تكذيبه، بل وضربه بالجزمة باعتباره شخصًا تافهًا لا يوثق فيه لمثل هذه المهمة، ولابد أن يكون مدفوعًا من أحد يريد الكيد لأحدهما أو كليهما معًا نظير أجر أو منفعة من الواضح أنه يحتاجها.

«مغزى كلامى أننى فى قلبى قُرحة توجعنى من هذا السجان الجلاد، ورغم أن الله الذى يمهل ولا يهمل قد انتقم منه لعباده الذين ظلمهم فإننى لا أستطيع منع نفسى من الحقد عليه، هذا الجشع النتن لم يعطنى أى نفحة من مئات الألوف أقبضها نيابة عنه ثم ألصقها تحت إبطى فى السر ثم أدخل إلى مكتبه ملبيًا طلبه الصورى بأن أكنس الحجرة وأنظف مفروشاتها لكى أميل وأدس المبلغ فى درج مكتبه فيما يكون هو قد تركنى فى الحجرة وحدى، وحين أخرج بالخيشة والجردل

ألتقيه عند الباب يترقب فأحييه بنظرة محايدة قائلاً: كله تمام يا افندم، وابن الوسخة مثل فتحة القبر لا ترد ميتًا. . .

«لكنه عند خروجي من السجن كان جدعًا بعض الشيء، ما تخلى عني في الواقع لكن النذل نذل في نهاية الأمر، بعد أسبوع من خروجي كنت على موعد معه لكي يساعدني -فيما قال- في تدبير أمور معيشتي. على رصيف محطة مترو ثكنات المعادي في تمام العاشرة صباح الجمعة وقفت تحت اللافتة إلى أن لمحت من يلوح لي من نافذة عربة شرطة في الشارع فذهبت إليه. لفت العربة وعادت بنا إلى كورنيش النيل، في مواجهة جزيرة كبيرة على الشاطئ الآخر أمر السائق بالركن هنا ثم نزل ودعاني للنزول قائلاً للسائق: خلك مطرحك!. .

«مشيت وراءه بحذاء سور الكورنيش في حيرة من أمري: إلى أين يريد أن يذهب بي؟ أتراه يقودني إلى معصية!! ينوي التخلص مني بتسليمي للقتلة ها هنا ليدفن أسراره المتروكة عندي؟! المصيبة أنني موقن من أنه يفعلها. . . أخيرًا توقف عند ضلع من السور مكسور بفعل فاعل كما شفت من شكله لإفساح ممر إلى مسطاح النيل، قال: تعالى ورايا، تسلل من خلال فراغ الضلع المسكور إلى دحديرة ممهدة وصار يهبط وأنا من ورائه. صرنا في مسطاح النهر فوق مساحة من طرح النيل تشبه رقم تسعة، رأس دائرية كبيرة، يتفرع منها ذيل بارز عن الشاطئ كشريحة عرضها حوالي أربعة أمتار وطولها حوالي نصف كيلو متر. . . أخذ يلوح بذراعيه حول المكان كمنوم مغناطيسي يريد تنويم المكان نفسه، قال: إيه رأيك في الحتة دي؟. . .

«سحرتنى الرأس الدائرية الكبيرة الواسعة جداً، سحرنى الجسر الممدود من جنبها، سحرنى اكتشافى أن طريق الكورنيش من فوقنا لا يستطيع السائر على رصيفه رؤيتنا إلا إذا توقفنا ومال برأسه نحو المسطاح. قلت له وجسمى يستسلم لخدر لذيذ بطعم المغامرة: حكايتها إيه دى يا فهمى بك؟ . . . وضع يده على كتفى:

- أريدك أن تحوط عليها وتزرعها! تبنى لك عشة صغيرة وتقعد قصادها تعملها شغلتك وبمرور الزمن تبقى ملكك بوضع اليد!

- بهذه السهولة يا فهمى بك؟!

- هذا شغلى أنا مالك أنت دعوى به!

«بواسطته عينونى عاملاً فى رئاسة الحى ضمن فريق الجناين الخاص بتشجير الشوارع وتنسيق الحدائق العامة وهذه هى الحسنة الوحيدة التى أحمل جميلها له. بالفعل بنيت لى عشة محندقة أصبحت هى بيتى. زرعت الدائرة بأشجار ونخيل وتكعيبات عنب وصبَّار وفجل وجرجير، أقمت شادوفا لنزح الماء من النيل ورفعه إلى ممرات وزراريق قمت بتخطيطها. صاحبت أصحاب المعديات والمراكبية والصيادين، عن طريق ناس منهم كنت أعبر إلى جزيرة الذهب وأعمل صداقات وعلاقات نفعتنى فى نقل مراكب كاملة من روث البهائم والأغنام والأتربة نقلة بعد أخرى لشهور طويلة وبشكل شبه يومى، رجال بالأجرة يفرغونها أسفل الجسر ويحوطونها بعجين من الطمى . . . نقلة فوق نقلة، نقلة بجوار نقلة، لم تكتمل السنة إلا وكان الجسر المتصل بالدائرة على امتداد ما يقرب من نصف كيلو متر قد اتسع واختفى شكل الدائرة أصبحت شريحة طولية تصلح لإقامة عدة عمائر، كل ما شارك

به فهمى فى هذه العملية أنه كان يدركنا إذا هاجمتنا الشرطة النهرية أو مفتشو وزارة الرى، ومن حين لآخر يبعث ببعض أنفار من طرفه للمساعدة أو لاقتناص نقلتين من الآتربة من أى مكان يصادفه . . .

«ضحك النهر وزغرد وهو يمر على هذه الشرخة التى أصبحت كأنها آتية من خيالات الجنة الخضراء. فى بحر سنوات خمس صرنا فى مملكة نفخر بها فهمى بك وأنا فى سهراتنا معًا -منى له صدّ ردّ- فى عشتى التى صارت هى الأخرى بيتًا بمعنى الكلمة من دور واحد تحوطه الأشجار حيث تعاهدنا معًا على أن تكون هذه القعدة لنا وحدنا لا نطلع أحدًا عليها حتى لا نثير القلاقل من حولنا. أنا أيضًا شفت حالى، مرتبى من رياسة الحى يكبر بالعلاوات الدورية إضافة إلى رزق جديد جاءنى من بيع خضروات من نتاج مزرعتى أفرش بها على رصيف الكورنيش فرشًا نظيفًا مغريًا بالجودة يستوقف راكبى السيارات للشراء منى بأسعار سياحية؛ قلت: ما بدهاش، عبرت يومًا إلى جزيرة الدهب، نزلت ضيفًا على أسرة تشتغل بالصيد والفلاحة معًا، الأب صياد يقلب رزقه فى النهر، وولداه يفلحان قطعة أرض فى الجزيرة يساعدانه فى الصيد أحيانًا؛ للأب بنت وحيدة شقراء جميلة بحكم أنهم فى الأصل سوريون من حلب لكنهم تمصروا منذ أيام المماليك. البنت عانس، فى السابعة والعشرين من عمرها، تعلمت حتى السنة السادسة الابتدائية ثم أقعدوها فى الدار لا يراها أحد من الشبان فتعس حظها فأهملت جمالها يأسًا من الزواج إلى أن ظهرت أنا فى حياتهم أثناء ردمى لهذا الجزء من النيل؛ ولم يكن الزواج منها واردًا فى دماغى لكنها جاءت تصب الماء على يدى من إبريق نحاس بعد غدوة عندهم

كانت ظفرا، كنا وحدنا فى حوش الدار فسألتها على استحياء: هل أنت مخطوبة يا نجفة! قالت: لا، ثم أضافت ببساطة وتلقائية باسمة: لا أحد يريد أن يخطبنى، صحت على سبيل التلقائية المازحة: عمى كلهم! تتزوجينى يا نجفة؟ قالت بنفس البساطة: ياريت ياسى منير! يوم المنى... بعد شهرين اثنين كان الزفاف له العجب، عمرك شفت زفة فوق مياه النيل فى معدية؟ ولا عروس النيل التى تقرأ عنها فى الكتب...

«احلوت الدنيا آخر حلاوة، لم يعكرها سوى كلاحة فهمى بك وتلامته، الغداء عندى والعشاء عندى والسهر طول الليل كأننى خلفته ونسيته، أقضى الليل بطوله أرص له الحشيش وأتأمل فى وجهه الأملس لعلنى أفهم ماذا ينتويه لى، أنظر فى عينيه وهو يشد الأنفاس بقوة وشراهة جاءته من شد أسطر الهيروين أو من فص الأفيون أو منهما معًا، وهما الكيفان اللذان لم أولف عليهما أبدًا برغم إغرائه الدائم لى، لدرجة أن إصراره على تعويدى على هذين الكيفين الأسودين المهببين هو الذى طلّعها فى دماغى وجعلنى أصر أنا الآخر على الرفض خاصة أن زوجتى نجفة كانت دائمة التحذير لى من هذا الرجل الذى لم نسترح له أبدًا، سبحان الله رغم أنها ليست تعرف عنه أى شىء، لا أرى فى عينيه إلا البياض المخيف، تحوم نظراتى حول وجهه الشبيه بأوزة باركة منكمشة على نفسها، بشرته فى لون الشيح كما شبهته نجفة، ملامحه متدلية على جانبى أنفه كغبيط فارغ على ظهر حمار بليد... ليال بطولها أجاهد فى سبيل أن أرى أى تغيير على وجهه أو فى عينيه وابن الوسخة وجهه مثل قُلة جف عنها الماء من قديم الأزل فجيَّرت ونحَّستْ.

«ذات ليلة جاء ومعه ـ لأول مرة ـ شخص لم يسبق لى رؤيته ، أهلاً وسهلاً! الشاى يا أم عبده ، فصاح فهمى بك كأنه فى بيته أو فى مطعم عمومى : الضيف سيتعشى معنا يا أم عبده! يا ألف مرحبا ، قالت نجفة من وراء الباب . قدم لى ضيفه على أنه رجل أعمال فلسطينى اسمه سعيد عرفه ، شرفتنا يا سعيد بك . . . مع الجوزة دار الكلام ، فهمى بك وسعيد بك يتكلمان بحماسة عن المشروع ، ونفقات المشروع ، ومستقبل المشروع ، ومحسوبك مثل الأهبل فى الزفة ، أخشى التدخل فيما لا يعنينى . . . آخر ما زهقت قلت بشىء من اللطف :

- عدم المؤاخذة مشروع ماذا هذا الذى يُدر كل هذه الأرباح؟!

قال فهمى بك :

- شف يا أخ منير! سعيد بك عرض علىّ فكرة مشروع نستغل فيه هذه الأرض!

- مشروع إيه إن شاء الله؟!

- نبنى كازينو! محل كبير على مستوى عائلى محترم! منه نادى للعائلات نقضى فيه يومًا مشمسًا أو حارًا! ومنه مطعم كبير يقدم أفخم الوجبات! ومنه بار لمن يريد أن يشرب! ومنه قاعة تقام فيها أفراح وحفلات! يعنى كله مكسب!

- وهل تظن يا فهمى بك أن مشروعًا كهذا فى مكان كهذا يـ . . .

«قاطعنى سعيد بك :

- عز الطلب! هذا مكان عبقرى كأنه مخلوق لهذا المشروع بالذات!

كل الناس من كل مكان ستجيء إلى هنا تبحث عن الهدوء والماء والخضرة والوجه الحسن! . . . المهم حسن الإدارة وهذه هي شغلتي بعون الله!

«قال فهمي بك منتشيًا:

- تعالى نتكل على الله وندخل في التنفيذ!

«بطني كركبت، رميت الماشة والمصفاة وسندت ذراعيّ على قرافيصي وخذ عندك:

- معنى هذا يا فهمي بك أني: ماليش عازة! هذه الأرض ملك من بالضبط؟! هذه الأرض عمولة! أنا عملتها بيدى! بنتى! لو أخذها أحد غيرى هي نفسها ستدافع عني وتطرده في أحسن الأحوال!

«وضحكت قاصدًا الإيهام بأنني أمزح، ولكن فهمي بك لزق ذقنه في صدره وفشخ حنكه، لوهلة خاطفة ارتعبت من حنكه المفتوح متشككًا في أن يكون هذا حنكه الذي أعرفه، الناقص سنتين أماميتين في فكه السفلي، الآن أسنانه كاملة. ضحكت مرة أخرى إذ فطنت إلى وجود مشبك فضي يلمع تحت شدقه، نظرته كانت متجمدة كنظرة الموت، مع ذلك انفجر مقهقهًا وكتفاه التخينان يهتزان يرتجان، سمعت صوته الذي أعرفه يتكلم في عواء مثل صوت كلاكس السيارات زمن الأربعينيات:

- حقك محفوظ يا بني آدم! مالك مخضوضًا هكذا؟ تريد أن تقلّ بأصلك؟

- حقى محفوظ يعنى إيه؟ أحب أن أعرف؟

- سنعطيك قرشين! فاكرنا ننساك؟

«قال سعيد بك:

- سنعطيك خلو رجل! لأننا لا نستطيع شراءها منك فهى بصراحة ليست ملكك حتى ولو كنت أنت الذى عملتها وزرعتها وكل هذا الكلام المفهوم! هذا اسمه وضع يد! ولولا أن فهمى بك حارسك وحارسها كان زمانهم طردوك منها وربما سجنوك!

«العفاريت نطت أمامى ترقص رقصة الجنون جعلتنى أعتدل ملوحًا بيدى كأننى أزيحها عن طريقى:

- كلمة زائدة واحدة لا أريد سماعها! طلاق ثلاثة من يقترب من هذه الأرض سأدفنه فيها حتى لو كان جمال عبد الناصر شخصيًا!

«الخوف بان فعلاً فى عينى فهمى بك، سقت فيها:

- علىَّ وعلى أعدائى يا فهمى بك! سأطربق الدنيا كلها فوق دماغ الغدار خاين العيش والملح!

- اخرس يا حيوان! هل جننت؟!

- نعم جننت يا فهمى بك

«ربت سعيد بك على ظهرى بحنو:

- أخى منير أنت مو محتاج تتكلم! أنا شفت هذه الأرض قبل شغلك فيها وأنا الذى نبهت فهمى بك لها والمشروع من يومها!

- من غير لف ولا دوران يا سعيد بك! العدل يقول إن أى مشروع يقام فوق هذه الأرض أكون أنا شريكًا فيه بالأرض!

- ها دا ما يصير يا أخ منير! ما ينفع! مو قانونى! ما تقدر على تثمين الأرض بالنسبة إلكْ! إنما تقدر على تثمين الجهد الذى بذلته فيها! أما الأرض نفسها فلا ينفع أن تكون ملكًا لأحد! إنما القانونى أننا نأخذ من محافظة القاهرة حق انتفاع بهذه الأرض لمدة معينة من السنين نظير مبلغ تحدده المحافظة حسب لوائحها! بعد ذلك تكاليف البناء والترخيصات والديكورات وشغلانة تحتاج لنهر من الفلوس! فـ . . . إهدى بالله وتفاهم معنا بالعقل حتى نستفيد كلنا وإلا خسرنا كلنا!

«بدأ الكلام يدخل دماغى لكننى شخطت بغيظ:

- يعنى ستعطوننى خلو رجل!

- سمه الاسم الذى يعجبك!

- كم يعنى؟

- من دون لف ولا دوران! ودون مساومة وبلا وجع دماغ: نعطيك عشرة آلاف جنيه!

- اضرب هذا المبلغ فى عشرة على الأقل

- هذا كلام سابق لأوانه على كل حال! لكن كن مطمئنًا والسلام! ستكون مرضيًا!

«وفى الليلة التالية انضم إليهما رجل جديد كانا يناديانه بالباشمهندس، فى تلك الليلة اتضح لى أن كل المسائل مخططة من قبل وجاهزة على التنفيذ، اتضح أن العصابة كبيرة، وأن رخصة قد صدرت بالفعل من المحافظة بإقامة كافتيريا سياحية عائلية على هذه القطعة المسماة: من طرح النهر، باسم كل من رجل الأعمال سعيد عرفة ورجل أعمال آخر اسمه خليل إبراهيم جاد الله، وأنهما دفعا مبلغا كبيرا مقابل استخلاص هذه الرخصة ومد سنوات امتياز سريانها خمسين عامًا، وها هو ذا المهندس يطلب منى أن أضىء له بكشافى الذى أجوس به ليلاً خلال الأشجار، لكى يتفحص هذه الخريطة التى احتوت على تصميم الشكل والمبانى. . . . معنى ذلك أننى صفر على الشمال، كل شىء إذًا قد انتهى، لم يعد أمامى سوى أحد أمرين: الرضوخ لمشيئتهم وأنفى مغروز فى الوحل والجزمة الميرى فوق دماغى، أو تفريغ مدفع رشاش فى صدور ثلاثتهم وهذا أقل ما يشفى غليلى. . . هكذا قررت اغتيالهم دون تلكؤ، علام أنتظر؟ أنا منذ وقت مبكر أحسب ألف حساب لنذالة فهمى القزاز مهما خاوانى، بل إننى كنت أزداد خوفًا منه وتحسبًا له كلما تعمق فى مخاواتى فإنه من النوع الذى كلما اقتربت منه شممت رائحته النتنة، قتله حلال فى شريعتى الخاصة من غير مؤاخذة، وبمجرد ما أسفر عن وجه الغدر تدبرت أمرى مع أحد المراكبية الذين يهربون السلاح للصعيد مخبوءًا فى الأزيار الفخار والبلاليص فخدمنى فى مدفع رشاش وخريطة من الذخيرة.

«لحظتها كنت محنيًا كالساجد أتفرج معهم على تفاصيل خطوط المشروع على الورق، لكن شيطان الانتقام عدلنى واقفًا، قال لى: لن

تجـد أنسب من هذه اللحظة فـلا تتـردد وإلا ضـاعت منك إلى الأبد، حيث ثلاثتهم منكبون على فرخ الورق غائبون في حلمهم. . . تسللت على أطراف أصـابع قـدمي، المدفع الرشـاش مـوضـوع في لفـتـة تحت الغـقريب الذي ننام فوقه معبأ جاهزا لا ينقصه سوى إزاحة زر الأمان وشـد الزناد، تأبطتـه ومـضـيت نـحـو صـدغ البـاب الذي سـأتمـتـرس فـيه. . . و. . . هل تعـرف مـا الذي أرعبني وأنا ممسك بقـوة الموت في أصبعي؟ ما الذي ردعني وشل خطوتي ومنع أصبعي من شد الزناد؟ إنه -صـدقني- الحب. . . صـدقني مرة أخـرى ولا تظنني كـمـا تقـولون رومـانسيًـا، إنما أنا فـوجـئت بزوجـتي نجفة تنظر لي من بعـيـد في هلع وحسرة، لحظتـهـا وحق جلال الله شعـرت بأن حبـهـا كـابش في قلبي، وأنني أكون حمارًا قذرا لو حرمتهـا وحرمت نفسي من حبهـا وأنا بعد الجفاف ما صدقت أن وجدت أنثى تحتوي جسدي الضائع الشرقان، عندها تهدلت يدي، عدت فدفنت المدفع متمنيًا أن يغور من وجهي إلى الأبد، وقفلت عـائدًا إليهم وقد تجهزت أعـصابي تمامًا للقبول بالمسـاومة في تعـقـل ورزانة، فـإذا كـان المرء مـحكومًـا بعـصـابة ليس يقـوى على مـقـاومـتـهـا فـخـيـر لـه أن يخطب ودها بقـدر مـا يسـتطيع من لطف وشياكة. . .

«أخـذت العـشـرة الآلاف أضـفت إليـهـا مدخراتي واشتـريت قطعة أرض صغيرة في جزيرة الذهب بنيت فوقها بيتًا محندقًا وزرعت بقية الأرض بنفس الخضروات ليبقى فرشي على الكورنيش قائمًا. . . .

«قامت كـافتيريا شط الدهب، كل ذلك وأنا لا أعرف أن الشـريك الثاني خليل إبراهيم جاد الله هو نفسه فهمي بك القزاز الذي اتضح لي

أنه يعيش باسمين مختلفين، وما كان مقدراً لى أن أعرف لولا أن الخلافات بدأت تدب بين الشريكين، بدأت بزمزقة من سعيد بك هو محق فيها، فالحال نائم، المونة تفسد من قلة التصريف، من المناقشات المتكررة آخر الليل بينهما فهمت أن فهمى بك هو الشريك، وأن اسمه الحقيقى هو المدون فى الترخيص، ثم انكشف المستور: فهمى بك دخل شريكًا بقطعة الأرض متعهداً بأن يسلمها لشريكه مرخصة جاهزة وبحق امتياز طويل العمر، فيما تكفل سعيد بك بكافة النفقات ثم عين نفسه مديراً فعليًا نظير مرتب متفق عليه، وكان من بين شروط العقد أن يتكفل فهمى بك بجلب الوفود السياحية التى سيتعيش من ورائها المحل، بينما هو لا يعرف شيئًا عن عالم السياحة ولا شغلها، إنما كان كل اعتماده على ولد محامى صايع مخربش من أقدم أصدقائه اسمه نبيل البحطيطى متودك ووجهه مكشوف ولا يعرف من القانون إلا مغارزه والسكك التى تمكنه من التلاعب به وبكيفية استكمال شروط الحكم الذى يريد أن تحكم به المحكمة لصالحه، لا يهمه أخلاق ولا دين ولا إنسانية، ومن الحاجات التى يفهم فيها البحطيطى هذا شغل السياحة له فيه نشاط كبير متنوع من الفندقة العائمة إلى محلات العاديات إلى المشاركة فى شركات سياحية وهلم جرا، وكل ما فعله فهمى بك بسلامته أن جلس يحشش مع نبيل وأوصاه بأن يجعل باله من نادى وكازينو شط الدهب ويحول عليه أفواج السياح وله فى ذلك عمولة مجزية، صاحبنا البحطيطى قال إن شاء الله وآدى وش الضيف، لا سياح جاءوا ولا حتى زبائن عادية . . . فلما زادت زمزقة سعيد بك وطهق من تزايد حجم الخسارة اليومية قرر فض المشروع والانسحاب منه قبل خراب بيته نهائيًا . . . للأمانة هو فى الأول اكتفى

بالتلويح بالانسحاب لعل فهمى بك يتنحرر ويأكله قلبه على بتاع الناس، ولكن فهمى ميت القلب أصلاً من طول ما عذب فى خلق الله بغير رحمة، ثم إن الولد الشيطان نبيل البحطيطى كان راكبًا فوقه مدلدلا ساقيه ممسكًا بلجامه بين يديه، كان يتصيد فهمى بك عند العصارى ليختلى به فى بيتى فى جزيرة الذهب، يحتال عليه، يحرضه على قبول فض الشركة ليحل نبيل محل سعيد بك ويا دار ما دخلك شر . . . صاحبنا ما كذب الخبر، فى آخر الليل فى حجرة مكتب الإدارة قال الرجل المهذب سعيد بك وهو شبه مرعوب من تدهور الحال يومًا بعد يوم، كأن هناك من يمنعون الناس منعًا عن المجىء إلى كازينو شط الذهب :

- لابد أن نشوف لنا حلاً فى وقف الحال هذا . . . فكر معى يا فهمى بك .

«بحركة قليلة الذوق شوح فهمى بك فى وجهه كأنه يخاطب مسجونًا من عتاة المجرمين :

- بلا خوتة . . . دهدى!

«الرجل يا ولداه تقول لمبة تعرضت لقفلة كهربية ففرقع الضوء فيها ثم انطفأ تاركًا فى عينيه لون احتراق الشمعة المتفحم، لو قلت لك إنى سمعت صوت الفرقعة فصدقنى . . . أشعل الرجل سيجارة بأطراف أصابع مرتعشة، تلفت حواليه، كنت واقفًا على مقربة منهما فشعرت أنه يبحث عنى فجئته، قال بصوت حاول حبس الدموع فبللته الدموع :

– أطفئ الأنوار يا منير! من غد لا تفتح إلا إذا كان فهمى بك مستعداً لدفع قرض نغطى به خسارة كل يوم!

«شوح فهمى بطريقة أشد صياعة من الأولى:

– تريد إذلالنا؟ خسارة! خسارة فراقك يا جارة؟!

– الدفتر موجود يا فهمى بك مع المحاسب! نحن بالمناسبة لنا معًا حساب قديم بالنسبة لحجم الخسارة التى سوف نتحملها معًا بالطبع!

– طظ فى الدفتر وفى المحاسب! تهددنى؟ مالى أنا بالخسارة! هل هى مهنتى؟ أنت المسئول عن الإدارة وهى شغلتك التى تفهم فيها!

وإذن فالخاسر هو أنت لا أنا... أنت خسرت وأنا لم أكسب... باطة! هئ هئ هئ...

«بكل هدوء وانضباط أعصاب قال سعيد بك:

– فهمى بك! أنا مستعد لخسارة الجلد والسقط فى سبيل أن لا يكون لى أى تعامل معك! مكسبى الحقيقى هو أننى تأكدت أن الخسارة فى معرفتك لا يمكن تعويضها! ولكن الحمد لله على هذا... يلا يا ابنى... اقفل وروح!

«ركب سيارته التاونس البيضاء وانطلق إلى مسكنه فى فيلا فى دجلة المعادى:

– أنا فى البيت يا منير إذا حصل أى حاجة كلمنى فى التليفون أو تعال! سلاموعليكم!

«شعرت أنه يختصنى بها وحدى....

«كان الفصل الأول من مسرحية مدرسة المشاغبين قد انتهى على شاشة القناة الثانية وكان فهمى بك -ببلادة لم أر مثيلاً لها فى حياتى- متسمراً فى قعدته مبحلقًا فى الشاشة وجسده يرتج من عمق الضحك والشهيق وعلى وجهه بلاهة، لكأنه لم يأخذ فى أجنابه زغداً موجعًا منذ دقائق، لكأن سعيد بك كان يهين حائطًا راح يستعجل ظهور الفصل الثانى مركزاً بصره على شخصية يونس شلبى متوحداً به تقريبًا، عوج دماغه ناحيتى وطلب شايًا، أمرى لله -أنا أيضا أريد الفرجة على المسرحية- عملت شايًا لنا معًا. قرب نهاية الفصل الثانى دخل علينا نبيل البحطيطى. قال له فهمى بك دون أن يحول بصره عن الشاشة:

- صاحبك خلع خلاص! هئ هئ هئ!

«البحطيطى تراجع بالكرسى إلى الوراء فأحدثت الجرجرة صوتًا مزعجًا ثم وضع ساقًا على ساق فكادت ساقه المرفوعة تسد نصف الباب لطولها، قال بصوته الرخم كصوت الخرفان:

- صاحبى من؟!

«استدار إليه فهمى بك نصف استدارة:

- سعيد بك . . . شريكى!

«ثم أكمل الاستدارة على سبيل الاهتمام:

- خلاص اتفقنا على فض الشركة . . . جاهز أنت؟

- جاهز لماذا؟!

- تدخل شريكًا بدلاً منه! هو يتخارج وأنت تدفع له نصيبه حسبما

تقرره الحسابات!

«أشعل سيجارة ولوح بذراعه قائلاً من بين أسنانه:

- لا يا عم! تخارج لأ! معلهش! ما اعطلكش!

- لست أفهم! يعنى ماذا بالضبط؟!

- يعنى أشترى المطرح كله من بابه أو لا اشترى!

- أنت . . . تشترى المطرح كله؟!

- ما المانع؟!

- الأرض بالمبنى بالمعدات بـ . . . .

- بحاله بماله بكل شىء!

- تقدر؟!

- ولماذا لا أقدر؟!

- لا أعرف أنك ثرى إلى هذا الحد!

- عندى من يمولنى!

- شريك يعنى! طب يا أخى شريك بشريك أنا . . . .

- متأخذنيش يا صاحبى! الممول غير الشريك!

الممول يدفع فلوسًا ويأخذ فوائدها مثل البنك! ثم إنى لا أحب الشراكة إلا مع خبراء سياحة يفهمونى وأفهمهم وهذه مسائل أنت عدم المؤاخذة لا تفهم فيها يا فهمى بك!

«فهمى بك تجمد فى مطرحه، ظل متجمداً طوال شهر بأكمله، وهو كالأهبل فى الزفة، والمفاوضات شغالة بين نبيل البحطيطى وسعيد بك ليل نهار، ناس تروح وناس تجيء، وحسابات تتبعها خناقات مع فهمى لعدم استعداده تحمَّل نصيبه من الخسائر، فى النهاية قنع سعيد بك بالتخارج نظير ثلاثمائة ألف جنيه عدا ونقداً يدفعها نبيل ويتصرف هو مع فهمى بشأن نصيبه فى هذه الخسائر . . .

«تسلم نبيل إدارة المحل بالفعل، فبدأت المناكفات مع فهمى بك، نبيل رسم خطة لتفوير فهمى من الأساس وخلعه تمامًا لكى يستقل وحده بملكيته، نَفَسَه طويل أطول من قامته فى الفصال والكيد والخصام، يكيد بإخلاص ويخاصم بإخلاص وغتاتة تجعله الرابح فى كل الأحيان، يجيء على من يتعامل معه وقت يصير فيه مستعداً لدفع كل مدخراته فى سنبيل أن يحل عنه ويختفى من سمائه، استخدم دفاتر الحسابات وملف أوراق التأسيس حتى طلَّع فهمى مدينًا للمحل بمبلغ يقترب من المبلغ الذى قبضه سعيد بك مقابل تخارجه، دين لابد من سداده إذا أراد فهمى بك أن يستمر شريكًا فى المحل، ولأنه عاجن فهمى بك وخابزه ويعرف أنه سوف يسوق البلطجة أخذ الموضوع بشكل قانونى واشتغل عليه بإنذارات قضائية على يد مُحضر، كأنهما لا يعرفان بعضهما: عدم المؤاخذة يا صاحبى الشغل ما يعرفش أبويا وأخويا . . . .

«فهمى بك شَخَّ على روحه، شبح الفضيحة طرده من بيته ليلاً فجاء يبحث عن نبيل قبل أن يتسرب الخبر إلى زوجته، أو إلى رؤسائه وزملائه أو إلى الصحافة . . . .

«من هنا لهناك وافق فهمى بك على أن يمشى، يتخارج هو الآخر، من بجاحته طلب مبلغًا كالذى قبضه سعيد بك، فشخر له نبيل شخرة رنانة، ثم بدأت مساومات اسمح لى أن أسميها بمساومات الشخر، كل شخرة بخمسين ألف، فينزل فهمى بك عن خمسين ألفا أخرى فتخرم الشخرة أذنيه، عندما هبط المبلغ إلى مائة ألف بكى فهمى بك وهو يسمع الشخرة البذيئة، وقال إن ما بذله من تعب فى عمل هذه الأرض واستصدار التراخيص يساوى أضعاف هذا المبلغ، قال له نبيل إنه سيعطيه خمسين ألفًا تقديرًا لبكائه فحسب، لم يجد فهمى بك أمامه من منفذ آخر غير الفضيحة على حصل فاضى . . . خلاص يا عم الله يبارك لك . . .

«راح نبيل إلى مكتبه وكتب عقد تخارج وأوراق تنازلات ومخالصات وتعهدات وما إلى ذلك من تحوطات كتبت كلها على ورق مطبوع عليه «باتج» مكتبه كمحام، وأتى بها، فأخذها فهمى بك ليطلع عليها أحد المحامين من أصدقائه الخلصاء الأمناء على مصلحته . . . . ماشى! حقك يا عم! . . . .

«ثانى أو ثالث يوم جاء فهمى بك ومعه العقود فى حقيبته السمسونيت السوداء ومعه أيضًا ذلك الصديق المحامى الكبير كما قدمه لنا: قام ذاك المحامى بتقديم الأوراق كلها إلى فهمى بك لكى يوقع عليها بإمضائه أمام نبيل، وقع فهمى بالفعل على جميع الأوراق، أخذها المحامى ووقع بإمضائه كشاهد، طلب منى أن أكون الشاهد الثانى فسلمته بطاقتى العائلية فنقل بياناتها وقمت بالتوقيع تحتها. المحامى طوى ملف الأوراق ووضعه فى الحقيبة كما كان ثم طلب

تسديد المبلغ، ففتح نبيل حقيبته الشبيهة وأخرج منها رزمتين بلفة البنك الأهلى:

- أدى خمسة وعشرين ألفا! وسأعطيك شيكًا بالمبلغ الباقى يستحق الصرف أول الشهر يعنى عشرين يومًا بالكثير».

«هاج فهمى بك، راح لونا وجاء لونًا، تشبثت قبضته بمقبض الحقيبة وصاح:

- أنا لا أتعامل بشيكات ولا أحب الظهور فى أى بنك! نحن اتفقنا على أن تدفع نقدًا على التربيزة فلا داعى للتلاعب بى أكثر مما فعلت!

«قال محاميه على سبيل الترضية:

- خلى فلوسك فى شنطتك يا نبيل بك! وخلى أوراقك فى شنطتك يا فهمى بك! عشرون يومًا ليست مشكلة ما دام كل واحد ابنه فى حضنه! ويا دار ما دخلك شر!

«قال نبيل بلهجة استهتار مغيظة:

- لا بأس! العملية أصلها واحد ونحن فى النهاية أصدقاء عمر لكن القانون قانون ولا تدخل فيه الصداقة من غير مؤاخذة! لهذا فأنا رحبت بأن تبقى الأوراق فى حضنه إلى أن يقبض فلوسه بالمليم إن شاء الله!

«بعد انصرافهما بالحقيبة السمسونيت انعوج نبيل ورفع إليته وضرط جيصًا صفيقًا جدًا كما لو كان مقصودًا به تشييعهما بهذه الرائحة الزكية المفرطة فى زكاوتها، قال فى صياغة متقنة:

ـ هذا الرجل لا هو محام ولا يعرف أى شىء عن القانون! هذا رجل لابس مزيكة استأجره فهمى بقطعة حشيش ليتحامى به قُصادى!

ـ وماذا تنوى أن تفعل؟

ـ فى الموعد سأرمى له فلوسه على الصرمة القديمة!

«لكن الميعاد فات، والموضوع مات، ونشط نبيل فى تطوير أسلوب العمل، وأتى بعيال فوربجية متودكين على شغل البارات والمطاعم بأقل تكاليف ممكنة وأفضل منظر براق، جعلنى أمينًا على مخزن المونة، انهالت الخمور المهربة علينا بغزارة وبتراب الفلوس قياسًا على أسعارها الباهظة كماركات عالمية . . . . شهر وراء شهر وراء شهر ولا حس ولا خبر عن فهمى بك، لم أكن أعرف أنه قد أصابته جلطة فى المخ جعلت وجوده كعدمه على ظهر الأرض، إنما عرفت الخبر بالفهلوة، كنت مستلقيًا وراءكما على النجيل فى السمبوسكة الظلماء فسمعت كل كلمة فى حواركما، استمتعت به آخر استمتاع، كلمة بجوار كلمة من كلامكما استنتجت خبر مرضه ووكسته. قبلها كنت إذا سألت نبيل عن موضوع فهمى بك يقول بلهجة غامضة: كل شىء بأوان. وقبل تشريفك لنا بيومين اثنين كان عندنا رجل لم أعرفه ولم أره من قبل لكنه كان قوى الشخصية جدًا على نبيل، يأمره ويكلمه باعتباره سيده وسيد العمل هنا، يطلب النظر فى دفاتر الحسابات، ويتكلمان معًا كلامًا غامضًا مقفولاً يستحيل علىّ فهمه، بينى وبينك أنا رشحته لأن يكون

مهرب هذه الخمور التى لا تتوفر بهذه الكمية إلا فى المصنع، ثم صححت ورشحته لأن يكون صاحب المال الواقف وراء نبيل، لذلك لم يجعلنى أقترب منه أو أكلمه، ويوم كنت عندنا جاء بالنهار يرافقه عدد من البكوات قاموا بجرد المخازن فى صمت وهدوء ووزع الرجل علينا كل واحد عشرة جنيهات حلاوة حنك. . ثم اتضح أنه صاحب كل شىء هنا.

«صراحة ربنا أنا مبسوط فى الشغل أى نعم لكننى غير شاعر بالأمان، وقد شالت نفسى من نبيل، وأصبحت أخشاه أكثر من خشيتى لفهمى مئات المرات. فهمى بك كلب يمكن أن تشخط فيه أو تطارده بالطوب؛ لأنه ينهشك وجهًا لوجه، أما نبيل فعقرب سام لا يقدر على سحقه إلا رجل كالذى جاءنا وحدثتك عنه الآن، تصور أننى يركبنى العصبى من شدة الرعب من أن تجيئنى قرصة على حين غرة كما تكتبون، فهل يستطيع الإنسان أن يعيش فى ظرف كهذا؟! الذى أنا متأكد منه أن عمرى لن يطول فى هذا المطرح مع هؤلاء المهربين، وقبل أن يلفقوا لى قضية بالأونطة لسبب من الأسباب نويت أن أحوط نفسى بالحذر والحيطة إلى أن أنسحب فى هدوء ونحن أصدقاء، لكن على فكرة، أنا مبسوط لأنى حكيت لك هذه الحدوتة لكى تكون على علم بما قد يحدث لى ذات لحظة، ضعها أمانة عندك لا تنشرها ولا تحكيها لأحد!. . . .

«إنما هناك شىء آخر، أنا صحيح خريج سجون، وصحيح أيضًا أن فهمى بك ابن وسخة بلا أصل، لكننى أكلت معه عيشًا وملحًا وانتفعت

من ورائه، وجدت أنه من الوفاء ورد الجميل أن أبلغه بما يحدث لعله يتصرف، فما صدقت أن رأيتك فألهمنى الله بأن أجعلك وسيطًا إليه لتبلغه، فطوال الأيام الفائتة كانت حال المطرح مقلوبة؛ لأن الموسم السياحى كان فى ذروته فمنعنى من المجىء إليك فى الموعد، وفعلاً كل تأخيرة وفيها خيره، فمنذ كم يوم فوجئت بنبيل يقول إنه خلص موضوع فهمى من أساسه ولم يعد له أية حقوق عنده فهل ذلك صحيح يا ترى؟».

٢
فتح على مقفول

أنستْ فايقة لصفوت بك من أول وهلة كأنه واحد من إخوتها أو أبناء عَمومتها من البلد. إن «البلد» كامنة فيه فعلاً، سيما وأنه كان لبقًا ذكيًا فجاءنا مرتديًا طاقمًا من الملابس الفلاحية الصرفة: الجلباب الصوف والصديري من تحته والشال الكشمير وطاقية من الصوف شغل يد ممسكًا بالعصا الأبنوس العوجاية. عاتبته فايقة لأنه لم يأت معه بالسيدة زوجته؛ فإذا به يرد عليها بنفس لهجتها الفلاحية التى وضح أنه يتكلم بها فى بيته، قال إن إيناس ـ زوجه ـ عازفة آلة قانون فى فرقة الموسيقى العربية ولديها الليلة حفل فى تونس مع الفرقة وإنه يكتفى اليوم بالتعرف على البيت وإن شاء الله ستكون معه فى المرة القادمة، ولكن بعد أن تكون هى ـ فايقة ـ قد اصطحبتنى إلى بيته لرد الزيارة...

تناولنا العشاء ثلاثتنا بشهية؛ ثم انتقلنا إلى حجرة مكتبى مع الشاى وانصرفت فايقة إلى فيلم السهرة على القناة الأولى خاصة أنه فيلم «شيء من الخوف» بطولة شادية ومحمود مرسى وهى تعشق هذا الفيلم وبخاصة مشهد شادية وهى تفتح للهويس على إيقاع موسيقى بليغ

حمدى الذى ـ تقول فايقة ـ نطق بصوت فرحة الماء يفك حبستها فراحت تزغرد وهى تجرى بالمشوار فى الأرض والترع والمساقى والسواقى ؛ إن موسيقى بليغ تذكرٍّ فايقة بأرغول الموال فى ليالى البلدة القديمة . . .

انشرح صفوت بك حينما نقلت إليه رأى فايقة هذا ؛ جعلنا معًا نحاول الإصغاء من حين لآخر فى ترقب لقدوم هذا المشهد الذى تبين لنا أن موعده لا يزال بعيدًا فى السيناريو . كنت أحدثه عن رأيى فى شعره الذى أعجبنى . وكان منتشيًا بكلماتى خاصة أننى كنت استشهد بمقطوعات علقت بذاكرتى ، وعدنى بأن يعطى للشعر وقتًا واهتمامًا . وبدون أن أدرى وجدتنى أسرد عليه ما حكاه لى بالأمس منير عبده بكل دقة ربما لثقله على صدرى أو لاعتقادى بأنه يمثل شيئًا من الخطورة ؛ فإذا بوجهه يصير كتلة من اللهب برتقالية اللون ؛ أثقل عليه فأطرق غائبًا فى شرود لبرهة طويلة زائغ العينين ، وإذ رفع رأسه فوجئت بأن تقاطيع وجهه قد انصهرت فى بعضها ؛ التبست علىّ مشاعره بين القهر والغضب والذهول والاستنفار فكل هاتيك المشاعر كانت تترادف فى عينيه ، لكن هدير موسيقى الهويس ما لبث حتى اقتحمنا ، حيث شاغبتنا فايقة برفع صوت التلفاز ؛ فكانت موسيقى بليغ حمدى قد هدمت فى أعماقنا عشرات السدود النفسية وفتحت عشرات الأهوسة فتدفقت فينا مشاعر المرح والبهجة والتفتح للحياة . . .

لكنها برهة وجيزة ثم اقتحمنا دوى سمج طمس جريان الموسيقى وشتت إيقاعها ؛ لكأن خيل عتريس فى الفيلم قد راحت تطرق الأرض بسنابكها فى هجمة شرسة على أهل القرية ؛ لكن حين أصخت السمع

إلى هذه الهوجة المفاجئة من حوالينا أدركت فى الحال أن هجومًا من نوع آخر يقتحمنا الآن؛ أكاد أميز الأصوات بين هذا اللغط الذى اندفع من باب السور ومشى فى الممر متجهًا إلى باب الشقة لكنى رفضت تصديق أذنى؛ إلا أنها لم تكن تكذب، فهذا بالفعل صوت حليمة أم السعد وهذا صوت فهمى بك يتهته، ولكن ما كل هذا اللغط؟! . . .

أغلقت باب حجرة المكتب على صفوت بك ورحت أفتح باب الشقة . . .

ـ «خربوش أبو أصبع؟ خيرًا يا خربوش؟!»

ـ «مساء الخير! أولاً!»

ـ «مساء النور! أهلاً وسهلاً! فيه إيه؟!»

ـ «متأسفين يا مروان بك! لكن . . . الحاج كامل بك يستأذن حضرتك فى خمس دقائق مقابلة مع الاعتذار عن المفاجأة!»

ـ «لا داعى للاعتذار يا رجل! تفضل يا كامل بك بدون استئذان!»

خرجت إلى شرفة الباب؛ فوجئت بهم جميعًا يقفون فى الحوش منكمشين على أنفسهم فى حرج ذى ملمح صبيانى مسرحى كأنهم ـدون قصد بالطبعـ يريدون إفهامى بأنهم يتوقعون أن أطردهم، الأمر الذى جعلنى أعمد إلى تهزيئهم ولو على سبيل المزاح الضاحك:

ـ «لعلكم أخطأتم الطريق! أنتم تريدون بيتى أم مولد السيدة زينب؟!».

ضحكوا، حتى فهمى أطلق عواء تقطعه شهقات، دخلوا،

استقبلتهم فايقة عند القاطوع النصفى الفاصل بين الأنتريه والصالون، جلسوا، بقى الحاج كامل واقفًا وقفة شاعر بالذنب يريد أن يتأكد من أننى غير منزعج من قدومهم المفاجئ بدون موعد سابق:

ـ «متأسف جدًا يا مروان بك! فهمى بك ترجانى أن أجىء به إلى حضرتك من غير موعد سابق! لو عندك تليفون كنت كلمتك أولا! ولو لم أكن متأكدًا من أنك تعزنى ما جئت! لكنى جئت لأن الموضوع الذى نريدك فيه مهم جدًا!».

ـ «أهلاً بك وبهم فى أى وقت! نحن فلاحون يا رجل! اقعد! هذه أول مرة تدخل بيتى وهذا شىء يسعدنى!».

رغم انبساط وجه فايقة كنت أشعر أنها تغالى فى الترحيب لإخفاء ضيقها وتوجسها من هذه الزيارة الليلية غير المرتقبة. فهمى بك جعل يبعبع ويتفتق ويزوم ويصدر أصواتًا متلاحمة من شدة انفعالى واضطرابه لم تكن دلالاته واضحة فلم أفهم منها شيئًا محددًا؛ فأسكته الحاج كامل بك بحركة من ذراعه وشرع يفسر لنا معنى هذه الأصوات:

ـ «فهمى بك يسأل حضرتك عما حصل فى غيابه! أصل الست حليمة حكت لنا حكاية الشنطة ونبيل والبوليس! ولم يثق فى كلام الحاج صلاح! ولا يريد التكلم مع نبيل!».

زحف الضيق على صدرى ملأه بالحنق:

ـ «يا حاج كامل أنا من أدرانى بما حدث! والله ما رأيت شيئًا ولا علاقة لى بهذا الذى حدث من قريب أو بعيد!».

ـ «الست حليمة تقول إنك على علم بالموضوع!»

ـ «هى التى جاءتنى وحكت لى ما حدث!».

قالت حليمة فيما يشبه الانفجار:

ـ «يا سعادة البيه إننى استشهد بك على أننى لم أفرط فى حاجته وعملت الواجب الذى قدرت عليه فعملت المحضر فى البوليس!».

ـ «نعم أشهد بأنك قلت لى هذا و . . . . .».

ثم فطنت إلى أننى يجب أن أكون أهدأ وعلى شىء من الكياسة؛ فانتهزت فرصة قدوم الشاى مع فايقة ففردت وجهى؛ أعدت الترحيب مع تقديم الشاى لكل منهم على حدة؛ لكن حليمة فاجأتنى بأن انفجرت باكية بحرقة، ربتت فايقة على كتفها:

ـ «مالك يا حليمة تقهرين نفسك هكذا؟!».

قالت حليمة فى ولولة كأنها تنعى فقدان الخير والأمان فى الدنيا:

ـ «ما قهرنى إلا الزمن يا ست فايقة! فهمى بك الله يكرم أصله من ساعة ما وصل من الاسكندرية وهو نازل فىّ بهدلة! ليه وليه أروح قسم البوليس وأعمل محضر؟!».

تدفقت العبارات بصورة استدرت دموع فايقة ودموعنا، جعلت فايقة تواسيها:

ـ «لكنك بنت أصل وعملت الواجب!».

ووجهت نظرة حانقة إلى فهمى بك:

ـ «الولية أرادت أن تخلص ذمتها لأن كل شيء في البيت هي مسئولة عنه وإذا حضرتك جئت وفتشت عن الشنطة فلم تجدها كنت ستسكت؟ أقل ما فيها ستتهمها بأنها أهملت!».

لكن وجه فهمي بك مثل كتلة لحم أملس، عيناه تنضحان صفاقة وبجاحة متجلدة. استدركت حليمة بلهجة من سيشق الهدوم وتخرج من دينها:

ـ «المصيبة السوداء يا ناس أنه ينكر أنه كان عنده شنطة من الأساس! . . . شفتوا ما أنا فيه من غم؟! يمين المصحف يا ناس أنه سألني عن الشنطة مائة مرة! وتعارك معي بسببها في كل مرة! وحكم عليّ بأن أبعث لخيرات أسألها! . . . الحاج يشهد وخربوش ونبيل كلهم يشهدون يشهدون أنهم فتشوا معه في كل ركن في الشقة عنها! . . . عبود يشهد أنه وضع الشنطة بيديه فوق سطح الدولاب مرتين مرة ليخبئها ومرة ليظهرها! . . . وبعد كل هذا يجيء حضرته وينكر أنه كان عنده شنطة من الأساس؟! أنا في عرضكم خذوني ودوني المورستان أحسن!!».

صرت كالقاعد فوق عرصة فرن الخبيز المحمية، يكاد عقلي يذهب، صرخت واقفا:

ـ «خذيني معك يا حليمة! هذا محض جنون! أنت يا حاج كامل بك ألم تحاصرني شهوراً لترغمني على كتابة جواب للمدام خيرات أسألها فيه عن الشنطة؟!».

وجه الحاج كامل بك سراج يكاد يَطيرِّ أبراج عقلي كلها بالفعل؛ إنه

وجه جديد عليَّ تمامًا، ملامحه غليظة متكورة متهدلة فى آن، عيناه رخوتان عائمتان فى بحر من الدهاء أضفى على صفحة وجهه سمت قوَّادة عاهرة عريقة فى العهر، وإن لبست الطرحة البيضاء وأمسكت مثله بالمسبحة؛ قاطعنى صائحًا فى أريحية وبراءة طفولية ناعمة ممطوطة وهو يصك جبهته بكفه:

ـ «إي س ك و و تْ! نسيت أن أبلغك! . . .».

وانفجر فى ضحك عميق أعاد لى وجهه الأصلى؛ استطرد فى نبرة مرحة يتخللها رحيق الضحك:

ـ «. . . ونحن فى الاسكندرية عملها فينا هذا العكروت!».

ـ «شخَّ عليكم يعنى لا مؤاخذة؟!».

ـ «كأنه فعل هذا!».

ـ «كيف؟!».

ـ «بعد أن روقناه وأنزلناه البحر وفرفشناه بالسمك والجمبرى والكابوريا لحدّ ما صحصح! قعدنا أنا والواد خربوش ناخذ ونعطى معه حول الشنطة لعله يتذكر المكان اللى شالها فيه!».

ـ «وتذكرها يا ترى؟!»

انفجر ضاحكًا:

ـ «تذكر أنه لم يكن عنده شنطة! وإن شنطته السمسونيت التى فلق دماغنا بها نساها فى التاكسى من سنوات طويلة فاتت! . . . طب كيف تربست فى دماغك يا عم فهمى وشغلتنا! قال إنه لا يعرف!

أسهل كلمة عنده لا أعرف! منك لله يا راجل يا طيب! ماذا نفعل يا أسيادنا معه؟ خلاص! هو حر! واحد شايل ذقنه! الثانى زعلان ليه؟!»

ثم غمز بخده غمزة ذات معنى واستدرك:

ـ «على فكرة يا مروان بك! زعله من الست حليمة ليس سببه أنها عملت محضرًا فى القسم! بل السبب أنها قالت لحضرتك! رأيه أنه ما كان يجب أن حضرتك تعرف مثل هذا الخبر عنه وأنت صحافى مهمتك نشر الأخبار! وقد صدَّع دماغنا ساعة كاملة إلى أن فهمنا منه أنه يرجونى أن أرجو حضرتك أن تتكتم هذا الخبر ولا تنشره إكرامًا للصداقة التى بينكما!».

بالقوة منعت نفسى ـ احترامًا لفايقة وحليمة ـ من سحب شخرة اسكندرانية تليق بهذا الكلام من رجل صرت أندم الآن أشد الندم على أننى احترمته ذات يوم... وفيما رحت أحملق فى عينيه وقد هالنى أن أكتشف فيهما كل هذا القدر من المومسة على أحط درجاتها سمعنا صوت نحنحة قوية فى حجرة مكتبى شعرت أنها بمثابة استئذان فى الدخول علينا... من الواضح أن صفوت بك لم يصبر حتى نأذن له إذ فتح الباب وظهر مقبلاً نحونا آخذًا سمت العمدة المهيب:

ـ «سلام عليكم».

وقفنا جميعًا:

ـ «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

وسعنا له مطرحًا لكنه تجاهله وقرفص أمام فهمى بك محملقًا فى عينيه :

ـ «تعرفنى يا فهمى بك؟» .

فهمى بك راح يرتعد كفأر وجد نفسه داخل المصيدة، لكنه هز رأسه بالإيجاب عدة مرات، ثم ابتسم ومد يده وصافحه مغمغمًا بما يبدو أنه : إزيك، على وجهه تعبير يشى بأنه يعرفه حق المعرفة : قال صفوت بك فى تفاؤل :

ـ «حلو! عقله صاح ويعرف الناس!» .

حملق فى عينيه ثانية :

ـ «فهمى بك! هل تتهم نبيل البحطيطى بأنه سرق منك حقيبة سمسونيت فيها عقود وأوراق خاصة بك؟» .

هز فهمى رأسه بالنفى عدة مرات مع حركة من أصبعه السبابة تعنى النفى القاطع . . . فسأله :

ـ «هل الست حليمة تكذب فى كلامها؟» .

أمال رأسه بالإيجاب عدة مرات مع غمغمة ونظرات غضب موجهة إليها بما يشير إلى أنه يلعنها . وهى ـحليمةـ ممسكة بطرفى طرحتها فاردة ذراعيها تشوح بهما فى رهك الثكلى :

ـ «بُرّيييييه منك! بُريه! حسبى الله ونعم الوكيل! . . . يا خبر اسود ومنيل!» .

سأله صفوت بك :

ـ «هل كان عندك شنطة فيها عقود مكتوبة على ورق يتبع مكتب نبيل البحطيطى؟» .

جعل يهز رأسه كبندول الساعة بالنفى القاطع مع تحريك أصبعه السبابة بحركة النفى، عندئذ نهض صفوت بك واقفًا فى ضجر، محاولاً قدر الإمكان ضبط أعصابه :

ـ «عفوًا أستاذ مروان! أنا مستريب فى هذا الكلام! فى كل هذه الحدوتة من أساسها!» .

جاوبه الحاج كامل بك بفهلوة :

ـ «من حق سعادتك! ومن سمعك!» .

حدجه صفوت بك بنظرة حادة تكاد تنطق بأنه غير مستريح لشخصه ولوجوده من الأساس، ثم حول نظرته إلى فهمى بك، وقد فاضت بمشاعر الاحتقار والاشمئزاز، ولكن الشعور بالشفقة والأسى وضح أنه غالب عليه؛ جلس واضعًا ساقًا على ساق وقد ظهر عليه إجهاد كأنه ينوء بحمل ثقيل. . . . عندئذ دبت الحيوية فى جسد فهمى بك، فمال يجذعه نحو صفوت بك فى محاولة للاقتراب منه بابتسامة ساذجة تعيسة، لكن الحركة والابتسامة نجحتا ـ وإن بشكل فكاهى ـ فى الإيحاء بصورة الزميل ذى الرتبة حينما يلتقى زميله ذا الرتبة أيضًا وسط جمع من غير أهل المهنة؛ كان كأنه يستدرك لتحيته الواجبة، ثم جعل يصدر أصواتًا مصحوبة بحركة من يده تعنى الكتابة والتوقيع على ورق، وراح صوته يتلون تبعًا لانفعالاته بنبرة التوسل والرجاء، يهز رأسه بحركة من يقول : عشان خاطرى، ويشير بكفه إلى كتفيه كأنه يتحسس الشرائط

والنجوم على بدلته العسكرية، ودموع فى عينيه تترقرق وتتكاثف بارتفاع نبرة التوسل والترجى. وكان صفوت بك يتابعه فى اهتمام وتركيز، صفحة وجهه تنضح شعوراً بالأسف والأسى والاستعبار . . .

تلاقت نظراتنا فى حيرة. قال صفوت بك:

ـ «فهمت بالويم أنه يكلمنى عن واجب الزمالة! ويبدو لى أنه يتكلم عن قسم الشرطة الذى أنا مأموره! ويبدو لى أيضًا أنه يكلمنى عن المحضر الذى كتبناه ووقعت عليه الست حليمة ببصمتها وأغلب ظنى أنه يرجونى أن أشطبه إن استطعت!».

كان من الواضح أننا فهمنا نفس الفهم ولكن كان من الواضح أيضًا أن الحاج كامل بك يعرف هذا مسبقًا؛ وبدا كأن حليمة متوجسة من شىء ما. إلا أن صفوت بك رشق الحاج كامل بنظرة تكاد تثقب عينيه:

ـ «حاج كامل! هل كنتم على علم بأننى سأكون هنا الليلة عند الأستاذ مروان؟!» النظرة ثقبته بالفعل حتى كاد يتألم من مسمار دُق فى عينيه لكنه غطى على الألم بصيحة ورعة:

ـ «لا والمصحف!».

فى نفس الآن خرج صوت حليمة محاذيًا صوته بنفس الاندفاع غير أن صوتها كان حقيقى الورع:

ـ «نعم يا سعادة البيه!».

كاد الحاج كامل بك يلكزها بكوعه من فرط الحنق:

ـ «أنا صادق فى حلفانى! لم نكن نعلم أن سعادتك ستكون الليلة عند الأستاذ مروان!».

ـ «فلماذا قالت حليمة: نعم؟!».

ـ «أقول لسعادتك...».

اعتدل فى قعدته مواجهًا صفوت بك فاحتل كرشه نصف المساحة الفاصلة بينهما؛ راح يشرح بذراعيه ورأسه وعينيه:

ـ «أصل سعادتك... فهمى بك ساكن فى البيت اللى على ناصية الشارع اللى ورانا... المتقاطع مع الشارع العمومى!... وكنا قاعدين فى البلكونة ننتظر عودة المخفى نبيل الكلب لنعرف منه ما حصل... سعادتك وأنت فايت علينا بالعربة لتجىء إلى هنا لوحت بالتحية لرجل فى الشارع ورد عليك قائلاً تفضل يا صفوت بك!... هذا الرجل هو الحاج صلاح صاحب البيت!... حليمة سألته: أليس هذا هو مأمور القسم! قال: نعم! شىء إلهى قال لها إن سعادتك ربما تكون على معرفة بالأستاذ مروان وآت له.... بعثت وراءك بنت البواب المجاور جرت بالمشوار وراء العربة لحد ما شافت سعادتك نزلت ودخلت بيت الأستاذ مروان!

طلعت فى دماغ فهمى أن نأتى إليكم من أجل تصحيح البلاغ الكاذب!»

صرخت حليمة أم السعد وانتفضت واقفة:

ـ «لا تقل كـاذبًا! . . . أنت الكذاب فى أصل وشك وشلتك شلة الكاذبين ناقصى المروَّة! وحق الله فى سماه إن قلت كاذبًا هذه مرة أخرى لأخزقن عينيك بأصبعى هاتين!».

وكادت بالفعل تدب أصبعيها فى عينيه لولا أنه من فرط الفزع تراجع مبرطما:

ـ «يكفينا شرك! يكفينا شرك!».

نفض صفوت بك نفسه واقفًا؛ قال كأنه يزفر:

ـ «المحضر لم يعد له أية قيمة! لكننى مع الأسف لا أستطيع إلغاءه! هو الذى سيلغى نفسه بنفسه! عن إذنكم!».

لم يصافح أحدا سوى فايقة:

ـ «ألف ألف شكر يا مدام!».

خرجت معه إلى سيارته؛ وبرغم خروج السيارة وابتعادها ظللت واقفًا عند الباب لأوحى لهم بالانصراف. وكانوا بالفعل قد وقفوا وشرعوا فى الانصراف بمصافحة فايقة فيما حليمة متعفرتة تكيل السباب لفهمى بك مهددة إياه بعذاب جهنم مرتين في الدنيا وفى الآخرة. الطريف أن فهمى الذى استند على ذراع خربوش تعثر وهو يهبط درج سلم الفراندة، فصاحت حليمة من شدة الإرتياع: اسم الله عليك يا خوية، ولحقت به فوضعته تحت إبطها ليتمكن من هبوط الدرج.

الفصل الثانى عشر

١

يوم المفاجآت

كان متولى درويش يرسل لى مجلته «قطوف» التى يصدرها فى باريس باللغة العربية، وهى شهرية ثقافية سياسية تنشر لنخبة النخبة من المثقفين والمفكرين العرب القائمين فى المنافى وتنشر إلى جانب الدراسات الفكرية والأبحاث قصصًا قصيرة وقصائد ومراجعات وشهريات من دول عربية متعددة. وكانت المفاجأة الأولى اليوم أن المغلف الذى احتوى عدد المجلة احتوى معه نسخة مهداة من المؤلف من كتاب «الزعيم الملهم ـ دراسة فى فكر الزعيم القائد صدام حسين»، تأليف: معتز الأقصرى!!.. المفاجأة الثانية لم تكن متوقعة على الإطلاق، ذلك أننى حينما اختليت بنفسى على مقهى ريش وتصفحت مجلة قطوف فوجئت بقصة قصيرة بقلم: خيرات الشامى بعنوان: «سجن النساء». دهشة المفاجأة الأولى ودهشة المفاجأة الثانية صارا مثل حجرى رحى يطحنان فى رأسى: فأن يكتب الناقد الماركسى المصرى كتابًا عن الزعيم القائد صدام حسين كأنه يكتب عن لينين أو كاسترو أو جمال عبد الناصر معناه أن معتز الأقصرى الفاقد تمامًا لأى مصداقية قد آل به التدهور إلى أن يصير مفكرًا بالإيجار فأصبح جديرًا بالوصف

الساخر الذى يطلقه عليه صديقنا إبراهيم منصور : «فيلسوف شنطة»! ؛ وأن تكتب خيرات الشامى قصة ثانية ثم تنشرها فى مطبوعه كهذه شديدة الخصوصية والبُعد فى المكان معناه أن خيرات أصبحت كاتبة بالفعل وتتابع وتعرف أين يوجد متولى درويش وتراسل مجلته، ولابد أنها تراسل مجلات ودوريات كثيرة ؛ وهذا بدوره يعنى أن بالها رايق وأنها فيما يبدو غير مهمومة بأمر ابتعادها عن زوجها وعيالها! . . .

على أن المفاجأة الثالثة كانت ألطف ؛ فوجئت بالدكتور فايز دياب وابن عمه فتحى دياب زميلنا المستشار القانونى والصحفى فى نفس الوقت يكتب اليوميات، يسحبان كرسيين ويجلسان إلى نفس الترابيزة التى أجلس إليها. أية ريح طيبة؟ بقدر فرحتى لرؤيته شعرت بالأسف على أننا لم نتقابل منذ عدة سنوات ربما كانت قليلة جداً لكنها تبدو لى الآن زمنا طويلاً، تذكرت آخر مرة رأيته فيها، كانت فى مناسبة تعيسة : فى سرادق العزاء فى زوجه التى اختطفها الموت غيلة بواسطة مرض غبى مجهول أدى إلى خلل فى جميع وظائف الغدد والهرمونات أوما يشبه ذلك محال أفهمه ولا أحب أن أفهمه من حديث الأمراض والأطباء لكن يقينا راسخًا كان يردده كل أطبائها بأن مرضها ذاك ناتج عن المغالاة فى زواج الأقارب على امتداد عدة أجيال، ماتت وتركت له بنتًا جميلة وولدًا أجمل وكلاهما زمانه الآن قد تخرج فى الجامعة. . . .

كالعادة رحنا نتبادل العتاب على عدم التلاقى، ثم تطور عتابنا إلى لوم للزمن وللظروف التى تفرض على الواحد منا أن يكدح ليله ونهاره فى عديد من الجهات ليبقى على قيد الحياة.

قال فتحي دياب :

«أنا يا ابن عمه لم أره منذ أكثر من عام مضى! لكنى اقتنصته اليوم بأعجوبة ولولا المناسبة وأهميتها ما شفته!» .

ـ «وما هى المناسبة بالمناسبة؟ واضح أنها سعيدة!» .

قال الدكتور فايز فى كثير من الدهشة :

ـ «إيه! ألم تصلك الدعوة؟!

ـ «لم يصلنى شيء!»

ـ «لو كلمت بيتك الآن بالتليفون سيقول لك إنها وصلت مع مخصوص يدًا بيد؟» .

ـ «ألف مبروك مقدمًا مع أننى لم أعرف بعد فحوى الدعوة!»

ضحك فتحي دياب، فاحمر وجه الدكتور فايز دياب وأشار بأصبعه السبابة الشبيهة بأصبع الموز إلى صدر فتحي ابن عمه :

ـ «ابن فتحي سيدخل على بنتى رنا!» .

فرحت بالخبر فعلاً، صافحته بحرارة :

ـ «ألف مبروك! العيال كبرت!» .

بدا على وجه فتحي دياب أنه يدخر للخبر بقية مفرحة، أعلنها بابتسامة زهو خجلة قليلاً :

ـ «وفتحي ابن فايز سيدخل على ابنتى نهى!» .

لم أجد مفرًا من التهليل :

ـ «أنتم عائلة فى منتهى الروقان! تكررون الأسماء والزواج : ابن فايز اسمه فتحى وابن فتحى اسمه فايز!» .

لكزنى فتحى دياب :

ـ «واضح أنك لم تقرأ يومياتى فى جرنان أول أمس! كانت حول هذا الموضوع وقلت إننا عائلة تعشق دمها كعشقها لأرض مصر!» .

الدكتور فايز ليس مغرمًا بمثل هذه التعبيرات الإنشائية التى يكتبها ابن عمه فى يومياته بجريدة الأخبار ؛ لهذا قطع عليه الاسترسال قائلاً لى بلهجة تنبيه وتحذير :

ـ «ستحضر طبعًا أنت والمدام!» .

ـ «المدام صعب حضورها! العيال يلخمونها! أما أنا فلابد أن أجيء . . . طبعًا! أين سيكون الفرح!» .

ـ «فى مكان جميل جدًا وساحر! على مسطاح نهر النيل! نادى وكازينو شط الدهب!» .

يبدو أن لونى قد اتخطف وأننى لذت بالصمت فترة طالت قليلاً حتى استوعب الخبر . قال كأننى قد صدمته :

ـ «إيه!! مكان سيئ؟ مشبوه مثلاً؟! لا تصدق على كل حال أنا سمعت مثلك لكنى رحت شوفت بعيني : حاجة محترمة جدًا جدًا! . . . وعلى فكرة! فى نظرى أنه أفخر مكان مفتوح يمكن أن

نقضى فيه سهرة عائلية أو تعمل فيه حفلة! كل الأمزجة موجودة من الشعبى الصرف إلى السياحى الأبهة! . . . جواه مرسى! فندق عائم تبعه! مركب سياحى للنزهة والحفلات رايح جاى! من القاهرة لأسوان والعكس! . . . إن شاء الله فرحنا سيكون فى هذه المركب نوصل لحد حلوان ونرجع ينزل العريس والعروس من المركب على الفندق العايم لقضاء أسبوع عسل! أعتقد أنها ستكون ليلة جميلة!».

ـ «إن شاء الله يا رب! . . . ربنا يتمم بخير!»

بعد قليل من التردد والتوجس من كازينو شط الدهب على الرغم من هذه الأوصاف المبهرة لاح لى أن تلبية الدعوة مسألة يجب أن تكون منتهية.

٢
تعريس فوق النيل

رُحْتَ فعلاً ؛ الفضول وحده كان وراء حماستى للحضور ؛ فلم يكن قد مضى على حادث سرقة الشنطة سوى بضعة أشهر انقطعت فيها الصلة بينى والموضوع برمته ؛ إلا أن الخطابات المتبادلة مع مدام خيرات كانت متصلة وإن على فترات متباعدة ؛ وكان آخر خطاب وصلنى منها منذ حوالى عشرة أيام قالت فيه إنها جادة الآن فى إجراءات إنهاء عقدها فى موعده القانونى حتى لا تخسر مكافأة نهاية الخدمة وهى مبلغ كبير والتضحية به محض جنون . . . .

تجمع المدعوون فى الجنينة لصق المرسى إلى أن وصلت العروس الأولى فاستقبلتها المزيكة من سلم باب الكورنيش حتى سلم المركب ثم ارتدت فى الحال لاستقبال العروس الثانية . تجمع المدعوون على المرسى إثر دخول العروستين وراحوا يتدفقون على المركب . أما أنا فقد تلكأت فى الصعود لسبب لم أكن أعيه لكننى سرعان ما فطنت إلى أننى أتلكأ بحثًا عن منير عبده ؛ وإذ يئست من ظهوره دخلت المركبة وكنت آخر من دخل . جعلت أطوف بناظرى بحثًا عن ترابيزة التحق بها ؛ فإذا بمن يدفعنى على سبيل التمثيل قائلاً :

ـ «طريق يا بيه! وسع يا أستاذ!»

تلفت إليه متوقعًا رؤية كمسارى أتوبيس فإذا هو منير عبده مرتديًا بدلة موحدة على جميع العاملين فى المحل: أهلاً يا منير أهلاً يا أستاذ مروان . . . قادنى إلى ترابيزة بعيدة عن منصة العروسين وضجيج الميكروفونات؛ أجلسنى فى زاوية تمكننى من رؤية إحدى الشاشات الركنية الكبيرة التى ستعكس ما سيدور داخل الدائرة الراقصة الصاخبة ثم قال:

ـ «نحن مع بعض! أنا المسئول عن هذه المركب مما جميعه! هذه هى شغلتى هنا الآن! عن إذنك!».

مشى إلى مقدمة المركب التى شرعت تلف؛ سطح النهر يدور من حولنا، والقاهرة منعكسة فى قلب الماء تتخفى تحت المركب وتظهر، ثم تختفى لتظهر من جانب آخر. دبّ الهدير الموسيقى الصاخب فجأة بغير تمهيد وجاوبته الزغاريد، وراقصة جميلة بالفعل تتلوى تحت دائرة من الضوى البنفسجى فوق قوس المنصة التى جلس فوقها عروستان وعريسان فى منظر بديع يستقطب أبوتك فتصلى على النبى. أكملت المركب استدارتها واستقامت فى اتجاه حلوان، فبدأت جموع المدعوين تتحدد فى جماعات صغيرة انصرفت إلى شرب وتدخين وحلقات نميمة واضحة من شكلها فى الركن القريب منى سرعان ما احتشد الراقصون والراقصات تحت دائرة الضوء وانخرطوا فى رقص هستيرى. راح منير عبده وجاء عشرات المرات فى القاعة، وتكلم مع عشرات الناس وقال المئات من حاضر وعلى عينى وجاى حالاً وكله تمام وخدامك يا باشا. وجدتنى أكاد أكون غريبًا؛ حتى الدكتور فايز لم أفلح فى التقاطه من

بين الزحام ولعله تخلف فى الكازينو ؛ أما ابن عمه المحامى فكان مثل التشريفاتى لا يكف عن الترحيب بناس وتعريف ناس على ناس فى حفاوة احتفالية صاخبة تلمع فيها ألقاب رنانة : سيادة اللواء، سيادة الفريق، معالى الوزير، رئيس مجلس إدارة كذا، الفنان الكبير فلان . . . إلخ . وكانت الراقصة هيام قد بدأت ترقص وسط ضجيج مرعب تضاعفه الميكرفونات عشرات الأضعاف وخاصة آلات الإيقاع بدويها المزلزل. كنت كالحبيس فى قعدتى فى هذا الركن البعيد، المكان من أمامى ومن حولى مكتظ بالنسوان والرجال والعيال لا متسع فيه لنسمة هواء تمر، وليس ثمة من سكة إلى أى مكان . . . .

يبدو أن منير عبده كان على اتصال بحالتى فأدركنى قبل أن يوسوس لى الشيطان بإلقاء نفسى فى النهر . فجأة رأيته ينبثق من جدار مظلم تمامًا خلف ظهر الفرقة الموسيقية مباشرة، اقترب منى مهرولاً :

ـ «لا مؤاخذة! تأخرت عليك! كان لابد أن أتمم على العشاء قبل تقديمه! تعال!» .

سحبنى من ذراعى؛ مشيت خلفه فى حذر، تتعثر خطواتى فى أسلاك تخينة ملقاه على الأرض كيفما اتفق . . . سرعان ما اتضح أننا خرجنا من القاعة وصرنا نمشى بحذائها فى ممر عريض يفصله عن النهر حاجز معدنى مرتفع . صرنا فى مؤخرة المركب السياحى فهالتنى ضخامته . ابتعد ضجيج القاعة إلى حد يمكن احتماله؛ ثمة منضدة مستقلة معزولة فى الهواء الطلق على سطح «الكويرتة» فوقها زجاجة نبيذ أحمر، وأخرى من نبيذ أبيض وثالثة من الويسكى الدمبل؛ ثمة «بك» محترم يجلس إلى هذه المنضدة معطيًا ظهره للقاعة ولخط سير

المركب، متوحداً مع الهواء الطلق، والنهر يجرى من تحته فاراً مذعوراً؛ البك ممسك بكأس من الويسكى، وبجوار كوعه طبق ملىء بالفسدق واللوز، أشار لى منير على التربيزة :

ـ «هذه قعدتنا المفضلة فى كل رحلة! كل هذا الخير مدفوع ثمنه من زبائن سابقين ونحن نجمعه لمزاجنا يعنى لك أن تشرب للصبح بغير حساب! . . . أما هذا فهو صديقى المسئول عن التسويق للمطرح كله بما فيه المركب والفندق يعنى كل ما يخص الأكل والشرب أما الخمور فتتبع الرأس الكبيرة رأساً!» .

كنت لا أزال واقفًا مرتكنًا على السور المعدنى، نظراتى غائمة مما تعانيه عينى من عشا ليلى يفقدها القدرة على التركيز واستفصاح ملامح الناس والأشياء. مددت يدى لأصافح البك مقاول الأكل والشرب فى كازينو شط الدهب؛ وقد بادر منير بتقديمى إليه فى احتفالية :

ـ «الاستاذ مروان الألفى الكاتب المشهور!» .

ولم أكن فطنت بعد إلى أن البك مذ رآنى قادمًا وهو مندمج فى ضحك عميق مكتوم ويطرق فى الأرض ليخفى منظره؛ فلما وقف ليصافحنى أحاط يدى بيديه الاثنتين، ليس تعبيرا عن حرارة شوق بقدر ما شعرت أنه يتشبث بيدى ليسند توازنه المناسب مع الضحك؛ سرعان ما فطنت إلى أنه يضحك ساخراً منى ومن نفسه لأنه فى ثياب البكوية هذه استطاع أن يغشنى فأبالغ فى احترامه؛ عندئذ أصابتنى عدوى الضحك ممزوجة بدهشة أربكتنى إلى حد كبير، لكننى غطيت ارتباكى بصيحة من نوع التطجين البلدى الحميم :

ـ «إزيك ياد يا خربوش! إنت سبت الحاج كامل وغيرت شغلتك؟!».

ضحكا معًا منير وخربوش الذى قال:

ـ «اقعد حضرتك!».

قعدت، صب كأسًا من الويسكى عبأه بقطع الثلج وقدمه لى؛ وكان منير لحظتئذ ينقل البصر بيننا وعلى وجهه سمت من يريد أن يفهم شيئًا غامضًا يدور من حوله، فما أن سمعنى أنطق اسم الحاج كامل بك حتى هتف ملوحًا بيده فى دهشة:

ـ «وتعرف الحاج كامل سراج أيضًا؟!».

قال خربوش:

ـ «البيه صحوبية قديمة يا جدع!».

رشف منير النبيذ الأبيض متلذذًا فى حركة سينمائية ثم صك قعر الكأس بسطح المنضدة:

ـ «لكى تكون عارفًا يا أستاذ مروان الحاج كامل بك سراج هو صاحب كل هذه الهلُمَّة!».

هتفت تلقائيًا:

ـ «يعنى ليس شريكًا للبحطيطى؟!».

ـ «هأو!».

نطقها بنبرة تطرطش سخرية واستهانة، قلت له:

ـ «يعنى إيه مش فاهم؟!».

قال منير بلهجة حاول أن تكون مهذبة:

ـ «نبيل . . . الأستاذ نبيل قصدى . . . مجرد مدير عام! . . . بياخد نسبة من الدخل الشهرى! نسبة حلوة تعيشه فى مستوى البكوية!».

ـ «عجايب! يعنى نبيل باع الكازينو للحاج كامل بك بعد أن تخلص من فهمى القزاز؟!».

بدا على وجهه ما يشبه الضجر من غبائى وأنه يفكر فى كلمات قليلة يلخص بها موضوعًا يستعصى على التلخيص؛ فما صدق أن ناداه واحد من العمال حتى وقف:

ـ «خربوش بك يستطيع أن يشرح لك كل حاجة!».

وهرول مسرعًا نحو القاعة. وعدلت قعدتى مقربًا رأسى من خربوش بك آخذا أهبة الانصات؛ فبدا عليه كأنه تورط فى مأزق شائك، راح يصب لى ولنفسه؛ وكانت الأضواء الحمراء الكئيبة تنعكس فى الماء المتراجع أمامنا من تحتنا فيبدو النهر ملوثًا بدماء متجلطة متقرحة، والموج كثياب عمالية تطويها الغسالة فتغطس فى الماء المصبَّن ثم تطفو وهى أشد وساخة وقتامة؛ وكانت أصوات إعداد بوفيه العشاء قد ملأت الجو برائحة شهية زاعقة. إن هى إلا دقائق وجاءنا العشاء لحد عندنا فى أطباق متميزة؛ فراحت الملاعق والشوكات والسكاكين تغوص فى لحم الحديث الشهى الذى صد نفسى وصرفنى عن لحم الديك الرومى والضأن فيما أنا مُعلق من أذنى فى حنك خربوش بك! . . . .

٣
فى صحة الشعشعة

. . . «نبيل من وبحطيطى إيه يا أستاذ مروان؟! إيشحال لو لم تكن رجلاً صحافيًا مفتحًا تعرف المخفية والمنسية؟ أنتم يا صحافيين مباحث على المباحث وعلى الحكومة كلها، أليس هكذا؟ . . . أما نحن يا أولاد الصايعة ففوق الفوق! لا تطوينا مباحث ولا تحكمنا حكومة! . . . من غير مؤاخذة ما نريد أن نفعله نفعله دون أن تدرى الحكومة! دستورنا فى الحياة: إللى تعرف ديته اقتله من غير تردد! صحيح أننا لا نسيل دما لكننا نقتل بالفلوس كل من تطول رقبته علينا فى أى مكان! . . . .

«يا مروان بك! نبيل البحطيطى هذا طول عمره صبى من صبيان الحاج كامل سراج! يشتغل عنده من بدرى! تربية يديه! كل شغله فلوس الحاج كامل وما هو إلا عميل يصدره الحاج كامل فى السكك اللبط! . . .

«فهمى بك نفسه كان وحتى الآن يشتغل هو الآخر لحساب الحاج كامل بك بالأجر! كل مشكلة تصادف الحاج ولها اتصال بالشرطة من قريب أو بعيد يرسل فهمى بك لحلها مهما كانت عويصة وأيا كان الثمن! . . .

«هأ هأ. . . هأ! . . .

«الحاج كامل بك سراج يا مروان بك هو رئيس جمهورية جهنم الحمراء! . . . .

«أنا الذى يقول لك! ليس أنا فى الواقع بل الناس! ليس الناس فى الواقع بل الواقع نفسه يقول هذا. . . . هل تعرف معنى أن تكون وكيلاً رسميًا لأشهر ثلاث أو أربع سيارات يابانية وألمانية وفرنسية؟ . . . أن يكون رئيسًا لأحد الأندية الرياضية الكبرى ذات المكانة المهيبة فى الدورى المصرى الممتاز يشترى اللاعبين من حر ماله لدورتين وراء بعضهما؟ . . . وأن تكون هداياه لكبار المسئولين في الدولة وأشهر الراقصات والممثلات الفاتنات اللائى يتزوجنه عرفيًا من أفخر ماركات السيارات؟ . . . وأن يكون له قصر فى مصر الجديدة! وآخر فى منتزه فى الغردقة وشرم الشيخ والاسكندرية؟! . . . وأن ينافس ابن أتخن رأس فى نواحينا على حب فتاة شعنونة من بتوع ألف ليلة وليلة، ثم هو الذى يفوز بها فى النهاية؟ . . . وأن تكون قروضه من البنوك بالملايين؟! . . . هل تعرف كل هذا يا مروان بك أم لا؟ أكيد تعرف. . . .

«الحاج كامل بك ليس يغفر لمن يخونه أو يغدر به! . . . موته وسمه من يحاول استغفاله أو استكراده! . . . أمثال هذه النوعية من المخاليق يحلو له أن يستمتع بملاعبتهم! . . . ياما أشطره فى ادّعاء الغشومية والاستسلام لمن يريد اللعب عليه بأى حلمبوحة! يغريه بنفسه إلى أن يوقعه فى الخيّة فينطبق عليه المثل: رحت اصطاد صادونى! . . .

«فهمى بك ياما كسب من وراء الحاج كامل! مكاسب ما لها من

حدود! ولا أحد يعرف أين أخفى كل هذه الأموال! . . . تعرف أنه يخفى عن زوجته كل أسراره! عقدته الحاج عبد الفتاح الشامى حماه! يريد أن يصبح ثريًا مثله ليقف قصاده ويتحداه لا نعرف لماذا كل هذا؟! . . . زوجته المسكينة لا تعرف عنه أكثر من المكتوب فى بطاقته العائلية وقسيمة الزواج! . . . أقطع ذراعى إنما كان لديه ثروة فاحشة ولكن أين هى؟ فى أى بنك يضعها؟ فى أى عقار؟ فى أى مشاريع؟ فى أى بلاء أزرق؟ هذا ما يعلمه الله وحده! . . . ويظهر يا مروان بك أنه أخذ على النتانة! ومن يأخذ على النتانة عهدًا وهو فقير لا تسلوه النتانة مهما اغتنى! . . . النتانة هى داؤه من غير مؤاخذة يا مروان بك! اسألنى أنا عنه ولا تسأل حتى زوجته! . . . صعبانة علىّ والله هذه الست الشريفة النظيفة اليائسة من ذيله الذى لا يمكن أن ينعدل، ولو علقوا فيه قالب طوب! . . . كانت تشكمه وتكتم أنفاسه لأنها فهمت من برميل شخصيته مقدار شبر أو شبرين فما بالك بواحد مثلى غَوّط فى برميله إلى القعر! . . . على فكرة أحب أن أكشف لك عن سر ليس يعرفه أحد سواى والحاج كامل ونبيل: الرجل الوسخ كان يخطط ويدبر لتطفيش الست خيرات فى اللحظة المناسبة بعد أن يغتنى ويتفرغ لمشاريعه ويتزوج من ست ستها كما يقول! مع أن الست خيرات فى نظرى أنا على الأقل لا ستّ فى الوجود تصلح ستًا لها! لا فى الجمال ولا فى الأخلاق والأدب والرقة الكبيرة فى قلبها الرحيم! لقد تصادف أن جرح أصبعى مرة وقامت هى بتنظيف الجرح وتعقيمه وربطه بشاش فشعرت بقلبها فى لمسة أصابعها!! إنما المشكلة أن فهمى بك يشعر أمامها بأنه صغير ناقص! . . .

«ذات يوم دخل على الحاج كامل بموال طويل عن قطعة أرض من طرح النهر يفكر فى وضع اليد عليها وتطويرها لربما تصلح فيما بعد لإقامة مشروع سياحى فوقها! . . . الحاج كامل كما شفته حضرتك بساطه أحمدى! متواضع! حبيب اللعيبة! صاحب صاحبه لآخر مدى! . . . . اطلب منه أى مبلغ تفك به زنقة وتقول له إنك لست متأكداً من قدرتك على رده! يقول لك لا يهمك فك زنقتك وادع لى! . . . أما أن تقول له هات على سبيل القرض الحسن ويعطيك ثم تبلط فى الخط عملاً بالمثل المشهور: السلف تلف والرد خسارة، فأنت الجانى على نفسك! سيأخذ فلوسه حتى وإن كانت مليمًا واحدًا! بالمحكمة بالحجز على ممتلكاتك بضربك شلوتين بتعليقك من ثيابك بتركك فى العراء بلبوصًا! . . . لم يحدث فى تاريخه أن ضاع له مليم عند أحد! بل على العكس يأخذ المليم عشرة عند اللزوم! . . . .

«ماشى يا فهمى بك! وضع اليد على قطعة الأرض هذه سكتك أنت خلصها بمعرفتك ونحن جاهزون بالباقى! . . . جئنا تفرجنا على القطعة وكانت مجرد لسان طويل ممدود من رأس كبيرة تصلح وحدها لإقامة مشروع أما اللسان فلو استطاع تعريضه بردم مساحة من مياه النيل تكون المساحة كنزًا لا يقدر بثمن! . . . عمنا فهمى قعد شهوراً وسنوات يبتز الحاج كامل ويأخذ فلوسًا كبيرة على حساب أنه يستأجر عمالا يقومون باستجلاب ردم من جزيرة الدهب لردم المساحة المطلوب توسيعها! . . . الحق لله لقد صدق! . . . عزمنا ذات يوم فى العصرية جئنا وتفرجنا على القطعة بعد ما تم ردمها جيداً فى أنصاص الليالى! . . . بعد مدة جئنا لنراها صارت جنينة معتبرة يمكن تقسيمها

إلى مدينة سكنية كاملة! الحاج كامل طار من الفرح بها! بدأ يحلم بقضاء شيخوخته فى هذا المنتجع ولربما يفكر فى بناء فيلا محندقة تخفيها الأشجار ويحضنها النيل! . . . على قدر ما هو غنى وعنده أموال لا تنتهى وقصور بعدد أصابع اليدين أصبحت هذه القطعة هى كل شىء فى حياته! لا يفوت أسبوع إلا ويجىء بمهندس يعاينها من قارب فى قلب النهر دون أن يشعر منير الجناينى فيقترح عليه المهندس كيف يكون المنتجع خاصا وعامًا فى نفس الوقت! . . . مشاريع كثيرة كان الحاج كامل يحلم بها لهذه القطعة الساحرة التى إن غاصت قدم الإنسان فى تربتها يطرح فروعًا وأوراقًا خضراء! . . . الرجل يا حرام لحست الأرض عقله فصرنا كلما انتهينا من التحشيش نهرع إلى الفلوكة التى تنتظرنا لتمشى بنا فى النهر رائحة جائية بحذائها على امتداد يقرب من كيلومتر وعرض خمسين مترًا مزروعة كلها بالأشجار والنخيل والخضروات! . . . ينام يحلم بها! . . .

«فى ليلة ما يعلم بسوادها إلا الله، إذ بينما نحن فى الفلوكة هو ومهندس وخبير أجنبى من أصدقائه وأنا لاحظنا وجود أشباح تتحرك بين الأشجار وتتكلم! اقتربنا! أضأنا ضوءًا بضوء! كانوا يخططون ويقيسون! . . . دخلنا عليهم: مساء الخير يا رجاله مساء النور أهلاً وسهلاً! ماذا تفعلون هنا؟ قال أحدهم إنه مساعد المقاول فلان الفلانى وأن العمل سيبدأ هنا من غد فى بناء كافتيريا سياحية! . . . أعطنى عقلك أهدئ به ثورة الحاج كامل! . . . ليال بطولها نبحث عن فهمى بك الهارب! . . . لبدت له فى الظلام تحت باب شقته! . . . وهو يمد المفتاح إلى الباب طوقته وحملته حتى سلمته للحاج كامل فى سيارته

المركونة فى دروة قدام شقة الحاج صلاح! . . . اركب! اركب وفتحت أنا على الرابع هيه هيه هيه فى أقل من ساعة كنا فى القناطر الخيرية فى بيت يملكه أحد أصدقاء الحاج فى مسطاح النهر وهو البيت الذى كان الحاج كامل مستعداً لأن يدفع لصاحبه قصراً من قصوره مقابل أن يعطيه هذا البيت المحضون بنهر النيل ترسو مركبه لصق باب حديقته . . . .

«انزلق صاحبنا بين الرجلين الحاج وصديقه ومحسوبك فوق البيعة . . . إيه الحكاية يا فهمى بك؟ لقد عرفنا كل شىء! . . . ونحن فى الواقع لم نكن عرفنا شيئًا بعد لكننا نشتغل عليه شغل البوليس الذى يشتغلونه علينا . . ليلتها بكى فهمى بك وادعى كذبًا أن محافظ القاهرة فرض عليه شريكًا فلسطينيًا فى مقابل الترخيص وحق الانتفاع الطويل الأمد وأنه . . . وإذا بصدغ فهمى بك يطير فى الهواء، فانكفأ وجهه وبصق أحد ضروسه مغموراً بالدم! لكن الحاج كامل كان قد ركبه شيطان الغل فتمهل موهمًا بأنه قد اكتفى بهذه الصفعة بخلع الضرس، ثم فاجأنا على غير توقع وهوى بشماله على الصدغ الآخر! . . . أثار شكل الدم هياجه فراح يمسك برأس فهمى ويضربه فى الحائط يريد أن يفششه! . . . صديقه وأنا بكل قوتنا لم نستطع إبعاده عن فهمى بك إلا بعد أن تعب هو من الضرب فاستكن وسكت! . . .

«من جراير هذه العلقة نام فهمى بك فى فرشته ما يقرب من جمعتين! . . . من يومها انكسرت عينه وتكسرت عظامه وتدهورت صحته! لكنه يستاهل! . . .

«المهم أن الحاج كامل قرر أن يأخذ الأرض بما عليها من مشروع، يأخذها على الجاهز! وأن يخرج منها فهمى بك مطرودا طرد الكلاب

الجربانة! . . . اشتغل على جميع شركات السياحة يحذرها من التعامل مع المطرح بأى شكل! . . . صدًّر نبيل ورسم له كل خطوة حتى تحقق له ما أراد! . . . ربنا يعطى كل واحد على قدر نيته! كل الأوراق الآن باسم الحاج كامل! ومدة الامتياز ضوعفت! والحالة كما شفت بعينيك الليلة . . فل وياسمين! فى صحة الشعشعة!».

٤
بشائر العودة

احتفلت فايقة بنجاح ولدنا حسين فى امتحان السنة الأولى الإعدادية ونجاح أخته رشا فى الشهادة الابتدائية، طبخت لنا بطة بالكسكسى، وأرز باللبن، وصينيه كيك. عند الغداء كانت فرحة فايقة مزدوجة، لله ما أطيب قلبك يا فايقة، إنها فرحة بنجاح كل من زياد وإيمان ابنى صديقتها خيرات كأنها أمهما الحقيقية، ونحن نشرب الشاى أوصتنى بكتابة جواب لخيرات أفرِّحها فيه بنجاح العيال ربما يلين قلبها وتبكر فى المجىء؛ لكن ساعى البريد كان أسرع منى، أتانا فى التو واللحظة بمغلف كبير من خيرات يحتوى على عدد مجلة قطوف المنشورة فيه قصتها؛ وعند الصفحة التى تبدأ بها القصة فى المجلة دست خطابها مطويًا. . .

إشراقة المرح واضحة من أول سطر؛ لقد وصلتها نتائج ولديها زياد وإيمان ليلة كتابة خطابها هذا لنا. الخطاب معظمه صياغات لمشاعر عاطفية شبه فلسفية لإنسانة قلقة بشكل مؤلم يعكس شعورها بالذنب فى حق ولديها من حيث أرادت تأمين حياتهما ومستقبلهما فى ظل أب قعيد شرير غير معنى بمستقبل أحد. كل ذلك كان تمهيداً للخبر الشديد

الأهمية: لقد قررت العودة نهائيًا، سوت حسابها وسلمت ما كان طرفها من عهدة وقبضت مكافأة نهاية الخدمة كاملة والحمد لله رزق العيال، بل حزمت حقائبها وطرودها، بل شحنت بالفعل عددًا من الطرود إلى أبيها الحاج عبد الفتاح، بل وحجزت فى شركة مصر للطيران على متن الطائرة التى ستغادر مطار الرياض فجر الأربعاء الموافق ثلاثين من يونيو الجارى لتكون فى مطار القاهرة إن شاء الله وبعونه فى حدود الحادية عشرة من صباح نفس اليوم؛ يعنى - واليوم الأحد - يكون قد بقى على مجيئها يومان اثنان: الاثنين والثلاثاء فحسب، وإنها - تقول - ستكون فى غاية من الامتنان لو أننى تكرمت وتفضلت عليها بأن أكون على رأس مستقبليها سيما وأن حضور أخيها عبود - المجنَّد حاليًا - ليس مؤكدًا. تقترح - بل لعلها ترجونى - أن أتصافى مع فهمى من أجل خاطرها إذ إن حياتها فى مصر لن تكون إلا معه: «إنه قدرى.. اللهم لا اعتراض.. إن الله الذى أتعسنى بالزواج منه كان لطيفًا بى... صدقنى يا أستاذ مروان إننى اليوم أحمد الله على لطفه بى... لقد اتضح لى على البعد أن قلبى لم يطاوعنى على كراهية فهمى إلى حد البُغض وإلا كنت سأكره عيالى منه زياد وإيمان وهما فلذة كبدى ولولاهما ما تحملت الغربة ولا رضيت بترك فهمى فى محنته الصحية... إننى أحبه الآن من أجلهما وسوف أخدمه بكل جهدى من أجلهما، سأتفرغ له وأستقيل من العمل، فبرغم احتقارى لضعف شخصيته وفسادها فإنه يصعب على ما هو فيه من عناء، ووالله العظيم لولا ثقتى فى دادة حليمة أم السعد وفى صدرها المملوء حنانًا وإنسانية ما تركته كل هذا الوقت وأنا مطمئنة إلى أنه يتلقى خدمة أفضل مما كنت أعطيها له... الحمد لله انتهت مدة العقوبة التى فرضتها على

نفسى فى سجن الغربة وإنى بعون الله عائدة لفهمى وللعيال وكتاب ملائكة الرحمة . . . فالرجا كل الرجا يا أستاذ مروان أن تكون صافيًا من ناحية فهمى ويجب أن يشعر هو أنك صافيته حتى لا يتعكر الجو لأننى لن أستطيع الاستغناء عن صداقتك وحب فايقة ، فبنصائحك وبحبها سأحتمل ، خاصة أننى ليس لى أصدقاء ، فهمى بكل أسف لم يكن له أصدقاء حقيقيون على المستوى العائلى ، لا من محيط الشرطة ولا المدنيين اللهم إلا من تعرفهم من أصحاب المصالح الذين يريدون كل شىء بثمنه أو سفحًا ونهيبة ، فمن حظى إذن أننى تعرفت عليكم كأول أصدقاء حقيقيين مخلصين بمعنى الكلمة . . . لسوف أحتاج لمشورتك فى أمور كثيرة تخص مستقبل زياد وإيمان ، هل أبنى لهما بيتًا أم أكتفى بشراء شقة كبيرة محترمة لكل منهما وأقوم بتجديد شقتنا لى أنا وفهمى؟ أم الأفضل أن أبحث عن شقق فى حى راق بعيداً عن نبيل البحطيطى والمحيط الذى يلوثه بأنفاسه؟ لسوف أرغم فهمى على قطم العلاقة به قطم الخيارة ، سأعرف كيف أردعه إن تطاول ، هذا مقدور عليه من جانبى لكن الحياة فى جواره ـ صدقنى ـ كانت من أهم الأسباب التى بردَّت قلبى على نار الحنين للعودة ، أكثر من مرة قررت العودة لكن شبح البحطيطى كان ينط واقفًا أمامى يثير قرفى يكتم كالكابوس أنفاسى بمجرد تذكرى أننى سأعود للسكنى بجواره فأقول يا بنت اصبرى عامًا آخر حتى يكون فى مقدورك شراء شقة محترمة بعيدة ، اصبرى عامًا آخر حتى يكون فى مقدورك شراء شقة محترمة بعيدة ، اليوم نط شبحه أمامى فدسته بقدمى ، وبصقت فى وجهه بصقة مغلية من جوفى المحروق بلهيب الحنين المتراكم طبقات فوق طبقات تفصل بينها دموع وأوجاع مكبوتة وشكاوى مؤجلة . . . أخشى يا

أستاذ مروان أن يجيء معكم إلى المطار لاستقبالى، نبهت على فهمى بعدم ذكر الخبر أمامه لكنى أشك أنه سيلتزم بل إن خطابى لن يقرأه له سوى هذا المأفون القذر . . . على كل حال خَلها على الله، المهم أن وجودك فى المطار ساعة وصولى سيكون مريَحًا لى، وباعثًا على اطمئنانى، ثم إنك ـيا سيديـ قد وحشتنى جدًا جدًا وأحب أن يكون وجهك الحميم هو أول ما يقع عليه بصرى فى أرض مصر الحبيبة . . . قّبل فايقة نيابة عنى قبلات بعدد الساعات المتبقية على وصولى . . . تقبَل تحياتى وأشواق أختك وتلميذتك خيرات الشامى».

قلت لفايقة:

ـ «ماذا أفعل فى رأيك يا فايقة؟».

ببساطة ودون تفكير:

ـ «مسكينة حبيبتى! كأنها لم يعد لها فى الدنيا سواك! رح لها يا مروان! أنت طبعًا لا تستطيع أن تكون نذلاً! إنما أنت تختبر شعورى تظننى سأغار منها أو أتشاءم مما حدث لنا بسببها من وجع دماغ! تريد أن تأخذ موافقتى كى تذهب لاستقبالها فى المطار وأنت مستريح البال! . . ولكن لعلمك يا مروان إن كنت نسيت: لو أنت تكاسلت عن المرواح لها كنت سأزعل منك جدًا! . . . إنها فى النهاية ولية! ولا تنسى أنها وقفت معنا وقفة جدعنة ضد زوجها! . . رُح لها يا مروان استقبلها وفرحها!».

ـ «ما رأيك لو أتيت معى يا فايقة؟».

ـ «فكرت فيها لكن . . . العيال . . .».

ـ «فعلا! لا ينفع!».

ـ «لكنك لابد أن تقول لفهمى إنك ستقابلها فى المطار . . . ! يعنى من أولها يستحسن أن تزوره فى البيت وتفتح معه صفحة جديدة! هو صحيح نذل وخسيس لكنه لا حول له ولا قوة!».

ـ «تصورى أننى لم أره منذ شهور طويلة!». .

ـ «أمرك لله اذهب ولاطفه! إنه غلبان! ما هو فيه الآن سجن أفظع من السجن الذى كان هو مأموره!! وما يشوفه اليوم من عذاب هو كله سلف ودين! سبحان مغير الأحوال يا مروان! يمهل ولا يهمل فعلاً! . . . رُح له يا مروان!».

لبست هدومى لكى أحسم الموقف حتى لا يقودنى الكسل إلى التردد؛ وفيما أنا قابض على أكرة الباب رن جرس الهاتف، أصبحنا نطرب لرنينه فنتركه يرن قليلاً حتى نتأكد أن التليفون قد دخل أخيراً إلى بيتنا بعد طول انتظار ودفع رشوات . . . .

ـ «مرحبًا!».

إنه الدكتور فايز دياب ـ بصوت مليء بالنشوة والصفاء ـ يدعونى على فنجان قهوة معه فى بيته؛ قلت له إنى ذاهب من فورى إلى بيت فهمى القزاز لسبب ضرورى؛ فاقترح أن أفوت عليه أولاً قبل ذهابى إلى فهمى وذلك للضرورة أيضًا؛ وافقت فى الحال وذهبت إليه يحدونى الشوق لمعرفة مدى هذه الضرورة التى يريدنى من أجلها . . .

البلكونة البحرية لشقة الدكتور فايز دياب تفقدك الإحساس بالمبنى الحجرى للعمارة؛ ذلك من فرط ما أحيطت به الجدران من الداخل

والخارج ببطانة وغلاف أخضرين من نباتات تسلقية ذات أوراق ناعمة نضرة فكأن الجدران قد ألبست ثوبًا من القطيفة الخضراء الغامقة الخضرة، حتى المنور الكبير الذى تطل عليه البلكونة يبدو مثل كهف فى غابة تم تنسيقه وزراعته بالورود والزهور العطرية .

شربنا الشاى مع الكيك وعيش السراى، كان فايز منشرحًا يفيض بالحيوية كثير الحركة كأنه نقص من عمره ثلاثون عامًا، يرتدى بنطلونًا من أرقى أنواع الجينز القطيفة السادة، وقميصًا بنصف كم بنصف ياقة نائمة، تمامًا كأنه لا يزال طالبًا فى كلية طب القاهرة، كأن رحيل زوجه وزواج الولد والبنت وسفرهما مع قرينيهما إلى أمريكا للاستزادة من العلم والعمل قد حرره من كافة الأعباء فراق باله واسترد شبابه . . .

ـ «يا عينى على الشباب! عينى عليك باردة!».

احمرّ وجهه الفطيرة، لمع الزهو البرىء فى عينيه فغطاه بابتسامة دمثة تتواطأ معه لإبعادى عن هذا المديح :

ـ «دعك من هذا الآن وأنصت إلىّ. . . ».

ـ «كلى آذان صاغية!».

ـ «جئتك بسلام خصوصى من شخص عزيز عليك جدًا!».

قالها بابتهاج أشعرنى صوته بأنه سعيد جدًا وعلى غير العادة غير متذمر من الأوضاع، وما السعادة فيما يبدو إلا من أجل قيامه بهذه المهمة. ها هو ذا يحملق فى عينى كأنه يبحث فيهما عن سر دفين يبدو هو أنه مهتم به بشكل أو بآخر. قلت فى شىء من الضجر: من يكون هذا العزيز؟ قال وهو فرحان بالفعل بنقل الخبر إلىّ:

- «صديقتك الست خيرات الشامى!».

بقيت متجمدًا لبرهة:

- «مالك بلمت هكذا؟!».

سرت الروح فى بدنى فانتعشت:

- «هل قابلت خيرات الشامى؟!».

- «كنت معها مساء أمس! كنت أُجرى عملية جراحية فى مستشفى الرياض التعليمى! نوع من التعاون وتبادل الخبرات العلمية بين جامعة الرياض وجامعة القاهرة!».

- «قابلتها هناك إذًا؟!».

- «قضيت أسبوعًا طيبًا فى الرياض وكانت خيرات هانم الوردة الزكية فى المستشفى كلها!... يا سلام يا مروان على هذه السيدة! إنسانة مثقفة بمعنى الكلمة ونادرة المثال فى عملية التمريض، وكيف تخلق وسائط معرفية وعاطفية بين تمريض القلب وتمريض السكر وجميع أنواع الجراحات ذات الخبرات التمريضية الضرورية الخاصة! يبدو أنها تؤلف كتابًا عن هذا الموضوع!... لا أستطيع أن أصف لك مدى الحب الذى يكنه الجميع لها من رقتها وثقافتها وسلوكها الفاضل!».

سكت قليلاً، صب فى الكوب ما تبقى فى البراد الخزفى من شاى أخضر مُحلى بالعسل الأبيض:

ـ «كلام فى سرك يا مروان أنا حسدت هذا الكلب الذى تكون مثل هذه الياقوتة الثمينة زوجة له!».

ـ «عفواً دكتور فايز! هل كنت تعرفها من قبل؟».

ـ «أعرفها؟! . . .».

شفعها بنظرة استنكار غاضبة كأننى اتهمته بالنصب أو الاحتيال مثلاً، استطرد:

ـ أتنسى أنها زميلة فى المستشفى الذى أُجرى فيه عمليات كثيرة؟! ثم إننى أعرفها من البلد وهى تلميذة بالمريلة وكنت أنا قد تخرجت من زمن! إنما كنت أسمع كثيراً عن جمالها . . . لكن اقتربت منها جداً هذا الأسبوع ورأيتها من الداخل تحفة فنية سبحان الصانع: طهر وأدب وذكاء وألمعية!».

ـ «ولكن كيف جاءت سيرتى؟».

جفف دموع الضحك ورفع ساعده كأنه يشهد الله على ما يقول:

ـ «تحبك جداً جداً وتعتبرك أستاذها الذى ثقفها بالجوابات ونبهها إلى موهبتها وحرضها على الكتابة! حتى نشرت فعلاً! . . . بالأمس رافقتنى إلى مطار الرياض لكى تودعنى ليس باعتبارها تعرفنى وأعرفها وليس باعتبارى زميلاً لها بل باعتبارى نجما مصريا تفخر به . . . وقد حملتنى أمانة! أوصتنى بأن أخبرك بموعد وصولها إذا كان جوابُها لم يصل إليك بعد!».

ـ «وصل اليوم ظهراً!».

ـ «وأنت ذاهب إلى فهمى لهذا الغرض؟».

ـ «لأصافيه من ناحية وأنبهه إلى منع نبيل. . . .».

قاطعنى برفع ساعده كأنه تذكر ما هو أخطر:

ـ «بالمناسبة! هذا الولد المحامى مغامر مجنون! سيودى بالحاج صلاح فى داهية!».

ـ «ماله والحاج صلاح؟ ألا يكفيه أنه أخذ منه الشقة بالنصب والاحتيال؟ والحاج صلاح المضطر لبناء دور ثان يتزوج فيه ابنه!».

ـ «نبيل المجنون أقنعه ببناء دور ثالث لابنه! ويأخذ هو الدور الثانى ويفتحه على شقته الأرضية! على أن يتولى هو تكاليف البناء والتشطيب مما جميعه للدورين! . . . يظهر أن هذا الولد المشبوه اغتنى فجأة من كازينو شط الدهب!».

ـ «من أين عرفت هذا الكلام؟!».

ـ «الحاج صلاح صاحبى من أول ما سكنت هنا! وزبونى فى العيادة!».

ـ «وما الخطر هنا فى رأيك؟!».

ـ «بيت الحاج صلاح لا يحتمل! أساسه كتل حجرية من جبل المقطم!».

ـ «والحاج صلاح وافق؟!».

ـ «تم البناء بالفعل! والولد المحامى هو الذى استصدر الترخيص بمعرفته! سترى بنفسك الآن! هم الآن فى التشطيب!».

خرجت من بلكونة الدكتور فايز فداهمنى المساء مرتديًا ملاءة الحداد على رحيل قرص الشمس. مشيت واحدة واحدة فى الشارع الآخذ لون الإردواز. عبرت إلى الرصيف المقابل قرب ميدان النافورة، بعد حوالى محطتى أتوبيس صار بيت الحاج صلاح ـالذى يسكن فيه فهمى القزازـ فى مواجهتى على الناصية المقابلة لهذا الشارع الفرعى المتجه شمالاً إلى بيتى بعد مسيرة مدتها عشر دقائق على الأكثر . . . فعلاً! ارتفع البيت ثلاثة أدوار؛ نفر من العمال يقومون بتركيب أبواب وشبابيك فى الدور الثالث؛ هناك من يدق بالشاكوش ومن يخرم بالشنيور ومن يرمى بأكياس الجبس، براميل ملآنة بالماء، جرادل مونة، نبيل البحطيطى واقف تحت شرفته، شرفته؟ أين راحت شرفته؟ لقد انسدت بالطوب الأحمر وبقى منها شباك مرتفع عن الأرض؛ ثمة من يضرب بالمعاول لهدم الجدار الداخلى كى تصير الشرفة جزءًا من ردهة عريضة فى مدخل الشقة ومن موضعها يبدأ السلم الداخلى الصاعد إلى الطابق الثانى الذى استولى عليه بالفعل وفتح سقفه للسلم. كان نبيل واقفًا، رافعًا رأسه لأعلى، صائحًا بصوته القريب جدًا من صوت الخروف، يدلى بتعليمات وينبه إلى أخطاء . . .

ـ «مساء الخير يا أستاذ نبيل!».

ـ «أهلاً أستاذ مروان! فينك؟».

ـ« تحت النظر!».

ـ «خليك فوق النظر وبان!».

وضحك ضحكة صفراء مقطومة خشية وقوع السيجارة من بين شفتيه حيث راح يواصل كلامه وهى تتراقص:

ـ «على فكرة! فهمى مش هنا! أنت طبعًا جاى تتكلم معه فى استقبال المدام! تريد أن تقنعه بأن يمنعنى من الذهاب إلى المطار بعد غد!... تستطيع أن تريح نفسك! أنا الذى سيجىء!»

ـ «أهلاً بك!»

ـ «وما شأنك أنت؟ لسنا محتاجين لخدمات حضرتك! أنسيت العهد الذى بيننا؟! خلك فى حالك وابتعد عن قصة حبى!»

ـ «قصة الأمس تقصد؟ لأم كلثوم؟!»

ـ «أمس واليوم وغدًا .... لإحسان عبد القدوس!»

تركته ومشيت دون استئذان؛ فى البيت لم أحك لفايقة عما حدث، أويت إلى فراشى ليلتها وقد راح دماغى يرتب للقاء سوف يكون لا شك عاصفًا ومثيرًا فى مطار القاهرة؛ وقد بيتّ النية على التحدى... بالذهاب.

٥
حفل استقبال مروع

رأيت الحادث وهو طازج. كنت خارجًا من بوابة السور بسيارتى الفيات مائة وواحد وثلاثون التى اشتريتها مستعملة من عادل الطوخى بألف جنيه بالتقسيط، متجهًا إلى القاهرة. كان يتعين على أن أحود يمينًا فى سكة الأتوبيس إلى كورنيش النيل ومنه إلى شارع القصر العينى؛ لكن انفجاراً مدويًا رفعنى بالسيارة عن الأرض وحطنا فى عاصفة من غبار أسود؛ أظلمت الدنيا تمامًا كأننا فى منتصف الليل؛ سرعان ما اندلع الصوات الملتاع بإيقاع يفتت الأكباد. أضأت نور السيارة العالى، كسكست عموديًا لأدخل البوابة بظهر السيارة؛ عندئذ ارتجت الأرض مرة أخرى بدوى ذى صوت معدنى يشى بأن سيارة طسَّت فى سيارة مقابلة بعنفوان سرعة غاشمة... تشاءمت تمامًا؛ لم أكن قد نمت جيداً ليلة أمس وها هى ذى كآبة أثقل من جبل المقطم تحط على صدرى... مع ذلك بقيت واقفًا فى المنطقة الآمنة داخل السور وقد صرت فى فضول قوى يمنعنى من الاستسلام للنكوص...

الفضاء صار فى عينى أشبه بخيوط شبكة نسلت وتهرأت صارت مزقًا وفتافيت جعلت تسبح فى الفضاء فى عشوائية ثم أخذ الهواء

يبددها شيئًا فشيئًا ولكن لون الضوء اختلف، شمس الضحى الذهبية صارت فى لون الطحينة الغامق. لم أستطع صبراً؛ ضربت صفحًا عن نصائح فايقة الواقعة خلف سور الشرفة تهيب بى أن أنتظر حتى يروق الجو. انعدام الزحام هنا يسمح بالمخالفة المرورية! جنحت يساراً وخطفت نصف دائرة ثم دخلت يمينًا فى الشارع الذى يسكن فهمى القزاز فى بيت على ناصيته اليسرى. . .

استر يارب، يا للكارثة؛ يبدو أن الإنهيار قد وقع فى بيت الحاج صلاح بالفعل. أعداد غفيرة من الناس ملمومة حوله والغبار لا يزال يتصاعد منه فى مويجات كدخان حريقة أخمدت لتوها، النواح طاغ ومسيطر، ركنت على اليمين، نزلت، اخترقت الزحام: الحاج صلاح منهار تمامًا فى الأرض يلطم خديه ويشق الهدوم:

ـ «حبيبى! يا حبيبى! . . . يا عريس! . . . ».

يصرخ ويهيل التراب على دماغه:

ـ «البيت منحوس من يومه! متنجس! سكنته شياطين جهنم! . . آههه يا حبيبى!».

يفقد الصوت ثم الوعى؛ يتلقاه رهط من المواسين الباكين بحرقة أكثر منه. سرعان ما تبينت الخبر المشئوم: انهار الطابقان فبرك بهما البيت فوق ناس كثيرين: العريس وخطيبته وأمه وبعض العمال والنقاشين، جثث عديدة ممددة فى الجنينة مغطاة بورق الجرائد. . ها هى ذى فرق الانقاذ تحمل إلى عربات الإسعاف جثثًا تنبض بالحياة وتتأوه وهى عبارة عن أشباح أخفى التراب المعجون بالدم معالمها.

صرت أتلفت حولى كالملتاث أريد ملاحقة ما يجرى، الحاج صلاح محمول على النقالة كأنها طائر فى الهواء، وراءه مباشرة نقالة أخرى يتمدد فوقها جسد نبيل البحطيطى مرتديًا بذلة من الكتان سفارى، إحدى ساقيه مبتورة وملقاة بجوار الأخرى ودماغه مفلوق بضربة سيخ حديدى. غُيبوا داخل صندوق السيارة التى ما لبثت حتى انطلقت بزئيرها القابض للقلوب الواجفة. كان البوليس قد أتى لا أدرى كيف ولا متى؛ فوجئت به ينتشر حول البيت ويدفع الناس إلى بعيد. مشيت كخرقة تطوحها الريح إلى سيارتى على الرصيف المقابل؛ ارتكنت بظهرى عليها ووقفت أترقب كل حركة حول البيت... كان الوقت قد انطمس ولم تفلح الشمس فى استرداد لونها؛ واللغط لا يكف إلا لبرهة؛ ثم يرتفع، ريثما يلقى القادم الجديد نظرة على الأنقاض ليكون له تعليقه الخاص، والتعليق يستدر تعليقات تتوالد منها معلومات خطيرة يلقى بها على قارعة الطريق لتدوسها الأقدام ككل شىء خطير فى واقع مصرنا الراهن. أشار أحدهم إلى شقة فهمى بك ـ وكان واقفًا فوق حافة الهديم ـ وقال:

ـ «لعلمكم يا جماعة! هذه الشقة مضرورة! سقفها مفقع وكلها شروخ واسعة!».

انقباض يكلبش قلبى. سيارة أتوبيس رحلات سياحى تتوقف عند الهديم؛ صوات حليمة أم السعد من هول المفاجأة رجرج زجاج وستائر نوافذها. نزلت حليمة كأوزة مذعورة تبرطع فى عرض الطريق يتبعها على الجنبين عروسان جميلان، ما شاء الله، لقد كبر العيال من ورائنا! زياد عريس فارع القامة كجده عبد الفتاح، إيمان قريبة من طول أمها

خيرات لكنها إلى ترهل جسم أبيها أميل إضافة إلى مسحة من ثقل ظله، إلا أنها ناضجة الأنوثة؛ كلاهما أكثر هلعًا من حليمة. اندفعت حليمة نحو شقتهم؛ فنزعت ظهرى عن سيارتى وعبرت الشارع مقتربًا من شقة فهمى، ما كدت أقترب حتى داهمتنى حليمة خارجة تلطم خديها فى هلع:

- «يا لهوى ى ى! فهمى مات يا أستاذ مروان! مش باين من جثته غير رجليه! كانت رحلة شؤم لكن شف النصيب! عمل خير فينا المخفى نبيل: قال إيه رحلة سياحية لحلوان بمناسبة النجاح! أتا بيه ربنا موحيه ينجينا.... آه يا حبيبى يا فهمى!».

أصابنى الشلل، مع ذلك خيل إلىّ أننى تلقيت حليمة فى صدرى وجعلت أهدئ من روعها وهى تنتفض، تخلصت منى بسرعة، جرت إلى الشقة غير عابئة بصراخنا فيها أن ترتد؛ لكنها اندفعت داخلة، بعد دقائق خرجت ممسكة بحقيبة سفر وتتوجع من جروح أصابت قدميها ويديها، قالت:

- «هدومى وهدوم العيال وحتتين الدهب بتوع البنت إيمان وبتوعى كيف أتركها لغيرى يسرقها؟!».

رفضت أن تطاوعنى وتمشى معى إلى بيتى لنجنب الولدين منظرًا بشعًا سيحدث بعد قليل. بقينا واقفين لساعات طويلة إلى أن تم نقل جثمان فهمى بك مبرومًا فى ملاءة سرير مما وشى بأنه مجموعة أشلاء متشابكة وسائبة فى آن معًا. قيل لنا إنه ذهب إلى مشرحة زينهم، صرنا فى ذهول كامل نتحرك عشوائيًا فى حدود أمتار معدودة بعيداً عن الهديم؛ كل واحد منا شارد فى توهانه لا يكاد يشعر بمن معه؛ الدموع

تحجرت فى عيوننا؛ حليمة فى شحوب الموت؛ إيمان مرتدية عينى أبيها بنفس نظراتهما البلهاء فى ظاهرها كطبقة من التبن فوق ماء خفى، لمعة الشر الخرقاء المستهينة بكل شىء تشقق التبن لتظهر كلمع الماء بين الشقوق ثم ما تلبث الشقوق حتى تلتئم لتكتمل نظرة البله فى عينيها فتبدو متسقة مع سمتها فكأنها فهمى القزاز بلحمه وشحمه بل لعل ثدياه أضخم من ثدييها النافرين؛ زياد يبدو كأنه يبكى دمًا من الداخل، فى وجهه إشعاع أمه المضىء وجمال فوديها وسواد عينيها الدافئتين يتسربل قوامه الفارع برجولة وحكمة واتزان جده عبد الفتاح الشامى ومن الواضح أنه صلب كأمه كريم النفس مثل جده، لونه المخطوف وجمود نظراته يشيان بأنه غائب عن الوعى، وإن بدا متوترًا متحفزًا لاستطلاع كل شىء ومعرفة كل شىء. جاءنا من المستشفى من تطوع بإبلاغنا أن الحاج صلاح قد مات ليلحق بولده وزوجه، وأن الواد المحامى يلفظ أنفاسه الأخيرة. . . .

«عند حلول المساء لمحت الدكتور فايز دياب مقبلاً يرفل فى الفجيعة زائغ العينين، ، رُدت إلىّ الروح بمجرد رؤيته؛ ارتميت فى حضنه وبكيت بعنف كأننى أدخر بكاء حياتى الماضية كلها لأفرغه على صدر الدكتور فايز دياب. هو الآخر بكى وتمتم فى أذنى وهو يحضننى بصوت خفيض مخشوشن بالبكاء والأسف:

ـ «جاءك كلامى؟ اللهم لا اعتراض!».

سحبته من ذراعه وعرفته على حليمة وزياد وإيمان، احتضن كلا منهما بأبوة تفيض حنوا؛ لدرجة أنهما لحظتئذ فحسب انفجرا فى البكاء بحرقة على صدره أيضًا. يا سبحان الله، شعر الدكتور فايز أن كليهما

تشبث بحضنه لا يريد أن يبرحه رغم أنهما يلتقيانه أول مرة ولا يعرفان عنه أية معلومة سوى أنه يسكن بجوارهما . . . فما كان منه إلا أن أحاط كلاً منهما بذراع وضمهما إليه بقوة العطف الصادق المشبوب النابع من قلب حقيقى لا عطب فيه . . . خجلت من نفسى لحرمانى من هذه الموهبة الثمينة ولعدم استطاعتى احتواء الولدين هكذا من أول وهلة وكان حريًا أن أفعل ذلك لكننى فيما يبدو انعطفت على حليمة التى بدت لى منهارة تمامًا . . .

استطاع الدكتور فايز أن يقنعها بالذهاب إلى بيته وأن تذهب حليمة معى للبيت على أن نلتقى غدًا صباحًا بإذن الله . . . .

كانت فايقة واقفة فى الشرفة والهلع بادٍ عليها . أول ما رأت السيارة تدخل باب السور هتفت :

ـ «الحمد لله ! دقيقة أخرى كنت سأجن ! » .

وإذ لمحت الراكبة معى ضربت صدرها بكف يدها وصوتت ملوحة بذراعيها فى ولولة . أشرت لها أن تقفل فمها ، أنزلت حليمة وقفلت عائدًا إلى أقرب سنترال فى حى المعادى المتاخم ، لكى أرسل برقية إلى الحاج عبد الفتاح الشامى أبلغه الخبر المشئوم .

قبل طلعة الشمس وصل الحاج عبد الفتاح بثلاث سيارات مع خمسة من رجاله . أمسك بالتليفون وأجرى عدة مكالمات لناس ذوى رتب كبيرة فى جهاز الشرطة وفى وزارة الصحة كلهم من أبناء عمومته . فى حوالى التاسعة صباحًا كان فى انتظارنا من تولى تسليمنا جثة فهمى بك لدفنها فى بلدته ؛ حينما وضعوه فى إحدى السيارات تم

الإيقاف على أن أذهب أنا إلى مطار القاهرة لاستقبال خيرات حيث سألتقى هناك ابنه عبود الذى سيطلع من القشلاق إلى المطار، وسيكون وراء سيارتى السيارة الثانية بسائقها؛ بعد الاستقبال يتسلم عبود أخته ويركب بها هذه السيارة لتعود بهما إلى البلد، أما الحاج عبد الفتاح فسينتظر قليلاً حتى يأخذ زياد وإيمان وحليمة فى سيارته؛ وإن شاء الله سيقام فى مدينة المنصورة معزى بعد غد فى سرادق كبير، ولسوف ينتظرنى فيه لتلقى عزائى إن أحيانا الله وكان لنا عمر. وهكذا انطلق الرجال بالجثمان؛ وطلعت أنا بسيارتى مطلع زينهم ومن ورائى السيارة البيجو الزرقاء؛ من فم الخليج إلى صلاح سالم فالمطار؛ وكانت الشمس كاسفة البال فى لون الليمون الجاف.

٦
لعبة المشاعر المتقاطعة

صالة الاستقبال فى المطار تعروها كآبة، خُيل إلىّ أننى لم أغادر بعد زحام الهديم، نفس الأصوات الممرورة الموجوعة نفس الغاغة منذ وصول الطائرة وأنا استدر التركيز فى عينى مدققًا فى ملامح كل من أراه خارجًا من البوابة. بعد تدقيق طويل كدت أيأس من مجيئها فتلفت حوالى درءًا للسأم، فإذا بالدكتور فايز دياب يقف ورائى مباشرة منذ وقت دون أن أدرى به، استدرت لأصافحه؛ إذا بى أفاجأ بزياد وإيمان واقفان إلى بعيد فى عدم اكتراث، الكره واضح عليهما إلى حد البؤس والتعاسة والكلضمة. قلت للدكتور فايز:

ـ «ما لهما؟ إن جدهما فى بيتى ينتظرهما ليسافرا معه!».

ـ «فتنا عليه قبل المجىء! رفضا السفر معه لدرجة أن أقاما فضيحة من الصراخ والبكاء فاضطر جدهما إلى السفر بدونهما وترك حليمة معهما؟».

ـ «وأين هى حليمة؟».

ـ «ها هى ذى وراءك ممسكة بحديد البوابة!».

ـ «العيال طبعًا رفضا السفر لاشتياقهما لأمهما!».

سقطت من حنكه ضحكة قصيرة مريرة قطعها فى الحال:

ـ «بالعكس يا صديقى! أتيا معى إلى المطار هربًا من جدهما حتى لا يأخذهما بالقوة!.... وفى الصباح أقاما نفس الفضيحة بالصراخ حينما طلبت منهما المجىء معى لمقابلة أمهما! هذا شىء عجيب يا مروان لم أره فى حياتى من قبل!».

أخيرًا لمحتها قادمة من بعيد وراءها عربة محملة بالحقائب من كل الأشكال والألوان، كانت ترتدى «تاييرًا» أسود وطرحة سوداء ونظارة سوداء. ألقت بنفسها فى حضنى كطفلة تعيسة عاجزة عن فهم هذا الذى يحدث لها. حاولت تهدئتها لكننى بكيت حزنًا عليها وأسفًا على حظها الأعوج. ثم صافحت الدكتور فايز بتحفظ وامتنان، واندفعت ترمى بنفسها فى حضن حليمة أم السعد وتنخرطان معًا فى بكاء حار ملت على الدكتور فايز مندهشًا:

ـ «كيف علمت بالخبر؟!».

ـ «أنا كلمتها أمس فى التليفون!».

آه يا ربى لقد لمحت بشاعة الصدمة فى عينيها وهى ساندة رأسها على كتف حليمة ووقع بصرها على ولديها واقفين على بوابة الخلاء بغير اكتراث وفى منتهى البرود برغم وقوع عينيها فى عينى كل منهما على حدة. لكنها مع ذلك اصطنعت المفاجأة واندفعت تجرى نحو البوابة الكبيرة هاتفة كالغريق يستغيث فى طلب الإنقاذ:

ـ «زياد! إيمان! حبايبى!».

ارتمت فوقهما ؛ جذبتهما إليها بقوة عنيفة أحدثت فيهما ردّ فعل مضاد يشبه الفزع ؛ استسلم كل منهما لحضنها وقبلاتها ليس بدافع الشوق بقدر ما هو ترييح من الفزعة ؛ من جمود الدم فى وجهها أيقنت بأنها تشعر كما لو كانت تحتضن الوسائد. كان عبود فى انتظارها على الرصيف ؛ تركت الولدين وارتمت فى حضنه تبكى بحرقة ووجع شديد الإيلام. مشينا فى ميدان المطار ؛ عند السيارة البيجو الزرقاء توقفنا، فتح عبود الباب الخلفى ؛ ركبت خيرات وبجانبها ركبت حليمة، بحثنا عن زياد وإيمان فإذا بهما قد سبقا ووقفا بجوار سيارة الدكتور فايز. ذهب إليهما عبود ليأتى بهما، فقابلاه بالصراخ والعويل بصورة توشك أن تصير فضيحة. صاح الدكتور فايز :

ـ «سبهم يا عبود! لا فائدة! هى حالة ستزول!».

ثم مَيل على نافذة السيارة وقال لخيرات فى لطف ودماثة وكأنه مسئول عن شىء يستوجب الاعتذار :

ـ «على كل حال أنا آت إلى المعزى غداً بإذن الله! سأحاول إغراءهما بالمجىء معى!».

وجه خيرات مثل الكبدة تسبح فى دموع من الزيت المغلى :

ـ «وإذا لم يقتنعا؟!».

قلت لها :

ـ «ينتظران فى بيتى مع أمهما الثانية فايقة!».

صاح الدكتور فايز بجدية وقد احمر وجهه :

ـ «مؤقتًا حتى أعود. . . ما تبصليش يا مروان! بيتى من الآن هو بيتهما ولن يكون لهما بيت سواه! اسمع ما أقوله لك وافهمه جيدًا!!».

ـ «فاهم يا دكتور فايز! والله العظيم فاهم!».

ركبنا، انطلقت البيجو الزرقاء أولاً لكنها ما لبثت حتى توقفت؛ انفتح بابها الخلفى ونزلت حليمة أم السعد:

ـ «لا أقدر أن أغيب عنهما دقيقة واحدة!».

وأغلقت الباب واتجهت إلى سيارة الدكتور فايز فركبت بجواره فقال مبتسمًا:

ـ «عملت خير يا أم السعد! كنت متوقعا!».

انطلقت العربة الزرقاء، من ورائها سيارة الدكتور فايز، ومن ورائه سيارتى. بقينا طوال الطريق محافظين على المسافات التى تقربنا من بعضنا؛ عند كوبرى الفردوس توقفت العربة الزرقاء، فما لبث الدكتور فايز حتى توقف خلفها؛ وإلى أن لحقت بهما وتوقفت وراء الدكتور فايز كانت خيرات قد نزلت ومالت تخاطب عيالها من النافذة، وما كدت أفرمل وأنزل لأعرف ما جرى كانت خيرات قد عادت إلى العربة الزرقاء ومضت بها السيارة ومن ورائها استأنف الدكتور فايز زحفه فيما احتجزتنى إشارة المرور؛ بالكاد أتيح لى أن أرى العربة الزرقاء توغل فى البعد فى طريقها إلى المنصورة، بينما سيارة الدكتور فايز تمرق من تحت كوبرى الفردوس فى طريقها إلى صحراء المماليك.

تمت

المعادى ـ شارع النصر

صباح الثلاثاء ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٧